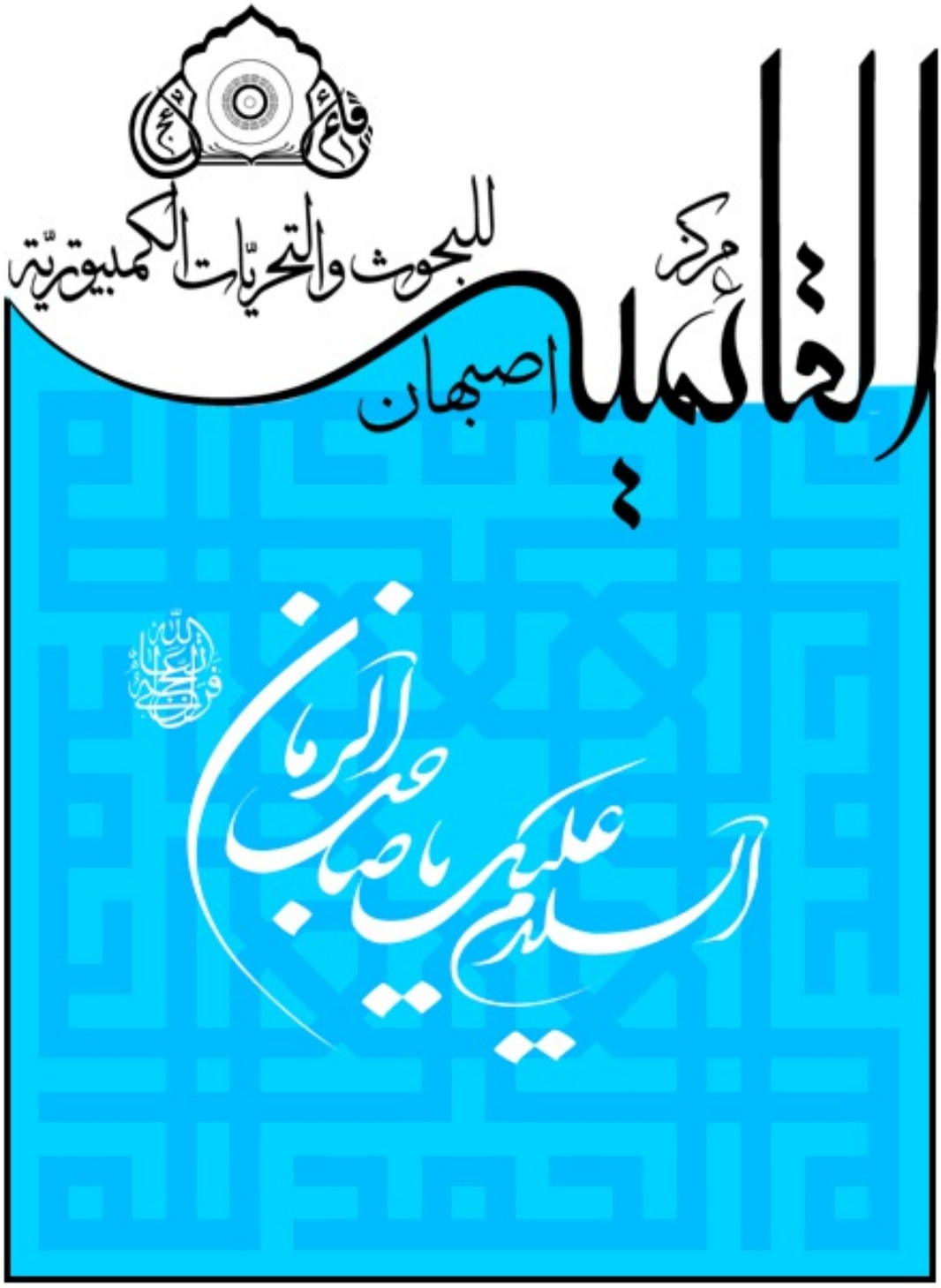

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب

وذكر مدينة لسان الدين بن الخطيب

للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

الجزء الأول

تحقيق

يوسف الشيخ محمد البقاعي

إشراف

مكتب البحوث والدراسات

في

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

كاتب:

مقرى، احمد بن محمد

نشرت فى الطباعة:

دارالفكر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب المجلد ۱ ----- ۱۳
اشارة ----- ۱۳
مقدمة الناشر المقری ----- ۱۳
نسبه: ----- ۱۳
مولده و نشأته: ----- ۱۳
حیاته و رحلاته. ----- ۱۴
أسلوب المقری و مکانته: ----- ۱۷
مؤلفات المقری: ----- ۱۷
کتاب نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، و ذکر وزیرها لسان الدین بن الخطیب ----- ۱۸
تحقیق الکتاب و شرحه: ----- ۱۹
وصف النسخ التی اعتمدنا علیها: ----- ۱۹
خطة التحقیق و الشرح ----- ۲۰
خطبة الکتاب ----- ۲۰
اشارة ----- ۲۰
[حدیث المؤلف عن وطنه و حنینه إلیه ۲۷] ----- ۲۶
و أردّد قول الذی سحر الألباب، ----- ۳۱
و قول المجد بن شمس الخلافة ----- ۳۱
و قول أبی طاهر الخطیب الموصلی: [الخفیف] ----- ۳۱
و قول بعضهم: [الطویل] ----- ۳۲
و قول الجرجانی: [الخفیف] ----- ۳۲
و قول الخطیب الحصکفی الشافعی: [البسیط] ----- ۳۲
[وصف أهوال البحر] ----- ۳۷

[حج المؤلف و زيارته المدينة و وصفه المشاهد المباركة] ۴۰
[عودة المؤلف إلى مصر و زيارته بين المقدس] ۴۸
[عودة المؤلف إلى مصر و خدمته العلم بالأزهر] ۵۰
[ثم زيارة إلى دمشق و وصفها] ۵۱
[وصف دمشق و ذكر محاسنها] ۵۴
[فضل دمشق] ۵۶
[اقتراح ابن شاهين على المؤلف تأليف كتاب عن لسان الدين بن الخطيب، و اعتذاره] ۵۷
[إصرار ابن شاهين و عدم قبوله عذر المؤلف] ۵۹
[وصف داريا] ۶۱
[المؤلف يصف موقف الوداع] ۶۲
[عودة المؤلف إلى مصر و شوقه إلى دمشق] ۶۹
[شروع المؤلف فى التصنيف، و رسالة من الشاهين يحثه على ذلک] ۷۰
[المؤلف يصف رسالة ابن شاهين] ۷۱
[مقتطفات من رسالة الشاهينى] ۷۲
[تصميم المؤلف على استئناف التصنيف و بدء التأليف] ۷۴
[تقدير المؤلف للسان الدين بن الخطيب] ۷۶
[تقدير المؤلف للسان الدين بن الخطيب، و مدحه النبى و الصحابة] ۷۷
[تقسيم الكتاب و تبويبه] ۷۸
[خاتمة المقدمة و ذم الدنيا] ۸۰
القسم الأول فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار المترعة الأكواب، و الأنباء المنتحية صوب الصواب، الرافلة من الإفادة فى سوابغ الأثواب، ۸۲
اشارة ۸۲
الباب الأوّل وصف الأندلس ۸۲
[أقوال فى مزايا الأندلس] ۸۲
[مساحة الأندلس و أبعادها و مناخها] ۸۳

[أول من استوطن الأندلس] ----- ۸۵
[غرائب ما أصيب بالأندلس عند الفتح الإسلامى] ----- ۸۶
[موقع الأندلس من الأقاليم] ----- ۸۶
[إشبان و الخصر عليه السلام] ----- ۸۷
[دخول عجم رومة و القوط الأندلس، و دخول النصرانية إليها] ----- ۸۷
[حكم القوط فى الأندلس و مناخها و خيراتها و معادنها] ----- ۸۸
[خواص طليطلة و بعض حاصلات الأندلس و معادنها، و وصف أهلها] ----- ۸۹
[الأندلسيون و الأمم المجاورة و نبذة عن خراج الأندلس] ----- ۸۹
[خبر ابن خلدون عن الأمم التى استوطنت الأندلس، و وصف غرناطة] ----- ۹۰
[غرناطة و أعمالها] ----- ۹۱
[شهرة غرناطة و سرقسطة و برجة] ----- ۹۱
[شهرة برجة و مالقة و وصف مالقة و أشبونة و قرطبة] ----- ۹۲
[نبذة من قرطبة و شهرتها] ----- ۹۳
[إشبيلية و إقليمها] ----- ۹۴
[باجة و جبل طارق] ----- ۹۵
[كورة طليطلة و ما اشتهرت به] ----- ۹۶
[مدينة المرية، و ما اشتهرت به] ----- ۹۶
[شنتره و خصائصها] ----- ۹۷
[الجزر البحرية بالأندلس] ----- ۹۸
[خطاب يتضمن المناظرة بين بلاد الأندلس] ----- ۹۹
[عود إلى ذكر غرناطة] ----- ۱۰۱
[ابن جزىّ يصف غرناطة] ----- ۱۰۲
[وصف قرية نارجة] ----- ۱۰۲
[وصف بلنسية] ----- ۱۰۳

[بعض أعمال بلنسية و بعض متفرجات إشبيلية] ۱۰۴
[موسى بن سعيد يعتذر عن مفارقة الأندلس] ۱۰۵
[وصف شريش و شلب و كورة اشكونية] ۱۰۵
[فى بطليوس و شاطبة] ۱۰۶
[كتاب لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه فى تفضيل الجهاد] ۱۰۷
[ابن تاشفين يصف الأندلس و يشبهها بالعقاب] ۱۰۸
[أبو بكر المخزومى الهجاء و الوزير أبو بكر بن سعيد] ۱۰۸
[أبو بكر المخزومى و الشاعرة نزهون الغرناطية] ۱۰۹
[عبد الوهاب بن الحسين الحاجب المغنى الشاعر] ۱۱۰
[بعض عجائب سرقسطة] ۱۱۱
[السمور بالأندلس] ۱۱۲
[بعض وحش الأندلس و حيوانها و طيورها] ۱۱۲
[ثمار الأندلس و معادنها] ۱۱۳
[بعض مصنوعات الأندلس] ۱۱۳
[الآلات الحربية و الآثار الأولية بالأندلس] ۱۱۴
[ابن سعيد يذكر بعض عجائب الأندلس] ۱۱۴
[وصف ابن سعيد للأندلس] ۱۱۵
[بيلتا طليطلة] ۱۱۶
[عود إلى ذكر إشبيلية] ۱۱۶
[ابن سعيد يقارن بين الأندلس و غيرها] ۱۱۷
[وصف ابن حوقل لرخاء الأندلس و ردّ ابن سعيد على ابن حوقل] ۱۱۸
[لمحة من تاريخ الحكم فى الأندلس منذ الفتح] ۱۱۸
[الوزارة فى الأندلس] ۱۲۰
[الكتابة، و الخراج فى الأندلس، القضاء، و الشرطة] ۱۲۰

[الحسبة فی الأندلس، الطواف باللیل، و التدین فی الأندلس] ----- ۱۲۱
[التسول، و العلوم و الآداب فی الأندلس] ----- ۱۲۱
[زیّ أهل الأندلس] ----- ۱۲۲
[نظافة الأندلسیین، و احتیاطهم، و تدبیرهم، و مروءاتهم] ----- ۱۲۳
[منهج کتاب المغرب لابن سعید] ----- ۱۲۳
[وصف بعض المؤرخین للأندلس] ----- ۱۲۴
[مقطعات فی وصف الأندلس] ----- ۱۲۴
[من خصائص الأندلس] ----- ۱۲۵
الباب الثانی فتح الأندلس ----- ۱۲۶
[فتح الأندلس و أسبابه] ----- ۱۲۶
[روایة ابن خلدون فی فتح الأندلس و بعض أمراؤها] ----- ۱۲۷
[ولاة الأمراء و أمراؤها] ----- ۱۲۸
[روایة الحمیدی للفتح] ----- ۱۳۰
[رجع إلی حدیث طارق بن زیاد] ----- ۱۳۰
[خبر بیت الحکمة الذی کان بالأندلس] ----- ۱۳۲
[حکایة ابنة ملک قادس و عمل الرحیّ و اتخاذ الطلسم] ----- ۱۳۲
[فتح لذریق بیت الحکمة، و ما وجد فیه] ----- ۱۳۳
[ابن حیان یتحدث عن فتح الأندلس و یذکر أمراءها] ----- ۱۳۴
[ملخص خبر الفتح من الکتاب الخزائنی] ----- ۱۳۵
[روایة الرازی فی شأن الفتح] ----- ۱۳۹
[روایة ابن حیان فی فتح طلیطلة] ----- ۱۴۱
[شأن أولاد غیطشة، و خبر سارة بنت ألمند القوطیة] ----- ۱۴۱
[بعض أخبار القوطیة سارة بنت ألمند] ----- ۱۴۲
[حسد موسی بن نصیر طارقا و اشتراکه فی فتح الأندلس] ----- ۱۴۳

[فتح موسى للأندلس، ثم نكبته، و مائدة سليمان] ----- ۱۴۴
[مائدة سليمان، ثم رجع إلى رواية ابن حيان فى الفتح] ----- ۱۴۴
[انتصارات موسى و ابنه عبد الأعلى] ----- ۱۴۵
[انتصارات موسى، ثم عودته إلى المشرق] ----- ۱۴۶
[اسماء من دخل الأندلس من الصحابة و التابعين] ----- ۱۴۶
[عودة موسى إلى الشام و تنكيل سليمان بن عبد الملک به و مقتل عبد العزيز بن موسى] ----- ۱۴۷
[المحة عن عبد الرحمن الداخل، و عود إلى قصة التنكيل بموسى بن نصير و نهايته، و شيء من صفاته] ----- ۱۴۸
[ذكر بعض من دخل الأندلس من التابعين] ----- ۱۵۱
[غنائم الأندلس، و الحديث عن مائدة سليمان] ----- ۱۵۱
[القبائل العربية التى نزحت إلى الأندلس و استوطنتها] ----- ۱۵۲
[أسماء من حكم الأندلس من العرب] ----- ۱۵۵
[الوزير أبو الحزم بن جهور] ----- ۱۵۶
[كتاب أبى مطرف بن عميرة لأبى جعفر بن أمية] ----- ۱۵۷
[كتاب أبى المطرف إلى سلطان أفريقية] ----- ۱۵۹
[من خطاب لأبى المطرف إلى بعض ذوى الألباب] ----- ۱۶۰
[رسالة من أبى المطرف إلى أبى الحسن الرعينى] ----- ۱۶۱
[رسالة أبى المطرف إلى صاحبين له] ----- ۱۶۱
[ترجمة أبى المطرف بن عميرة] ----- ۱۶۲
[رسالة لأبى المطرف] ----- ۱۶۴
[رسالة أبى المطرف إلى ابن هود] ----- ۱۶۴
[رسالة صاحب الأندلس إلى أحمد بن قلاوون بقلم لسان الدين بن الخطيب] ----- ۱۶۶
الباب الثالث الدولة الإسلامية فى الأندلس ----- ۱۶۸
اشارة ----- ۱۶۸
[عبد الرحمن الداخل] ----- ۱۶۸

[وصف أبی جعفر المنصور لعبد الرحمن الداخل] ----- ۱۶۹
[المنصور یبعث العلاء بن مغیث الیحصبی لیدعو للمنصور فینتصر علیه عبد الرحمن و یقتله] ----- ۱۷۰
[هرب عبد الرحمن من الشام و وصوله إلی الأندلس] ----- ۱۷۰
[هشام بن عبد الرحمن الداخل] ----- ۱۷۱
[الحکم بن هشام و حروبه و فتوحه و صفاته و اثاره فی الدولة] ----- ۱۷۳
[عبد الرحمن بن الحکم] ----- ۱۷۵
[محمد عبد الرحمن] ----- ۱۷۷
[ولایة المنذر بن محمد، ثم عبد اللّه بن محمد] ----- ۱۷۸
[عبد الرحمن الناصر] ----- ۱۷۹
[هدیة ابن شهید للناصر] ----- ۱۸۰
[غزوات الناصر و وفود دول النصرانیة علیه] ----- ۱۸۳
[ترجمة منذر بن سعید البلوطی (عن المغرب)] ----- ۱۸۶
[ترجمة منذر بن سعید (فی المطمح)] ----- ۱۸۸
[رجع لأخبار الناصر لدین اللّه] ----- ۱۸۸
و ممّا ینسب للناصر من الشعر، و قیل: لابنه الحکم، قوله ----- ۱۹۰
[الحکم المستنصر باللّه] ----- ۱۹۱
[صفات المستنصر، و غایته بالکتب و وفاته] ----- ۱۹۶
[ولایة هشام بن الحکم و تسلط ابن أبی عام] ----- ۱۹۷
[ترجمة المنصور بن أبی عامر من کلام ابن سعید] ----- ۱۹۸
[ترجمة الحاجب المصحفی (عن المطمح)] ----- ۲۰۰
[ترجمة ابن أبی عامر المنصور (عن المطمح)] ----- ۲۰۰
[أخبار فی سیرة المنصور] ----- ۲۰۲
[أمثلة من عدل المنصور بن أبی عامر] ----- ۲۰۳
[دهاء المنصور بن أبی عامر] ----- ۲۰۴

[غزو المنصور لمدينة شنت ياقب] ----- ۲۰۵
[أخبار المنصور (من كتاب الأزهار المنثورة)] ----- ۲۰۶
[عود إلى أخبار المنصور (من المطمح)] ----- ۲۰۸
[ولاية عبد الملک المظفر بن المنصور، ثم ولاية عبد الرحمن الناصر لدين اللّه] ----- ۲۰۹
[خلع هشام المؤيد و بيعة محمد بن هشام المهدى بالله] ----- ۲۱۰
[شعر للمستعين] ----- ۲۱۱
[ابنو حمود] ----- ۲۱۲
[خلافة المستظهر عبد الرحمن بن هشام الأموى] ----- ۲۱۴
[انقطاع الدولة الأموية و ظهور ملوک الطوائف] ----- ۲۱۵
[ابنو عباد، و بنو جهور و بنو ذى النون] ----- ۲۱۶
[من ملوک الطوائف بالأندلس بنو هود] ----- ۲۱۷
[من مشاهير ملوک الطوائف بنو الأفطس] ----- ۲۱۷
[يعقوب المنصور بن يوسف ملک الموحدين و غزو الأرک] ----- ۲۱۷
[بين صلاح الدين الأيوبى و يعقوب الموحدى و ابنه الناصر] ----- ۲۱۸
[دولة بنى الأحمر] ----- ۲۱۹
[شيخ الغزاة أيام بنى الأحمر] ----- ۲۲۱
فهرس الرسائل و الخطيب و الظهائر للجزء الأول من كتاب نفح الطيب ----- ۲۲۲
فهرس موضوعات الجزء الأول من كتاب نفح الطيب ----- ۲۲۲
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۲۲۹

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المجلد ۱

اشارة

نام كتاب: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

نويسنده: مقرى، احمد بن محمد

تاريخ وفات مؤلف: ۱۰۴۱ ه. ق

محقق / مصحح: بقاعى، يوسف

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ۱۰

ناشر: دار الفكر

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۱۹ ه. ق

مقدمة الناشر المقرى

نسبه:

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى العيش بن محمد، المقرى التّلمسانىّ المولد، نزيل فاس، ثم القاهرة.

مولده و نشأته:

ولد بمدينة تلمسان الجزائرية، و أصل أسرته من قرية مقّرة- بفتح الميم و تشديد القاف و فتحها و فتح الراء- و إليها ينتسب بعض علماء المغرب.

و قد تحدث المقرى عن مولده بمدينة تلمسان، و ذكر لنا أنها من أحاسن بلاد المغرب، و بين حال أسرته بتفصيل حين تحدث عن جده الأعلى أحمد المقرى فى كتابه نفح الطيب الذى نقدم له.

و يظهر أن أسرته انتقلت إلى تلمسان قبل ولادته بزمن بعيد، فإنه يقول فى النفح مشيرا إلى ذلك: «و بها ولدت أنا و أبى وجدى وجد جدى».

و قد قرأ و حصّل ببلده على عمه الشيخ الجليل العالم أبى عثمان سعيد بن أحمد المقرى مفتى تلمسان، و من جملة ما قرأ عليه القرآن الكريم، و صحيح البخارى، و روى عنه الكتب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۶

الستة بسنده عن أبى عبد اللّه التنسى، عن والده محمد بن عبد اللّه التنسى، عن عبد اللّه بن مرزوق، عن أبى حيان، عن أبى جعفر بن الزبير، عن أبى الربيع، عن القاضى عياض بأسانيده المذكورة فى كتابه «الشفا فى التعريف بحق المصطفى»، و درس أيضا الأدب و الفقه المالكى.

حياته و رحلاته.

ثم رحل إلى فاس رحلتين، كانت المرة الأولى سنة ۱۰۰۹ ه، و أمضى فيها بعض الوقت فى التحصيل و الدرس، و كانت الثانية سنة ۱۰۱۳ ه، و قد هيأت له الإقامة فى فاس التبحّر بالعلم و الاستزادة من التحصيل.

و لم يذكر لنا المقرى السبب الذى دعاه إلى ترك بلده و الانتقال إلى فاس حيث استقرّ به المقام، و مهما يكن من أمر فإنه مضى فى فاس يطلب العلم على شيوخها و يزيد من تحصيله و يلتقى أكبر العلماء فيها، و أخذ يشتغل بالفتوى و الخطابة، و أصبح من صدور العلماء المرموقين، و اتصل بالسلطان زيدان السعدى، و تولى الإمامة و الخطابة فى جامع القرويين. ثم تولى الإفتاء سنة ۱۰۲۷ ه.

و برغم هذه المكانة العالية التى حصّلها فإنه قرّر أن يترك المغرب فى أواخر سنة ۱۰۲۷ ه، و كعادته لم يذكر السبب الذى جعله يزمع على الرحلة، و كل ما قاله: «ثم ارتحلت بنيّة الحجاز، و جعلت إلى الحقيقة المجاز» فما السبب المباشر و الرئيس الذى حدا به إلى هجر هذه البلد التى وطأت له أسباب المجد، و رفعته إلى سنام السؤدد؟.

يقول الأستاذ محمد حجى متابعا السيد الجنحانى: «و كان خروج المقرى من فاس بسبب اتهامه بالميل إلى قبيلة شراكة (شراقة) فى فسادها و بغيها أيام السلطان محمد الشيخ السعدى، فارتحل إلى الشرق» و يمكن الاستنتاج- رغم أن المصادر لم تذكر شيئا مما أورده الأستاذ محمد حجى- أن ذلك قد كان، فقد كان المقرى عالما طارئا على فاس، و كانت قبيلة شراقة تلمسانية الموطن، و كانت تنصر عبد اللّه بن شيخ على أهل فاس، فلعل الحسد للمكانة التى بلغها المقرى عند هذا السلطان جعلت الكثيرين يكيلون التهم له و يزعمون أنه ضالع مع السلطان و قبيلة شراقة ضد الفاسيين، و هذه التهمة قد جعلت المؤلف يقرّر ترك فاس إلى المشرق.

و لقى المقرى فى مراكش صاحبها فأنشده متمثلا بقول ابن عبد العزيز الحضرمى:

محبتى تقتضى مقامى و حالتى تقتضى الرحيلا

هذان خصمان لست أقضى بينهما خوف أن أميلا

فلا يزالان فى خصام حتى أرى رأيك الجميلا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۷

فأجابه صاحب مراكش بقوله:

لا أوحش اللّه منك قوما تعودوا صنعك الجميلا

و ذكر المقرى أن أبا الحسن عليا الخزرجى الفاسى الشهير بالشاحى لما سمع بعزمه على الارتحال عن الوطن كتب إليه بما كتبه أبو جعفر أحمد بن خاتمة المغربى إلى بعض أشياخه و هو:

أشمس الغرب حقا ما سمعنا بأنك قد سئمت من الإقامه

و أنك قد عزمت على طلوع إلى شرق سموت به علامه

لقد زلزلت منا كل قلب بحق اللّه لا تقم القيامه

و يشير المقرى إلى سبب ارتحاله إشارة خفيفة فى مقدمة النفح قائلا: «إنه لما قضى الملك الذى ليس لعبيده فى أحكامه تعقب أو ردّ، و لا- محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء أو ردّ، برحلتى من بلادى، و نقلتى عن محل طارفى و تلادى بقطر المغرب الأقصى الذى تمت محاسنه، لو لا- أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصا، و طما به بحر الأهوال.. و ذلك أواخر رمضان من عام سبعة و عشرين بعد الألف، تاركا المنصب و الأهل و الوطن و الإلف».

و غادر مدينة فاس متوجها إلى المشرق، فوصل تطواف فى ذى القعدة من ذلك العام، و من تطواف ركب سفينة أوصلته إلى الاسكندرية، و منها إلى القاهرة فالحجاز بحرا، فوصل مكة المكرمة فى ذى القعدة من العام التالى، و اعتمر، و بقى بعد العمرة فى مكة

ينتظر الحج، و منها توجه إلى المدينة الشريفة لزيارة قبر الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم عاد إلى مصر فى محرم سنة ۱۰۲۹ ه.

و يظهر أنه لم يلق فى مصر ما كان يؤمل من طيب الإقامة و حسن الحفاوة و التقدير، و قد سئل عن مصر و حظه فيها فأجاب: قد دخلها قبلنا ابن الحاجب و أنشد فيها قوله:

يا أهل مصر وجدت أيديكم فى بذلها بالسخاء منقبضه

لما عدمت القرى بأرضكم أكلت كتبى كأننى أرضه

و أنشد لنفسه:

تركت رسوم عزّى فى بلادى و صرت بمصر منسىّ الرسوم

و نفسى عفتها بالذل فيها و قلت لها: عن العلياء صومى

ولى عزم كحدّ السيف ماض و لكنّ الليالى من خصومى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۸

ثم رحل لزيارة بيت المقدس فى شهر ربيع الأول سنة ۱۰۲۹ ه و أخذ يتردد إلى مكة و المدينة، حتى كان فى عام ۱۰۳۷ قد زار مكة خمس مرات و المدينة المنورة سبع مرات و أملى فيهما دروسا عديدة، كما أملى الحديث النبوى بجوار مقام الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم. و قد و فى هذا الجانب تفصيلا فى كتابه (نفح الطيب) فقال: «و حصلت لى المجاورة فيها (فى مكة) المسرات، و أمليت فيها على قصد التبرك دروسا عديدة، و اللّه يحيل أيام العمر بالعود إليها مديدة، و وفدت على طيبة المعظمة ميمما مناهجها السديدة سبع مرار، و أطفأت بالعود إليها ما بالأكباد الحرار، و استضأت بتلك الأنوار، و ألفت بحضرته صلّى اللّه عليه و سلّم بعض ما منّ اللّه به علىّ فى ذلك الجوار، و أمليت الحديث النبوى بمرأى منه عليه الصلاة و السلام و مسمع».

و رجع إلى مصر بعد حجته الخامسة فى سنة ۱۰۳۷ ه ثم رحل إلى القدس فى شهر رجب من ذلك العام، و أقام فيها خمسة و عشرين يوما، و ألقى عدة دروس بالمسجد الأقصى و الصخرة، و زار مقام إبراهيم الخليل عليه السلام و مزارات أخرى.

و فى منتصف شعبان عزم على التوجه إلى دمشق، و هناك تلقاه المغاربة و أنزلوه فى مكان لا يليق به، فأرسل إليه أحد أدباء دمشق البارزين أحمد بن شاهين مفتاح المدرسة الجقمقية، و كتب مع المفتاح هذه الأبيات:

كنف المقرى شيخى مقرّى و إليه من الزمان مفرّى

كنف مثل صدره فى اتساع و علوم كالبحر فى ضمن بحر

أى بدر قد أطلع الدهر منه ملأ الشرق نوره؟ أىّ بدر

أحمد سيدى و شيخى و ذخرى و سميّى و ذاك أشرف فخر

لو بغير الأقدام يسعى مشوق جئته زائرا على وجه شكرى

فأجابه المقرى بقوله:

أى نظم فى حسنه حار فكرى و تحلّى بدرّه صدر ذكرى

طائر الصيت لابن شاهين ينمى من بروض الندى له خير ذكر

أحمد الممتطين ذروة مجد لعوان من المعانى و بكر

حل مفتاح وصله باب وصل من معانى تعريفه دون نكر

يا بديع الزمان دم فى ازدياد بالعلا و ازدياد تجنيس شكرى

و راقت المقرى دمشق، فبقى فيها عدة أسابيع و أملى بها صحيح البخارى فى الجامع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۹

الأموى، و لم يتفق لغيره من العلماء الذين أمّوا دمشق ما اتفق له من الحظوة و الإقبال، و جرت بينه و بين علمائها و أدبائها مطارحات شتى، و كان أكثر أدبائها إقبالا عليه و تعظيما له و إعجابا به الأديب الكبير أحمد شاهين القبرصى الأصل.

و يصف لنا المحبّى إقبال الدمشقيين على المقرى بقوله:

«و أملى صحيح البخارى بالجامع تحت قبة النسر بعد صلاة الصبح، و لما كثر الناس بعد أيام خرج إلى صحن الجامع تجاه القبة المعروفة بالباعونية و حضره غالب أعيان علماء دمشق، و أما الطلبة فلم يتخلف منهم أحد، و كان يوم ختمه حافلا جدا، اجتمع فيه الألوف من الناس، و علت الأصوات بالبكاء، فنقلت حلقة الدرس إلى وسط الصحن إلى الباب الذى يوضع فيه العلم النبوى فى الجمعات من رجب و شعبان و رمضان، و أتى له بكرسىّ الوعظ، فصعد عليه، و تكلم بكلام فى العقائد و الحديث لم يسمع نظيره قطّ، و تكلم على ترجمة البخارى، و أنشد له بيتين، و أفاد أنه ليس للبخارى غيرهما، و هما:

اغتنم فى الفراغ فضل ركوع فعسى أن يكون موتك بغته

كم صحيح قد مات قبل سقيم ذهبت نفسه النفيسة فلته

و نزل عن الكرسىّ، فازدحم الناس على تقبيل يده، و كان ذلك نهار الأربعاء سابع عشر شهر رمضان سنة سبع و ثلاثين و ألف».

و قد تركت هذه الزيارة لدمشق فى نفس المقرى أجمل الأثر و أبقاه فكان يكثر من مدحها، و من محاسن شعره فيها قوله:

محاسن الشام جلّت عن أن تقاس بحدّ

لو لا حمى الشرع قلنا و لم نقف عند حدّ

كأنها معجزات مقرونة بالتحدّى

و قوله:

قال لى: ما تقول فى الشام حبر شام من بارق العلا ما شامه

قلت: ما ذا أقول فى وصف أرض هى فى جنة المحاسن شامه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۰

و قوله:

قل لمن رام النوى عن وطن قولة ليس بها من حرج

فرّج الهمّ بسكنى جلّق إن فى جلّق باب الفرج

و له غير هذه الأبيات الكثير من المقطوعات الشعرية الدالّة على حبه لها و إعجابه بأهلها، كما أن له الكثير من النثر الدالّ على ذلك و منه قوله:

«لو تعرضت لأسمائهم- أسماء أهلها- و حلاهم أدام اللّه تعالى سؤددهم و علاهم، لضاق عن ذلك النطاق، و كان من شبه التكليف بما لا يطاق، فليت شعرى بأى أسلوب أؤدى بعض حقهم المطلوب، أم بأى لسان أثنى على مزاياهم الحسان، و ما عسى أن أقول فى قوم نسقوا الفضائل ولاء، و تعاطوا أكواب المحامد ملاء، و سحبوا من المجد مطارف و ملاء، و حازوا المكارم، و بذوا الموادد و المصارم، سؤددا و علاء، فهم الذين نوّهوا بقدرى الخامل، و ظنوا مع نقصى أن بحر معرفتى وافر كامل حسبما اقتضاه طبعهم العالى».

و مما زاده تعلقا بالشام أنها ذكرته ببلاده التى ارتحل عنها مرغما و هو يقول: «و قد تذكرت بلادى النائية بذلك المرأى الشامى الذى يبهر رائيه، فما شئت من أنهار ذات انسجام، و أزهار متوجة للأرواح، مروحة للنفوس بعاطر الأرواح، و حدائق تغشى أنوارها الأحداق، و جنان أفنانها فى الحسن ذوات أفنان.. و عند رؤيتى لتلك الأقطار الجليلة الأوصاف، العظيمة الأخطار، تفاءلت بالعودة إلى أوطان لى بها أوطار، إذ التشابه بينهما قريب فى الأنهار و الأزهار ذات العرف المعطار، و كنت قبل حلولى بالبقاع الشامية مولعا بالوطن لا سواه، فصار القلب بعد ذلك مقسما بهواه، و محاسن الشام، و أهله طويلة عريضة، و هو مقر الأولياء و الأنبياء، و لا يجهل فضله إلا الأغمار

الأغبياء».

و عرج فى عودته إلى مصر من الشام على غزة، فنزل فيها ضيفا على الشيخ غصين، و توسّط مع أمير غزة فى بناء مدرسة لابن الشيخ غصين، فكان له ما أراد.

ثم مضى إلى مصر، و أكب على التأليف، و لكن جو مصر لم يرقه، و وجد الحسد و النفاق غالبين على أهلها، بينما الآداب تجارة ليس لها بسوقها نفاق، فزار دمشق ثانية فى سنة ۱۰۴۰ ه كما يروى صاحب خلاصة الأثر، و لقى من الإكرام مثل ما لقيه فى قدمته الأولى، و عاد إلى مصر، و استقر بها مدة يسيرة، ثم طلق زوجته الوفائية و اعتزم العودة إلى دمشق للاستقرار بها فعاجلته المنية فى جمادى الآخرة عام ۱۰۴۱ ه و دفن رحمه اللّه بمقبرة المجاورين.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۱

أسلوب المقرى و مكانته:

المقرى إضافة إلى صبره و جلده على التأليف و التنسيق، و علاوة على حافظة قادرة لديه، و ذكاء فذّ، شاعر مجيد، قد لا يرتفع شعره إلى مستوى شعر فحول الشعراء، و لكنه لا ينزل إلى الحضيض، فهو إن لم يكن سمينا فليس بالغثّ الركيك.

أما نثره فيمتاز بإشراق الديباجة، و متانة المبنى، و القدرة على التصرف فى استعمال اللفظ.

و قد عرف له قدره و مكانته علماء عصره و ما بعد عصره. فالمحبّى صاحب خلاصة الأثر يقول عنه: «حافظ المغرب، لم ير نظيره فى جودة القريحة و صفاء الذهن و قوة البديهة، و كان آية باهرة فى علم الكلام و التفسير و الحديث، و معجزا باهرا فى الأدب و المحاضرات، و له المؤلفات الشائعة». و الشهاب الخفاجى فى «ريحانة الألباء و زهرة الحياة الدنيا» يقول عنه:

«فاضل لغرّ المناقب مشرق، و بدر لعلو همته سار من المغرب للمشرق، و هو رفيق السداد، و بيت مجده منتظم الأسباب ثابت الأوتاد ...و هو لفقه مالك أكرم سيد مالك.. أما الشعر فهو أصمعىّ باديته و حسّان فصاحته».

مؤلفات المقرى:

لقد ترك المقرى لنا عددا كبيرا من المؤلفات تمتاز بصفاء العبارة و نقاء الديباجة و وضوح المعنى و إشراقه، و بالاستطراد الذى جعل النقاد يعدونه جاحظ المغرب، و هذه بعض أسماء كتبه مرتبة على أحرف الهجاء:

۱- إتحاف المغرم المغرى فى شرح السنوسية الصغرى، و هو تكميل لشرح السنوسية فى علم التوحيد.

۲- أزهار الرياض فى أخبار عياض، و هو أشبه كتبه بكتاب نفح الطيب الذى نقدم له و نحققه. و قد ألّفه أثناء إقامته بفاس سنة ۱۰۱۳- ۱۰۲۷، و قد طبع منه ثلاثة أجزاء بتحقيق الأساتذة مصطفى السقا و إبراهيم الأبيارى و عبد الحفيظ الشلبى، و لم يكمل العمل حتى الآن.

۳- أزهار الكمامة. ذكره صاحب خلاصة الأثر، و لم نعثر عليه، و لا نعلم عنه إلا ما ذكره صاحب خلاصة الأثر فحسب.

۴- إضاءة الدجنة فى عقائد أهل السنة، و هو منظومة بدأ تأليفها أثناء زيارته للحجاز سنة ۱۰۲۷ و درسها فى الحرمين الشريفين، و أتمها فى القاهرة سنة ۱۰۳۶.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۲

۵- حاشية على شرح أم البراهين للسنوسى.

۶- البدأة و النشأة: ذكره فى الخلاصة: و قال: «كله أدب و نظم».

۷- الدر الثمين فى أسماء الهادى الأمين (ذكره فى اليواقيت).

۸- روض الآس، العاطر الأنفاس فی ذکر من لقیته من علماء مراکش و فاس. ألّفه حوالی ۱۰۱۱- ۱۰۱۲ لیقدمه إلی المنصور أحمد الذهبی. و قد طبع الکتاب بالمطبعة الملکیة بالرباط عام ۱۹۶۴ بتحقیق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور.

۹- عرف النشق فی أخبار دمشق: ذکره المحبی و الیواقیت، و لم نجده، و لعله کان مشروعا لم یتم.

۱۰- الغث و السمین، و الرث و الثمین: ذکره فی الیواقیت.

۱۱- فتح المتعال فی مدح النعال، و هو کتاب صنفه فی وصف نعال الرسول الکریم صلّی اللّه علیه و سلّم.

۱۲- قطف المهتصر فی شرح المختصر، و هو شرح علی حاشیة مختصر خلیل. ذکره المحبی.

۱۳- أراجیز منها: «أزهار الکمامة فی شرح العمامة» (مخطوط).

۱۴- رجز «نیل المرام المغتبط لطالب المخمس الخالی الوسط» (مخطوط).

۱۵- حسن الثنا فی العفو عمن جنی (طبع بمصر).

۱۶- أنواء النسیان فی أبناء تلمسان (ذکره فی کشف الظنون).

۱۷- الجمان فی أخبار الزمان (ذکره فی کشف الظنون).

۱۸- و أخیرا کتاب نفح الطیب.

کتاب نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، و ذکر وزیرها لسان الدین بن الخطیب

قدم المقری لکتابه هذا بمقدمة وافیة ذکر فیها أسباب تألیفه الکتاب، فقال: «و کنا فی خلال الإقامة بدمشق المحوطة، و أثناء التأمل فی محاسن الجامع و المنازل و القصور و الغوطة، کثیرا ما ننظم فی سلک المذاکرة درر الأخبار الملقوطة، و نتفیأ من ظلال التبیان مع أولئک الأعیان فی مجالس مغبوطة، نتجاذب فیها أهداب الآداب، و نشرب من سلسال و نتهادی لباب الألباب، و نمد بساط الانبساط، و نسدل أطناب الإطناب! و نقضی أوطار الأقطار، و نستدعی

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۱، ص: ۱۳

أعلام الأعلام، فینجرّ بنا الکلام، و الحدیث شجون، و بالتفنن یبلغ المستفیدون ما یرجون إلی ذکر البلاد الأندلسیة، و وصف ریاضها السندسیة التی هی بالحسن منوطة.. فصرت أورد من بدائع بلغائها ما یجری علی لسانی، و أسرد من کلام وزیرها لسان الدین بن الخطیب ما تثیره المناسبة و تقتضیه من النظم الجزل، و الإنشاء الذی یدهش به ذاکرة الألباب، و تعرفه فی فنون البلاغة حالی الولایة و العزل، إذ هو فارس النظم و النثر فی ذلک العصر، فلما تکرر ذلک غیر مرة علی أسماعهم لهجوا به دون غیره حتی صار کأنه کلمة إجماعهم، و علق بقلوبهم، و أضحی منتهی مطلوبهم».

ثم ذکر فی المقدمة أسباب إقدامه علی تألیف الکتاب، و لعل أهمها إصرار المولی أحمد الشاهینی علی تألیف هذا الکتاب فی بدیع ما أنتجته قریحة لسان الدین بن الخطیب، و لکن المؤلف اعتذر و قدم بین یدی اعتذاره الأسباب، غیر أن الشاهینی أصر علی طلبه، و لم یقبل منه عذرا حتی وعد بالعمل علی التألیف.

و بعد أن وصل المقری إلی القاهرة و استقر بمصر وضع تصمیم الکتاب و کتب منه نبذة، غیر أن أحوال الدهر و تقلباته جعلته یضرب عن إکمال ما بدأ، لکن الشاهینی عاد یذکره من جدید بما وعد، و یستنجز وعده راجیا إکماله مما شجعه علی العودة إلی إتمام الکتاب. و حدث له حین الشروع بالتألیف عزم علی زیادة ذکر الأندلس جملة قبل الحدیث عن لسان الدین، و ساعده علی ذلک افتتانه بها حتی لیظن قارىء النفح أنه أندلسی الأصل و المولد و النشأة، إضافة إلی سبق اهتمامه بالأدب و التاریخ الأندلسیین، و اقتنائه فی المغرب کثیرا من هذه الکتب، و قد ذکر ذلک فقال: «و لو حضرنی ما خلفته مما جمعت فی ذلک الغرض و ألفته لقرّت به عیون و سرّت به ألباب». و لعل هذه النقطة بالذات تجعلنا نرجح أن زیارته دمشق و طلب الشاهینی منه تألیف کتاب عن لسان الدین بن

الخطيب لم يكونا إلا إزالة الستار عن أشياء فى ذهن أديبنا، و أنه كان فى ذهنه، و منذ زمن بعيد، أن يكتب فى هذا الموضوع، و لكن كانت تؤخره ظروف و أحوال، حتى كان القرار النهائى بعد زيارة دمشق.

و الجدير بالذكر هنا أن المقرى لم يكن يهدف من تأليف الكتاب ربحا ماديا، أو مصلحة عاجلة «لم يكن جمعى- علم اللّه- هذا التأليف لرفد استهديه، أو عرض نائل أستجديه، بل لحق ودّ أؤديه، و دين وعد أقدمه و أبديه، و تلبية داع أحييه و أفديه».

و يتحدث المقرى عن تنسيق الكتاب فيقول: «بعد أن ضمنت تمام هذا التصنيف، و أمعنت النظر فيما حصل التقريظ لسامعه و التشنيف قسمته قسمين: القسم الأول فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار. و القسم الثانى فى التعريف بلسان الدين بن الخطيب».

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۴

و الحقيقة أننا لا بد من الاعتراف للمؤلف التواضع بقيمة هذا الكتاب، فهو رغم استطراداته الكثيرة و انتقاله من موضوع إلى آخر، و عودته مرات إلى موضوع سبق له بحثه، قادر على تصوير الحياة السياسية و الاجتماعية و الأدبية بالأندلس فجاء كتابه شافيا فى موضوعه، منتشلا من براثن الضياع كثيرا من المادة التى لو لاه لضاعت، و لقد ساعد على ذلك هذا الطابع الموسوعى الذى اتخذه الكتاب، فكان مغنيا عن عشرات الكتب.

تحقيق الكتاب و شرحه:

يعتبر نفح الطيب أقدم الكتب الأندلسية التى رأت النور و عرفتها المطبعة العربية، و يعد مصدرا لأكثر ما عرفه المشارقة عن الأندلس، و هذا ما حدا بنا إلى إعادة تحقيقه رغم أن الكتاب قد طبع طبعات متعددة لا- تخلو من دقة و عناية إلا أننا حاولنا أن نستفيد من اجتهادات السابقين، و ضبط الكتاب ضبطا دقيقا بحيث تكون هذه الطبعة الجديدة قريبة من الكمال، ترضى المقرى، رحمه اللّه.

إضافة إلى أننا وجدنا أن بعض الطبعات و التحقيقات قد أغفلت شرح كثير من الكلمات التى يجب شرحها ليتسنى لمن يريد الإفادة من الكتاب أن يصل إلى بغيته دون كثير عناء، كذلك فإن وجود طبعات متعددة للكتاب الواحد لا ينقص من قيمته، و إخراج طبعة جديدة يعتبر بعثا جديدا للكتاب بحلة جديدة و إغناء للمكتبة العربية بهذا التراث الخالد.

و دار الفكر التى حرصت منذ تأسيسها على تعميم هذا التراث و توفيره للقارىء العربى بأبسط السبل تقدم اليوم هذه الموسوعة، نفح الطيب بطبعة جديدة و تحقيق جديد.

فقد أوكلنا للأستاذ يوسف الشيخ محمد البقاعى النهوض بهذا العمل الشاقّ و الدقيق فحمل الأمانة و أداها بجلد و صبر و مسئولية و قام بتحقيق الكتاب، و ضبط ما يحتاج إلى الضبط منه، و التعريف بما رأى التعريف به من أعلام رجالاته و بلدانه، و شرح غريب كلماته. و قد اعتمد فى تحقيقه و شرحه، على جميع الطبعات التى ظهرت للكتاب حتى يومنا هذا. و بعد أن تأكّد أن محققى الكتاب قد بذلوا كل جهد يشكرون عليه.

وصف النسخ التى اعتمدنا عليها:

۱- طبعة بولاق فى عام ۱۲۷۹ ه، و هى طبعة جيدة إلا أنها لا تخلو من تصحيف و قد اعتمدت للمقارنة و رمزنا إليها بحرف ج.

۲- طبعة ليدن عام ۱۸۵۵ م هى طبعة جيدة تولّاها بالعناية المستشرقون دوزى و دوجا و كريل و رايت. و قد اعتمد هؤلاء على نسخ خطية توفرت لهم من لندن و باريس و أكسفورد و برلين و بطرسبرج و كوبنهاجن. و مع أن هذه الطبعة لم تشمل إلا القسم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۵

الأول من النفح إلا أنه يمكن الاعتماد عليها فى المقارنة و التصويب، و ذلك لأن محققيها عملوا ما فى وسعهم فى سبيل الوصول إلى الأصوب، و قد اعتمدناها فى المقارنة و رمزنا إليها بحرف ه.

۳- الطبعة التى حققها المرحوم محيى الدين عبد الحميد، و هى طبعة أنيقة خالية إلى حد كبير من الأخطاء، و مقارنة على النسخ المطبوعة السابقة. و قد رمزنا إليها بحرف «أ» و اعتمدناها أساسا، إلا ما وجدنا أن الأستاذ محيى الدين رحمه اللّه قد أخفق فيه فاعتمدنا بقية النسخ لتصحيح ما وقع فى «أ» من خطأ.

۴- طبعة صادرة بتحقيق الدكتور إحسان عباس و هى طبعة حققت بشكل علمى، و استفاد المحقق من طبعات الكتاب السابقة، و من مخطوطات متعددة مما يجعلها أقرب الطبعات للصواب. إلا أن المحقق استغنى عن شرح الكلمات، و أشار فى مقدمته إلى ذلك. و قد رمزنا لهذه الطبعة بحرف «ب» و نظرا إلى أن هذه الطبعات رغم الميزات التى لكل واحدة منها، و رغم أنه لا بد أن نجزل الشكر لجميع من عمل بها، و قدم لهذه الأمة جهوده و سهره و ضناه، رغم ذلك فإن هذه الطبعات قد جاءت كل واحدة تخلو من شىء ينبغى أن يوجد فيها ليستفيد منها القارئ كما الباحث و الدارس.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۶

خطة التحقيق و الشرح

- شكلنا الكتاب شكلا يكاد يكون كاملا ليتسنى للقارىء فهم النصوص فهما تاما.

- خلصنا الكتاب من الأخطاء الناتجة عن التصحيف و التحريف.

- شرحنا المفردات الواجبة الشرح ليستطيع أى قارىء الإفادة من الكتاب و لا سيما أن المقرى رحمه اللّه من الكلمات الغريبة فى كثير من الأحيان مما يجعل قراءته دون شرح مفرداته صعبة و على وجه الخصوص المفردات الواردة فى الشعر.

- وضعنا ملخص محتوى كل صفحة من الكتاب برأسها و بذلك نبهنا القارئ إلى استطرادات المؤلف و انتقالاته من موضوع إلى آخر، و يسّرنا عليه إيجاد الموضوع الذى يحتاجه من الكتاب. و بهذا تكون هذه الملخصات- الترويسات- مساعدة للفهارس.

- أعددنا فهرسا للأعلام و الأنساب و الأماكن الواردة فى الكتاب، و كذلك للقوافى و التنويهات و الرسائل و جعلنا كل ذلك فى مجلد خاص.

- هذه الطبعة الجديدة من الكتاب- نفح الطيب- نضعها بين أيدى القراء فى تسعة مجلدات غير مدّعين الكمال آملين أن يجدوا فيها ما يتوخون و يبتغون، و الحمد للّه و نسأل اللّه التوفيق.

بيروت فى يوم الاثنين السابع من رجب ۱۴۱۷ ه الموافق الثامن عشر من شهر تشرين الثانى ۱۹۹۶ م

الناشر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۷

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

خطبة الكتاب

اشارة

يقول العبد الفقير، الذليل المضطرّ الحقير، من هو من صالح الأعمال عرىّ:

أحمد بن محمد الشهير بالمقّرىّ، المغربىّ المالكىّ الأشعرىّ، أصلح اللّه تعالى حاله، و جعل فى مرضاته حلّه و ترحاله! و محا بغيث الطّاعة و الرّضوان أمحاله! و أنجح ببلوغ آماله انتحاءه و انتحاله:

أحمد من عرّف من حلى الأمصار و على الأعيان على تداول الأعصار و تطاول الأحيان، ما فيه ذكرى لأولى الأبصار و إرشاد إلى

معرفة الدّيان، و اعتبار بأخبار راع وصفها أو راق، و شرّف من صرف المطامح و المطامع، إلى تفصيل ما أفاد لسان الدين من كلم جوامع، و تحصيل ما أجاد من حكم بوالغ سحب بلاغتها هوامع، و اقتناء ذخائر المهتدين التى تشنّفت بدررها اللوامع الآذان و المسامع، من كل منحطّ عن رتبة البراعة أو راق، حتى توّج الخطيب المجيد رؤوس المنابر بفرائد الكلام، و حلّى الكاتب الأديب المجيد صدور المزابر من فوائد الأعلام، و كحل الحكيم الطبيب الأريب المفيد من إثمد المحابر بمراود الأقلام، عيون أوراق.

و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له الذى ابتدأ الخلق من غير مثال وبرا، و قسّم العباد إلى حاضر و باد و ظاهر و خامل و قاصر و كامل تشير إليه بالأنامل أيدى الكبرا، و أبدى فى اختلاف ذواتهم و أعراضهم و تباين أدواتهم و أغراضهم و تغاير ألسنتهم و أمكنتهم و أزمنتهم و ألوانهم و أكوانهم و مناصبهم و مناسبهم عبرا، و جعل الدنيا لمن أتيح صغرا أو كبرا، و لبس منهم مسوحا أو حبرا، و أخلد إلى الأرض أو صعد منبرا، جسرا إلى الآخرة و معبرا،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۸

و حكم- و هو الفاعل المختار- على الجميع بالموت فكان لمبتدئهم خبرا، فيا له من داء أعيا كلّ معالج أو راق.

فسبحانه من إله انفرد بوجوب القدم و البقا، و اختصّ بفضله من شاء فارتقى، و عمّ تعالى ذوى السعادة و الشّقا، بالحدوث و الفنا، و أذاق من فراق الدنيا كل من فيها بلا ثنيا فمن وفّق فنفى عن جفنه و سنا، أو خذل فجرّ فى ميدان الاغترار رسنا، و زين له عياذا بالله سوء عمله فرآه حسنا، طعم شعوب المرّ الجنى، فلم يغن منه عن ذوى الغنى و الغنا، و أهل السناء و السّنا من استظهروا به من أرباب الصّوارم و القنا، و أصحاب النظم و النثر و الجدال و الفخر و المدح و الثنا، فأولئك ألقوا السّلاح مذعنين، مستبصرين موقنين، إذ جاء الحق و زهق الباطل و ولى الامترا و هؤلاء تركوا الاصطلاح معلنين، عالمين أنهم لم يكونوا فى التمويه محسنين، و كيف لا وقد اضمحلّ الغرور و الاجترا، و ذهب و اللّه الجور و الافتراء، و بدّل مذق الإطراء بصدق الإطراق.

و أشكره جلّ و علا على أن علّم بالقلم ما لم نعلم، و نبّه بآثاره الدالّة على اقتداره إلى سلوك الطريق الأقوم، الواضح المعلم، و أرشد من أشرق فكره و أضاء، إلى التفويض لأحكام القضا، و من ذا يردّ ما أمضى أو ينقض ما أبرم، و التسليم على كل حال أسلم، و أمر جلّ اسمه بالتّدبّر فى أنباء من مضى، و النظر فى عواقب أحوال الذين زال أمرهم و انقضى، من صنوف الأمم، و وبّخ من دجا قلبه بالإعراض عن ذلك و أظلم، و شتّان ما بين اللاهى و المتذكر، و الساهى و المتفكر، و الناجى و الهالك المتحيّر، و الداجى الحالك و المشرق النّير، و ما يستوى الظّلّ و الحرور، و الحزن و السّرور، و الظلمات و النور، ذو البهجة و الإشراق.

و أصلى أزكى الصلاة و السلام، هديّة لحضرة سيد الأنام، و لبنة التمام، من زويت له

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۹

من الأرض المغارب و المشارق، و تمّ به نظام أنبياء اللّه و رسله العظام، و أزاح نوره الضلال و الظلام، حتى أضاءت بوسمه المساجد و ازدانت باسمه المهارق، و ألقى الموفق الموافق لدعوته بيد الاستسلام، و ذلك شأن ذوى العقول الراجحة و الأحلام، غير خائف من عتب و لا مترقب لملام، فأمن من الطوارىء و الطوارق، و تمت كلمة الإسلام الذى اتّضح برهانه لذى بصر و بصيرة لا يحتاج إلى زيادة الإعلام، و علت سيوف توحيد الملك العلّام، من المعاند المفارق المفارق و خضبتها بحناء النجيع الرقراق: النبىّ الأمّىّ الأمين، الداعى جميع العالمين، إلى سلوك منهاج ما له من هاج ذى أضواء شوارق، سيد الرّسل الغرّ الميامين، ملجأ الأمة، جعلنا اللّه ممن نجا باللّجإ إليه آمين، الذى أنزل عليه القرآن، هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان، و انشقّ له الزبرقان و نبع الماء من بين أصابعه زيادة فى الإيقان، و سلمت عليه الأحجار، و انقادت لأمره الأشجار، متفيّئة ظلاله الشريفة و خطّت فى الأرض أسطرا مبدعة الإتقان، إلى غير ذلك من معجزاته الخوارق، فهو صاحب الدعوة الجامعة، و البراهين اللّامعة، و الأدلّة التى سقت الشجرة الطيبة غيوثها النافعة، الصّيّبة الهامية الهامعة، الصادقة البوارق. فأثمرت النجاة و الفوز و الفلاح و أورقت بالهدى أحسن إيراق، أسنى رسول بعث إلى الأرض و أعظمهم جلالة، و أكثرهم تابعا فى الطول منها و العرض، و لم لا وقد ظهر به الحقّ لمن أمّه مسترشدا و جلا له؟ و أسمى من جاء

بتبيين السّنّة و الفرض و أعمّهم دلالة، منقذ البرايا فى الدّنيا و يوم العرض، الآخذ بحجزهم عن النّار و الضلالة، الداعى إلى تقديم الخير و حسن القرض، الحريص على هداية الخلق، المبلّغ لهم أحكام الحق من غير ضجر و لا ملالة، ذو الفضل العظيم الذى لم يختلف فيه من أهل العقول اثنان، و المجد الصّميم الثابت الأصول الباسق الأفنان، المنتقى من محتد معدّ بن عدنان، المنتخب من خير عنصر و أطهر سلالة، شفيعنا و ملاذنا و عصمتنا و معاذنا و ثمالنا الذى نجحت به آمالنا، و زكت أقوالنا و أعمالنا، و وسيلتنا الكبرى، و عمدتنا العظمى فى الأولى و الأخرى، و كنزنا الذى أعددناه لإزاحة الغموم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۰

ذخرا، و غيثنا و غوثنا و سيّدنا و نبيّنا و مولانا محمد الطيب المنابت و الأعراق.

صلّى اللّه عليه و سلّم، و وجّه وفود التعظيم إليه، من مفرد فى جماله صار لجمع الأنبياء تماما، و فذّ فى كماله تقدّم فى حضرة التقديس التى أسست على التشريف أعظم تأسيس فصلّى بالمرسلين إماما، و صدر تحلّى بجميل الأوصاف، كالوفاء و العفاف، و الصدق و الإنصاف، فزكا فى أعماله، و بلّغ الراجى منتهى آماله، و لم يخلف وعدا و لم يخفر ذماما، و سيّد كسى حلل العصمة، من كلّ مخالفة و ذنب و وصمة، فلم يصرف لغير طاعة مولاه، الذى أولاه من التفضيل ما أولاه اهتبالا و اهتماما.

و على آله و عترته، الفائزين بأثرته، أنصار الدين، و المهاجرين المهتدين، و أشياعه و ذريته، الطالعين نجوما فى سماء شهرته، و أتباعهم القائمين بحقوق نصرته، أرباب العقل الرّصين، الفاتحين بسيوف دعوته أبواب المعقل الحصين، حتى بلغت أحكام ملته، و أعلام بعثته، من بالأندلس و الصّين، فضلا عن الشأم و العراق.

و رضى اللّه تعالى عن علماء أمّته المصنّفين فى جميع العلوم و الفنون، و عظماء سنته الموفين للطلاب بالآراب، المحققين لهم الظنون، و حكماء شرعته المتبصرين بحدوث من مرّت عليه الأيام و الشّهور، و كرّت عليه الآناء و الدهور و الأعوام و السنون، المتدبرين فى عواقب من كان بهذه البسيطة من السكان المتذكرين على قدر الإمكان بمن طحنته رحى المنون، من أملاك العصور الخالية، و ملّاك القصور العالية، و ذوى الأحوال التى هى بسلوك الاختلاف حالية، من بصير و أعمى، و فقير و ذى نعمى، و مختال تردّى بكبريائه، و مختال على ما بأيدى الناس بسمعته و ريائه، و عاقل أحسن العمل، و غافل افتتن بالأمل، و كارع فى حياض الشريعة، و راتع برياض الآداب المريعة، و ذى ورع سدّ عمّا رابه الذريعة، و أخى طمع فى أن يدرك آرابه من الدنيا الوشيكة الزوال السريعة، و مقتبس من نبراس الرواية، و ملتبس بأدناس الغواية، و شاعر هام فى كل واد، و قال ما لم يفعل، فكان للغاوين من الروّاد، و جاهل عمر الخراب، و خدع بالسّراب، عن أعذب الشّراب، و محقق علم أنه إذا جاء القدر عمى البصر ممن كان أحذر من غراب، و موفق تيقن أن غير اللّه فإن، و كل الذى فوق التراب تراب،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۱

و من متخلّق متجرّد تصوّف، و متعلّق متفرّد تشوّق إلى ما فيه رضا الربّ و تشوّف، و ناه ذكّر بأيام اللّه، و وعظ و خوّف، ولاه اغترّ بالباطل، فهو بالحق مماطل، و طالما أخره و سوّف، و أبعد الانتجاع، ثم أوى من باطنه إلى بيت قعيدته لكاع نفس أمّارة بعدما طوّف، و من مادح نظم الآلاء نظم اللآل، و كادح طمس لألاء العز بظلمة ذلّ السؤال، فجعل القصائد مصايد، و الرسائل وسائل، و المقطعات مرقعات، فآل أمره إلى ما آل، و من مخبر بما سمع و رأى، حين اغترب عن مكانه و نأى، أو أقام فى أوطانه فبلغ ما قدّر و وأى و من مجازف لا يفرق بين الغثّ و السمين و الإمرار و الإحلاء، و عارف ثقة أمين نظم درّ الصدف الثمين فى أسلاك الكتابة و الإملاء، و عاشق خنساء فكره ذات الصّدار من الشجون و الشعار تبكى على صخر قلب المحبوب، و تذكره كلما طلعت شمس أو كان للصّبا هبوب، فتأتى بما يطفى وقود الجوى المشبوب من بحار الأشعار، و ليلى شوقه العفيفة عن العار ترفل فى ثوب من التصبّر معار، و قيس توقه من ثوب السلوّ عار، قد تولّه و اشتاق خصوصا عند انتشاق البشام و العرار و قلق لما أرق فلم يقرّ به قرار، فاعتراه ما براه و ألف البكاء بحكم الاضطرار، و لبس ثياب النحول و الاصفرار، و أسر لما هزمت جيوش صبره و أزمعت الفرار، فتحير مما شجاه و سأل

النجاة من أسر الفراق. [مجزوء الكامل]

سبحان من قسم الحظو ظ فلا عتاب و لا ملامه

أعمى و أعشى ثمّ ذو بصر و زرقاء اليمامه

و مسدّد أو جائر أو حائر يشكو ظلامه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۲

لو لا استقامة من هدا ه لما تبيّنت العلامه

و مجاور الغرر المخيف له البشارة بالسلامه

و أخو الحجا فى سائر الأنفاس مرتقب حمامه

و كما مضى المغترّ من لم يجعل التقوى اغتنامه

فليرفض العصيان من يخشى من اللّه انتقامه

و ليعتبر بسواه من لصلاحه صرف اهتمامه

فالعيش فى الدنيا الدنيّة غير مرجوّ الإدامه

من أرضعته ثديّها فى سرعة تبدا فطامه

من عزّ جانبه بها تنوى على الفور اهتضامه

و إذا نظرت فأين من منعته أو منحت مرامه

و من الذى وهبته وصلا ثمّ لم يخش انصرامه

و من الذى مدّت له حبلا فلم يخف انفصامه

كم واحد غرّته إذ سرّته مخفية الدّمامه

قعدت به من حيث لم يعلم فلم يملك قيامه

أين الذين قلوبهم كانت بها ذات استهامه

أين الذين تفيّؤوا ظلّ السّيادة و الزّعامه

أين الملوك ذوو الريا سة و السّياسة و الصّرامه

و بنو أميّة حين جمّع عصرهم لهم فئامه

و تمكنوا ممن يحا ول نقض ما شاؤوا انبرامه

و تعشّقوا لما بدا لهم محيّا الأرض شامه

و تأمّلوا وجه البسيطة فانثنوا يهوون شامه

حتى تقلّص ظلّهم و أراهم الدّهر اخترامه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۳

أين الخلائف من بنى العبّاس و البر القسامه

أين الرشيد و أهله و بنوه أصحاب الشّهامه

و وزيره يحيى و جعفر ابنه الراوى احتشامه

و الفضل مدنى من يقو ل لمن يلوم على الندى مه

أم أين عنترة الشجا ع و ذو الجدا كعب بن مامه

و الزّاعمون بجهلهم أن القبور صدى و هامه

و المكثرون من المجو ن إذا شكا الفكر اغتمامه

أين الغريض و معبد أو أشعب و أبو دلامه

أين الألى هاموا بسع دى أو بثينة أو أمامه

و بكوا لفرط جواهم و الليل قد أرخى ظلامه

و تتبعوا آثار من عشقوا بنجد أو تهامه

و تعلّلوا، و الشّوق يغ لب، بالأراكة و البشامه

أضنى النّوى قيسا فقا سى لاعجا أغرى غرامه

و غوى هوى غيلان مذ أبدى بميّته هيامه

أين الأكاسر و القيا صرة المجلّون الغمامه

أين الّذى الهرمان من بنيانه الحاكى اعتزامه

أم أين غمدان و سى ف و الوفود به أمامه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۴

أين الخورنق و السّدى ر و من شفى بهما أوامه

و مدائن الإسكندر ال لاتى لها أعلى دعامه

أين الحصون و من يصو ن بها من الأعدا حطامه

أين المراكب و الموا كب و العصائب و العمامه

أين العساكر و الدّسا كر و النّدامى فى المدامه

و سقاتها المتلاعبو ن بلبّ من أعطوه جامه

من كلّ أهيف يزدرى بالغصن إن يهزز قوامه

ذى غرّة لألاؤها تمحو عن النادى ظلامه

فالشمس فى أزراره و البدر فى يده قلامه

يصمى القلوب إذا رمى عن قوس حاجبه سهامه

و يروق حسنا إن رنا و يفوق آراما برامه

أنّى لها ثغر حلا ذوقا لمن رام التثامه

أنّى لها وجه يشبّ بقلب مبصره ضرامه

أستغفر اللّه للغ و لا يرى الشّرع اعتيامه

بل أين أرباب العلو م أولو التّصدّر و الإمامه

و ذوو الوزارة و الحجا بة و الكتابة و العلامه

كأئمة سكنوا بأن دلس فلم يشكوا سآمه

هى جنّة الدنيا التى قد أذكرت دار المقامه

لا سيّما غرناطة ال غرّاء رائقة الوسامه

و هى التى دعيت دمش ق و حسبها هذا فخامه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۵

لنزول أهليها بها إذ أظهر الكفر انهزامه

و أتت جيوش الشأم من باب نفى الفتح انبهامه

فسلوا بها عن جلّق إذ أشبهتها فى الضخامه

و بدا لهم وجه المنى و أراهم الثّغر ابتسامه

و تبوءأوها حضرة تبرى من المضنى سقامه

بروائها و بمائها و هوائها النافى الوخامه

و رياضها المهتزّة ال أعطاف من شدو الحمامه

و بمرجها النّضر الذى قد زيّن اللّه ارتسامه

و قصورها الزّهر التى يأبى بها الحسن انقسامه

يا ليت شعرى أين من أمضى بها الملك احتكامه

و أتيح فى حمرائها عزّا به زان اتّسامه

أين الوزير ابن الخطى ب بها فما أحلى كلامه

فلكم أبان العدل فى أرجائها و بها أقامه

و لكم أجار عدا و كم أجرى ندى و الى انسجامه

راعت صروف الدهر دو لته و ما راعت ذمامه

حتى ثوى إثر الثّوى فى حفرة نثرت نظامه

من زارها فى أرض فا س أذهبت شجوا منامه

إذ نبّهته لكلّ شم ل شتّت الموت التئامه

هذا لسان الدين أس كته و أسكنه رجامه

و محا عبارته فمن حيّاه لم يردد سلامه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۶

فكأنّه ما أمسك ال قلم المطاع و لا حسامه

و كأنه لم يعل مت ن مطهّم بارى النّعامه

و كأنه لم يرق غا رب الاعتزاز و لا سنامه

و كأنه لم يجل وجها حاز من بشر تمامه

و كأنه ما جال فى أمر و لا نهى و سامه

و كأنه ما نال من ملك حباه و لا احترامه

و كأنه لم يلق فى يده لتدبير زمامه

مذ فارق الدّنيا و قوّ ض عن منازلها خيامه

أمسى بقبر مفردا و التّرب قد جمعت عظامه

من بعد تثنية الوزا رة جاده صوب الغمامه

لم يبق إلّا ذكره كالزّهر مفترّ الكمامه

و العمر مثل الضّيف أو كاللّطيف ليس له إقامه

و الموت حتم ثم بع د الموت أهوال القيامه

و الناس مجزيّون عن أعمال ميل و استقامه

فذوو السعادة يضحكو ن و غيرهم يبكى ندامه

و اللّه يفعل فيهم ما شاء ذلّا أو كرامه

و يشفّع المختار فى هم حين يبعثه مقامه

و عليه خير صلاته مع صحبه تتلو سلامه

و التابعين و من بدا برق الرّشاد له فشامه

ما فاز بالرّضوان عب د كانت الحسنى ختامه

و اللّه سبحانه المسؤول فى الفوز و النجاة كرما منه و حلما، فبيده الخير لا إله إلّا هو العلىّ الكبير العليم الخبير الذى أحاط بكل شىء علما، فلا يعزب عنه مثقال ذرّة فى الأرض و لا فى السماء من مخلوقاته على الشمول و الاستغراق.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۷

[حديث المؤلف عن وطنه و حنينه إليه ۲۷]

أما بعد حمد اللّه مالك الملك، و الصلاة على رسوله المنجى من الهلك، و الرضا عن آله و صحبه الذين تجلّت بأنوارهم الظلم الحلك، و عن العلماء الأعلام، الخائضين بحار الكلام، المستوين من البلاغة على الفلك- فيقول العبد الحقير المذنب، الذى هو إلى رحمة ربّه الغنىّ فقير، المقصّر المتبرىء من الحول و القوة، المتمسّك بأذيال الخدمة للسّنّة و النبوّة، و ذلك بفضل اللّه أمان و براءة، الضعيف الفانى، الخطّاء الجانى، من هو من لباس التقوى عرىّ، أحمد بن محمد بن أحمد، الشهير بالمقّرىّ، المغربىّ المالكى الأشعرى، التّلمسانى المولد و المنشإ و القراءة، نزيل فاس الباهرة ثم مصر القاهرة، أصلح اللّه أحواله الباطنة و الظاهرة، و جعله من ذوى الأوصاف الزكيّة و الخلال الطاهرة، و سدّد فى كل قصد أنحاءه و آراءه و وفّقه بمنّه و كرمه للأعمال الصالحة، و الطاعات الناجحة و الرّاجحة، و المتاجر المغبوطة الرابحة، و المساعى الغادية بالخير الرائحة، و وقاه ما بين يده و وراءه، و كفاه مكر الكائد و افتراءه، و جدال الحاسد المستأسد و مراءه، و جعل فيما يرضيه سومه و شراءه! آمين: إنه لمّا قضى الملك الذى ليس لعبيده فى أحكامه تعقّب أو ردّ، و لا محيد عمّا شاءه سواء كره ذلك المرء أو ردّ، برحلتى من بلادى، و نقلتى عن محلّ طارفى و تلادى، بقطر المغرب الأقصى، الذى تمّت محاسنه لو لا أنّ سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصا، و طما به بحر الأهوال فاستعملت شعراء العيث فى كامل رونقه من الزحاف إضمارا و قطعا و وقصا: [مجزوء الكامل]

قطر كأنّ نسيمه نفحات كافور و مسك

و كأنّ زهر رياضه درّ هوى من نظم سلك

و ذلك أواخر رمضان من عام سبعة و عشرين بعد الألف، تاركا المنصب و الأهل و الوطن و الإلف: [الخفيف]

بلد طاب لى به الأنس حينا وصفا العود فيه و الإبداء

فسقت عهده العهاد و روّت منه تلك النوادى الأنداء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۸

و ما عسى أن أذكر فى إقليم، تعيّن لحجة فضله التسليم: [الكامل]

أضواؤه طبق المنى، و هواؤه يشتاقه الولهان فى الأسحار

و الطّبع معتدل فقل ما شئته فى الظّلّ و الأزهار و الأنهار

محلّ فتح الكمائم، و مسقط الرأس و قطع التمائم: [الوافر]

به كان الشباب اللّدن غضّا و دهرى كلّه زمن الربيع

ففرّق بيننا زمن خؤون له شغف بتفريق الجميع

لم أنس تلك النّواسم، التى أيامها للعمر مواسم، و ثغورها بالسرور بواسم، فصرت أشير إليها و قد زمّت للرحيل القلص الرواسم: [الكامل]

و لنا بهاتيك الديار مواسم كانت تقام لطيبها الأسواق

فأباننا عنها الزمان بسرعة و غدت تعلّلنا بها الأشواق

و أنشد قول غيلان: [الطويل]

أ منزلتى مىّ سلام عليكما هل الأزمن اللّائى مضين رواجع

و أتمثّل فى تلك الحدائق التى حمائمها سواجع، بقول من جفونه من الهوى غير هواجع: [الكامل]

تشدو بعيدان الرياض حمائم شدو القيان عزفن بالأعواد

ماد النسيم بقضبها فتمايلت مهتزّة الأعطاف و الأجياد

هذى تودّع تلك توديع التى قد آذنت منها بوشك بعاد

و استعبرت لفراقها عين النّدى فابتلّ مئزر عطفها الميّاد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۹

و أحدّق النظر إلى روض، لإنسان العين من فراقه فى بحر الدموع سبح و خوض: [مجزوء الكامل]

روض به أشياء لى ست فى سواة تؤلّف

فمن الهزار ترنّم و من القضيب تقطّف

و من النّسيم تلطّف و من الغدير تعطّف

و ألتفت كالمستريب، و الحىّ إذ ذاك قريب، و حديث العهد ليس بمنكر و لا غريب: [الطويل]

أهذا و لمّا تمض للبين ساعة فكيف إذا مرّت عليه شهور

و الآثار لائحة، و الشمال غادية و رائحة: [الوافر]

أرى آثارهم فأذوب شوقا و أسكب من تذكّرهم دموعى

و أسأل من قضى بفراق حبّى يمنّ علىّ منهم بالرجوع

و النفس متعلّلة ببعض الأنس، و المشاهد الحميدة لم تنس: [الكامل]

تلك العهود بشدّها مختومة عندى كما هى عقدها لم يحلل

غير أنّ الرّحيل، عن الرّبع المحيل، فصل به بين الشائق و المشوق و حيل: [الطويل]

وقفنا بربع الحبّ و الحبّ راحل نحاول رجعاه لنا و يحاول

و ألقت دموع العين فيه مسائلا لها عن عبارات الغرام دلائل

و بالسّفح منها كم سقيت لبانها فميّلته و السّفح للبان مائل

إذا نسمة الأحباب منها تنسّمت تطيب بها أسحارنا و الأصائل

تثير شجونى ساجعات غصونها فمنها على الحالين هاجت بلابل

مرابع ليلى فى مراتع لذتى مطالع أقمارى بها و المنازل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۰

فحيّاها اللّه من منازل ذات أقمار سائرة فيها، و منازه لا يحصى الواصف محاسنها و أمداح أهلها و لا يستوفيها: [البسيط]

حلّوا عقود اصطبارى عندما رحلوا و فى الخمائل حلّوا مثل أمطار

إنّ المنازل قد كانت منازه إذ باتوا بها و هى أوطانى و أوطارى

ورعى اللّه من بان، و شاق حتى الرّند و البان: [البسيط]

بانوا لعينى أقمارا تقلّهم لدن الغصون فلمّا آنسوا بانوا

عهودهم لست أنساها، و كيف و قد رثى لبينى عنها الرّند و البان

و فى مثل هذا الموطن تذوب القلوب الرّقاق، كما قال حائز قصب السّبق بالاستحقاق، الأديب الأندلسى الشهير بابن الزّقاق: [الوافر]

وقفت على الربوع ولى حنين لساكنهنّ ليس إلى الرّبوع

و لو أنّى حننت إلى مغانى أحبّائى حننت على ضلوعى

و كما قال بعض من له فى هذه الفجاج مسير: [الطويل]

دخولك من باب الهوى إن أردته يسير، و لكنّ الخروج عسير

و أين من له صفاة لا يطمع الدهر القوىّ فى نحتها، و جنّات دنيوية لا تجرى أنهار الفراق من تحتها: [الكامل]

فسقى رضيع النّبت من ذاك الحمى بحيا تدور على الرّبا كاساته

سفح سفحت عليه دمعى فى ثرى كالمسك ضاع من الفتاة فتاته

و لم أزل بعد انفصالى عن الغرب بقصد الشرق، و اتّصافى فى أثر ذلك الجمع بالفرق:

[الوافر]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۱

أحنّ إذا خلوت إلى زمان تقضّى لى بأفنية الرّبوع

و أذكر طيب أيام تولّت لنا فتفيض من أسف دموعى

و أتوق و قد اتّسع من البعد الخرق، و خصوصا إذا شدا صادح أو أومض برق، إلى ديار لا يعدوها اختيار: [الطويل]

و أربع أحباب إذا ما ذكرتها بكيت، و قد يبكيك ما أنت ذاكر

بطاح و أدواح يروقك حسنها بكلّ خليج نمنمته الأزاهر

فما هو إلّا فضّة فى زبرجد تساقط فيه اللؤلؤ المتناثر

بحيث الصّبا و التّرب و الماء و الهوى عبير و كافور و راح و عاطر

و ما جنّة الدنيا سوى ما وصفته و ما ضمّ منه الحسن نجد و حاجر

بلادى التى أهلى بها و أحبّتى و روحى و قلبى و المنى و الخواطر

تذكّرنى أنجادها و وهادها عهودا مضت لى و هى خضر نواضر

إذ العيش صاف و الزمان مساعد فلا العيش مملول و لا الدهر جائر

بحيث ليالينا كغضّ شبابنا و أيامنا سلك و نحن جواهر

ليالى كانت للشبيبة دولة بها ملك اللّذّات ناه و آمر

سلام على تلك العهود فإنها موارد أفراح تلتها مصادر

و أتذكّر تلك الأيام، التى مرّت كالأحلام، فأتمثّل بقول بعض الأكابر الأعلام: [الخفيف]

يا ديار السّرور، لا زال يبكى فيك، إذ تضحك الرياض، غمام

ربّ عيش صحبته فيك غضّ و عيون الفراق عنّا نيام

فى ليال كأنهنّ أمان فى زمان كأنه أحلام

و كأنّ الأوقات فيك كؤوس دائرات و أنسهنّ مدام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۲

زمن مسعد و إلف وصول و منى تستلذّها الأوهام

و بقول الحائك الأميّ، عندما يكثر شجوى و غمّى: [الكامل]

لم أنس أياما مضت و لياليا سلفت و عيشا بالصّريم تصرّما

إذ نحن لا نخشى الرقيب و لم نخف صرف الزمان و لا نطيع اللّوّما

و العيش غضّ و الحواسد نوّم عنّا و عين البين قد كحلت عمى

فى روضة أبدت ثغور زهورها لمّا بكى فيها الغمام تبسّما

مدّ الربيع على الخمائل نوره فيها فأصبح كالخيام مخيّما

تبدو الأقاحى مثل ثغر أشنب أضحى المحبّ به كئيبا مغرما

و عيون نرجسها كأعين غادة ترنو فترمى باللّواحظ أسهما

و كذلك المنثور منثور بها لمّا رأى ورد الخدود منظّما

و الطير تصدح فى فروع فنونها سحرا فتوقظ بالهديل النّوّما

و أميل، إلى بلاد محيّاها جميل: [الطويل]

كساها الحيا برد الشباب فإنها بلاد بها عقّ الشباب تمائمى

ذكرت بها عهد الصّبا فكأنما قدحت بنار الشوق بين الحيازم

ليالى لا ألوى على رشد ناصح عنانى، و لا أثنيه عن غىّ لائم

أنال سهادى من عيون نواعس و أجنى مرادى من غصون نواعم

و ليل لنا بالسّدّ بين معاطف من النهر ينساب انسياب الأراقم

تمرّ إلينا ثم عنّا كأنّها حواسد تمشى بيننا بالنمائم

و بتنا و لا واش نخاف كأنما حللنا مكان السّرّ من صدر كاتم

و أهفو إلى قصور ذات بهجة، و صروح توضح معالمها للرائد نهجه: [الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۳

و رياض تختال منها غصون فى برود من زهرها و عقود

فكأنّ الأدواح فيها غوان تتبارى زهوا بحسن القدود

و كأنّ الأطيار فيها قيان تتغنّى فى كلّ عود بعود

و كأنّ الأزهار فى حومة الرّو ض سيوف تسلّ تحت بنود

و أصبو إلى بطاح و أدواح، تروّح النفوس و الأرواح: [المنسرح]

سقيا لها من بطاح خزّ و دوح زهر بها مطلّ

إذ لا ترى غير وجه شمس أطلّ فيه عذار ظلّ

و أنهار جارية، و أزهار نواسمها سارية، و أربع و ملاعب، تزيح عن مبصرها المتاعب:

[مجزوء الكامل]

تلك المنازل و الملا عب لا أراها اللّه محلا

أوطنتها زمن الصّبا و جعلت فيها لى محلا

حيث التفتّ رأيت ما ء سائحا و رأيت ظلا

و النهر يفصل بين زه ر الروض فى الشّطّين فصلا

كبساط وشى جرّدت أيدى القيون عليه نصلا

و إلى منازل، يستفزّ حسنها الرائق الجادّ و الهازل، و يشفى منظرها عليلا، و يكفى مخبرها للمستفهم دليلا: [الخفيف]

و جنان ألفتها حين غنّت حولها الورق بكرة و أصيلا

نهرها مسرعا جرى و تمشّت فى رباها الصّبا قليلا قليلا

و أتمثّل إن ذكرت حال وداعى، بقول الشاعر الأديب الوداعى: [المنسرح]

الغرب خير و عند ساكنه أمانة أوجبت تقدّمه

فالشرق من نيّريه عندهم يودع دينار ه و درهمه

و بقول غيره، إشارة لفضل الغرب و خيره: [السريع]

أشتاق للغرب و أصبو إلى معاهد فيه و عصر الصّبا

يا صاحبى نجواى و اللّيل قد أرخى جلابيب الدّجى و اختبا

لا تعجبا من ناظر ساهر بات يراعى أنجما غيّبا

القلب فى آثارها طائر لمّا رآها تقصد المغربا

و أهيم كلّما حللت من غيران أرضى بمكان، و قد صيّر السائق جدّ السّير معمولا ل «ما انفكّ» كما جعله خبرا ل «كان»، بقول قاضى القضاة العالم الكبير الشمس ابن خلّكان:

[الخفيف]

أىّ ليل على المحبّ أطاله سائق الظّعن يوم زمّ جماله

يزجر العيس طاويا يقطع المه مه عسفا سهوله و رماله

أيها السائق المجدّ، ترفّق بالمطايا فقد سئمن الرّحاله

و أنخها هنيهة و أرحها إذ براها السّرى و فرط الكلاله

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۱؛ ص۳۴

لا تطل سيرها العنيف فقد بر رح بالصّبّ فى سراها الإطاله

وارث للنازح الذى إن رأى رب عا ثوى فيه نادبا أطلاله

يسأل الرّبع عن ظباء المصلّى ما على الرّبع لو أجاب سؤاله

و محال من المحيل جواب غير أنّ الوقوف فيه علاله

هذه سنّة المحبّين يبكو ن على كلّ منزل لا محاله

يا ديار الأحباب لا زالت الأع ين فى ترب ساحتيك مذاله

و تمشّى النّسيم و هو عليل فى مغانيك ساحبا أذياله

أين عيش مضى لنا فيك؟ ما أس رع عنّا ذهابه و زواله!

حيث وجه الزمان طلق نضير و التّدانى غصونه ميّاله

و لنا فيك طيب أوقات أنس ليتنا فى المنام نلقى مثاله

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ١، ص: ٣٥

و أردّد قول الذى سحر الألباب،

مناديا من له من الأحباب: [البسيط]

أحبابنا، لو لقيتم فى إقامتكم من الصّبابة ما لاقيت فى الظّعن

لأصبح البحر من أنفاسكم يبسا كالبرّ من أدمعى ينشقّ بالسّفن

و قوله:

[البسيط]

و ما تغيّرت عن ذاك الوداد، و لا حالت بى الحال فى عهدى و ميثاقى

درسى غرامى بكم دهرى أكرّره و قد تفقّهت فى وجدى و أشواقى

و قول المجد بن شمس الخلافة

، معلما أنه لا يريد بدل معهده و خلافه: [الخفيف]

يا زمان الهوى، عليك السّلام و علىّ السّلوّ عنك حرام

أىّ عيش قطعته فيك لو دا م و هل يرتجى لظلّ دوام

كنت حلما و العيش فيك خيالا و سريعا ما تنقضى الأحلام

لهف نفسى على ليال تقضّت سلبتنى برودها الأيام

فطمتنى الأقدار عنها وليدا و شديد على الوليد الفطام

لا تلمنى على البكاء عليها من بكى شجوه فليس يلام

و قول أبى طاهر الخطيب الموصلى: [الخفيف]

حىّ نجدا عنّى و من حلّ نجدا أربعا هجن لى غراما و وجدا

و اقر عنّى السّلام آرام ذاك ال شّعب و الأجرع الخصيب المفدّى

و ابك عنّى حتى ترنّح بالوج د أراكا به و بانا و رندا

فلكم وقفة أطلت على الضّا ل بدمع أذاع سرّى و أبدى

و على البان كم من البين أذرى ت لآلى للدّمع مثنى و وحدا
آه وا لهفتى على طيب عيش كنت قطّعته وصالا و ودّا
حيث عود الشباب غضّ نضير ويد المكرمات بالجود تندى
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۶
و الخليل الودود ينعم إسعا فا و صرف الزمان يزداد بعدا
و الليالى مساعدات على الوص ل و عين الرقيب إذ ذاك رمدا
كم بها من لبانة لى و أوطا ر تقضّت و جازت الحدّ جدّا
فاستعاد الزمان ما كان أعطى خلسة لى ببخله و استردّا

و قول بعضهم: [الطويل]

سلام على تلك المعاهد، إنّها شريعة وردى أو مهبّ شمالى
ليالى لم نحذر حزون قطيعة و لم نمش إلّا فى سهول وصال
فقد صرت أرضى من نواحى جنابها بخلّب برق أو بطيف خيال

و قول الجرجانى: [الخفيف]

للمحبّين من حذار الفراق عبرات تجول بين المآقى
فإذا ما استقلّت العيس للبى ن و سارت حداتها بالرفاق
استهلّت على الخدود انحدارا كانحدار الجمان فى الاتّساق
كم محبّ يرى التّجلّد دينا فهو يخفى من الهوى ما يلاقى
ازدهاه النّوى فأعرب بالوج د لسان عن دمعه المهراق
و انحدار الدموع فى موقف البى ن على الخدّ آية العشّاق
هوّن الخطب لست أوّل صبّ فضحته الدموع يوم الفراق

و قول الخطيب الحصكفى الشافعى: [البسيط]

ساروا و أكبادنا جرحى و أعيننا قرحى و أنفسنا سكرى من القلق
تشكو بواطننا من بعدهم حرقا لكن ظواهرنا تشكو من الغرق
كأنهم فوق أكوار المطىّ و قد سارت مقطّرة فى حالك الغسق
دراريء الزّهر فى الأبراج زاهرة تسير فى الفلك الجارى على نسق
يا موحشى الدار مذ بانوا كما أنست بقربهم لا خلت من صيّب غدق
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۷
إن غبتم لم تغيبوا عن ضمائرنا و إن حضرتم حملناكم على الحدق
و ما أحسن قول بعضهم فى هذا المعنى، الذى كررنا ذكره و به ألمعنا: [الطويل]
سلام على أهل الوداد و عهدهم إذ الأنس روض و السّرور فنون

رحلنا فشرّقنا و راحوا فغرّبوا ففاضت لروعات الفراق عيون

و كم أنشدت و ليالى النوى عاتمة، قول الأندلسى ابن خاتمة: [من المخمسات]

أيامنا بالحمى ما كان أحلاك كم بتّ أرعاه إجلالا و أرعاك

لا تنكرى وقفتى ذلّا بمغناك يا دار لو لا أحبّائى و لولاك

لما وقفت وقوف الهائم الباكى

فهل لهم عطفة من بعد دلّهم تاللّه ما تسمح الدنيا بمثلهم

آها لقلبى على تبديد شملهم ما كان أحلاك يا أيام وصلهم

و يا ليالى الرّضا ما كان أضواك

يا بدر تمّ تناءت عنه أربعنا و لم تزل تحتويه الدّهر أضلعنا

ما للنّوى بضروب البين يوجعنا إذا تذكّرت دهرا كان يجمعنا

تفطّرت كبدى شوقا لمرآك

أحباب أنفسنا كم ذا النوى و كم و يا معاهد نجوانا بذى سلم

تاللّه ما شبت دمعا للأسى بدم و لا لثمت تراب الأرض من كرم

إلّا مراعاة خلّ ظلّ يرعاك

علّ التعلّل يدنى منهم و عسى فيعمر القرب ما بالبين قد درسا

كم ذا أنادى بربع بالنوى طمسا يا قلب صبرا فإنّ الصّبر عاد أسى

و يا منازل سلمى أين سلماك

و قول بعض من اشتدّ به الهيام، فخاطب جيرته مادحا ليالى القرب و ذامّا تقلّب الأيام:

[البسيط]

أيام أنسى قد كانت بقربكم بيضا، فحين نأيتم أصبحت سودا

ذممت عيشى مذ فارقت أرضكم من بعد ما كان مغبوطا و محسودا

و قول صاحب مصارع العشّاق، و قد شاقه من الهوى ما شاق: [مجزوء الكامل]

بانوا فأدمع مقلتى وجدا عليهم تستهلّ

وحدا بهم حادى الفرا ق عن المنازل فاستقلّوا

قل للذين ترحّلوا عن ناظرى و القلب حلّوا

ما ضرّهم لو أنهلوا من ماء وصلهم و علّوا

و قوله حين زحزحته يد الفراق، عن أوطان العراق: [مجزوء الكامل]

قد قلت و العبرات تس فحها على الخدّ المآقى

حين انحدرت إلى الجزى رة و انقطعت عن العراق

و تخبّطت أيدى الرفا ق مهامه البيد الرقاق

يا بؤس من سلّ الزما ن عليه سيفا للفراق

و قوله أيضا: [السريع]

يا منزل الحيّ بذات النّقا سقاك دمع مذ نأوا ما رقا

هل سلوة؟ هيهات! لا سلوة قد بلغ السيل الزّبى و ارتقى

و أنت يا يوم النّوى عاجلا أدال منك اللّه يوم اللّقا

و قولى موطّئا للثالث، و قد تغيّر لى فيمن تغيّر حارث: [البسيط]

لم أنس معهدنا و الشّمل مجتمع و العيش غضّ و روض الأنس معطار

فها أنا بعد بعد عنه فى قلق و قد نبت بى أرجاء و أقطار

تمضى الليالى و أشواقى مجدّدة و ما انقضت لى من الأحباب أوطار

و كلما مررت بمرأى يروق، لمعت لى من ناحية المغنى بالمنى بروق، فتذكرت قول بعض من له على غير من يهوى طروق: [الرجز]

ما نظرت عينى سواك منظرا مستحسنا إلّا عرضت دونه

و ما تمنّيت لقاء غائب إلّا سألت اللّه أن تكونه

و ربما رمت انتحائى مذهب السلوّ و انتحالى، خلال أحوال إقامتى و ارتحالى، فلم ينتقل عن تلك الصفات حالى، و أنّى و جيدى بقلائد البتات حالى؟: [الكامل]

و الشوق أعظم أن يحيط بوصفه قلم و أن يطوى عليه كتاب

و اللّه ما أنا منصف إن كان لى عيش يطيب و جيرتى غيّاب

و كيف و لآماقى صبّ، و لأتواقى زيادة إذا سرى نسيم أو هبّ؟: [الطويل]

شربت حميّا البين صرفا، و طالما جلوت محيّا الوصل و هو و سيم

فميعاد دمعى أن تنوح حمامة و ميقات شوقى أن يهبّ نسيم

فإن لاح سنا بارق شاقنى، أو ترنّم شاد حدا بى إلى الهيام و ساقنى، أو رنا ظبى فلاة راعنى و راقنى: [الطويل]

و إنّى ليصبينى سنا كلّ بارق و كلّ حمام فى الأراك ينوح

و أرتاع من ظبى الفلاة إذا رنا و أرتاح للتذكار و هو سنوح

و لم يك ذاك الأمر من حيث ذاته و لكن لمعنى فى الحبيب يلوح

و لا أستطيع الإعراب عن أمرى العجيب، لما بى من النوى المذهل و الجوى المدهش و الوجيب: [الطويل]

و لا تسألوا عمّا أجنّ فليس لى لسان يؤدّى ما الغرام يقول

يطارحنى البرق الأحاديث كلّما أضاء كأنّ البرق منه رسول

و ما بال خفّاق النسيم يميلنى هل الريح راح و الشّمال شمول

إذ دموع شؤونى عند الذكرى لا ترقا، و جفونى ليس لها عن الأرق مرقى، و شجونى تنمو إذا صدحت بفننها ورقا: [الخفيف]

ربّ ورقاء فى الدياجى تنادى إلفها فى غصونها الميّاده

فتثير الهوى بلحن عجيب يشهد السّمع أنها عوّاده

كلما رجّعت توجّعت حزنا فكأنّا فى وجدنا نتباده

فيا لها من ذات طوق، مثيرة لكامن شوق، جالبة له من يمين و شمال و فوق: [الخفيف]

ذكّرتنى الورقاء أيام أنس سالفات فبتّ أذرى الدموعا

و وصلت السّهاد شوقا لحبّى و غراما و قد هجرت الهجوعا

كيف يخلو قلبى من الذكر يوما و على حبّهم حنيت الضّلوعا

كلما أولع العذول بعتبى فى هواهم يزداد قلبى ولوعا

و ربما أتخيّل قول من قال إنها بالحزن بائحة، و على فقد الإلف نائحة، فأنشد قول خليل، و هو بالحبّ مدنف و عليل: [الوافر]

و ربّ حمامة فى الدّوح باتت تجيد النّوح فنّا بعد فنّ

أقاسمها الهوى مهما اجتمعنا فمنها النّوح و العبرات منّى

و لا غرو إن ظهر سرّ بائح، فباك مثلى من الشّجو نائح: [الكامل]

فرجعت بعد فراق أيام الهوى أصف الصّبابة للمحبّ المولع

دامى الجفون إذا الحمامة غرّدت من فوق خوط البانة المترعرع

أسقى الديار. و قد تباعد أهلها عنها. عزالىّ الدّموع الهمّع

و نواعب الأطلال ليس يجيبنى ما بينهنّ سوى الصّدى بتوجّع

و هواتف فوق الغصون يجيبنى منهنّ تغريد الحمام السّجع

ناحت على عذب الفروع و إلفها منها بمرأى فوقها و بمسمع

ما فارقت إلفا كما فارقته كلّا و لا أجرت سواكب أدمعى

على أوان عيون سعوده روان، و زمان معمور بأمانىّ و أمان، و آمال دوان، و تهان ما بين بكر و عوان، و فى عذر من طال ليله فاضطرب فيه لولوعه، و سكن جواه بجوانحه و ضلوعه:

[الكامل]

إن طال ليلى بعدهم فلطوله عذر، و ذاك لما أقاسى منهم

لم تسر فيه نجومه لكنّها وقفت لتسمع ما أحدّث عنهم

فأرقى، الزائد فى حرقى، أظهر المكنون و أبان، و وجدى بمن نأى و بان، لم يجد فيه تعلّل برند و بان: [الرجز]

تنبّهى، يا عذبات الرّند، كم ذا الكرى؟ هبّ نسيم نجد

فلست مثلى فى جوى أو أرق و حرقة من فرقة أو صدّ

عوفيت ممّا حلّ بى من جيرة فى الغرب لم يرثوا لفرط وجدى

أعلّل القلب ببان عنهم و هل ينوب غصن عن قدّ

بانوا فلا مغنى السرور بعدهم مغنى، و لا عهد الرضا بعهد

آها من البعد و من لم يدره لم يشجه تأوّهى للبعد

و فى شغل من أبكته الربوع و الطلول، و ذهبت برهة من زمانه بين الترحّل و الحلول، فركب من الأخطار الصّعب و الذّلول، و حافظ على العهود و لم يسلك سبيل الغادر الملول:

[الطويل]

سقاها الحيا من أربع و طلول حكت دنفى من بعدهم و نحولى

ضمنت لها أجفان عين قريحة من الدّمع مدرار الشؤون همول

و من الغريب، الذى ينكره غير الأريب، أنّ الحادى إن سرّ القلب بكشف رين، فقد تسبّب فى اجتماع أمرين متنافيين متنافرين:

[الطويل]

ترنّم حاد بالصّريم فشاقنى إلى ذكر من باتت ضلوعى تضمّه

فسرّ و ساء النفس شجوا فربما كلفت به من حيث صرت أذمّه

و ارتجلت حين مللت من طول السّرى، مضمّنا ذكر ما أروم له تيسّرا، و قد أكثر الرفاق عند رؤية ما لم يألفوه من الآفاق تلهّفا و تحسّرا: [الخفيف]

قلت لمّا طال النّوى عن بلادى و لأهل النوى جوى و عويل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۴۲

هل أرى للفراق آخر عهد إنّ عمر الفراق عمر طويل

ثم قلت مضمّنا: [الرمل]

لائمى فى ذكر أحباب نأوا لا تلم من أضعف الشّوق قواه

إنّ يوما جامعا شملى بهم ذاك عيدى، ليس لى عيد سواه

ثم قلت مضمّنا أيضا [الطويل]

لكك اللّه من صبّ أضرّ به النّوى و ليس له غير اللقاء طبيب

و إنّ صباحا نلتقى بمسائه صباح إلى قلبى المشوق حبيب

ثم عدت إلى التّصبّر، بعد إمعان النظر و التدبّر: [الطويل]

و إنى لأدرى أنّ فى الصّبر راحة و لكنّ إنفاقى على الصّبر من عمرى

فلا تطف نار الشوق بالشوق طالبا سلوّا، فإنّ الجمر يسعر بالجمر

ثم سلكت منهج التفويض و التسليم، منشدا قول ابن قطرال المغربى فى مقام النصح و التعليم، و وجّهت القصد إلى سكان الضمير بذلك التكليم: [الرمل]

إنّ أيام الرّضا معدودة و الرضا أجمل شىء بالعبيد

لا تظنّوا عنكم لى سلوة ما على شوقى إليكم من مزيد

راجعوا أنفسكم تستيقنوا أنكم فى الوقت أقصى ما أريد

إنّ يوما يجمع اللّه بكم فيه شملى ذاك عندى يوم عيد

و قول بعض من ندم على البعد عن المعاهد، و أمّل العود- و العود أحمد- إلى المشاهد، و غفر للدهر ذنبه إن عاد، و تلهّف أن لم يعامله بغير الإبعاد: [الطويل]

لئن عاد جمع الشّمل فى ذلك الحمى غفرت لدهرى كلّ ذنب تقدّما

و إن لم يعد منّيت نفسى بعودة و ما ذا عسى تجدى الأمانى و قلّما

يحقّ لقلبى أن يذوب صبابة و للعين أن تجرى مدامعها دما

على زمن ماض بهم قد قطعته لبست به ثوب المسرّة معلما

و قول آخر يخاطب أحبابه، و يذكر فواصل بحر النّوى الطويل و أسبابه: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۴۳

أعيذكم من لوعتى و شجونى و نار جوى تذكى بماء شؤونى

و برح أسى لم يبق فىّ بقيّة سوى حركات تارة و سكون

أرى القلب أضحى بعد طارقة الأسى أسير صبابات رهين شجون

و كيف سبيل القرب منكم و دونكم رمال زرود و الأجارع دونى؟

سلوا مضجعى هل قرّ من بعد بعدكم و هل عرفت طعم الرّقاد جفونى

سهرنا بنعمان، و نمتم ببابل، فيا لعيون ما وفت لعيون

و فى بعض الأحيان، أتسلّى بقول بعض الأندلسيين الأعيان: [الكامل]

لا تكترث بفراق أوطان الصّبا فعسى تنال بغيرهنّ سعودا

فالدّرّ ينظم عند فقد بحاره بجميل أجياد الحسان عقودا

و قول غيره: [الكامل]

فعسى الليالى أن تمنّ بنظمنا عقدا كما كنّا عليه و أكملا

فلربّما نثر الجمان تعمّدا ليعاد أحسن فى النظام و أجملا

و أرغب لمن أطال ذيول الغربة أن يقلّصها، و أطلب ممّن أجال النفوس فى سيول الكربة أن يخلّصها: [البسيط]

فنلتقى و عوادى الدهر غافلة عمّا نروم و عقد البين محلول

و الدار آنسة، و الشّمل مجتمع، و الطّير صادحة، و الروض مطلول

و أضرع إليه- سبحانه!- فى تيسير العود إلى أوطانى، و معهدى الذى مطايا العزّ أوطانى، و أن يلحقنى بذلك الأفق الذى خيره موفور، و حقّ من فيه معروف لا منكر و لا مكفور: [البسيط]

إذا ظفرت من الدنيا بقربهم فكلّ ذنب جناه الدّهر مغفور

و كأنى بعاتب يقول: ما هذا التطويل؟ فأقول له: جوابى قول ابن أبى الإصبع الذى عليه التعويل: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۴۴

أكثرت عذلى كأنّى كنت أول من بكى على مسكن أو حنّ للسّكن

لا تلح إنّ من الإيمان عند ذوى ال إيمان منّا حنين النّفس للوطن

[وصف أهوال البحر]

على أننى أقول: اللهمّ يسّر لى ما فيه الخيرة لى بالمشارق أو بالمغارب، وجد لى من فضلك حيث حللت بجميع ما فيه رضاك من المآرب، بجاه نبيّنا و شفيعنا المبعوث رحمة للأحمر و الأسود و الأعاجم و الأعارب، عليه أفضل صلاة و أزكى سلام، و على آله و أصحابه الأعلام، و التابعين لهم بإحسان ما ذرّ شارق، و تعاقب طالع و غارب.

ثم جدّ بنا السّير فى البرّ أياما، و نأينا عن الأوطان التى أطنبنا فى الحديث حبّا لها و هياما، و كنّا عن تفاعيل فضلها نياما، إلى أن ركبنا البحر، و حللنا منه بين السّحر و النّحر، و شاهدنا من أهواله، و تنافى أحواله، ما لا يعبّر عنه، و لا يبلغ له كنه: [مخلع البسيط]

البحر صعب المرام جدّا لا جعلت حاجتى إليه

أليس ماء و نحن طين فما عسى صبرنا عليه

فكم استقبلنا أمواجه بوجوه بواسر، و طارت إلينا من شراعه عقبان كواسر، قد أزعجتها أكفّ الرّيح من وكرها، كما نبّهت اللجج من سكرها، فلم تبق شيئا من قوّتها و مكرها، فسمعنا للجبال صفيرا، و للرياح دويّا عظيما و زفيرا، و تيقّنّا أنّا لا نجد من ذلك إلّا فضل اللّه مجيرا و خفيرا، وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء: ۶۷]. و أيسنا من الحياه، لصوت تلك العواصف و المياه، فلا حيّا اللّه ذلك الهول المزعج و لا بيّاه، و الموج يصفّق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل و يضطرب، فكأنه من كأس الجنون يشرب

أو شرب، فيبتعد و يقترب، و فرقه تلتطم و تصطفق، و تختلف و لا تكاد تتفق، فتخال الجوّ يأخذ بنواصيها، و تجذبها أيديه من قواصيها، حتى كاد سطح الأرض يكشف من خلالها، و عنان السّحب يخطف فى استقلالها، و قد أشرفت النفوس على التّلف من خوفها و اعتلالها، و آذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها، و ساءت الظنون، و تراءت فى صورها المنون، و الشّراع فى قراع مع جيوش الأمواج، التى أمدّت منها الأفواج بالأفواج، و نحن قعود، كدود على عود، ما بين فرادى و أزواج، و قد نبت بنا من القلق أمكنتنا، و خرست من الفرق ألسنتنا، و توهّمنا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۴۵

أنه ليس فى الوجود، أغوار و لا نجود، إلّا السماء و الماء و ذلك السّفين، و من فى قبر جوفه دفين، مع ترقّب هجوم العدوّ، فى الرواح و الغدوّ، لاجتيازه على عدّة من بلاد الحرب، دمّر اللّه سبحانه من فيها و أذهب بفتحها عن المسلمين الكرب، لا سيما مالطة الملعونة، التى يتحقّق من خلص من معرّتها أنه أمدّ بتأييد إلهىّ و معونة، فقد اعترضت فى لهوات البحر الشامى شجا، و قلّ من ركبه فأفلت من كيدها و نجا، فزادنا ذلك الحذر، الذى لم يبق و لم يذر، على ما وصفناه من هول البحر قلقا، و أجرينا إذ ذاك فى ميدان الإلقاء باليد إلى التهلكة طلقا، و تشتّتت أفكارنا فرقا، و ذبنا أسى و ندما و فرقا، إذ البحر وحده لا كمىّ يقارعه، و لا قوىّ يصارعه، و لا شكل يضارعه، لا يؤمن على كل حال، يفرّق بين عاطل و حال، و لا بين أعزل و شاك، و متباك و باك: [الرجز]

ثلاثة ليس لها أمان البحر و السّلطان و الزّمان

فكيف و قد انضمّ إليه خوف العدوّ الغادر الخائن و الكافر الحائن، إلى أن قضى اللّه بالنجاة و كلّ ما أراد فهو الكائن، و إن نهى عنه و أخطأ المائن، فرأينا البرّ و كأنّا قبل لم نره، و شفيت به أعيننا من المره، و حصل بعد الشدّة الفرج، و شممنا من السلامة أطيب الأرج، فيا لها من نعمة كشفت عن وجهها النّقاب، يقلّ شكرا لها صوم الأحقاب و عتق الرقاب، جعلنا اللّه بآياته معتبرين، و على طاعته مصطبرين، و لم نخل فى البرّ من معاناة خطوب، و مداراة وجوه للمتاعب ذات تجهّم و قطوب، فكم جبنا منه مهامه فيحا، و مسحنا بالخطا منها أثيرا و صفيحا، و فلّينا الفجاج، و قرأنا من الطرق خطوطا ذات استقامة و اعوجاج، و قلوب الرفقة من الفرقة فى اضطراب و ارتجاج، و ربما عميت على المجتهد الأدلّة التى يحصل بها على المذهب الاحتجاج، فترى الأنفاس تعثّر فى زفرة الأشواق، و الأجسام قد زرّت عليها من التعب الأطواق، هذا و اللّيل بصفحة البدر مرتاب، و قد شدّت رحال و أقتاب، و زمّت ركاب و رفعت أحداج، و فريت من الدّعة بمدية النّصب أوداج، و تساوى فى السير نهار مشرق و ليل مقمر أو داج، و أديم التأويب و الإسآد، و حمل الغربة قد أثقل وآد، ثم وصلنا بعد خوض بحار، يدهش فيها الفكر و يحار، وجوب فياف مجاهل، يضلّ فيها القطا عن المناهل، إلى مصر المحروسة فشفينا برؤيتها من الأوجاع، و شاهدنا كثيرا من محاسنها التى تعجز عن وصفها القوافى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۴۶

و الأسجاع، و تمثّلنا فى بدائعها التى لا نستوفيها، بقول ابن ناهض فيها: [مجزوء الرجز]

شاطىء مصر جنّة ما مثلها فى بلد

لا سيّما مذ زخرفت بنيلها المطّرد

و للرياح فوقه سوابغ من زرد

مسرودة ما مسّها داودها بمبرد

سائلة و هو بها يرعد عارى الجسد

و الفلك كالأفلاك بى ن حادر و مصعد

و بقول آخر: [مجزوء الكامل]

انظر إلى النّيل الّذى ظهرت به آيات ربّى

فكأنه فى فيضه دمعى و فى الخفقان قلبى

و بقول أبى المكارم بن الخطير، المعروف بابن ممّاتى، فى جزيرتها: [الطويل]

جزيرة مصر، لا عدتك مسرّة و لا زالت اللّذات فيك اتّصالها

فكم فيك من شمس على غصن قامة يميت و يحيى هجرها و وصالها

مغانيك فوق النيل أضحت هوادجا و مختلفات الموج فيك حبالها

و من أعجب الأشياء أنك جنّة تمدّ على أهل الضلال ظلالها

لعلّه أراد بأهل الضلال اليهود و النصارى المستولين إذ ذاك على الدولة. و تذكّرت فى مصر قول القاضى الفاضل: [الكامل]

بالله قل للنّيل عنّى إنّنى لم أشف من ماء الفرات غليلا

و سل الفؤاد فإنه لى شاهد إن كان طرفى بالبكاء بخيلا

يا قلب، كم خلّفت ثمّ بثينة و أظنّ صبرك أن يكون جميلا

و قول أحمد بن فضل اللّه العمرى: [مجزوء الرجز]

لمصر فضل باهر بعيشها الرّغد النّضر

فى سفح روض يلتقى ماء الحياة و الخضر

و قول آخر: [الوافر]

كأنّ النّيل ذو فهم و لبّ لما يبدو لعين الناس منه

فيأتى حين حاجتهم إليه و يمضى حين يستغنون عنه

و قول آخر: [الطويل]

و للّه مجرى النّيل منه إذا الصّبا أرتنا به من مرّها عسكرا مجرا

بشطّ يهزّ السّمهريّة ذبّلا و موج يهزّ البيض هنديّة بترا

إذا مدّ حاكى الورد لونا، و إن صفا حكى ماءه لونا و لم يحكه مرّا

و قول آخر: [الكامل]

واها لهذا النّيل! أىّ عجيبة بكر بمثل حديثها لا يسمع

يلقى الثّرى فى الماء و هو مسلّم حتى إذا ما مال عاد يودّع

مستقبل مثل الهلال فدهره أبدا يزيد كما يزيد و يرجع

و قول ابن النقيب: [السريع]

الصّبّ من بعدهم مفرد و دمعه النّيل و تعليقه

و خدّه لمّا بكاهم دما مقياسه، و الدّمع تخليقه

و قول الصّفدى: [مجزوء الكامل]

سقيا لمصر و ما حوت من أنسها و أناسها

و محاسن فى مقسها تبدو و فى مقياسها

و مسرّة كاساتها تجلى على أكياسها

و سطور قرط خطّها ال بارى على قرطاسها

و دمى كنائسها، و لا تنسى ظباء كناسها

و لطافة بجلالة تبدو على جلّاسها

و نواسم كلّ المنى للنفس فى أنفاسها

و مراكب لعبت بها ال أمواج فى وسواسها

و قول ابن جابر الأندلسى: [الكامل]

ما زلت أسند من محاسن أرضها خبرا صحيحا ليس بالمقطوع

كم مرسل من نيلها و مسلسل و مدبّج من هضبها المرفوع

و قول إبراهيم بن عبدون: [الكامل]

و النّيل بين الجانبين كأنّما صدئت بصفحته صفيحة صيقل

يأتيك من كدر الزّواخر مدّه بممسّك من مائه و مصندل

فكأنّ ضوء البدر فى تمويجه برق تموّج فى سحاب مسبل

و كأنّ نور السّرج من جنباته زهر الكواكب تحت ليل أليل

مثل الرياض مفتّقا أنواره تبدو لعين مشبّه و ممثّل

و قول ابن الصاحب: [مجزوء الكامل]

فرح الأنام بنيلهم إذ صار أحمر كالشّقيق

و تبرّكوا بشروقه فكأنه وادى العقيق

و قول آخر: [المجتث]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۴۹

احمرّ للنّيل خدّ حتى غدا كالشقيق

و قد ترنّمت فيه إذ صار وادى العقيق

[حج المؤلف و زيارته المدينة و وصفه المشاهد المباركة]

ثم شمّرت عن ساعد العزم بعد الإقامة بمصر مدّة قليلة، إلى المهمّ الأعظم و المقصد الأكبر الذى هو سرّ المطالب الجليلة، و هو رؤية الحرمين الشريفين، و العلمين المنيفين، زادهما اللّه تنويها، و بلّغ النفوس ببركة من شرفا به مآرب لم تزل تنويها، فسافرت فى البحر إلى الحجاز، راجيا من اللّه سبحانه فى الأجر الانتجاز، إلى أن بلغت جدة، بعد مكابدة خطوب اتّخذت لها من الصبر عدّة، فحين حصل القرب، و اكتحلت العين بإثمد تلك التّرب، ت رنّمت بقول من قال، محرّضا على الوخد و الإرقال: [البسيط]

بدا لك الحقّ فاقطع ظهر بيداء و اهجر مقالة أحباب و أعداء

و اقصد على عزمة أرض الحجاز تجد بعدا عن السّخط فى نزل الأودّاء

و قل إذا نلت من أمّ القرى أربا و هو الوصول بإسرار و إبداء

يا مكة اللّه، قد مكّنت لى حرما مؤمّنا لست أشكو فيه من داء

فمذ رأى النازح المسكين مسكنه فى قطرك الرّحب لم ينكب بأرزاء

شوق الفؤاد إلى مغناك متّصل شوق الرياض إلى طلّ و أنداء

ثم أنشدت، عندما بدت أعلام البيت الحرام، قول بعض من غلب عليه الشوق و الغرام، و قد بلغ من أمانيه الموجبة بشائره و تهانيه المرام: [البسيط]

وافى الحجيج إلى البيت العتيق و قد سجا الدّجى فرأوا نورا به بزغا

عجّوا عجيجا و قالوا: اللّه أكبر ما للجوّ مؤتلقا بالنور قد صبغا

قال الدليل: ألا هاتوا بشارتكم فمن نوى كعبة الرحمن قد بلغا

نادوا على العيس بالأشواق و انتحبوا و حنّ كلّ فؤاد نحوها و صغا

و كلّ من ذمّ فعلا نال محمدة فى مكة و محا ما قد جنى و بغى

و لما وقع بصرى على البيت الشريف كدت أغيب عن الوجود، و استشعرت قول العارف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۵۰

بالله الشبلى لما وفد إلى حضرة الجود: [الخفيف]

قلت للقلب إذ تراءى لعينى رسم دار لهم فهاج اشتياقى

هذه دارهم و أنت محبّ ما احتباس الدموع فى الآماق

و المغانى للصّبّ فيها معانى فهى تدعى مصارع العشّاق

حلّ عقد الدموع و احلل رباها و اهجر الصّبر وارع حقّ الفراق

ثم أكملت العمرة، و دعوت اللّه أن أكون ممّن عمر بطاعة ربّه عمره، و ذلك أوائل ذى القعدة من عام ثمانية و عشرين و ألف من الهجرة السنيّة، و أقمت هنالك منتظرا وقت الحجّ الشريف، و متفيّئا ذلك الظلّ الوريف، و مقتطفا ثمار القرب الجنيّة، إلى أن جاء الأوان، فأحرمت بالحجّ من غير توان، و حين حللت مما به أحرمت، نويت الإقامة هنالك و أبرمت، فحال من دون ذلك حائل، و كنت حريّا بأن أنشد قول القائل: [الكامل]

هذى أباطح مكة حولى و ما جمعت مشاعرها من الحرمات

أدعو بها لبّيك تلبية امرئ يرجو الخلاص بها من الأزمات

نلت المنى بمنى لأنى لم أخف بالخيف من ذنب أحال سماتى

و عرفت فى عرفات أنى ناشق للعفو عرفا عاطر النّسمات

و أن أتمثّل فى المطاف، إذ حفّتنى الألطاف، بقول من ربعه بالتقوى مشيد، البغدادى الشهير بابن رشيد: [الطويل]

على ربعهم للّه بيت مبارك إليه قلوب الناس تهوى و تهواه

يطوف به الجانى فيغفر ذنبه و يسقط عنه جرمه و خطاياه

و كم لذة أو فرحة لطوافه فللّه ما أحلى الطواف و أهناه

ثم قصدنا بعد قضاء تلك الأوطار، طيبة الشريفة التى لها الفضل على الأقطار، و استشعرت قول من أنشد و طير عزمه عن أوكاره قد طار: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۵۱

حمدت مرادى إذ بلغت مرادى بأمّ القرى مستمسكا بعمادى

و مذ رويت من ماء زمزم غلّتى فلست بمحتاج لماء ثماد

فللّه سبحانه الحمد على نعمه التى جلّت، و مننه التى نزلت بها النفوس مواطن التشريف و حلّت: [الكامل]

من يهده الرحمن خير هداية يحلل بمكة كى يتاح المقصدا

و إذا قضى من حجّه الفرض انثنى يشفى برؤية طيبة داء الصّدى

و كان حظّى فى هـذه الحال تذكّر قول بعض الوشّاحين من الأندلسيين الذين كان لهم ارتحال إلى تلك المعاهد الطاهرة، و المشاهد الزاهرة، التى تشدّ إليها الرحال:

يا من لعبد له افتقار إلى أياد له جسام

فضلك مدن لخير مدن حلّ بها سيّد الأنام

لم يهف قلبى لحبّ ليلى و لا سعاد و لا الرّباب

لاقى شجونا و نال ويلا من هام فى ذلك الجناب

بل مال منى الفؤاد ميلا لمن له الحبّ لا يعاب

قلبى و اللّه مستطار مذ حلّ فى بيته الحرام

ذى الحجر و الرّكن خير ركن و زمزم الخير و المقام

ذابت قلوب المطىّ عشقا و ركبها و استوى المراد

إلى حبيب القلوب حقّا الحىّ و الميت و الجماد

إلى الذى ليس فيه يشقى من حبّه داخل الفؤاد

شكوا، و قد طالت السّفار هم و مطاياهم، السّقام

فهى قسىّ من التثنّى و القوم من فوقها سهام

و لست من سكرتى مفيقا حتى أرى حجرة الرسول

فإن يسهّل لى الطريقا فذاك أقصى منى وسول

متى ترى عينى العقيقا و يفرح القلب بالوصول

كم قلت و الصّبر مستعار للرّكب إذ غادروا المنام

و نسمة الشّوق حرّكتنى و زاد بى الوجد و الغرام

قوموا فقد طال ذا الجلوس و بادروا زورة الحبيب

تاقت إلى طيبة النفوس لا عيش من دونها يطيب

لا حبّذا دونها الغروس و الماء و الشادن الرّبيب

و حبذا الرّمل و القفار و العرب فى تلكم الخيام

و أمّ غيلان ظلّلتنى و الأيك و الأثل و الثّمام

يا طيبة، حزت كلّ طيب بسيّد فيك ذى حلول

نداء مستضعف غريب فى غرّ أمداحه يقول

و هو من السامع المجيب لمدحه يسأل القبول

أنت الغنى لى فلا افتقار و أنت عزّى فلا أضام

مستمسك منك حسن ظنى بعروة ما لها انفصام

بسيّد العالمين أجمع بأحمد المجتبى الرسول

و من هو الشافع المشفّع فى موقف المحشر المهول

إذ لا كلام هناك يسمع للغير و الناس فى ذهول

إذ السماء لها انفطار و الشّهب منثورة النظام

كذا الجبال انثنت كعهن سريعة المرّ كالغمام

يا أوّل الرّسل فى الفضيله و إن تأخّرت فى الزّمن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۵۳

شفاعة نلت مع وسيله فمن يضاهى علاك من

علت بك الرّتبة الجليله و طبت فى السّرّ و العلن

فأنت من خيرهم خيار فمن يضاهيك فى المقام

و الرّسل نالت بك التمنّى و أنت بدر لهم تمام

الوجد قد قرّ فى فؤادى فما لصبر به قرار

و لا عجى صاعد اتّقاد و دمع عينى له انهمار

وها أنا جئت من بلادى لطيبة أبتغى الجوار

فحبّذا تلكم الديار و المصطفى مسكة الختام

عليه أزكى الصلاة منى و صحبه الغرّ و السّلام

و قول أبى جعفر الرّعينى الغرناطى. رحمه اللّه تعالى- و هو من التشريع، أحد أنواع البديع: [الكامل]

يا راحلا يبغى زيارة طيبة نلت المنى: بزيارة الأخيار

حيّ العقيق إذا وصلت وصف لنا وادى منّى: يا طيّب الأخبار

و إذا وقفت لدى المعرّف داعيا زال العنا: و ظفرت بالأوطار

و لمّا منّ اللّه تعالى علينا بالحلول فى المشاهد التى قام الدين بها و ظهر، و المعاهد التى بان الحقّ فيها و اشتهر، و المواطن التى هزم اللّه تعالى حزب الشيطان فيها و قهر، و نصرت النبوّة و عضدت، و قطعت غصون الكفر و حصدت، و رصّت قواعد التوحيد و نضدت، و قرّت العيون، و قضيت الديون، أنشد لسان الحال، قول بعض من جيده بمحاسن طيبة حال: [البسيط]

يا من له طيبة طابت حلى و على و من بتشريفه قد شرّف العرب

يا أحمد المصطفى، قد جئت من بلد قاص ولى خلد قاس ولى أرب

و قد دهتنى ذنوب قلت إذ عظمت للّه منها و طه المرتجى الهرب

و نسينا بمشاهدة ذلك الجناب ما كنّا فيه، و سبق الدمع الذى لا يعارض الفرح و لا ينافيه: [الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۵۴

أيها المغرم المشوق، هنيئا ما أنالوك من لذيذ التلاقى

قل لعينيك تهملان سرورا طالما أسعداك يوم الفراق

و اجمع الوجد و السرور ابتهاجا و جميع الأشجان و الأشواق

و أمر العين أن تفيض انهمالا و توالى بدمعها المهراق

هذه دارهم و أنت محبّ ما بقاء الدموع فى الآماق

و ملنا عن الأكوار، و ثملنا من عرف تلك الأنجاد و الأغوار، و تملّينا من هاتيك الأنوار، و تخلّينا عن الأغيار، و تحلّينا بحلى الأخيار، و كيف لا و طيبة مركز للزوّار: [الطويل]

إذا لم تطب فى طيبة عند طيّب به طيبة طابت فأين تطيب؟

و إن لم يجب فى أرضها ربّنا الدّعا ففى أىّ أرض للدعاء يجيب؟

أيا ساكنى أكناف طيبة، كلّكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

و ما أحسن قول عالم الأندلس المالكى اللبيب، عبد الملك السّلمى المشهور بابن حبيب: [الكامل]

للّه درّ عصابة صاحبتها نحو المدينة تقطع الفلوات

و مهامه قد جبتها و مفاوز ما زلت أذكرها بطول حياتى

حتى أتينا القبر قبر محمد خصّ الإله محمدا بصلات

خير البريّة و النبىّ المصطفى هادى الورى لطرائق لنجاة

لمّا وقفت بقربه لسلامه جادت دموعى واكف العبرات

و رأيت حجرته و موضعه الذى قد كان يدعو فيه فى الخلوات

مع روضة قد قال فيها: إنها مشتقّة من روضة الجنّات

و بمنزل الأنصار وسط قبابهم بيت الهداية كاشف الغمرات

و بطيبة طابوا و نالوا رحمة مغنى الكتاب و محكم الآيات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۵۵

و بقبر حمزة و الصحابة حوله فاضت دموع العين منهمرات

سقيا لتلك معاهدا شاهدتها و شهدتها بالخطو و اللحظات

لا زلت زوّارا لقبر نبيّنا و مدينة زهراء بالبركات

صلّى الإله على النبىّ المصطفى هادى البريّة كاشف الكربات

و على ضجيعيه السلام مردّدا ما لاح نور الحقّ فى الظّلمات

و قول كمال الدين ناظر قوص: [الطويل]

أنخ، هذه و الحمد للّه يثرب فبشراك قد نلت الذى كنت تطلب

فعفّر بهذا التّرب وجهك، إنه أحقّ به من كلّ طيب و أطيب

و قبّل ربوعا حولها قد تشرّفت بمن جاورت، و الشىء بالشىء يحبب

و سكّن فؤادا لم يزل باشتياقه إليها على جمر الغضى يتقلّب

و كفكف دموعا طالما قد سفحتها و برّد جوى نيرانه تتلهّب

و قول الرّعينى الغرناطى: [الخفيف]

هذه روضة الرسول فدعنى أبذل الدمع فى الصعيد السعيد

لا تلمنى على انسكاب دموعى إنّما صنتها لهذا الصّعيد

و لما سلّمت على سيّد الأنام، عليه من اللّه أفضل الصلاة و أزكى السلام، ذبت حياء و خجلا، لما أنا عليه من ارتكاب ما يقتضى وجلا، غير أنى توسّلت بجاهه صلّى اللّه عليه و سلّم فى أن أكون ممّن وضح له وجه الصفح وجلا: [مجزوء الوافر]

إليك أفرّ من زللى فرار الخائف الوجل

و كان مزار قبرك بال مدينة منتهى أملى

فوفّى اللّه ما طمحت له نفسى بلا خلل

فخذ بيدى غريق فى بحار القول و العمل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۵۶

وهب لى منك عارفة تعرّف ما تنكّر لى

و تهدينى إلى رشدى و تمنعنى من الزّلل

و تحملنى على سنن يؤمّننى من الوجل

فأنت دليل من عميت عليه مسالك السّبل

و إنك شافع برّ و موئلنا من الوهل

و إنك خير مبتعث و إنك خاتم الرّسل

فيا أزكى الورى شرفا و شافيهم من العلل

و يا أندى الأنام يدا و أكرم ناصر و ولى

نداء مقصّر وجل بثوب الفقر مشتمل

على جدواك معتمدى فأنقذنى من الدّخل

و ألحقنى بجنّات لدى درجاتها الأول

بصدّيق و فاروق و عثمان الرّضى و على

فأنت ملاذ معتصم و أنت عماد متّكل

عليك صلاة ربك ج لّ فى الغدوات و الأصل

و مذ شممنا من أرج تلك الأرجاء الذاكية، و استضأنا بسرج تلك الأضواء الزاكية، ظهر من الشوق ما كان بطن، و لم يخطر ببالنا سكن و لا وطن، و يا سعادة من أقام بتلك البقاع الشريفة و قطن: [الكامل]

مرّ النسيم بربعهم فتلذّذا حتى كأنّ النّشر صار له غذا

فصحا و صحّ و صاح لا أشكو أذى قل للصّبا ما ذا حملت من الشّذا

أمسست طيبا أم علاك عبير

يا أيها الحادى الذى من وسمه قصد الحبيب و أن يلمّ برسمه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۱؛ ص۵۶

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۵۷

هذى منازله فزمزم باسمه بأبى الذى لم تذو زهرة جسمه

لكنه غضّ الجمال نضير

للّه شوق قد تجاوز حدّه أوفى على الصّبر المشيد فهدّه

يا ناشق الكافور لا تتعدّه طوبى لمشتاق يعفّر خدّه

فى روضة الهادى إليه يشير.

فهناك يبذل فى التوسّل وسعه و يصيخ نحو خطيب طيبة سمعه

و يريق فوق حصى المصلّى دمعه و يرى معالم من يحبّ و ربعه

و محمد للعالمين بشير

صلّى عليه اللّه خير صلاته و حبا معاليه جليل صلاته

ما حنّ ذو الأشواق فی حالاته و أتی مغانیه علی علّاته

فأتیح حسن الختم و هو قریر

و وقفنا بباب طلب الآمال خاشعین، و توسّلنا إلی اللّه بذلک المقام العلیّ خاضعین، و غبطنا قوما سکنوا هنالک فکانوا لخدودهم متی شاؤوا علی تلک الأعتاب واضعین: [من المخمسات]

أکرم بعبد نحو طیبة منتد متوسّل مستشفع مسترشد

یفلی الفلاة لها بعزم أیّد وافی إلی قبر النبیّ محمد

و لربعه الأسمی یروح و یغتدی

أزجاه صادق حبّه المتمکّن و حداه سائق عزمه المتعیّن

فحکی لدی شجو حمام الأغصن هزجا یردّد فیه صوت ملحّن

و یمدّ للإطراب صوت المنشد

و یقول جئت بعزمة نزّاعة و نهضت و الدنیا تمرّ کساعة

لمحلّ أحمد قائلا بإذاعة هذا النبیّ المرتجی لشفاعة

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۱، ص: ۵۸

یوم القیامة بین ذاک المشهد

هذا الرؤوف بجاره و نزیله هذا سراج اللّه فی تنزیله

هذا الذی لا ریب فی تفضیله هذا حبیب اللّه و ابن خلیله

هذا ابن بانی البیت أوّل مسجد

هذا الذی اصطفت النّبوّة خیمه هذا الذی اعتام الهدی تقدیمه

هذا الذی نسقی غدا تسنیمه هذا الذی جبریل کان خدیمه

فی حضرة التشریف أزکی مصعد

هذا الذی شهد الوجود بخصّه بمزیّة التفضیل من مختصّه

و أبانه من وحیه فی نصّه هذا الذی ارتفع البراق بشخصه

فی لیلة الإسراء أشرف مشهد

هذا الذی غدت الطلول حدیقة بجواره وغدت تروق أنیقة

هذا المکمّل خلقة و خلیقة هذا الذی سمع النداء حقیقة

و دنا و لم یک قبل ذاک بمبعد

فهناک کم رسل به تتوسّل و علی حماه لدی المعاد یعوّل

یا أرحم الرّحماء أنت الموئل یا خاتم الإرسال أنت الأول

فترقّ فی أعلی المکارم و اصعد

اللّه رفّع فی سراه مناره و أبان فی السّبع العلا أنواره

فقفت ملائکة السما آثاره و أراه جنّته هناک و ناره

فمؤبّد و مخلّد لمخلّد

کم ذاد من وجل و جلّی ظلمة و امتنّ بالرّحمی و متّن حرمة

لمّا دجا أفق الضّلالة دهمة بعث الإله به ليرحم أمّة

لولاه كانت بالضلالة ترتدى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۵۹

حاز الشّفوف فكلّ خلق دونه فالغيث يسأل إذ يسيل يمينه

و الشمس تستهدى الشروق جبينه و اللّه فضّله و أظهر دينه

و وفى لنا فيه بصدق الموعد

نطقى يغادى ذكره و يراوح و به ينافح مسكة و ينافح

تعيى اللسان محامد و ممادح طوبى لمن قد عاش و هو يكافح

عنه يناضل باللسان و باليد

هو صفوة العرب الألى أحسابهم أسيافهم قرنت بها أسبابهم

فهم لباب المجد و هو لبابهم من آل بيت لم تزل أنسابهم

تنبى لهم عن طيب عنصر مولد

شرف النّبوّة قد رسا فى أهلها و سما على الزّهر العلا بمحلّها

ساق السوابق للفخار برسلها نطق الكتاب كما علمت بفضلها

و قضى به نصّ الحديث المسند

فوق السّماك توطّنت و توطّدت و تفرّدت بالمصطفى و توحّدت

فهى الخلاصة صفّيت فتجرّدت من معدن فيه الرسالة قد بدت

من عصر آدمنا لعصر محمد

طالوا فلم يبقوا لمجد مصعدا صالوا ففى أيمانهم حتف العدا

سئلوا فهم لعفاتهم غيث الجدا أهل السقاية و الرفادة و النّدى

و الكعبة البيت الحرام المقصد

المطعمون و قد طوى ألم الطّوى الناهضون إذا الصريخ لهم نوى

العاطفون إذا الطريق بهم لوى أهل السّدانة و الحجابة و اللّوى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۶۰

أهل المقام و زمزم و المسجد

المصلحون إذا الجموع تخاذعت المنجحون إذا المساعى دافعت

الدافعون إذا الأعادى قارعت المؤثرون إذا السّنون تتابعت

وفد الحجيج بنيل كلّ تفقّد

لا يقرب الخطب الملمّ منيعهم لا يطرق الكرب المخيف قريعهم

و اللّه شرّف بالنبىّ جميعهم من نال رتبتهم و حاز صنيعهم

نال الشّفوف و حاز معنى السؤدد

حلّوا من الطّود الأشمّ بمنعة فى خير معتصم و أسمى رفعة

فهم بمنّة أمنه فى هجعة اللّه خصّصهم بأشرف بقعة

محجوجة محفوفة بالأسعد

لمّا أتيت لرامة أصل السّرى من بعد قصدى مكة أمّ القرى

أنشدت جهرا فيه أنثر جوهرا و إليكها يا خير من وطئ الثّرى

عذراء تزرى بالعذارى الخرّد

كلّ الحسان لحسنها قد أدهشا ما مثلها فى تربها شاد نشا

سفرت بعزم ما أجدّ و أطيشا نشأت بطىّ القلب و ارتوت الحشا

زهراء من يرها يهلّ و يسجد

أمّتك تشؤو فى مداها الألسنا و ترى إجادتها المجيد المحسنا

تغدو و لا تثنى العنان عن الثّنا و أتتك تمرح كالقضيب إذا انثنى

مترنّحا بين الغصون الميّد

قد أعملت فى المدح ثاقب ذهنها ترجو الحلول لدى قرارة أمنها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۶۱

و عسى إذا غذيت بتربة عدنها يجلو لك الإحسان بارع حسنها

و الحسن يجلوها و إن لم تنشد

مدحى لخير العالمين عقيدتى و مطيّتى بل طيبتى و نشيدتى

و نتيجتى و هدى اليقين مفيدتى و لئن مدحت محمدا بقصيدتى

فلقد مدحت قصيدتى بمحمد

يا خير خلق اللّه دعوة حائر يشكو إليك صروف دهر جائر

و اللّه يعلم فى هواك سرائرى و هو الذى أرجو لعفو جرائرى

متوسّلا بجنابك المتأطّد

لو لا حقوق عيّنت بمغارب لمكثت عندك كى تتاح مآربى

و يكون فى الزرقاء عذب مشاربى حتى أحلّى من ثراك ترائبى

و أنال دفنا فى بقيع الغرقد

و عليك من ربّ حباك صلاته و سلامه و هباته و صلاته

ما أمّ بابك من هدته فلاته لعلاك حتى زحزحت علاته

فأتيح حسن الختم دون تردّد

ثم ودّعته صلّى اللّه عليه و سلّم و القلب من فراقه سقيم، و وقعت من البعد عن تلك المعاهد فى المقعد المقيم، و أنا أرجو أن يكون شكل منطقى غير عقيم، و أن أحشر فى زمرة من سلك الصراط المستقيم: [الخفيف]

يا شفيع العصاة أنت رجائى كيف يخشى الرجاء عندك خيبه

و إذا كنت حاضرا بفؤادى غيبة الجسم عنك ليست بغيبه

ليس بالعيش فى البلاد انتفاع أطيب العيش ما يكون بطيبه

[عودة المؤلف إلى مصر و زيارته بين المقدس]

ثم عدت إلى مصر، و قد زال عنّى ببركته صلّى اللّه عليه و سلّم الإصر، و ذلك فى محرم سنة ۱۰۲۹، ثم قصدت زيارة بيت المقدس فى شهر ربيع من هذا العام، و قد شملتنى بفضل اللّه جوائز

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۶۲

الإنعام، و تذكّرت عند مشاهدة تلك المسالك الصعبة قول حافظ الحفّاظ ابن حجر العسقلانى- رحمه اللّه تعالى- و هو ممّا زادنى فى هذه الزيارة رغبة: [الوافر]

إلى البيت المقدّس جئت أرجو جنان الخلد نزلا من كريم

قطعنا فى مسافته عقابا و ما بعد العقاب سوى النعيم

فلما دخلت المسجد الأقصى، و أبصرت بدائعه التى لا تستقصى، بهرنى جماله الذى تجلّى اللّه به عليه، و سألت عن محلّ المعراج الشريف فأرشدت إليه، و شاهدت محلّا أمّ فيه صلّى اللّه عليه و سلّم الرّسل الكرام الهداة، و كان حقّى أن أنشد هنالك ما قاله بعض الموفقين و هو مما ينبغى أن تزمزم به الحداة: [مجزوء الكامل]

إن كنت تسأل أين قد ر محمد بين الأنام

فأصخ إلى آياته تظفر بريّك فى الأوام

أكرم بعبد سلّمت تقديمه الرّسل الكرام

فى حضرة للقدس وا فاها بعزّ و احترام

صفّوا و صلّوا خلفه إنّ الجماعة بالإمام

للشّهب نور بيّن و الفضل للقمر التّمام

سلك النّبوّة باهر و بأحمد ختم النظام

هذا الكتاب دلالة تبقى إلى يوم القيام

شهدت له من بعد عج ز ألسن اللّدّ الخصام

خير الورى و أجلّ آ يات له خير الكلام

فعليه من ربّ الورى أزكى صلاة مع سلام

و ربما يقول من يقف على سرد هذه الأمداح النبوية: إلى متى و هذا الميدان تكلّ فيه فرسان البديهة و الرّويّة؟ فأنشده فى الجواب، قول بعض من أمّ نهج الصّواب: [الرمل]

لأديمنّ مديح المصطفى فعل من فى اللّه قوّى طمعه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۶۳

فعسى أنعم فى الدنيا به و عسى يحشرنى اللّه معه

و إذا كان القريض فى بعض الأحيان كذبا صراحا، و الموفّق من تركه و الحالة هذه رغبة عنه و له اطّراحا، فخيره ما كان حقّا و هو مدح اللّه و رسوله، و بذلك يحصل للعبد منتهى سوله:

[الخفيف]

ليس كلّ القريض يقبله السّم ع و تصغى لذكره الأفهام

إنّ بعض القريض ما كان هزءا ليس شيئا، و بعضه أحكام

و أجلّ الكلام ما كان فى مد ح شفيع الورى عليه السلام

طيّب العرف دائم الذّكر لا تأ تى الليالى عليه و الأيّام

مثل زهر قد شقّ عنه كمام أو كمسك قد فضّ عنه ختام

ليس تحصى صفات أحمد بالعدّ كما لم تحط به الأوهام

و لو انّ البحار حبر و ما فى ال أرض من كلّ نابت أقلام

فطويل المديح فيه قصير و حسام ماض لديه كهام

و لسان البليغ للعىّ ينمى و كذا صيّب الفصيح جهام

كيف يحصى مديح مولى عليه ال لّه أثنى و ذكره مستدام

و له المعجزات و الآى تبدو لا يغطّى وجوههنّ لثام

فمن المعجزات أن سار ليلا و جميع الأنام فيه نيام

راكبا للبراق حتى أتى القد س و فيه رسل الإله الكرام

فاستووا خلفه صفوفا و قالوا صلّ يا أحمد فأنت الإمام

فعليه من ربّه صلوات زاكيات مع صحبه و سلام

[عودة المؤلف إلى مصر و خدمته العلم بالأزهر]

ثم رجعت إلى القاهرة، و كرّرت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة، فدخلت لهذا التاريخ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۶۴

الذى هو عام تسعة و ثلاثين و ألف مكة خمس مرات، حصلت لى بالمجاورة فيها المسرّات، و أمليت فيها على قصد التبرّك دروسا عديدة، و اللّه يجعل أيام العمر بالعود إليها مديدة، و وفدت على طيبة المعظّمة ميمّما مناهجها السديدة، سبع مرار، و أطفأت بالعود إليها ما بالأكباد الحرار، و استضأت بتلك الأنوار، و ألّفت بحضرته صلّى اللّه عليه و سلّم بعض ما منّ اللّه به علىّ فى ذلك الجوار، و أمليت الحديث النبوىّ بمرأى منه عليه الصلاة و السلام و مسمع، و نلت بذلك و غيره- و للّه المنّة- ما لم يكن لى فيه مطمح و لا مطمع، ثم أبت إلى مصر مفوّضا للّه جميع الأمور، ملازما خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور، و كان عودى من الحجة الخامسة بصفر سنة سبع و ثلاثين و ألف للهجرة، فتحرّكت همّتى أوائل رجب هذه السنة للعود للبيت المقدّس، و تجديد العهد بالمحلّ الذى هو على التقوى مؤسّس، فوصلت أواسط رجب، و أقمت فيه نحو خمسة و عشرين يوما بدا لى فيها بفضل اللّه وجه الرشد و ما احتجب. و ألقيت عدة دروس بالأقصى و الصخرة المنيفة، و زرت مقام الخليل و من معه من الأنبياء ذوى المقامات الشريفة، و كنت حقيقا بأن أنشد قول ابن مطروح، فى ذلك المقام الذى فضله معروف و أمره مشروح: [الوافر]

خليل اللّه، قد جئناك نرجو شفاعتك التى ليست تردّ

أنلنا دعوة و اشفع تشفّع إلى من لا يخيب لديه قصد

و قل يا ربّ أضياف و وفد لهم بمحمّد صلة و عهد

أتوا يستغفرونك من ذنوب عظام لا تعدّ و لا تحدّ

إذا وزنت بيذبل أو شمام رجحن و دونها رضوى و أحد

و لكن لا يضيق العفو عنهم و كيف يضيق و هو لهم معدّ

و قد سألوا رضاك على لسانى إلهى ما أجيب و ما أردّ

فيا مولاهم عطفا عليهم فهم جمع أتوك و أنت فرد

[ثم زيارة إلى دمشق و وصفها]

ثم استوعبت أكثر تلك المزارات المباركة كمزار موسى الكليم، على نبيّنا و عليهم و على سائر المرسلين و الأنبياء أجمعين أفضل الصلاة و التسليم، ثم حدث لى منتصف شعبان، عزم على الرحلة إلى المدينة التى ظهر فضلها و بان، دمشق الشام ذات الحسن و البهاء و الحياء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۶۵

و الاحتشام، و الأدواح المتنوّعة، و الأرواح المتضوّعة، حيث المشاهد المكرّمة، و المعاهد المحترمة، و الغوطة الغنّاء و الحديقة، و المكارم التى يبارى فيها المرء شانئه و صديقه، و الأظلال الوريفة و الأفنان الوريقة، و الزّهر الذى تخاله مبسما و النّدى ريقه، و القضبان الملد، التى تشوّق رائيها بجنة الخلد: [الوافر]

بحيث الروض وضّاح الثنايا أنيق الحسن مصقول الأديم

و هى المدينة المستولية على الطّباع، المعمورة البقاع، بالفضل و الرباع: [الطويل]

تزيد على مرّ الزمان طلاوة دمشق التى راقت بحلو المشارب

لها فى أقاليم البلاد مشارق منزّهة أقمارها عن مغارب

و دخلتها أواخر شعبان المذكور، و حمدت الرحلة إليها و جعلها اللّه من السعى المشكور:

[الطويل]

وجدت بها ما يملأ العين قرّة و يسلى عن الأوطان كلّ غريب

و شاهدت بعض مغانيها الحسنة، و مبانيها المستحسنة: [الطويل]

نزلنا بها ننوى المقام ثلاثة فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرا

و رأينا من محاسنها ما لا- يستوفيه من تأنّق فى الخطاب، و أطال فى الوصف و أطاب، و إن ملأ- من البلاغة الوطاب، كما قلت: [المجتث]

محاسن الشام أجلى من أن تحاط بحدّ

لو لا حمى الشّرع قلنا و لم نقف عند حدّ:

كأنها معجزات مقرونة بالتحدّى

فالجامع الجامع للبدائع يبهر الفكر، و الغوطة المنوطة بالحسن تسحر الألباب لا سيما إذا حيّاها النسيم و ابتكر: [الطويل]

أحبّ الحمى من أجل من سكن الحمى حديث حديث فى الهوى و قديم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۶۶

فللّه مرآها الجميل الجليل، و بيوتها التى لم تخرج عن عروض الخليل، و مخبرها الذى هو على فضلها و فضل أهلها أدلّ دليل، و منظرها الذى ينقلب البصر عن بهجته و هو كليل: [الكامل]

و الروض قد راق العيون بحلّة قد حاكها بسحابه آذار

و على غصون الدّوح خضر غلائل و الزّهر فى أكمامه أزرار

فكم لها من حسن ظاهر و كامن، كما قلت موطّئا للبيت الثامن: [مجزوء الكامل]

أمّا دمشق فجنّة لعبت بألباب الخلائق

هى بهجة الدّنيا التى منها بديع الحسن فائق

للّه منها الصالحى ية فاخرت بذوى الحقائق

و الغوطة الغنّاء حيّ ت بالورود و بالشقائق

و النهر صاف و النسى م اللّدن للأشواق سائق

و الطير بالعيدان أب دت فى الغنا أحلى الطرائق

و لآلىء الأزهار حلّ ت جيد غصن فهو رائق

و مراوذ الأمطار قد كحلت بها حدق الحدائق

لا زال مغناها مصو نا آمنا كلّ البوائق

و كما قلت مرتجلا أيضا مضمّنا الرابع و الخامس: [المجتث]

دمشق راقت رواء و بهجة و غضاره

فيها نسيم عليل صحّ فوافت بشاره

و غوطة كعروس تزهى بأعجب شاره

يا حسنها من رياض مثل النّضار نضاره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۶۷

كالزهر زهرا و عنها عرف العبير عباره

و الجامع الفرد منها أعلى الإله مناره

و حاصل القول فيها لمن أراد اختصاره

تذكيرها من رآها عدنا و حسبى إشاره

دامت تفوق سواها إنالة و إناره

و كما ارتجلت فيها أيضا: [الخفيف]

قال لى ما تقول فى الشام حبر كلّما لاح بارق الحسن شامه

قلت ما ذا أقول فى وصف قطر هو فى و جنة المحاسن شامه

و قلت أيضا: [الخفيف]

قال لى صف دمشق مولى رئيس جمّل اللّه خلقه و احتشامه

قلت كلّ اللسان فى وصف قطر هو فى وجنة البسيطة شامه

و قلت أيضا: [الكامل]

و إذا وصفت محاسن الدنيا فلا تبدأ بغير دمشق فيها أوّلا

بلد إذا أرسلت طرفك نحوه لم تلق إلّا جنّة أو جدولا

ذا وصف بعض صفاتها و هى التى تعيى البليغ و إن أجاد و طوّلا

و الغاية فى هذا الباب، من الوصف لبعض محاسنها الفاتنة الألباب، قول أبى الوحش سبع بن خلف الأسدى يصف أرضها المشرقة، و رياضها المورقة، و نسيمها العليل، و زهرها البليل: [الرجز]

سقى دمشق الشام غيث ممرع من مستهلّ ديمة دفّاقها

مدينة ليس يضاهى حسنها فى سائر الدنيا و لا آفاقها

تودّ زوراء العراق أنها تعزى إليها لا إلى عراقها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۶۸

فأرضها مثل السماء بهجة و زهرها كالزهر فى إشراقها

نسيم ريّا روضها متى سرى فكّ أخا الهموم من وثاقها

قد ربع الربيع فى ربوعها و سيقت الدنيا إلى أسواقها

لا تسأم العيون و الأنوف من رؤيتها يوما و لا انتشاقها

و قول شمس الدين الأسدى الطيبى: [الوافر]

إذا ذكرت بقاع الأرض يوما فقل سقيا لجلّق ثم رعيا

و قل فى وصفها لا فى سواها: بها ما شئت من دين و دنيا

و كأنّ لسان الدين ذا الوزارتين ابن الخطيب، عناها بقوله المصيب: [الكامل]

بلد تحفّ به الرياض كأنّه وجه جميل و الرياض عذاره

و كأنّما واديه معصم غادة و من الجسور المحكمات سواره

و كنت قبل رحلتى إليها، و وفادتى عليها، كثيرا ما أسمع عن أهلها زاد اللّه فى ارتقائهم، ما يشوّقنى إلى رؤيتها و لقائهم، و ينشقنى على البعد أريج الأدب الفائق من تلقائهم، حتى لقيت بمكة المعظمة، أوحد كبرائها الذين فرائدهم بلبّة الدهر منظّمة، عين الأعيان، و صدر أرباب التفسير بها و البيان، صاحب القلم الذى طبّق الكلى و المفاصل، و الفتاوى التى حكمها بين الحق و الباطل فاصل، و التآليف التى وصفها بالإجادة من باب تحصيل الحاصل، وارث العلم عن غير كلالة، ذو الحسب المشرق بدره فى سماء الجلالة، صاحب المعارف التى زانت خلاله، و ساحب أذيال العوارف التى أبانت عن فضله دلالة، مفتى السلطان فى تلك الأوطان، على مذهب الإمام النّعمان، مولانا الشيخ عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام عماد الدين، لا زال سالكا سبيل المهتدين، فكان جمّل اللّه به عصرا و أوانا، لقضية هذا القياس عنوانا، فلما حللت بدارهم، و رأيت ما أذهلنى من سبقهم للفضل و بدارهم، صدق الخبر،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۶۹

و تمثّلت فيهم بقول بعض من غبر: [الطويل]

ألمّت بنا أوصافهم فامتلأ الفضا عبيرا و أضحى نوره متألّقا

و قد كان هذا من سماع حديثهم بلاغا فصحّ النّقل إذ حصل اللّقا

و قابلونى- أسماهم اللّه- بالاحتفال و الاحتفاء، و عرّفنى بديع برّهم فنّ الاكتفاء:

[الخفيف]

غمرتنى المكارم الغرّ منهم و توالت علىّ منها فنون

شرط إحسانهم تحقّق عندى ليت شعرى الجزاء كيف يكون

و قابلونى بالقبول مغضين عن جهلى: [الطويل]

و ما زال بى إحسانهم و جميلهم و برّهم حتى حسبتهم أهلى

بل الأولى أن أتمثّل فيهم بما هو أبلغ من هذا المقول فى آل المهلّب، و هو قول بعض من نزل بقوم برق قصدهم غير خلّب، فى زمن به تقلّب: [الطويل]

و لمّا نزلنا فى ظلال بيوتهم أمنّا و نلنا الخصب فى زمن المحل

و لو لم يزد إحسانهم و جميلهم على البرّ من أهلى حسبتهم أهلى

لا سيما المولى الذى أمداحه تحلّى أجياد الطّروس العاطلة، و سماحه يخجل أنواء الغيوث الهاطلة، صدر الأكابر الأعاظم، الحائز قصب السّبق فى ميدان الإجادة بشهادة كلّ ناثر و ناظم، الصديق الذى بودّه أغتبط، و الصّدوق الذى بأسباب عهده أرتبط، الأوحد الذى

ضربت البراعة رواقها بناديه، و الماجد الذى لم يزل بديع البلاغة من كثب يناديه، السّرىّ الحائز من الخلال ما أبان تفضيله، اللّوذعىّ الذى لم تزل أوصافه تحكم له بالسؤدد و تقضى له، و الحقّ أبلج لا يحتاج إلى زيادة براهين، الأجلّ المولى أحمد أفندى بن شاهين، لا زالت العزة مقيمة بواديه، و لا برحت حضرته جامعة لبواطن الفخر و بواديه، و السّعد يراوح مقامه و يغاديه، و المجد يترنّم بذكره حاديه، فكم له- أسماه اللّه- و لغيره من أعيان دمشق لدىّ من أياد، يعجز عن الإبانة عنها لو أراد وصفها قسّ إياد، و لو تعرّضت لأسمائهم و حلاهم، أدام اللّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۷۰

تعالى سؤددهم و علاهم، لضاق عن ذلك هذا النّطاق، و كان من شبه التكليف بما لا يطاق، فليت شعرى بأىّ أسلوب، أؤدّى بعض حقّهم المطلوب؟ أم بأى لسان، أثنى على مزاياهم الحسان؟ و ما عسى أن أقول فى قوم نسقوا الفضائل ولاء، و تعاطوا أكواب المحامد ملاء؟

و سحبوا من المجد مطارف و ملاء، و حازوا المكارم، و بذّوا الموادد و المصارم، سؤددا و علاء؟: [الرجز]

فما رياض زهر الرّبيع إذا بدت فى وشيها البديع

ضاحكة عن شنب الأقاح عند سفور طلعة الصّباح

غنّى بها مطوّق الحمام و صافحتها راحة الغمام

و باكرتها نسمة من الصّبا فأصبحت كأنها عهد الصّبا

نضارة و رونقا و بهجه تفدى بكلّ ناظر و مهجه

أطيب من ثنائهم عبيرا بين الورى فاسأل به خبيرا

دامت معاليهم على طول الزمن يروى حديث الفضل عنها عن حسن

و ثابت و قرّة و سعد و أسعفوا بنيل كلّ وعد

فهم الذين نوّهوا بقدرى الخامل، و ظنّوا مع نقصى أنّ بحر معرفتى وافر كامل، حسبما اقتضاه طبعهم العالى:

فلو شريت بعمرى ساعة ذهبت من عيشتى معهم ما كان بالغالى

فمتعيّن حقّهم لا يترك، و حبّهم لا يخالط بغيره و لا يشرك، و إن أطلت الوصف فالغاية فى ذلك لا تدرك: [البسيط]

يزداد فى مسمعى ترداد ذكرهم طيبا و يحسن فى عينى مكرّره

و إذا كان المديح الصادق لا يزيدهم رفعة قدر، فهم كما قال الأعرابى الذى ضلّت ناقته فى مدح البدر، و البليغ و ذو الحصر فى ذلك سيّان، و الحقّ أبلج و الباطل لجلج و ليس الخبر كالعيان: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۷۱

هب الرّوض لا يثنى على الغيث نشره أ تحسبه تخفى مآثره الحسنى

[وصف دمشق و ذكر محاسنها]

و قد تذكرت بلادى النائية، بذلك المرأى الشامى الذى يبهر رائيه، فلما شئت من أنهار ذات انسجام، أترع فيها من جريال الأنس جام، و أزهار متوّجة للأدواح، مروّحة للنفوس بعاطر الأرواح، و حدائق تعشى أنوارها الأحداق، و عيانها للخبر عنها مصداق و أى مصداق: [الكامل]

فهى التى ضحك النهار صباحها و بكت عشيّتها عيون النرجس

و اخضرّ جانب نهرها فكأنّه سيف يسلّ و غمده من سندس

و جنان، أفنانها فى الحسن ذوات افتنان: [الخفيف]

صافحتها الرياح فاعتنق السّر و و مالت طواله للقصار

لائذ بعضه ببعض كقوم فى عتاب مكرّر و اعتذار

و بطاح راق سناها، و كمل حسنها و تناهى، كما قلت مضمّنا فى ذلك المنحى، لقول بعض من نال فى البلاغة منى و منحا: [الوافر]

دمشق لا يقاس بها سواها و يمتنع القياس مع النّصوص

حلاها راقت الأبصار حسنا على حكم العموم أو الخصوص

بساط زمرّد نثرت عليه من الياقوت ألوان الفصوص

و للّه درّ القائل، فى وصف تلك الفضائل: [الخفيف]

إن تكن جنّة الخلود بأرض فدمشق، و لا يكون سواها

أو تكن فى السماء فهى عليها قد أمدّت هواءها و هواها

بلد طيّب و ربّ غفور فاغتنمها عشيّة أو ضحاها

و عند رؤيتى لتلك الأقطار، الجليلة الأوصاف العظيمة الأخطار، تفاءلت بالعود إلى أوطان لى بها أوطار، إذ التشابه بينهما قريب فى الأنهار و الأزهار، ذات العرف المعطار، و زادت هذه بالتقديس الذى همعت عليها منه الأمطار، و تمثّلت بقول الأصفهانى، و إن غيّرت يسيرا منه لما أسفرت وجوه التهانى: [مجزوء الكامل]

لمّا وردت الصالحى يهٔ حيث مجتمع الرّفاق

و شممت من أرض الشآ م نسيم أنفاس العراق

أيقنت لى و لمن أحب بجمع شمل و اتّفاق

و ضحكت من فرح اللقا ء كما بكيت من الفراق

لم يبق لى إلّا تجشم أزمن السّفر البواقى

حتى يطول حديثنا بصفات ما كنّا نلاقى

و كنت قبل حلولى بالبقاع الشامية مولعا بالوطن لا سواه، فصار القلب بعد ذلك مقسّما بهواه: [الطويل]

ولى بالحمى أهل و بالشّعب جيرة و فى حاجر خلّ و فى المنحنى صحب

تقسّم ذا القلب المتيّم بينهم سألتكم بالله هل يقسم القلب؟

فيا لك من صبّ مراع للذمام، منقاد لشوقه بزمام، يخيّل له أنه سمع صوت قيان، بقول الأول: [الطويل]

إلى اللّه أشكو بالمدينة حاجة و بالشام أخرى كيف يلتقيان

و فرد تعدّدت جموعه، و وشت بما أكنّت ضلوعه دموعه، فأنشد و قد تحيّر، ما بدّل فيه من عظم ما به و غيّر: [البسيط]

كتمت شأن الهوى يوم النّوى فوشى بسرّه من جفونى أىّ نمّام

كانت ليالىّ بيضا فى دنوّهم فلا تسل بعدهم عن حال أيامى

ضنيت وجدا بهم و الناس تحسب بى سقما فأبهم حالى عند لوّامى

و ليس أصل ضنى جسمى النحيل سوى فرط اشتياقى لأهل الغرب و الشام

و حصل التحيّر، حيث لم يمكن الجمع و لا الخلوّ عند التخيّر، كما قال ابن دقيق العيد، فى مثل هذا الغرض البعيد: [الطويل]

إذا كنت فى نجد و طيب نعيمه تذكّرت أهلى باللّوى فمحسّر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۷۳

و إن كنت فيهم زدت شوقا و لوعة إلى ساكنى نجد و عيل تصبّرى

فقد طال ما بين الفريقين موقفى فمن لى بنجد بين أهلى و معشرى

[فضل دمشق]

و بالجملة فالاعتراف بالحقّ فريضة، و محاسن الشام و أهله طويلة عريضة، و رياضه بالمفاخر و الكمالات أريضة، و هو مقرّ الأولياء و الأنبياء، و لا يجهل فضله إلّا الأغمار الأغبياء، الذين قلوبهم مريضة: [البسيط]

أنّى يرى الشّمس خفّاش يلاحظها و الشمس تبهر أبصار الخفافيش

و للّه درّ من قال فى مثل هذا من الأرضياء: [الوافر]

و هبنى قلت هذا الصّبح ليل أ يعمى العالمون عن الضّياء

و قال آخر فيمن عن الحق ينفر: [الطويل]

إذا لم يكن للمرء عين بصيرة فلا غرو أن يرتاب و الصّبح مسفر

و حسب الفاضل اللبيب، أن يروى قول البدر بن حبيب: [السريع]

عرّج إذا ما شمت برق الشآم و حيّ أهل الحىّ واقر السلام

و انزل بإقليم جزيل الحيا بارك فيه اللّه ربّ الأنام

العزّ و النّصر لديه، و ما لعروة الإسلام عنه انفصام

من أولياء اللّه كم قد حوى ركنا بمرآه يطيب المقام

و هو مقرّ الأنبياء الألى و الأصفياء الأتقياء الكرام

كم من شهيد فى حماه و كم من عالم فرد و كم من إمام

و لذلك اعتنت الجهابذة بتخليد أخباره فى الدواوين، و ابتنت الأساتذة بيوت افتخاره المنيفة الأواوين، و تناقلت أنباءه البديعة ألسن الراوين، و هامت بأماكنه المريعة هداة الشريعة فضلا عن الشعراء الغاوين، و مع ذلك فهم فى التعبير عن عجائبه غير متساوين، أولا يرى أنهم يأتون من مقولهم، على قدر رأيهم و عقولهم، و لم يبلغ جمع منهم ما كانوا له ناوين: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۷۴

على قدرك الصّهباء توليك نشوة بها سىء أعداء و سرّ صحاب

و لو أنها تعطيك منها بقدرها لضاقت بك الأكوان و هى رحاب

و كنّا فى خلال الإقامة بدمشق المحوطة، و أثناء التأمّل فى محاسن الجامع و المنازل و القصور و الغوطة، كثيرا ما ننظم فى سلك المذاكرة درر الأخبار الملقوطة، و نتفيّأ من ظلال التبيان مع أولئك الأعيان فى مجالس مغبوطة، نتجاذب فيها أهداب الآداب، و نشرب من سلسال الاسترسال و نتهادى لباب الألباب، و نمدّ بساط الانبساط و نسدل أطناب الإطناب، و نقضى أوطار الأقطار، و نستدعى أعلام الأعلام، فينجرّ بنا الكلام و الحديث شجون، و بالتفنّن يبلغ المستفيدون ما يرجون، إلى ذكر البلاد الأندلسية، و وصف رياضها السندسية، التى هى بالحسن منوطة، و قضاياها الموجّهة التى لا يستوفيها المنطق مع أنها ضرورية و ممكنة و مشروطة، و الفطر السليمة، و الأفهام المستقيمة، بتسليم براهينها قاضية لا سيما إن كانت بالإنصاف مربوطة، فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجرى على لسانى، من الفيض الرحمانى، و أسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السّلمانى، صبّ اللّه عليه شآبيب رحماه و بلّغه من رضوانه الأمانى! ما تثيره المناسبة و تقتضيه، و تميل إليه الطباع السليمة و ترتضيه، من النظم الجزل، فى الجدّ و الهزل، و الإنشاء، الذى يدهش

به ذاكره الألباب إن شاء، و تصرّفه فى فنون البلاغة حالى الولاية و العزل، إذ هو- أعنى لسان الدين- فارس النظم و النثر فى ذلك العصر، و المنفرد بالسبق فى تلك الميادين بأداة الحصر، و كيف لا و نظمه لم تستول على مثله أيدى الهصر، و نثره تزرى صورته بالخريدة و دمية القصر.

[اقتراح ابن شاهين على المؤلف تأليف كتاب عن لسان الدين بن الخطيب، و اعتذاره]

فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم، لهجوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة إجماعهم، و علق بقلوبهم، و أضحى منتهى مطلوبهم، و منية آمالهم و أطماعهم، و صاروا يقطفون بيد الرغبة فنونه، و يعترفون ببراعته و يستحسنونه، و يستنشقون من أزهاره كلّ ذاك، فطلب منّى المولى أحمد الشاهينى إذ ذاك، و هو الماجد المذكور، ذو السعى المشكور، أن أتصدّى للتعريف بلسان الدين فى مصنّف يعرب عن بعض أحواله و أنبائه، و بدائعه و صنائعه و وقائعه مع ملوك عصره و علمائه و أدبائه، و مفاخره التى قلّد بها جيد الزمان و لبّته، و مآثره التى أرج بها مسرى الشّمال و هبّته، و بعض ما له من النّثار و النظام، و المؤلفات الكبار العظام، الرائقة للأبصار، الفائقة على كلام كثير من أهل الأمصار، السائرة مسير القمر و الشمس،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۷۵

المعقودة عليها بالخناصر بل الخمس، كى ما يكون ذلك لهذه الأغراض مشيعا، و يخلع على مطالعه بهذه البلاد المشرقية من أغراضه البديعة و منازعه و شيعا.

فأجبته أسمى اللّه قدره الكبير، و أدام عرف فضائله المزرى بالعنبر و العبير، بأن هذا الغرض غير سهل، و لست علم اللّه له بأهل، من جهات عديدة، أوّلها قصورى عن تحمّل تلك الأعباء الشديدة، إذ لا يوفّى بهذا الغرض إلّا الماهر بطرق المعارف السديدة، و ثانيها عدم تيسّر الكتب المستعان بها على هذا المرام لأنى خلّفتها بالمغرب، و أكثرها فى المشرق كعنقاء مغرب، و ثالثها شغل الخاطر بأشجان الغربة، الجالبة للفكر غاية الكربة، و تقسّم البال، بين شغل عائق و بلبال، و أنّى يطيق، سلوك هذا المضيق، من اكتحلت جفونه بالسهاد، و نبت جنوبه عن المهاد، و سدّد نحوه الأسف سهمه، و شغل باله و وهمه، و بثّ فى قلبه تريحا، و عناء لم يجد منه إلّا أن يلطف اللّه تسريحا، فما شام بارقة أمل إلّا فى النادر، و لا ورد منهل صفاء إلّا و كدّره مكر غادر، و قد كثر الجفاء، و برح بلا شكّ الخفاء، و استوخمت الموارد و المصادر، و القلب مكلوم، و ذو اللب غير ملوم، إذا كان على تلفيق ما يليق غير قادر، و لا مؤنس إلا شاكى دهر بلسان صريح، أو باكى قاصمة ظهر بجفن قريح، أو مناضل فى معترك العجز طريح، أو فاضل دفن من الخمول فى ضريح، إذ رمته سهام الأوهام الصوائب، و عضّت منه إبهام الإبهام بنابها النوى و النوائب، فقلوبه من تقلّبات أحواله ذوائب، و كم شابت من أمثاله بصروف الدهر و أهواله ذوائب: [الطويل]

على أنها الأيام قد صرن كلّها عجائب حتى ليس فيها عجائب

و أدمع أحجارها، تسلّط فجّارها، فكم من عدوّ منهم فى ثياب صديق، و حسود لنظره إلى نعم اللّه على عباده تحديق، لا تخدعه المداراة، و لا تردعه المماراة، يتتبع العثرات، و يقنع بألم البثرات، و يتبسم، و قلبه من الغلّ يتقسّم، و يتودّد، و مكايده تتجدّد فتتعدّد: [الخفيف]

لا ترم من مماذق الودّ خيرا فبعيد من السّراب الشراب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۷۶

رونق كالحباب يعلو على الما ء و لكن تحت الحباب الحباب

عظمت فى النّفاق ألسنة القو م و فى الألسن العذاب العذاب

و الصديق الصدوق فى هذا الزمن قليل، و قد ألّف بعض العلماء «شفاء الغليل، فى ذمّ الصاحب و الخليل». و هو غير محمول على

الإطلاق، و إن قال به بعض من رهنه من أبناء عصره ذو إغلاق: [مجزوء الكامل]

أبناء دهرك فالقهم مثل العدا بسلاحكا

لا تغترر بتبسّم فالسّيف يقتل ضاحكا

و داء الحسد أعيا الأوّل و الآخر، و قد عظم الأمر فى هذا الأوان و كثر المزدرى و الساخر، مع أن أسواق الدفاتر كاسدة، و أمزجة المحابر فاسدة: [مجزوء الكامل]

و الدّهر دهر الجاهلى ن و أمر أهل العلم فاتر

لا سوق أكسد فيه من سوق المحابر و الدفاتر

فالمنسوب للعلم فى هذا الزمن زمن، و هو بأن ينشد قول الأول قمن: [الوافر]

لأىّ و ميض بارقة أشيم ورعى الفضل عندهم هشيم

و ليت شعرى علام يحسد من أبدل الاغتراب شارته، و أضعف الاضطراب إشارته، و أنهل بالدموع أنواءه، و قلّل أضواءه، و كثّر علله و أدواءه، و غيّر عند التأمّل رواءه، و ثنى عن المأمول عنانه، و أرهف بالخمول سنانه، حتى قدح الذكر حنانه، و ملأ الفكر جأشه و جنانه، فهو فى ميدان النزوح مستبق، و من راحة التعب مصطبح و مغتبق: [الطويل]

له أتّه المشتاق فى كلّ ساعة تمرّ و ما للثاكلات من الحزن

و من مرسلات الدمع واقعة الأسى و من عاديات البين قارعة السّنّ

تثير الذكرى منه كوامن الشجون، و تدير عليه جام الهيام و لو كان بين الصّفا و الحجون:

[الطويل]

و تحت ضلوع المستهام كآبة يخاف على الأحشاء منها التّفطّرا

و لو أنّ أحشاء تبوح بما حوت لتمتلئنّ الأرض كتبا و أسطرا

و شتّان ما بين الاقتراب و الاغتراب، و السكون فى الركون و النبوّ عنها و الاضطراب، فذاك تسهل غالبا فيه الأغراض و المآرب، و هذا تتعفّر فيه المقاصد و تتكدّر المشارب: [الطويل]

و ما أنا عن تحصيل دنيا بعاجز و لكن أرى تحصيلها بالدّنيّة

و إن طاوعتنى رقّة الحال مرّة أبت فعلها أخلاق نفس أبيّة

و كما قلت، عندما صرت إلى الاغتراب و ألت: [الوافر]

تركت رسوم عزّى فى بلادى و صرت بمصر منسىّ الرسوم

و رضت النفس بالتجريد زهدا و قلت لها عن العلياء صومى

مخافة أن أرى بالحرص ممّن يكون زمانه أحد الخصوم

و كما قال بعض الأكابر، من أهل الزمان الغابر: [الكامل]

لا عار إن عطلت يداى من الغنى كم سابق فى الخيل غير محجّل

صان اللئيم، و صنت وجهى، ماله دونى، فلم يبذل و لم أتبذّل

أبكى لهمّ ضافنى متأوّبا إنّ الدموع قرى الهموم النّزّل

لا تنكروا شيبا ألمّ بمفرقى عجلا كأنّ سناه سلّة منصل

فلقد دفعت إلى الهموم تنوبنى منها ثلاث شدائد جمّعن لى

أسف على ماضى الزمان، و حيرة فى الحال منه، و وحشة المستقبل

ما إن وصلت إلى زمان آخر إلا بكيت على الزّمان الأوّل

للّه عهد بالحمى لم أنسه أيام أعصى فى الصبابة عذّلى

و يرحم اللّه ابن قلاقس الإسكندرى، إذ قال فى معنى التمنّى المصدرى: [الطويل]

لعلّ زمانى بالعذيب يعود فيقرب قرب أو يصدّ صدود

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۷۸

و أبصر كثبانا و هزّ روادف عليهنّ أغصان و هنّ قدود

و أقطف ورد الخدّ و هو مضرّج و أجنى أقاح الثغر و هو برود

و أدنى ذراعى للعناق ذريعة فتنهى عن الإفراط فيه نهود

و يسرى إلىّ البدر و هو ممنّع و يغدو إلىّ الظّبى و هو شرود

و نكرع فى شكوى الفراق كأننا فوارط هيم راقهنّ ورود

و أكبر مقدار الهوى عن كبيرة و أحمى عفافى دونه و أذود

[إصرار ابن شاهين و عدم قبوله عذر المؤلف]

و فرق ما بين الجوهر و العرض، و الصّحّة البيّنة و المرض، و الدّرّ و الحصا، و الحسام و العصا، و الرجوع إلى التفويض للأقدار، فى أمور هذه الدار، الكثيرة الأكدار، هو المطلوب، و المرجوّ من اللّه سبحانه جبر القلوب: [المجتث]

يا ربّ نفّس همومى و اكشف كروبى جميعا

فقد رجوت كريما و قد دعوت سميعا

و لم يجعل لى المذكور. حفظه اللّه!. فسحة و لا مندوحة، بعد هذه الأعذار المحمودة فى الصدق الممدوحة، و لسان حالى و قالى، يثبتان عجزى عن أداء هذا الحقّ بشهادة من هو وادّ و قالى، إذ من كان بصفة، غير متمكّنة مما تكون به متّصفة، و اتّسم بنعوت مختلفة، و ارتسم فى غير ذوى الأحوال المؤتلفة، كيف يحير فى التصنيف جوابا، أو ينتحى من التأليف صوابا؟ و من جفنه هام هامل، و قصوره عامّ شامل، كيف يقبض بالأنامل، على ماء البحر الوافر الكامل؟ و من لبس من العىّ ملاه، لا يعبّر عمّن طبّق مفاصل الكلام و كلاه، و قصّرت ألسن البلغاء عن علاه، و زانت صدور الدواوين حلاه، و جمّع خلالا حسانا، و كان للدّين لسانا، و زاحمت مفاخره بالمناكب الكواكب، و ازدانت بمرآه النوادى و المواكب، و نفحات الأزهار من آدابه، و نسمات الأسحار عطر أذياله و أهدابه، و السّحر من كتابته، و السّحر من كنايته، و روح النسيم من تعريضه، و النّثرة من نثره، و الشّعرى من شعره و قريضه، و حلل المجد لباسه، و أنوار العلم اقتباسه: [الوافر]

له ذهن يغوص ببحر علم فيأتى منه بالدّرّ النظيم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۷۹

معانيه الرياض، لأجل هذا سرت ألفاظه مثل النسيم

و مباهيه النجوم، و مضاهيه الغيث السّجوم، إلى آباء يحسدهم القمر و الشمس، و إباء لو كان للمشرفىّ لما تحيّفه لمس، و شرف لا مدّعى و لا منتحل، و همّة لو نالها البدر لاستخذى له زحل، و براعة أرهفت سنان قلمه، و يراعة سارت أمراؤها تحت علمه، فكم فتح بفكره أقفالها، و وسم بذهنه الثاقب أغفالها، و سبك معانيها فى قالب قلبه إبريزا و رقم بيان لسانه برود إحسانه بلفظه البديع تطريزا، فرفع فى ميدان الإجادة لواؤه، و أتيح من أنهار البراعة العذبة إرواؤه، و نال سبقا و تبريزا: [الوافر]

و ما زمن الشّباب و أنت تجرى مع الأحباب فى لهو و طيب

و وصل من حبيب بعد هجر بأحلى من كلام ابن الخطيب

فقصائده أرخصت جواهر البحور، المنظومة فى قلائد اللّبّات و النحور، من حسان العقائل الحور: [الطويل]

معان و ألفاظ تنظّم منهما عقود لآل فى نحور الشمائل

و زهر كلام كالحدائق نسجه غنينا به عن حسن زهر الخمائل

و كلماته غدت للإبداع إقليدا، و جمعت طريفا من البلاغة و تليدا: [المتقارب]

كسون عبيدا ثياب العبيد و أضحى لبيد لديها بليدا

و مقطّعاته ألذّ فى الأسماع، من مطرب السماع، و أبهى فى الأحداق و النواظر، من الحدائق ذوات الأغصان الملد النّواضر، يعترف بفضلها من انتحل الإنصاف دينا، و انتخل الأوصاف فاختار العدل منها خدينا: [الوافر]

رقيقات المقاطع محكمات لو ان الشّعر يلبس لارتدينا

و رسائله كنقط العروس اللائحة فى البياض، أو كوشى الربيع أو قطع الرياض، برزت أغصانها الحالية و تبرّجت، و تضوّعت أفنانها العالية و تأرّجت، و قد ألبسها القطر زهرا، و فجّر خلالها نهرا، فأخذت زخرفها و ازّيّنت، و لاحت محاسنها غير محتجبة و تبيّنت، فبهرت من لها قابل، أستغفر اللّه لا بل: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۸۰

هى الحديقة إلّا أنّ صيّبها صوب النّهى و جناها زهرة الكلم

و قوافيه، ريشت بها قوادم الإتقان و خوافيه، بنان مجاريها يستدثر الحصر، و باع مباريها يستشعر القصر: [الخفيف]

خطّها روضة، و ألفاظها الأز هار يضحكن، و المعانى ثمار

تبدى لمبصرها و ترى، ما قاله أبو عبادة البحترى: [الخفيف]

و كلام كأنه الزهر النا ضر فى رونق الربيع الجديد

مشرق فى جوانب السّمع ما يخ لقه عوده على المستعيد

و معان لو فصّلتها القوافى هجّنت ما لجرول من نشيد

حزن مستعمل الكلام اختيارا و تجنّبن ظلمة التعقيد

بل هى أجلّ مما وصف عند التحقيق، و إمعان النظر الصحيح و التدقيق: [الخفيف]

أين زهر الرياض و هو إذا ما طال عهدا بالغيث عاد هشيما

من قواف كأنها الأنجم الزّه ر سناها زان الظلام البهيما

و ناهيك بمن أطلعته العلوم على جلائلها و دقائقها، و أرته الفنون ما شاء من يانعات حدائقها، و حبته الحكم الرياضية بأزاهرها، و شقائقها، و أرضعته الوزارة من ثديّها، و حلّت به الإمارة صدر نديّها، و جعلته المرجوع إليه فى تمييز جيّد الأمور و رديّها، فغرس فى أرض الرياسة من نخل السياسة و وديّها، و أعلى علم العدل و أغمد سيف الانتقام، و دفع تنّين الفتنة الذى فغر فاه للالتقام، و العهد إذ ذاك قريب، فى وطن الأندلس الغريب، باختلال الحال، و توالى الإمحال، و التجرّى على قتل الملوك، و التحرّى لقطع الطرق و منع السلوك، حيث أهواء المارقين ذات افتراق، و ضلوع الصادقين فى قلق و احتراق، و أيدى الإحن باطشة، و سيوف المحن إلى الدماء عاطشة، و عرش الحماية مثلول، و صارم الكفاية مفلول، و نطاق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۸۱

الرعاية مطلول، و جيب النصيحة مملول، و التّنّور السلطانى بنار اختلاف الكلمة ملتهب، و العدوّ ينتهز الفرصة و يستلب الأنفس الأموال

و ينتهب، و ليس له فى غير قطع شأفة المسلمين ابتغاء، و إن عقد المهادنة فى بعض الأحيان فهو يسرّ حسوا فى ارتغاء، و كلاب الباطل فى دماء أهل الحق و الغة و للّه سبحانه و تعالى فى خلقه إرادة نافذة و حكمة بالغة، فرقع لسان الدين ثوب الأندلس و رفاه، و أرغم- رحمه اللّه!- الكفر الذى فغرفاه، و شمّر عن ساعد اجتهاده، و حضّ باللسان و باليد على دفاعه و جهاده، حتى لاحت للنصر بوارق، و أمنت بالحزم الطوارىء و الطوارق، ثم ضرب الدهر ضربانه، و أحرق الحاسد بنار أحقاده أنضر بانه، و أظهر ما فى قلبه على لسان الدين و أبانه، و تقرّب الوشاة، و هم ممّن كان يخدمه و يغشاه، إلى سلطانه الذى كان عزّة أوطانه الذى كان يأمنه و لا يخشاه، حتى فسد عليه ضميره، و تكدّر و من يسمع يخل نميره، فأحسّ بظاهر التغيّر، و صار فى الباطن من أهل التحير، و أجال قداح آرائه، و التفت إلى جهة العدوّ من ورائه، ففرّ مشمّرا عن ذيله فى لمّة من خيله، إلى أسد العرين، سلطان بنى مرين، و كان إذ ذاك بتلمسان، و هو من أهل العلم و العدل و الإحسان، فاهتزّ لمقدمه، و لقيه بخاصّته و خدمه، و أكرم مثواه، و جعله صاحب نجواه، ثم أدرك السلطان الحمام، و كسف بدره وقت التمام، فرجع لسان الدين إلى فاس، و استنشق بها أطيب الأنفاس، و كثرت بعد ذلك الأهوال، و تغيّرت بسببه بين رؤساء العدوة و الأندلس الأحوال، فما نجا من مكر العدا و لا سلم، و آل أمره من الاغتيال و ما نفع الاحتيال إلى ما علم، على يدى بعض أعدائه، الذين كانوا يتربّصون الدوائر لإردائه، فأصبح كأمس الذاهب، و صارت أمواله و ضياعه عرضة للناهب، و غصّ بذلك من كان من أودّائه، و أخذ اللّه ثاره، من بعض من حرّك عليه المكر و أثاره، و تسبب فى هلاكه، حتى انتثرت جواهر أسلاكه، و مات بدائه. فالعيون إلى هذا الوقت على لسان الدين باكية، و نفوس الأكابر و غيرهم مما فعل به شاكية، و الألسنة و الأقلام لمقاماته فى الإسلام حاكية.

فمن كان بهذه السّمات و أكثر منها موصوفا، لا يقدر مثلى على تحبير التعبير عنه و يخشى أن تكون فكرته كخرقاء نقضت قطنا أو صوفا.

ثم إنى لمّا تكرّر علىّ فى هذا الغرض الإلحاح، و لم تقبل أعذارى التى زندها شحاح، عزمت على الإجابة لما للمذكور علىّ من الحقوق، و كيف أقابل برّه حفظه اللّه بالعقوق؟ و هو

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۸۲

الذى يروى من أحاديث الفضل الحسان و الصحاح، فوعدته بالشروع فى المطلب عند الوصول إلى القاهرة المعزّيّة، و أزمعت السّير عن دمشق المعروفة المزيّة، و ألبسنى السفر منها من الخلع زيّه، و رحلنا عن تلك الأرجاء المتألّقة، و القلوب بها و بمن فيها متعلّقة: [الطويل]

حللنا ديارا للغرام سرت بها إلينا صبا نجد بطيب نسيم

و بان ردا الأشجان لمّا تجاذبت أكفّ المنى فيها رداء نعيم

فما أنشبتنا العيس أن قذفت بنا إلى فرقة و العهد غير قديم

فإن نك ودّعنا الديار و أهلها فما عهد نجد عندنا بذميم

[وصف داريا]

فخرج معنا. أسماه اللّه. مع جملة من الأعيان إلى داريّا، المضاهية لدارين فى ريّاها و حبّذا ريّا، فألفيناها: [مجزوء الكامل]

ريّا من الأنداء طى يبة لها القدر الجليل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۱؛ ص۸۲

تهدى لنا أرجاؤها أرجا من الزّهر البليل

و بها الغصون تمايلت ميل الخليل على الخليل

و وصلنا عند الظّهيرة، و سرّحنا العيون فى محاسنها الشهيرة: [الخفيف]

منزل كالرّبيع حلّت عليه حاليات السّحاب عقد النّطاق

يمتع العين من طرائق حسن تتجافى بها عن الإطراق

و قلنا بها، لمّا نزلنا بجانبها: [الوافر]

و بتنا و السرور لنا نديم و ماء عيونه الصّافى مدام

يسايره النسيم إذا تغنّت حمائمه و يسقيه الغمام

فيا لك من ليلة أربت فى طيب النفح، على ليلة الشّريف الرضىّ بالسّفح: [المنسرح]

و نحن فى روضة مفوّفة قد وشّيت بالغمائم الوكف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۸۳

نغفى على زهرها فيوقظنا وهنا هدير الحمائم الهتف

و دوحها من نداه فى وشح و من لآلى الأزهار فى شنف

و الغصن من فوقه حمامته كأنها همزة على ألف

و ما أقرب قول الوزير ابن عمّار، من وصف ذلك المضمار، الجامع للأقمار: [مجزوء الكامل]

يا ليلة بتنا بها فى ظلّ أكناف النّعيم

من فوق أكمام الرّيا ض و تحت أذيال النّسيم

و ناهيك بمحلّ قرب من دمشق الغرّاء، فخلعت عليه حلل الحبور و السّراء، و أمدّته بضيائها، و أودعته برق حياها و ماء حيائها، فصار ناضر الدّوحات، عاطر الغدوات و الرّوحات، مونق الأنفاس و النفحات، مشرق الأسرّة و الصفحات، هذا و القلوب من الفراق فى قلق، و لسان الحال ينشد: [البسيط]

و بى علاقة وجد ليس يعلمها إلّا الّذى خلق الإنسان من علق

و يحثّ على انتهاز فرصة اللقاء إذ هى غنيمة، و يذكّر بقول من قال و أكفّ الدهر موقظة و منيمة: [الوافر]

تمتّع بالرّقاد على شمال فسوف يطول نومك باليمين

و متّع من يحبّك باجتماع فأنت من الفراق على يقين

[المؤلف يصف موقف الوداع]

ثم حضر بعد تلك الليلة موقف الوداع، و الكلّ ما بين واجم و باك وداع، فتمثّلت بقول من قلبه لفراق الأحباب فى انصداع: [المجتث]

ودّعتهم و دموعى على الخدود غزار

فاستكثروا دمع عينى لمّا استقلّوا و ساروا

و قول آخر: [السريع]

يا وحشة من جيرة قد نأوا علوّ قدرى فى الهوى انحطّا

حكت دموعى البحر من بعدهم لمّا رأت منزلهم شطّا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۸۴

و حقّ لى أن أتمثّل فى ذلك بقول العزازى: [الخفيف]

لا تسلنى عمّا جناه الفراق حمّلتنى يداه ما لا يطاق

أين صبرى أم كيف أملك دمعى و المطايا بالظاعنين تساق

قف معى نندب الطّلول فهذى سنّة قبل سنّها العشّاق

و أعد لى ذكر الغوير فكم ما ل بعطفى نسيمه الخفّاق

فى سبيل الغرام ما فعلت بال عاشقين القدود و الأحداق

يوم ولّت طلائع الصّبر منّا ثم شنّت غاراتها الأشواق

و بقول غيره: [البسيط]

كنّا جميعا و الدار تجمعنا مثل حروف للجمع ملتصقه

و اليوم صار الوداع يجعلنا مثل حروف الوداع مفترقه

و قول آخر: [الخفيف]

حين همّ الحبيب بالتّوديع عيّرونى أنّى سفحت دموعى

لم يذوقوا طعم الفراق و لا ما أحرقت لوعة الأسى من ضلوعى

كيف لا أسفح الدموع على رب ع حوى خير ساكن و جموع

هبك أنّى كتمت حالى أتخفى زفرات المتيّم المصدوع

إنّما يعرف الغرام بمن لا ح عليه الغرام بين الربوع

و قول من قال: [المتقارب]

أقول له عند توديعه و كلّ بعبرته مبلس

لئن قعدت عنك أجسادنا لقد سافرت معك الأنفس

و قول الصابى: [المتقارب]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۸۵

و لمّا حضرت لتوديعه و طرف النّوى نحونا أشوس

عكست له بيت شعر مضى يليق به الحال إذ يعكس

لئن سافرت عنك أجسادنا لقد قعدت معك الأنفس

و قول المهذب بن أسعد الموصلى: [الكامل]

دعنى و ما شاء التفرّق و الأسى و اقصد بلومك من يطيعك أو يعى

لا قلب لى فأعى الملام فإننى أودعته بالأمس عند مودّعى

هل يعلم المتحمّلون لنجعة أنّ المنازل أخضبت من أدمعى

كم غادروا حرضا و كم لوداعهم بين الجوانح من غرام مودع

و السقم آية ما أجنّ من الجوى و الدّمع بيّنة على ما أدّعى

و قول الكمال التّنوخى: [الكامل]

كم ليلة قد بتّها أرعى السّها جزعا لفرقتهم بمقلة أرمد

قضّيتها ما بين نوم نافر و زفير مهجور و قلب مكمد

لم أنس أيام السّرور و طيبها بين السّدير و بين برقة ثهمد

و الروض قد أبدى بدائع نوره من أزرق و مفضّض و مورّد

و الماء يبدو كالصّوارم ساريا فيعيده مرّ الصّبا كالمبرد

و الطير بين مسجّغ و مرجّع و مغرّد و معدّد و مردّد

و قول القاضى بهاء الدين السنجارى: [الكامل]

أحبابنا ما لى على بعد المدى جلد و من بعد النّوى يتجلّد

للّه أوقات الوصال و منظر نضر و غصن الوصل غضّ أملد

أنّى يطيق أخو الهوى كتمانه و الخدّ بالدمع المصون مخدّد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۸۶

ما بعد مفترق الركاب تصبّر عمّن أحبّ فهل خليل يسعد

يا سعد، ساعد بالبكاء أخا هوى يوم الوداع بكى عليه الحسّد

و قول ابن الأثير: [مجزوء الكامل]

لم أنس ليلة ودّعوا صبّا و ساروا بالحمول

و الدّمع من فرط الأسى يجرى فيعثر بالذيول

و قول الأرّجانى: [الطويل]

و لمّا وقفنا للوداع عشيّة و طرفى و قلبى هامع و خفوق

بكيت فأضحكت الوشاة شماتة كأنى سحاب و الوشاة بروق

و قول ابن نباتة السّعدى: [الطويل]

و لمّا وقفنا للوداع عشية و لم يبق إلّا شامت و غيور

وقفنا فمن باك يكفكف دمعه و ملتزم قلبا يكاد يطير

و قول بعضهم: [السريع]

لمّا حدا الحادى بترحالهم هيّج أشواقى و أشجانى

و راح يثنى القلب عن غيرهم فهو لهم حاد ولى ثانى

و قول الصّفدى: [السريع]

لمّا اعتنقنا لوداع النّوى وكدت من حرّ الجوى أحرق

رأيت قلبى سار قدّامهم و أدمعى تجرى و لا تلحق

و قوله أيضا: [الطويل]

تذكّرت عيشا مرّ حلوا بقربكم فهل لليالينا الذواهب واهب

و ما انصرفت آمال نفسى لغيركم و لا أنا عن هذى الرغائب غائب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۸۷

سأصبر كرها فى الهوى غير طائع لعلّ زمانى بالحبائب آئب

و قول ابن نباتة المصرى: [السريع]

فى كنف اللّه و فى حفظه مسراك و العود بعزم صريح

لو جاز أن تسلك أجفاننا كنّا فرشنا كلّ جفن قريح

لكنها بالبعد معتلّة و أنت لا تسلك إلّا الصحيح

و قول الحافظ أبى الحسن على بن الفضل: [الطويل]

عجبت لنفسى بعدهم ما بقاؤها و لم أحظ من لقياهم بمرادى

لعمرك ما فارقتهم منذ ودّعوا و لكنّما فارقت طيب رقادى

و قد منعوا منى زيارة طيفهم و كيف يزور الطّيف حلف سهاد

و أعجب ما فى الأمر شوقى إليهم و هم فى سوادى ناظرى و فؤادى

و قوله رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

رعى اللّه أيام المقام بروضة تروح علينا بالسرور و تغتدى

كأن الشّقيق الغضّ بين بطاحها نجوم عقيق فى سماء زبرجد

و قول القاضى الرشيد الأسوانى: [الكامل]

رحلوا فلا خلت المنازل منهم و نأوا فلا سلت الجوانح عنهم

و سروا و قد كتموا الغداة مسيرهم و ضياء نور الشمس ما لا يكتم

و تبدّلوا أرض العقيق عن الحمى روّت جفونى أىّ أرض يمّموا

نزلوا العذيب و إنما هو مهجتى رحلوا و فى قلب المتيّم خيّموا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۸۸

ما ضرّهم لو ودّعوا من أودعوا نار الغرام و سلّموا من أسلموا

هم فى الحشا إن أعرقوا أو أيمنوا أو أشأموا أو أنجدوا أو أتهموا

و قول الشاعر أبى طاهر الأصفهانى، المعروف بالوثّابى: [الطويل]

أشاعوا فقالوا وقفة و وداع و زمّت مطايا للرحيل سراع

فقلت وداع لا أطيق عيانه كفانى من البين المشتّ سماع

و لم يملك الكتمان قلب ملكته و عند النّوى سرّ الكتوم مذاع

و قول أبى المجد قاضى ماردين: [الطويل]

رعى اللّه ربعا أنتم فيه أهله و جاد عليه هاطل و هتون

و لا زال مخضرّ الجوانب مترع ال حياض و فيه للنّعيم فنون

لئن قدّر اللّه اللقاء و أينعت غصون التدانى فالبعاد يهون

و إن حكمت أيدى الفراق بعسرة فكم قضيت للمعسرين ديون

و قول آخر: [الكامل]

غبتم فما لى فى التّصبّر مطمع عظم الجوى و اشتدّت الأشواق

لا الدار بعدكم كما كانت و لا ذاك البهاء بها و لا الإشراق

أشتاقكم، و كذا المحبّ إذا نأى عنه أحبّة قلبه يشتاق

و قول أبى الحسن الهمذانى: [الوافر]

و يوم تولّت الأظعان عنّا و قوّض حاضر و أرنّ بادى

مددت إلى الوداع يدا و أخرى حبست بها الحياة على فؤادى

و قول ابن الصائغ: [البسيط]

قد أودعوا القلب لمّا ودّعوا حرقا فظلّ فى الليل مثل النّجم حيرانا

راودته يستعير الصّبر بعدهم فقال: إنى استعرت اليوم نيرانا

و قول الصدر بن الأدمى مكتفيا: [الرمل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۸۹

يوم توديعى لأحبابى غدا ذكر مىّ شاغلى عن كلّ شى

فرنت نحوى و قالت: يا ترى أنت حىّ فى هوانا؟ قلت: مى

و قول غيره: [السريع]

ولى فؤاد مذ نأى شخصهم ظلّ كئيبا مدنفا موجعا

و مقلة مهما تذكّرتهم تذرف دمعا أربعا أربعا

و ليس لى من حيلة كلما لجّت بى الأشواق إلّا الدّعا

أسأل من ألّف ما بيننا و قدّر الفرقة أن يجمعا

و قول الرّعينى الغرناطى: [الطويل]

محاسن ربع قد محاهنّ ما جرى من الدمع لمّا قيل قد رحل الرّكب

تناقض حالى مذ شجانى فراقهم فمن أضلعى نار و من أدمعى سكب

و فى معناه قوله أيضا: [الطويل]

و قائلة: ما هذه الدّرر التى تساقطها عيناك سمطين سمطين

فقلت لها: هذا الذى قد حشا به أبو مضر أذنى تساقط من عينى

و قول الزمخشرى: [الكامل]

لم يبكنى إلّا حديث فراقهم لمّا أسرّ به إلىّ مودّعى

هو ذلك الدّرّ الذى أودعتم فى مسعى أجريته من مدمعى

و قول الزّغارى: [الرجز]

قد بعتهم قلبى يوم بينهم بنظرة التوديع و هو يحترق

و لم أجد من بعدها لردّه وجها و كان الرّدّ لو لم نفترق

و قول بعض الأندلسيين: [البسيط]

ساروا فودّعهم طرفى و أودعهم قلبى فما بعدوا عنّى و لا قربوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۹۰

هم الشموس ففى عينى إذا طلعوا فى القادمين و فى قلبى إذا غربوا

و قلت أنا مضمّنا بديهة: [المجتث]

لا كان يوم فراق ساق الشجون إلينا

فكم أذلّ نفوسا يا من يعزّ علينا

و قلت أيضا مضمّنا: [البسيط]

سلا أحبّته من لم يذب كمدا يوم الوداع و إن أجرى الدموع دما

يا من يعزّ علينا أن نفارقهم من بعدكم هدّ ركن الصّبر و انهدما

و إن نأى الجسم كرها عن منازلكم فالقلب ثاو بها لم يصحب القدما

و ما نسينا عهودا للهوى كرمت نعم قرعنا عليها سنّنا ندما

و أظلمت بالنّوى أرجاء مقصدنا و صار وجدان إلف غيركم عدما

و قلت أيضا مضمّنا: [البسيط]

لم أنس بالشام أنسا شمت بارقه جادت معاهده أنواء نيسان

لهفى لعيش قضينا فى مشاهدها ما بين حسن من الدنيا و إحسان

و قلت كذلك: [الكامل]

يا جيرة بانوا و أبقوا حسرة تجرى دموعى بعدهم وفق القضا

كم قلت إذ ودّعتهم و الأنس لا ينسى و عهد ودادهم لن يرفضا

يا موقف التوديع إنّ مدامعى فضّت و فاضت فى ثرى ذاك الفضا

و كما تفاءلت بقول الأول، مع علمى بأن على اللّه المعوّل: [البسيط المخلع]

إذا رأيت الوداع فاصبر و لا يهمّنّك البعاد

و انتظر العود عن قريب فإنّ قلب الوداع عادوا

و ضاقت بى الرّحاب، عند مفارقة أعيان الأحباب و الصّحاب، و كاثرت دموعى من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۹۱

بينهم السحاب، و زند التذكّر يقدح الأسف فيهيج الانتحاب، و قد تمثّلنا إذ ذاك و الجوانح من الجوى فى التهاب، و ذخائر الصبر ذات انتهاب، بقول بعض من مزّق البعد منه الإهاب: [الطويل]

و لمّا نزلنا منزلا طلّه النّدى أنيقا و بستانا من النّور حاليا

أجدّ لنا طيب المكان و حسنه منى فتمنّينا فكنت الأمانيا

و قد طفت فى شرق البلاد و غربها و سيّرت خيلى بينها و ركابيا

فلم أر منها مثل بغداد منزلا و لم أر فيها مثل دجلة واديا

و لا مثل أهليها أرقّ شمائلا و أعذب ألفاظا و أحلى معانيا

و بقول من تأسّف على مغانى التدانى، و هو أبو الحجاج الأندلسى الدانى: [الطويل]

أبى اللّه إلّا أن أفارق منزلا يطالعنى وجه المنى فيه سافرا

كأنّ على الأيام حين غشيته يمينا فلم أحلله إلّا مسافرا

و تخيّلنا أنّ إقامتنا بدمشق وقاها اللّه كل صرف، ما كانت إلّا خطرة طيف ملمّ أو لمحة طرف: [الوافر]

وقفنا ساعة ثم ارتحلنا و ما يغنى المشوق وقوف ساعه

كأنّ الشّمل لم يك فى اجتماع إذا ما شتّت البين اجتماعه

و طالما علّلت النفس بالعود إليها ثم إلى بقاعى، منشدا قول الأديب الشهير بابن الفقاعى: [الطويل]

متى عاينت عيناى أعلام حاجر جعلت مواطى العيس فوق محاجرى

و إن لاح من أرض العواصم بارق رجعت بأحشاء صواد صوادر

سقى اللّه هاتيك المواطن و الرّبا مواطر أجفان هوام هوامر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۹۲

و حيّا الحيا من ساكنى الحىّ أوجها سفرن بأنوار زواه زواهر

بحيث زمان الوصل غضّ و روضه أريض بأزهار بواه بواهر

و حيث جفون الحاسدين غضيضة رمقن بآماق سواه سواهر

ثم حاولت خاطرى الكليل، فيما يشفى بعض الغليل، فقال على طريق التضمين، و قد غلب عليه الشوق و التخمين: [الرمل]

بأبى من أودعوا مذ ودّعوا قلبى الشّوق و للعيس ذميل

جيرة غرّ كرام خيرة كلّ شىء منهم يبدو جميل

و على الجملة ما لى غيرهم لو أرادوا أن يملّوا أو يميلوا

ثم قلت و قد سدّد التنائى إلىّ نبله، موطّئا للبيت الثالث كما فى الأبيات قبله: [الخفيف]

يا دمشقا حيّاك غيث غزير و وقاك الإله ممّا يضير

حسنك الفرد و البدائع جمع متناه فيه فعزّ النظير

أين أيامنا بظلّك و الشّم ل جميع، و العيش غضّ نضير

ثم أكثرت الالتفات عن اليمين و عن الشمال، و قد شبّهت البيداء و الشوق ببدل الكل و الاشتمال، و تنسّمت من نواحى تلك الأرجاء أريج الشّمال، و ضمّنت فى المعنى قول بعض من ثنى الحبّ عطفه و أمال: [الطويل]

تنسّمت أرواحا سرت من ديار من بهم كان جمع الشّمل لمحة حالم

و جاوبت من يلحى على ذاك جاهلا بقول لبيب بالعواقب عالم

و ما أنشق الأرواح إلّا لأنّها تمرّ على تلك الرّبا و المعالم

و ما أحسن قول الآخر: [الطويل]

سرت من نواحى الشام لى نسمة الصّبا و قد أصبحت حسرى من السّير ظالعه

و من عرق مبلولة الجيب بالنّدى و من تعب أنفاسها متتابعه

و قلت أنا: [الطويل]

حمدت و حقّ اللّه للشام رحلة أتاحت لعينىّ اجتلاء محيّاه

و بعد التنائى صرت أرتاح للصّبا لأنّ الصّبا تسرى بعاطر ريّاه

فللّه عهد قد أتاح بجلّق سرورا فحيّاه الإله و حيّاه

و استحضرت عند جدّ السّير، قول صفوان بن إدريس المرسىّ ذكره اللّه تعالى بالخير: [الخفيف]

أين أيامنا اللّواتى تقضّت إذ زجرنا للوصل أيمن طير

ثم قول غيره ممّن حنّ و أنّ، و قلق قلبه و ما اطمأنّ: [الوافر]

أحنّ إلى مشاهد أنس إلفى و عهدى من زيارته قريب

و كنت أظنّ قرب العهد يطفى لهيب الشوق فازداد اللهيب

و ربما تجلّدت مغالطا، متعلّلا بقول من كان لإلفه مخالطا: [الوافر]

حضرت فكنت فى بصرى مقيما و غبت فكنت فى وسط الفؤاد

و ما شطّت بنا دار و لكن نقلت من السّواد إلى السّواد

و قول غيره: [البسيط]

و كن كما شئت من قرب و من بعد فالقلب يرعاك إن لم يرعك البصر

و بقول الوداعى: [السريع]

يا عاذلى فى وحدتى بعدهم و أنّ ربعى ما به من جليس

و كيف يشكو وحدة من له دمع حميم و أنين أنيس

[عودة المؤلف إلى مصر و شوقه إلى دمشق]

ثم ردّدت هذه الطريقة، بقول بعض من لم يبلعه السلوّ ريقه: [الخفيف]

لا رعى اللّه عزمة ضمنت لى سلوة القلب و التصبّر عنهم

ما وفت غير ساعة ثم عادت مثل قلبى تقول لا بدّ منهم

و يقول ابن آجروم، فى مثل هذا الغرض المروم: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۹۴

يا غائبا كان أنسى رهن طلعته كيف اصطبارى و قد كابدت بينهما

دعواى أنك فى قلبى يعارضها شوقى إليك، فكيف الجمع بينهما

ثم جدّ بى السير إلى مصر و استمرّ، فتذكّرت قول الصفدى و قد اشتدّ بالرّمل الحرّ:

[الطويل]

أقول و حرّ الرّمل قد زاد وقده و ما لى إلى شمّ النسيم سبيل

أظنّ نسيم الجوّ قد مات و انقضى فعهدى به فى الشام و هو عليل

و قول ابن الخياط: [السريع]

قصدت مصرا من ربا جلّق بهمّة تجرى بتجريبى

فلم أر الطّرّة حتى جرت دموع عينى بالمريزيب

و حين وصلت مصر لم أنس عهد الشام المرعىّ، و أنشدت قول الشهاب الحنبلى الزرعىّ:

[الطويل]

أحبّتنا، و اللّه مذ غبت عنكم سهادى سميرى و المدامع مدرار

و و اللّه ما اخترت الفراق، و إنه برغمى، ولى فى ذلك الأمر أعذار

إذا شام برق الشام طرفى تتابعت سحائب جفنى و الفؤاد به نار

ألا ليت شعرى هل يعودنّ شملنا جميعا و تحوينا ربوع و أقطار

و قول ابن عنين: [الطويل]

دمشق، بنا شوق إليك مبرّح و إن لجّ واش أو ألحّ عذول

بلاد بها الحصباء درّ، و تربها عبير، و أنفاس الرياح شمول

تسلسل منها ماؤها و هو مطلق و صحّ نسيم الروض و هو عليل

و قول آخر: [البسيط]

نفسى الفداء لأنس كنت أعهده و طيب عيش تقضّى كلّه كرم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۹۵

و جيرة كان لى إلف بوصلهم و الأنس أفضل ما بالوصل يغتنم

بالشام خلّفتهم ثم انصرفت إلى سواهم فاعترانى بعدهم ألم

كانوا نعيم فؤادى و الحياة له و الآن كلّ وجود بعدهم عدم

فإن أنشد لسان الحال فيما اقتضاه معنى البعد عنها و الارتحال: [الكامل]

يا غائبا قد كنت أحسب قلبه بسوى دمشق و أهلها لا يعلق

إن كان صدّك نيل مصر عنهم لا غرو فهو لنا العدوّ الأزرق

أتيت فى جوابه، بقول بعض من برّح الجوى به: [البسيط]

للّه دهر جمعنا شمل لذته بالشام أعذب من أمن على فرق

مرّت لياليه و الأيام فى خلس كأنّما سلبته كفّ مسترق

ما كان أحسنها لو لا تنقّلها من النعيم إلى ذاك من الحرق

رقّ العذول لحالى بعدها ورثى لى فى الجوى و النّوى و الشجو و الأرق

و بالجملة فتلك الأيام من مواسم العمر محسوبة، و السعود إلى طوالعها منسوبة: [الوافر]

و كانت فى دمشق لنا ليال سرقناهنّ من ريب الزمان

جعلناهنّ تاريخ الليالى و عنوان المسرّة و الأمانى

و هى مغانى التهانى التى ما نسيناها، و أمانى زمانى التى نعمت بطور سيناها، عليها و على وطنى مقصورة، و القلب فى المعنى مقيم بهما و إن كان فى غيرهما بالصورة، و الأشواق إليهما قضاياها موجّهة و إن كانت غير محصورة: [الطويل]

و للّه عهد قد تقضّى و إن يعد فإنى عن الأيام أعفو و أصفح

بقلبى من ذكراه ما ليس ينقضى و من برحاء الشوق ما ليس يبرح

إذا مسحت كفّى الدموع تستّرا بدت زفرة بين الجوانح تقدح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۹۶

فإن جمعت شملى الليالى بقربهم تجمّع غيلان و ميّ و صيدح

على أنها الأيام جدّ مزاحها و ربّ مجدّ فى الأذى و هو يمزح

و كثيرا ما يلهج اللسان بقول من قال: [الطويل]

و ما تفضل الأوقات أخرى لذاتها و لكنّ أوقات الحسان حسان

و يردّد قول من شوقه متجدّد: [الطويل]

سقى معهد الأحباب ناقع صيّب من المزن عن مغناه ليس يريم

و إن لم أكن من ساكنيه فإنه يحلّ به خلّ علىّ كريم

و ينشد من يلوم، قول من فى حشاه و له و فى قلبه كلوم: [الدّوبيت]

قد أصبح آخر الهوى أوّله فالعاذل فى هواك ما لى و له

بالله عليك خلّ ما أوّله و ارحم دنفا لدى حشاه و له

[شروع المؤلف فى التصنيف، و رسالة من الشاهين يحثه على ذلك]

و قد امتدّ بنا الكلام، و ربّما يجعله اللاحى ذريعة لزيادة الملام، فلنرجع إلى ما كنّا بصدده، من إجابة المولى الشاهينى، أمدّه اللّه سبحانه بمدده، فأقول، مستمدّا من واهب العقول:

إنى شرعت بعد الاستقرار بمصر فى المطلوب، و كتبت منه نبذة تستحسنها من المحبين الأسماع و القلوب، و سلكت فى ترتيبه أحسن أسلوب، و عرضت فى سوقه كلّ نفيس غريب من الغرب إلى الشرق مجلوب، تستحسن الأبصار ما عليه احتوى، و تعرف الأفكار أنه غير مجتوى، ثم وقف بى مركب العزم عن التمام و استوى، فأخّرته تأخير الغريم لدين الكريم، و صدّتنى أعراض، عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض، و أضربت برهة عمّا له من منحى، لاختلاف أحوال الدهر نفعا و دفعا و منعا و منحا، و مرقت عن هدف الإصابة نبال، و طرقت فى سدف ليالى الكتابة أمور لم تكن تخطر ببال. فجاءتنى من المولى المذكور آنفا، رسالة دلّت على أنه لم يكن عن انتجاز الوعد متجانفا، فعدت لقضاء الوطر مستقبلا و للجملة مستأنفا،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۹۷

وحدا بى خطابه الجسيم للإتمام و ساقنى، و راقنى كتابه الكريم لتلك الأيام و شاقنى، و ذكّرنى تلك الليالى التى لم أنسها، و حرّكنى لتلك المعاهد التى لم أزل أذكر أنسها: [السريع]

الإلف لا يصبر عن إلفه إلّا كما يطرف بالعين

و قد صبرنا عنهم مدّة ما هكذا شأن المحبّين

[المؤلف يصف رسالة ابن شاهين]

فيا له من كتاب كريم، أعرب عن ودّ صميم، و ذكّر بعهد غير ذميم، و ودّ طيب العرف و الشّميم، يخجل ابن المعتز لبلاغته و ابن المعز تميم: [المتقارب]

و لم تر عيناى من قبله كتابا حوى بعض ما قد حوى

كأنّ المباسم ميماته و لا ماته الصّدغ لمّا التوى

و أعينه كعيون الحسان تغازلنا عند ذكر الهوى

كتاب ذكرنا بألفاظه عهودا زكت بالحمى و اللّوى

فكأنه الرّوض المطّرد الأنهار، و الدّوح المدبّج الأزهار: [الطويل]

رأينا به روضا تدبّج وشيه إذا جاد من تلك الأيادى غمائم

به ألفات كالغصون و قد علا عليها من الهمز المطلّ حمائم

و قد سقيت بأنهار البراعة السّلسالة، حدائق حلّت بها غانية تلك الرسالة، لتشفى صبّها بالزيارة، و تشرّف بدنوّها دياره: [الخفيف]

زارت الصّبّ فى ليال من البع د فلمّا دنت رأى الصّبح يلمح

قلّدت بالعقيان جيد بيان ليس فيه للفتح من بعد مطمح

فشفت النفس من آلامها، و أحيت ميت الهوى مذ حيّت بعذب كلامها: [الوافر]

كلام كالجواهر حين يبدو و كالنّدّ المعنبر إذ يفوح

له فى ظاهر الألفاظ جسم و لكنّ المعانى فيه روح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۹۸

فصيّرت لى ذلك الكتاب سميرا، و وردت من السرور مشرعا نميرا، و تمثّلت بقول بعض من أخلص فى الودّ ضميرا: [الكامل]

يا مفردا أهدى إلىّ كتابه جملا يحار الذّهن فى أثنائها

كالدّرّ أشرق فى سموط عقوده و الزّهر و الأنوار غبّ سمائها

فأفادنى جذلا و بالى كاسد و أجار نفسى من جوى برحائها

و حسبت أيام الشّباب رجعن لى فلبست حلى جمالها و بهائها

لا يعدم الإخوان منك محاسنا كلّ المفاخر قطرة من مائها

فأكرم به من كتاب جاء من السّرىّ العلىّ، و الماجد الأخ الولىّ: [الوافر]

فضضت ختامه فتبيّنت لى معانيه عن الخبر الجلىّ

و كان ألذّ فى عينى و أندى على كبدى من الزّهر الجنىّ

و ضمّن صدره ما لم تضمّن صدور الغانيات من الحلىّ

و أعرب عن اعتماد متماد، و وداد مزداد، و أطاب حين أطال، و أدّى دين الفصاحة دون مطال، و اشتمل من فصول العبارة على أحسن من الحدق المراض، و أتى من أصول البراعة ببراهين ابن شاهين التى لا- خلف فيها و لا- اعتراض، و روينا من غيث أناميله الهتون، و روينا عنه مسند أحمد حسن الأسانيد و المتون، و حثّنا على العود و الرجوع، و كان أجدى من الماء الزلال لذى ظمإ و المشتهى من الطعام لذى سغب و جوع: [الوافر]

و أشهى فى القلوب من الأمانى و أحلى فى العيون من الهجوع

و جلا بنوره ظلام استيحاشى، و حشر إلىّ أشتات المسرّات دون أن يحاشى، و وجدنى فى مكابدة شغوب، و أشغال أشربت الكسل و اللّغوب، و حيّرت الخواطر، و صيّرت سحب الأقلام غير مواطر، فزحزح عنّى الغموم و سلّانى، و أولانى. شكر اللّه صنيعه!. من المسرّات ما أولانى: [البسيط]

حديثه أو حديث عنه يطربنى هذا إذا غاب أو هذا إذا حضرا

كلاهما حسن عندى أسرّ به لكنّ أحلاهما ما وافق النّظرا

و قال آخر: [الخفيف]

لست مستأنسا بشىء إذا غب ت سوى ذكرك الذى لا يغيب

أنت دون الجلّاس عندى و إن كن ت بعيدا فالأنس منك قريب

و ضمّنت فيه لمّا ورد مع جملة كتب من تلك الناحية، و أنوار أهلها ذوى الفضائل الشهيرة أظهر من شمس الظهيرة فى السماء الصاحية: [الخفيف]

قلت لمّا أتت من الشام كتب من أجلّاء نورهم يتألّق

مرحبا مرحبا و أهلا و سهلا بعيون رأت محاسن جلّق

و قلت أيضا: [الخفيف]

قلت لمّا وافت من الشام كتب و الليالى تتيح قربا و بعدا

مرحبا مرحبا و أهلا و سهلا بعيون رأت محاسن سعدى

[مقتطفات من رسالة الشاهينى]

و كان من فصول هذا الكتاب الوارد من المولى الشاهينى الذى اقتنص بفضله كلّ شارد ما نصّه: «و مما استخلص قلبى من يدى ترحى، و جدّد سرورى و نبّه فرحى، حديث الكتاب و ما حديث الكتاب، حديث نسخ بحلاوته مرارة العتاب، و أنسانى حرارة

المصاب، فى الأنسال و الأعقاب، و قضى به من حق لسان الدين، دينه الذى تبرّع به غريم ملىء من البلاغة و هو غير مدين، حتى كأنى يا سيدى بهذه البشرى، أحرزت سوارى كسرى، و كان فى مسمعى كل حرف إليها منسوب، قميص يوسف فى أجفان يعقوب، و حتى كدت أهجر أهلى و بيتى، و أسرج لاستقبال هذه البشرى أشهبى و كميتى، و حتى أننى حاربت نومى و قومى، و عزمت على أن أرحل ناقتى فى وقتى و يومى، و إن ذلك التغليس و التهجير فى جنب ما بشّرت به لحقير، و إنّ موقعها لدى هذا العبد الحقير لخطير. و قد كنت سألت شيخى حين ورد دمشق الشام، و اشتمّ منها العرار و البشام، و شرّفنى فعرفنى، و شاهدنى فعاهدنى، على أن يجرى ما دار بيننا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۰۰

لدى المجاورة، من المسامرة و المحاورة، فى ديباجة ذلك الكتاب، الذى فتن العقول خبره و سحر الألباب، و ما قصدت إلّا أن يجرى اسمى على قلمه، و يرقم رسمى فى مطاوى تحريره و رقمه، و يكون ذكرى مختلطا بذكره، كما أنّ سرّى مرتبط فى المحبة بسرّه، فرأيت شيخى لم يتصدّ فى أثناء هذه البشرى، لما يفهمنى بالذكرى، لأنتظر النجاح فى الأخرى، و لم يساعدنى على ذلك الملتمس، و حبس عنان القلم فاحتبس، فانكسرت سورة سرورى بفتورى، و تبين لنفسى عن بلوغ ذلك الأمل تخلّفى و قصورى» انتهى.

ثم قال بعد كلام طويل لم نذكره لعدم تعلّقه بهذا الغرض، ما صورته: «و حسبت أنّ سيدى و حاشاه، نسى من ليس ينساه، و ظننت به الظنون، لأمور تكون أو لا تكون، و هل يكره سيدى و شيخى أن يهدى الدنيا فى طبق؟ ثم الأخرى على ذلك النسق، و لا شكّ أن خطّه هو الروضة الغنّا، لا بل جنّة المأوى، فطوبى لنفسى إن جنت ثمرته طوبى، و لعمر شيخى إنى بذلك لجدير، و إنى كنت أملك به الخورنق و السّدير». انتهى ما يتعلّق بالغرض من ذلك الرقيم، الذى شكل منطقه غير عقيم، سلك اللّه تعالى بى و بمن وجّهه الصراط المستقيم.

و أتى فى المكتوب بأنواع من البلاغة، مما تركت ذكره هنا لعدم تعلّقه بهذا الأمر الخاص الذى ييسّر لكارع الأدب مساغّه، و ختمه بقصيدة نفيسة من نظمه يستنجز فيها ذلك الوعد، و أشهد أنه قد حاز فيها قصب السّبق و المجد، و ما قلت إلّا بالذى علمت سعد، و هذه صورتها: [السريع]

يا سيّدا أفديه بالأكثر من أصغر العالم و الأكبر

و يا وحيدا قلّ قولى له عطارد أنت مع المشترى

و يا مجيدا ليس عندى له إلّا مقال المادح المكثر

أقسمت بالبيت العتيق الذى حجّت إليه الناس و المشعر

ما للعلا و العلم إلّا أبو ال عباس شيخى أحمد المقرّى

ذاك الذى آثرنى منه بال علم الذى للغير لم يؤثر

و خصّنى منه بأشياء لم يفز بها غيرى و لم يعثر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۰۱

فرحت عبدا ذا وفاء له معترفا بالرقّ لا أمترى

فيا أبا العباس يا من غدا أعظم فى نفسى من معشرى

و من إذا ما غاب عن ناظرى كان سمير القلب للمحضر

هات أفدنى سيدى عن علا ال مولى لسان الدين ذاك السّرى

ذاك الوحيد الفذّ فى عصره بل أوحد الأدهر و الأعصر

ذاك الذى أخبرنى سيدى عنه مزايا بعد لم تحصر

ذاك الذى العيّوق لا يعتلى إلى معاليه و لا يجترى

ما قد وعدت العبد فى جمعه من خبر عن فضله مسفر

بخطّك الوضّاح و هو الذى مخبره يربى على المنظر

و الشيء لا يرجى إذا ما غدا منظره يربى على المخبر

نقش على طرس بياض كما لاحت عيون الرشإ الأحور

و أسطر قد سلسلت مثل ما لاح عذار الشادن الأخفر

و نزهة الأنفس معنى غدا ما بينها ينساب كالكوثر

عذب رقيق مثل ظبى غدا يلوح طاوى الكشح أو جؤذر

آثار أقلامك و هى التى أغنت عن الأبيض و الأسمر

يراعك الجامع راو، غدا يروى اللّغى عن لفظك الجوهرى

ينثر مسكا تارة ناظما و ينظم الجوهر بالعنبر

هذا ابن شاهين الفتى أحمد عن ذكرك المأنوس لم يفتر

فاجعل له ذكرا كريما به يزدان مغبوطا إلى المحشر

و اذكر بيوتاتى و كلّ الذى كتبته نحوك فى دفترى

أنت جدير بمديحى فكن ذاكر عبد بالوفا أجدر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۰۲

و هاكها سيّارة أعنقت على جواد كان للبحترى

طرف كريم سابق صافن مطهّم ذى أدب أوفر

ورثته منه و لكنما من شاعر وافى إلى أشعر

ما للفتى الطائىّ شوط امرئ يصطاد نسر الجوّ بالمنسر

و اسلم لعبد لا يرى سيّدا سوى الذى فى ثوبك الأطهر

فى كرم العنصر فردا غدا طبعك فاشكر كرم العنصر

ما حنّ مشتاق أخو صبوة إلى خليل فى الهوى مفكر

انتهت.

فلما وصلنى هذا الخطاب، الذى ملأ من الفصاحة الوطاب، و حلى فى عينى و قلبى و طاب، تحرّكت دواعى الوجد، لذلك المجد، الذى ولعت به ولوع ابن الدّمينة بصبا نجد، و أثار من الهيام و الأوار، ما يزيد على ما حصل للفرزدق لمّا فارق النوّار، و تضاعف الشوق إلى تلك الأنجاد و الأغوار، منشدا قول الأول «لعلّ أبى المغوار» و تذكرت و الذكرى شجون و أطوار، تلك الأضواء و الأنوار، المشرقة بقطر أزهر بالمحاسن، و جرى نهره غير آسن، فلم يذم فيه الجوار: [الطويل]

و إنّ اصطبارى عن معاهد جلّق غريب فما أجفى الفراق و أجفانى

سقى اللّه أرضا لو ظفرت بتربها كحلت بها من شدة الشوق أجفانى

[تصميم المؤلف على استئناف التصنيف و بدء التأليف]

و حصل التصميم، على التكميل للتأليف و التتميم، رعيا لهذا الولىّ الحميم، أفاض اللّه تعالى عليه غيث البرّ العميم، و أبقى ظلّ عزه

ممدودا، و حلىّ سؤدده مودودا، و أناله من الخيرات ما ليس محصورا و لا معدودا، و جمعنى و إياه، و أطلع لى بشر محيّاه، و أنشقنى عرف اجتماعه و ريّاه، و كيف لا أستديم أمد بقياه، و أعتقد البشائر فى لقياه، و أسقى غروس الودّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۰۳

بسقياه، و هو الصدر الذى أصفى لى الوداد، و الركن الذى لى بثبوته اعتماد و اعتداد:

[الكامل]

فعليه من مصفى هواه تحيّة كالمسك لمّا فضّ عنه ختام

تترى بساحته الستيّة ما دعت فوق الغصون هديلهنّ حمام

و دامت فضائله ظاهرة كالشمس، محروسة بالسبع المثانى معوّذة بالخمس: [الطويل]

و لا انفكّ ما يرجوه أقرب من غد و لا زال ما يخشاه أبعد من أمس

و بقى من العناية فى حرم أمين، آمين.

و لما حصل لى كمال الاغتباط، بما دلّ على صحة حال الارتباط، نشر بساط الانبساط، و حدثت لى قوة النشاط، و انقشعت عنى سحائب الكسل و انجابت، و ناديت فكرتى فلبّت مع ضعفها و أجابت، فاقتدحت من القريحة زندا كان شحاحا، و جمعت من مقيّداتى حسانا و صحاحا، و كنت كتبت شطره، و ملأت بما تيسّر هامشه و سطره، و رقمت من أنباء لسان الدين بن الخطيب حللا لا تخلق جدّتها الأعصر، و سلكت من التعريف به، رحمه اللّه، مهامة تكلّ فيها واسعات الخطا و تقصر، فحدث لى بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الأندلس جملة و من كان يعضّد به الإسلام و ينصر، و بعض مفاخرها الباسقة، و مآثر أهلها المتناسقة؛ لأنّ كل ذلك لا يستوفيه القلم و لا يحصر، و جئت من النظم و النثر بنبذة توضح للطالب سبله، و تظهر علمه و نبله، و تترع كأس محاسنه من راح المذاكرة و إناؤه، حتى يرى حسن التأليف أبناء هذا التصنيف و أدباؤه، و كنت فى المغرب و ظلال الشباب ضافية، و سماء الأفكار من قزع الأكدار صافية، معتنيا بالفحص عن أنباء أبناء الأندلس، و أخبار أهلها التى تنشرح لها الصدور و الأنفس، و ما لهم من السبق فى ميدان العلوم، و التقدّم فى جهاد العدوّ الظّلوم، و محاسن بلادهم، و مواطن جدالهم و جلادهم، حتى اقتنيت منها ذخائر يرغب فيها الأفاضل الأخاير، و انتقيت جواهر فرائدها للعقول بواهر، و اقتطفت أزاهر أنجمها فى أفق المحاضرة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۰۴

زواهر، و حصّلت فوائد بواطن و ظواهر، طالما كانت أعين الألبّاء لنيلها سواهر، و جمعت من ذلك كلما عالية، لو خاطب بها الداعى صمّ الجلامد لانبجس حجرها، و حكما غالية، لو عامل بها الأيام ربح متجرها، و أسجاعا تهتزّ لها الأعطاف، و مواعظ يعمل بمقتضاها من حفّت به الألطاف، و قوافى موقورة القوادم و الخوافى، يثنى عليها من سلم من الغباوة و الصّمم، و يعترف ببراعتها من لا يعتريه اللّمم، و طالما أعرض الجاهل الغمر بوجهه عن مثلها و أشاح، و أنصت لها الحبر إنصات السّوار لجرس الحلى و نغم الوشاح، و فرح إن ظفر بشىء منها فرح الصائد بالقنيص، و السارى العارى ذى البطن الخميص، بالزاد و القميص و تركت الجميع بالمغرب، و لم أستصحب معى منه ما يبيّن عن المقصود و يعرب، إلّا نزرا يسيرا علق بحفظى، و حلّيت بجواهره جيد لفظى، و بعض أوراق سعد فى جواب السؤال بها حظى، و لو حضرنى الآن ما خلّفته، ممّا جمعت فى ذلك الغرض و ألّفته، لقرّت به عيون و سرّت ألباب، إذ هو، و اللّه، الغاية فى هذا الباب، و لكن المرء ابن وقته و ساعته، و كلّ ينفق على قدر وسعه و استطاعته، و عذر مثلى باد، للمنصفين من العباد، إن قصّرت فيما تبصّرت، أو تخلّفت فى الذى تكلّفت، أو أضعت تحرير ما وضعت، و التقمت ثدى التقصير و رضعت، أو أطعت داعى التّوانى فتأخّرت عمّن سبق و انقطعت، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ [هود: ۸۸]، و من كانت بضاعته مزجاة، فهو من الإنصاف بمنحاة، إذا أتى بالمقدور، و تبرّأ من الدّعوى فى الورود و الصدور، و عين الرّضا عن كل عيب كليلة، و السلامة من الملامة متعذّرة أو قليلة، و قد قال إمامنا مالك صاحب المناقب الجليلة: «كلّ كلام يؤخذ منه و يردّ إلّا كلام صاحب هذا القبر» صلّى اللّه عليه

و سلّم أزكى صلاة و أتمّ سلام و شفى بجاهه من الآلام قلوبنا العليلة، و جعلنا ممّن كان اتّباع سنّته رائده و دليله! آمين.

[تقدير المؤلف للسان الدين بن الخطيب]

و الحمد للّه الذى يسّر لى هذا القدر، مع ضيق الصدر، و قلّة بضاعتى، و كثرة إضاعتى، فإنّ حمده جلّ جلاله تتضوّع به المطالب طيبا، و تقضى ببركته المآرب فيرقى صاحبها على منبر القبول خطيبا، و تعذب به المشارب فتنبت فى أرض القرطاس، من زاكى الغراس، ما يروق منظرا نضيرا و يورق غصنا رطيبا، و قد أتيت من المقال، بما يقرّ إن شاء اللّه تعالى عين وامق و يرغم أنف قال، و إن كنت ممّن هو فى ثوب العىّ رافل، و عن نسبته للقصور غير غافل، و ممّن جعل النفس هدفا، و صيّر مكان الدّرّ صدفا، إذ لسان الدين بن الخطيب إمام هذه الفنون، المحقّق لذوى الآمال الظنون، المستخرج من بحار البلاغة درّها المكنون، و له اليد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۰۵

الطولى فى العلوم على اختلاف أجناسها، و الألفاظ الرائقة التى تزيح وحشة الأنفس بإيناسها:

[الكامل]

ناهيك من فرد أغرّ ممدّح رحب الذّرا حرّ الكام محسّد

بهر الأنام رياسة و سياسة و جلالة فى المنتمى و المحتد

و أتى بكلّ بديعة فى نوعها لم تخترع و غريبة لم تعهد

ما شئت من شعر أرقّ من الصّبا و كتابة أزهى من الزّهر النّدى

و بديع قرطاس توشّح متنه بمنمنم من رقمه و منجّد

بهج كأنّ الحسن حلّ أديمه فكساه ريعان الشباب الأغيد

و كأنما سال العذار عليه أو خطّته أيدى الغانيات بإثمد

يختال بين موصّل و مفصّل و مطرّز و منظّم و منضّد

كالبرد فى توشيعه، و السّلك فى ترصيعه، و الوشى نمّق باليد

قد قيّد الأبصار و الأفكار من ألفاظه بمثقّف و مقيّد

ما فيه مغرز إصبع إلّا و فى ه نتيجة لمفرّع و مولّد

و لكلّ جزء حكمة أو ملحة أو بدعة لمرسّل و مقصّد

أو ليس مثلى قاصرا عن وصفه و الحقّ نور واضح للمهتدى

و كما قلت و قد عجزت عن أداء الواجب و حاولت المسنون، و فضل اللّه سبحانه على من يشاء من عباده ليس بممنوع و لا ممنون:

[الخفيف]

ليت شعرى أىّ العبارات توفى واجب ابن الخطيب ممّا أروم

و أنا عاجز عن البعض منها لقصورى و ما العيىّ ملوم

و هو يدعى لسان دين و ناهى ك افتخارا به تتمّ الرّسوم

فبأىّ الحلى أحلّى علا من نال فضلا روته عرب و روم

و على الفرض ما الّذى أنتحى من ه لدى الوصف أن يخصّ العموم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۱؛ ص۱۰۵

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۰۶

أ لحفظ قد ارتوى من معين لصواب عليه كلّ يحوم

أم لفهم يستخرج الدّرّ غوصا من بحار يخشى بها من يعوم

أم لفكر مؤلّف فى فنون عن دهاء به تداوى الكلوم

أم لنظم كأنه جوهر السّل ك غلا قدره على من يسوم

تتباهى به الصّدور حليّا و تروق العيون منه نجوم

أم لنثر وافى بسحر بيان فهو كالرّوح و المعانى جسوم

و أظلّته للبديع سماء تتلالا فى جانبيها العلوم

فاستزادت منه النفوس رشادا و استزانت منه النّهى و الحلوم

أم لحظّ منمنم فاق حسنا مثل وشى تلوح منه الرّقوم

أو كزهر فى بهجة ورواء و أريج به تزاح الغموم

و الغصون الأقلام، و الطّرس روض ناضر، و المداد غيث سجوم

تلك ستّ أعجزن وصفى فإنى بسواها مما يجلّ أقوم

[تقدير المؤلف للسان الدين بن الخطيب، و مدحه النبى و الصحابة]

و لم يكن جمعى. علم اللّه. هذا التأليف لرفد أستهديه، أو عرض نائل أستجديه، بل لحقّ ودّ أؤدّيه، و دين وعد أقدّمه و أبديه، و وقوف عند حدّ لا يجوز تعدّيه، و تلبية داع أحيّيه و أفديه: [الرمل]

إنّ من يرجو نوالا و ندى من بنى الدنيا لذو حظّ غبين

فلقد كان على غير الهدى من يسوّيهم بربّ العالمين

و يرجّى منهم الرزق فهل خالق الكلّ فقير أو ضنين

أ نخلّى قصد ربّ مالك و نرى للخلق جهلا قاصدين

ما لنا من مخلص نأتى به غير جاه المصطفى الهادى الأمين

سيّد الخلق العماد المرتجى للملمّات شفيع المذنبين

فعليه صلوات تنتحى حضرة حلّ بها فى كل حين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۰۷

و الرضا من بعد عن أربعة هم بحقّ أمراء المؤمنين

فيمينا إنّ من يهواهم ليكوننّ من اصحاب اليمين

وسط جنّات تحيّيه بها آنسات قاصرات الطّرف عين

بقوارير لجين شربه و أباريق و كأس من معين

و الذى شرّفهم يمنحنا حبّهم و الكون معهم أجمعين

فدونك أيها الناظر فى هذا الكتاب، المتجافى عن مذهب النقد و العتاب، كلمات سوانح، اختلست مع اشتعال الجوانح، و تضاد الأمور الموانع و الموانح، و ألفاظا بوارح، اقتنصت بين أشغال الجوارح، و طرفا أسمت الطّرف فى مرعاها و كانت هملا غير سوارح، و تحفا يحصل بها لناظره الإمتاع، و لا يعدّها من سقط المتاع المبتاع، و يلهج بها المرتاح، و يستأنس المستوحش المرتاع.

[تقسيم الكتاب و تبويبه]

و بعد أن خمّنت تمام هذا التصنيف، و أمعنت النظر فيما يحصل به التّقريط لسامعه و التشنيف، قسّمته قسمين، و كلّ منهما مستقلّ بالمطلوب فيصحّ أن يسمّيا باسمين:

القسم الأول: فيما يتعلّق بالأندلس من الأخبار المترعة الأكواب و الأنباء المنتحية صوب الصواب، الرافلة من الإفادة فى سوابغ الأثواب، و فيه بحسب القصد و الاقتصار، و تحرّى التوسّط فى بعض المواضع دون الاختصار، ثمانية من الأبواب:

الباب الأول: فى وصف جزيرة الأندلس و حسن هوائها، و اعتدال مزاجها و وفور خيرها و كمالها و استوائها، و اشتمالها على كثير من المنافع و المحاسن و احتوائها، و كرم نباتها الذى سقته سماء البركات من جنباتها بنافع أنوائها، و ذكر بعض مآثرها المجلوّة الصّور، و تعداد كثير مما لها من البلدان و الكور، المستمدّة من أضوائها.

الباب الثانى: فى إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بالقياد، و فتحها على يد موسى بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۰۸

نصير و مولاه طارق بن زياد، و صيرورتها ميدانا لسبق الجياد، و محطّ رحال الارتياء و الارتياد، و ما يتبع ذلك من خبر حصل بازديانه زياد، و نبإ وصل إليه اعتيام و تقرر بمثله اعتياد.

الباب الثالث: فى سرد بعض ما كان للدّين بالأندلس من العزّ السامى العماد، و القهر للعدوّ فى الرواح و الغدوّ و التحرّك للهدوّ البالغ غاية الآماد، و إعمال أهلها للجهاد، بالجدّ و الاجتهاد، فى الجبال و الوهاد، بالأسنّة المشرعة و السيوف المستلّة من الأغماد.

الباب الرابع: فى ذكر قرطبة التى كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة، و جامعها الأمويّ ذى البدائع الباهية الباهرة، و الإلماع بحضرتى الملك؛ الزهراء الناصرية و العامرية الزاهرة، و وصف جملة من متنزهات تلك الأقطار و مصانعها ذات المحاسن الباطنة و الظاهرة، و ما يجرّ إليه شجون الحديث من أمور تقضى بحسن إيرادها القرائح الوقّادة و الأفكار الماهرة.

الباب الخامس: فى التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق الذاكية العرار و البشام، و مدح جماعة من أولئك الأعلام، ذوى الألباب الراجحة و الأحلام، لشامة وجنة الأرض دمشق الشام، و ما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها و أرباب بيانها ذوى السؤدد و الاحتشام، و مخاطباتهم للمؤلّف الفقير حين حلّها عام سبعة و ثلاثين و ألف و شاهد برق فضلها المبين و شام.

الباب السادس: فى ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق، المهتدين فى قصدهم إليها بنور الهداية المضىء المشرق، و الأكابر الذين حلّوا منها بحلولهم فيها الجيد و المفرق، و افتخروا برؤية قطرها المونق على المشئم و المعرق.

الباب السابع: فى نبذة مما منّ اللّه تعالى به على أهل الأندلس من توقّد الأذهان، و بذلهم فى اكتساب المعارف و المعالى ما عزّ أو هان، و حوزهم فى ميدان البراعة من قصب السّبق خصل الرهان، و جملة من أجوبتهم الدالّة على لوذعيتهم، و أوصافهم المؤذنة بألمعيتهم، و غير ذلك من أحوالهم التى لها على فضلهم أوضح برهان.

الباب الثامن: فى ذكر تغلّب العدوّ الكافر على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد إليها، و تضريبه بين ملوكها و رؤسائها بمكره و استعماله فى أمرها حيل فكره حتى استولى- دمّره اللّه-

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۰۹

عليها، و محا منها التوحيد واسمه، و كتب على مشاهدها و معاهدها وسمه، و قرّر مذهب التثليث و الرأى الخبيث لديها، و استغاثة من بها بالنظم و النثر، أهل ذلك العصر، من سائر الأقطار، حين تعذّرت بحصارها، مع قلّة حماتها و أنصارها، المآرب و الأوطار، و جاءها الأعداء من خلفها و من بين يديها، أعاد اللّه تعالى إليها كلمة الإسلام، و أقام فيها شريعة سيّد الأنام، عليه أفضل الصلاة و السلام، و رفع يد الكفر عنها و عمّا حواليها، آمين.

و لم أخل بابا فى هذا القسم من كلام للسان الدين بن الخطيب و إن قلّ، مع أن القسم الثانى بذلك كما ستقف عليه قد استقلّ، و هذا

آخر ما تعلّق بالقسم الأول، و على اللّه سبحانه المتّكل و المعوّل.

القسم الثانى: فى التعريف بلسان الدين بن الخطيب، و ذكر أنبائه التى يروق سماعها، و يتأرّج نفحها و يطيب، و ما يناسبها من أحوال العلماء الأفراد، و الأعلام الذين اقتضى ذكرهم شجون الكلام و الاستطراد، و فيه أيضا من الأبواب ثمانية، موصلة إلى جنّات أدب قطوفها دانية، و كلّ غصن منها رطيب:

الباب الأول: فى ذكر أولية لسان الدين و ذكر أسلافه، الذين ورث عنهم المجد و ارتضع درّ أخلافه، و ما يناسب ذلك مما لا يذهب المنصف إلى خلافه.

الباب الثانى: فى نشأته و ترقّيه و وزارته و سعادته، و مساعدة الدهر له ثم قلبه له ظهر المجنّ على عادته، فى مصافاته، و منافاته، و ارتباكه، فى شباكه، و ما لقى من إحن الحاسد، ذى المذهب الفاسد، و محن الكائد المستأسد و آفاته، و ذكر قصوره و أمواله، و غير ذلك من أحواله، فى تقلّباته عندما قابله الزمان بأهواله، فى بدئه و إعادته إلى وفاته.

الباب الثالث: فى ذكر مشايخه الجلّة، هداة الناس و نجوم الملّة، و ما يتّصل بذلك من الأخبار الشافية للعلّة، و المواعظ المنجية من الأهواء المضلّة، و المناسبات الواضحة البراهين و الأدلّة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۱۰

الباب الرابع: فى مخاطبات الملوك و الأكابر الموجّهة إلى حضرته العليّة، و ثناء غير واحد من أهل عصره عليه، و صرف القاصدين وجوه التأميل إليه، و اجتلائهم أنوار رياسته الجليّة.

الباب الخامس: فى إيراد جملة من نثره الذى عبق أريج البلاغة من نفحاته، و نظمه الذى تألّق نور البراعة من لمحاته و صفحاته، و ما يتّصل بذلك من بعض أزجاله و موشّحاته، و مناسبات رائقة من فنون الأدب و مصطلحاته.

الباب السادس: فى مصنّفاته فى الفنون، و مؤلّفاته المحقّقة للواقف عليها الآمال و الظنون، و ما كمل منها أو اخترمته دون إتمامه المنون.

الباب السابع: فى ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه، المستدلّين به على المنهاج، المتلقّين أنواع العلوم منه، و المقتبسين أنوار الفهوم من سراجه الوهّاج.

الباب الثامن: فى ذكر أولاده الرافلين فى حلل الجلالة، المقتفين أوصافه الحميدة و خلاله، الوارثين العلم و الحلم و الرياسة و المجد عن غير كلالة، و وصيّته لهم الجامعة لآداب الدين و الدنيا، المشتملة على النصائح الكافية، و الحكم الشافية، من كل مرض بلا ثنيا، المنقذة من أنواع الضلالة، و ما يتبع ذلك من المناسبات القوية، و الأمداح النبويّة، التى لها على حسن الختام أظهر دلالة.

و قد كنت أولا سمّيته ب «عرف الطّيب، فى التعريف بالوزير ابن الخطيب» ثم وسمته حين ألحقت أخبار الأندلس به ب «نفح الطّيب، من غصن الأندلس الرطيب، و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب».

و له بالشام تعلّق من وجوه عديدة، هادية لمتأمّله إلى الطرق السديدة:

أوّلها: أنّ الداعى لتأليفه أهل الشام. أبقى اللّه مآثرهم و جعلها على مرّ الزمان مديدة.

ثانيها: أنّ الفاتحين للأندلس هم أهل الشام ذوو النّجدة و الشّوكة الحديدة.

ثالثها: أن غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين اتّخذوا بالأندلس وطنا مستأنفا و حضرة جديدة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۱۱

و رابعها: أن غرناطة نزل بها أهل دمشق، و سمّوها باسمها لشبهها بها فى القصر و النهر، و الدّوح و الزّهر، و الغوطة الفيحاء، و هذه مناسبة قوية العرا شديدة.

هذا، و إنى أسأل ممّن وقف عليه، أن ينظر بعين الإغضاء إليه، كما أطلب ممّن كان السبب فى تصنيفه، و الداعى إلى تأليفه و ترصيفه،

استنادا لركن الثقة، و اعتمادا على الودّ و المقة، أن يصفح عمّا فيه من قصور و يسمح، و يلاحظه بعين الرضا الكليلة و يلمح، إذ ركّبت شكل منطقه و الأشجان غالبة، و قضية الغربة، موجبة للكربة، و لبعض الآمال سالبة، و هو. و إن لم يوف بكل الغرض. فلا يخلو من فائدة، و قد يستدلّ على الجوهر بالعرض، فإن أدّيت المفترض، و ذاك المرام الذى أرتضيه، و يوجب الودّ و يقتضيه: [الطويل]

و إلّا فحسبى أن بذلت به جهدى و أنفقت من وجدى على قدر ما عندى

و قد توهّمت أنى لم أسبق إلى مثله فى بابه، إذ لم أقف له على نظير أتعلّق بأسبابه، و رجوت أن يكون هديّة مستملحة مستعذبة، و طرفة مقبولة مستغربة: [السريع]

هديّتى تقصر عن همّتى و همّتى أكثر من مالى

و خالص الودّ و محض الإخا أكثر ما يهديه أمثالى

[خاتمة المقدمة و ذم الدنيا]

و أوردت فيه من نظم و إنشاء، ما يكفى المقتصر عليه إن شاء، و من أخبار ملوك و رؤساء، و طبقات من أحسن أو أساء، ما فيه اعتبار للمتأمّل، و ادّكار للراحل المتحمّل، و زينة للذاكر المتجمّل، و تنكيت على أهل البطر، و تبكيت لمن خرج من دنياه و لم يقض من الطاعة الوطر: [الوافر]

أرى أولاد آدم أبطرتهم حظوظهم من الدنيا الدّنيّة

فلم بطروا و أوّلهم منىّ إذا نسبوا و آخرهم منيّه

و فيه إيقاظ لمثلى من سنة الغفلة، و حثّ على عدم الاغترار بالمهلة، و تنبيه للابس برد الشباب القشيب، أنّه لا بدّ من حادث الموت قبل أو بعد المشيب: [السريع]

للّه درّ الشّيب من واعظ و ناصح منهاجه واضح

كلّ امرئ يعجبه شأنه و حادث الدهر له فاضح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۱۲

فكم باك على عصر الشباب، و شاك لفراق عهد الصّبا و الأحباب، أنساه طارق الزمان سليمى و الرّباب: [الوافر]

مضى عصر الشباب كلمح برق و عصر الشّيب بالأكدار شيبا

و ما أعددت قبل الموت زادا ليوم يجعل الولدان شيبا

و ما أحسن قول بعض الأعلام: [الطويل]

مضى ما مضى من حلو عيش و مرّه كأن لم يكن إلّا كأضغاث أحلام

و قول من أرشد سفيها: [الخفيف]

إنما هذه الحياة متاع فالجهول الجهول من يصطفيها

ما مضى فات و المؤمّل غيب و لك الساعة التى أنت فيها

و فى معناه لغيره: [المجتث]

دنياك شيئان فانظر ما ذانك الشّيئان

ما فات منها فحلم و ما بقى فأمانى

و ما أحكم قول ابن حطّان، مع وقوعه من البدعة فى أشطان: [الرمل]

يأسف المرء على ما فاته من لبانات إذا لم يقضها

و تراه ضاحكا مستبشرا بالتى أمضى كأن لم يمضها

إنها عندى كأحلام الكرى لقريب بعضها من بعضها

و لغيره: [البسيط]

و اللّه لو كانت الدنيا بأجمعها تبقى علينا و يأتى رزقها رغدا

ما كان من حقّ حرّ أن يذلّ لها فكيف و هى متاع يضمحلّ غدا

و لآخر: [السريع]

لا حظّ فى الدنيا لمستبصر يلمحها بالفكرة الباصره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۱۳

إن كدّرت مشربه ملّها و إن صفت كدّرت الآخره

و يعجبنى قول الوزير ابن المغربى: [مجزوء الكامل]

إنى أبثّك من حدى ثى و الحديث له شجون

فارقت موضع مرقدى ليلا ففارقنى السكون

قل لى فأوّل ليلة للقبر كيف ترى أكون

و قول ماميه: [الوافر]

تأمّل فى الوجود بعين فكر تر الدنيا الدّنيّة كالخيال

و من فيها جميعا سوف يفنى و يبقى وجه ربك ذو الجلال

و قول بعض العارفين: [الخفيف]

استعدّى يا نفس للموت واسعى لنجاة فالحازم المستعدّ

قد تبيّنت أنه ليس للحىّ خلود و ما من الموت بدّ

إنما أنت مستعيرة ما سو ف تردّين و العوارى تردّ

أنت تسهين و الحوادث لا تس هو و تلهين و المنايا تجدّ

أىّ ملك فى الأرض أو أىّ حظّ لامرىء حظّه من الأرض لحد

لا ترجّى البقاء فى معدن المو ت ودار حتوفها لك ورد

كيف يرجو امرؤ لذاذة أيا م عليه الأنفاس فيها تعدّ

و أسأل من مبلغ السائلين ما يرجون: أن يصفح عن زلاتى و يسامحنى فيما أوردت فى هذا الكتاب من الهزل و المجون، الذى جرّت المناسبة إليه و الحديث شجون، و ما القصد منه إلّا ترويح قلوب الذين يسوقون عيس الأسمار و يزجون، و فيما أوردت من المواعظ و النصائح،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۱۴

و حكايات الأولياء الذين طيب زهر مناقبهم فائح، و التوسّل بمحاسن الأمداح النبوية أن يستر بفضله سبحانه القبائح، و يرينا وجه القبول بلا اكتتام، و يمنحنا الزّلفى و حسن الختام: [الطويل]

و من يتوسّل بالنبىّ محمّد شفيع البرايا السّيّد السّند الأسنى

فذاك جدير أن يكفّر ذنبه و يمنح نيل القصد و الختم بالحسنى

و هذا أوان الشروع، فى الأصول من هذا الكتاب و الفروع، و على اللّه سبحانه أعتمد، و من معونته أستمدّ.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۱۵

القسم الأول فيما يتعلق بالأنـدلس من الأخبار المترعـة الأكواب، و الأنباء المنتحية صوب الصواب، الرافلة من الإفادة فى سوابغ الأثواب،

اشارة

و فيه بحسب القصد و الاختصار، و تحرّى التوسّط فى بعض المواضع دون الاختصار، ثمانية من الأبواب هى:

الباب الأول: فى وصف جزيرة الأندلس.

الباب الثانى: فى فتح الأندلس.

الباب الثالث: فى سرد ما كان للدين الإسلامى بالأندلس من العزّة و المكانة.

الباب الرابع: فى ذكر قرطبة و جامعها الأمويّ و وصف الزهراء.

الباب الخامس: فى التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى المشرق.

الباب السادس: فى ذكر الوافدين من المشرق إلى الأندلس.

الباب السابع: فيما امتاز به الأندلسيون من توقّد الأذهان.

الباب الثامن: فى تغلّب العدوّ على الأندلس، و استغاثة الأندلسيين بالنظم و الشعر.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۱۷

الباب الأوّل وصف الأندلس

[أقوال فى مزايا الأندلس]

فى وصف جزيرة الأندلس و حسن هوائها، و اعتدال مزاجها و وفور خيراتها و استوائها، و اشتمالها على كثير من المحاسن و احتوائها، و كرم بقعتها التى سقتها سماء البركات بنافع أنوائها، و ذكر بعض مآثرها المجلوّة الصّور، و تعداد كثير مما لها من البلدان و الكور، المستمدّة من أضوائها، فأقول:

محاسن الأندلس لا- تستوفى بعبارة، و مجارى فضلها لا- يشقّ غباره، و أنّى تجارى و هى الحائزة قصب السّبق، فى أقطار الغرب و الشرق؟.

قال ابن سعيد: إنما سمّيت بالأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح؛ لأنه نزلها، كما أن أخاه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها، و إليه تنسب سبتة.

قال: و أهل الأندلس يحافظون على قوام اللسان العربى؛ لأنهم إمّا عرب أو متعرّبون، انتهى.

و قال ابن غالب: إنه أندلس بن يافث، و اللّه تعالى أعلم.

و قال الوزير لسان الدين بن الخطيب- رحمه اللّه!- فى بعض كلام له أجرى فيه ذكر البلاد الأندلسية، أعادها اللّه تعالى للإسلام! ببركة المصطفى عليه من اللّه أفضل الصلاة و أزكى السلام، ما نصّه: خصّ اللّه تعالى بلاد الأندلس من الرّيع و غدق السّقيا، و لذاذة الأقوات، و فراهة الحيوان، و درور الفواكه، و كثرة المياه، و تبحّر العمران، و جودة اللباس، و شرف الآنية، و كثرة السلاح، و صحة الهواء، و ابيضاض ألوان الإنسان، و نبل الأذهان، و فنون

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۱۸

الصنائع، و شهامة الطباع، و نفوذ الإدراك، و إحكام التمدّن و الاعتمار، بما حرمه الكثير من الأقطار ممّا سواها، انتهى.

قال أبو عامر السالمى، فى كتابه المسمّى ب «درر القلائد و غرر الفوائد»: الأندلس من الإقليم الشامى، و هو خير الأقاليم، و أعدلها هواء و ترابا، و أعذبها ماء، و أطيبها هواء و حيوانا و نباتا، و هو أوسط الأقاليم، و خير الأمور أوساطها، انتهى.

قال أبو عبيد البكرى: الأندلس شامية فى طيبها و هوائها، يمانيّة فى اعتدالها و استوائها، هنديّة فى عطرها و ذكائها، أهوازية فى عظم جبايتها، صينية فى جواهر معادنها، عدنيّة فى منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة و حاملى الفلسفة، و كان من ملوكهم الذين أثّروا الآثار بالأندلس هرقلس، و له الأثر فى الصنم بجزيرة قادس و صنم جلّيقيّة، و الأثر فى مدينة طرّكونة، الذى لا نظير له.

[مساحة الأندلس و أبعادها و مناخها]

قال المسعودى: بلاد الأندلس تكون مسيرة عمائرها و مدنها نحو شهرين، و لهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة، انتهى باختصار.

و نحوه لابن اليسع، إذ قال: طولها من أربونة إلى أشبونة و هو قطع ستين يوما للفارس المجدّ، و انتقد بأمرين: أحدهما أنه يقتضى أنّ أربونة داخلة فى جزيرة الأندلس، و الصحيح أنها خارجة عنها، و الثانى أن قوله: «ستّين يوما للفارس المجدّ» إعياء و إفراط، و قد قال جماعة:

إنها شهر و نصف.

قال ابن سعيد: و هذا يقرب إذا لم يكن للفارس المجدّ، و الصحيح ما نصّ عليه الشريف من أنها مسيرة شهر، و كذا قال الحجارى، و قد سألت المسافرين المحقّقين عن ذلك فعملوا حسابا بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بتيف قليل.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۱۹

قال الحجارى فى موضع من كتابه: إن طول الأندلس من الحاجز إلى أشبونة ألف ميل و نيف. انتهى.

و بالجملة، فالمراد التقريب من غير مشاحة، كما قاله ابن سعيد، و أطال فى ذلك، ثم قال بعد كلام: و مسافة الحاجز الذى بين بحر الزّقاق و البحر المحيط أربعون ميلا، و هذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق، و لقلّته سمّيت جزيرة، و إلّا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة، و عرض جزيرة الأندلس فى موسّطها عند طليطلة ستة عشر يوما. و اتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل، و اختلفوا فى الركن الذى فى الشرق و الجنوب فى حيز أربونة، فممّن قال إنه فى أربونة و إن هذه المدينة تقابلها مدينة برذيل التى فى الركن الشرقى الشمالى أحمد بن محمد الرازى و ابن حيّان، و فى كلام غيرهما أنه فى جهة أربونة، و حقّق الأمر الشريف، و هو أعرف بتلك الجهة لتردّده فى الأسفار برّا و بحرا إليها و تفرّغه لهذا الفن.

قال ابن سعيد: و سألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبرونى أنّ الصحيح ما ذهب إليه الشريف، و أنّ أربونة و برشلونة غير داخلتين فى أرض الأندلس، و أن الركن الموفى على بحر الزقاق بالمشرق بين برشلونة و طرّكونة فى موضع يعرف بوادى زنلقطو، و هنالك الحاجز الذى يفصل بين الأندلس و الأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة، و فى هذا المكان جبل ألبرت الفاصل فى الحاجز المذكور و فيه الأبواب التى فتحها ملك اليونانيين بالحديد و النار و الخل، و لم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريق فى البرّ. و ذكر الشريف أن هذه الأبواب يقع فى مقابلتها فى بحر الزقاق البحر الذى بين جزيرتى ميورقة و منورقة، و قد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية، و مسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبى و الركن الشمالى أربعون ميلا.

قال: و شمال الركن المذكور عند مدينة برديل، و هى من مدن الإفرنجة، مطلّة على

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۲۰

البحر المحيط فى شمال الأندلس، قال: و يتقهقر البرّ بعد تميز هذا الركن إلى الشمال فى بلاد الفرنجة، و لهم به جزائر كثيرة. و ذكرا الركن الشمالى عند شنت ياقوه من ساحل الجلالقة فى شمال الأندلس، حيث تبتدىء جزيرة برطانية الكبيرة فيتصوّر هنالك بحر داخل بين أرضين، من الناس من يجعله بحرا منفردا خارجا من البحر المحيط لطوله إلى الركن المتقدّم الذكر عند مدينة برديل

و ذكر الشريف أن عند شنت ياقوه فى هذا الركن المذكور على جبل بمجمع البحرين صنما مطلّا مشبها بصنم قادس.

و الركن الثالث بمقربة من جبل الأغن حيث صنم قادس، و الجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزّقاق من البحر المحيط مارّا مع ساحل الأندلس الجنوبى إلى جبل ألبرت المذكور، انتهى، و الكلام فى مثل هذا طويل الذيل.

قال الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازى: بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب، و هو عند الحكماء بلد كريم البقعة، طيب التربة، خصب الجناب، منبجس الأنهار الغزار و العيون العذاب، قليل الهوامّ ذوات السموم، معتدل الهواء و الجوّ و النسيم، ربيعه و خريفه و مشتاه و مصيفه على قدر من الاعتدال، وسطة من الحال، لا يتولّد فى أحدها فصل يتولّد منه فيما يتلوه انتقاص، تتّصل فواكهه أكثر الأزمنة و تدوم متلاحقة غير مفقودة، أمّا الساحل منه و نواحيه، فيبادر بباكوره، و أما الثغر وجهاته و الجبال المخصوصة ببرد الهواء، فيتأخّر بالكثير من ثمره، فمادة الخيرات بالبلد متمادية فى كل الأحيان، و فواكهه على الجملة غير معدومة فى كل أوان. و له خواصّ فى كرم النبات توافق فى بعضها أرض الهند المخصوصة بكرم النبات و جواهره: منها أن المحلب- و هو المقدّم فى الأفاويه و المفضّل فى أنواع الأشنان- لا ينبت بشىء من الأرض إلّا بالهند و الأندلس.

و للأندلس المدن الحصينة، و المعاقل المنيعة، و القلاع الحريزة، و المصانع الجليلة،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۲۱

و لها البرّ و البحر، و السهل و الوعر، و شكلها مثلث، و هى معتمدة على ثلاثة أركان؛ الأول هو الموضع الذى فيه صنم قادس المشهور بالأندلس، و منه مخرج البحر المتوسط الشامى الآخذ بقبلىّ الأندلس، و الركن الثانى هو بشرقى الأندلس بين مدينة بربونة و مدينة برذيل مما بأيدى الفرنجة اليوم بإزاء جزيرتى ميورقة و منورقة بمجاورة من البحرين؛ البحر المحيط و البحر المتوسط، و بينهما البرّ الذى يعرف بالأبواب، و هو المدخل إلى بلاد الأندلس من الأرض الكبيرة على بلد إفرنجة، و مسافته بين البحرين مسيرة يومين، و مدينة بربونة تقابل البحر المحيط، و الركن الثالث منها هو ما بين الجوف و الغرب من حيّز جلّيقية، حيث الجبل الموفى على البحر، و فيها الصنم العالى المشبّه بصنم قادس، و هو الطالع على بلد برطانية.

قال: الأندلس أندلسان فى اختلاف هبوب أرياحها و مواقع أمطارها و جريان أنهارها:

أندلس غربى، و أندلس شرقى، فالغربى منهما ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربى، و تمطر بالرياح الغربية، و مبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمريّة طالعا إلى حوز إغريطة المجاورة لطليطلة مائلا إلى الغرب و مجاورا للبحر المتوسط الموازى لقرطاجنّة الخلفاء التى من بلد لورقة. و الحوز الشرقى المعروف بالأندلس الأقصى، و تجرى أوديته إلى الشرق، و أمطاره بالريح الشرقية، و هو من حدّ جبل البشكنش، هابطا مع وادى إبرة إلى بلد شنت مرية، و من جوف هذا البحر و غربه المحيط، و فى القبلة منه البحر الغربى الذى منه يجرى البحر المتوسط الخارج إلى بلد الشام، و هو البحر المسمّى ببحر تيران، و معناه الذى يشقّ دائرة الأرض، و يسمى البحر الكبير.

قال أبو بكر عبد اللّه بن عبد الحكم المعروف بابن النظام: بلد الأندلس عند علماء أهله

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۲۲

أندلسان، فالأندلس الشرقى منه ما صبّت أوديته إلى البحر الرومى المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الأندلس إلى المشرق، و ذلك ما بين مدينة تدمير إلى سرقسطة، و الأندلس الغربى ما صبّت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل ذلك الحدّ إلى ساحل المغرب، فالشرقى منهما يمطر بالريح الشرقية، و يصلح عليها، و الغربىّ يمطر بالريح الغربية و بها صلاحه، و جباله هابطة إلى الغرب

جبلا- بعد جبل. و إنما قسّمته الأوائل جزأين؛ لاختلافهما فى حال أمطارهما، و ذلك أنه مهما استحكمت الريح الغربية كثر مطر الأندلس الغربى و قحط الأندلس الشرقى، و متى استحكمت الريح الشرقية كثر مطر الأندلس الشرقىّ و قحط الغربى، و أودية هذا القسم تجرى من الشرق إلى الغرب بين هذه الجبال. و جبال الأندلس الغربى تمتدّ إلى الشرق جبلا بعد جبل. تقطع من الجوف إلى القبلة، و الأودية التى تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها إلى القبلة و بعضها إلى الشرق، و تنصبّ كلّها إلى البحر المحيط بالأندلس القاطع إلى الشام، و هو البحر الرومى، و ما كان من بلاد جوفى الأندلس من بلاد جلّيقيّة و ما يليها فإنّ أوديته تنصبّ إلى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف.

وصفة الأندلس شكل مركّن على مثال الشكل المثلث: ركنها الواحد فيما بين الجنوب و المغرب حيث اجتماع البحرين عند صنم قادس، و ركنها الثانى فى بلد جلّيقيّة حيث الصنم المشبه صنم قادس مقابل جزيرة برطانية، و ركنها الثالث بين مدينة بربونة و مدينة برذيل من بلد الفرنجة بحيث يقرب البحر المحيط من البحر الشامى المتوسط، فيكادان يجتمعان فى ذلك الموضع، فيصير بلد الأندلس جزيرة بينهما فى الحقيقة، لو لا أنه يبقى بينهما برزخ برية صحراء و عمارة مسافة مسيرة يوم للراكب، منه المدخل إلى الأرض الكبيرة التى يقال لها الأبواب، و من قبله يتصل بلد الأندلس بتلك البلاد المعروفة بالأرض الكبيرة ذات الألسن المختلفة.

[أول من استوطن الأندلس]

قال: و أوّل من سكن بالأندلس على قديم الأيام فيما نقله الأخباريون من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون ب «الأندلش» - معجمة الشين- بهم سمّى المكان، فعرّب فيما بعد بالسين غير المعجمة، كانوا الذين عمروها و تناسلوا فيها و تداولوا ملكها دهرا، على دين التمجّس و الإهمال و الإفساد فى الأرض، ثم أخذهم اللّه بذنوبهم، فحبس المطر عنهم، و والى القحط عليهم، و أعطش بلادهم حتى نضبت مياهها، و غارت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۲۳

عيونها، و يبست أنهارها، و بادت أشجارها، فهلك أكثرهم، و فرّ من قدر على الفرار منهم، فأقفرت الأندلس منهم، و بقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة و بضع عشرة سنة، و ذلك من حدّ بلد الفرنجة إلى حدّ بحر الغرب الأخضر، و كان عدّة ما عمرتها هذه الأمة البائدة مائة عام و بضع عشرة سنة. ثم ابتعث اللّه لعمارتها الأفارقة، فدخل إليها بعد إقفارها تلك المدّة الطويلة قوم منهم أجلاهم ملك إفريقية تخفّفا منهم لإمحال توالى على أهل مملكته، و تردّد عليهم حتى كاد يفنيهم، فحمل منهم خلقا فى السفن مع قائد من قبله يدعى «أبطريقس» فأرسوا بريف الأندلس الغربى، و احتلّوا «بجزيرة قادس»، فأصابوا الأندلس قد أمطرت و أخصبت، فجرت أنهارها، و انفجرت عيونها، و حييت أشجارها، فنزلوا الأندلس مغتبطين، و سكنوها معتمرين، و توالدوا فيها فكثروا و استوسعوا فى عمارة الأرض ما بين الساحل الذى أرسوا فيه بغربيها إلى بلد الإفرنجة من شرقيها، و نصّبوا من أنفسهم ملوكا عليهم ضبطوا أمرهم و توالوا على إقامة دولتهم، و هم- مع ذلك- على ديانة من قبلهم من الجاهلية، و كانت دار مملكتهم طالقة الخراب اليوم من أرض إشبيلية، اخترعها ملوكهم و سكنوها، فاتّسق ملكهم بالأندلس مائة و سبعة و خمسين عاما إلى أن أهلكهم اللّه تعالى، و نسخهم بعجم رومة، بعد أن ملك من هؤلاء الأفارقة فى مدّتهم تلك أحد عشر ملكا. ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة و ملكهم «إشبان بن طيطش»، و باسمه سمّيت: الأندلس «إشبانية»، و ذكر بعضهم أنّ اسمه: «أصبهان» فأحيل بلسان العجم، و قيل: بل كان مولده «بأصبهان» فغلب اسمها عليه، و هو الذى بنى إشبيلية، و كان «إشبانية» اسما خالصا لبلد «إشبيلية» الذى كان ينزله «إشبان» هذا، ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله، فالعجم الآن يسمّونه إشبانية لآثار إشبان هذا فيه، و كان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدّنيا فيما زعموا، و كان غزا الأفارقة عندما سلّطه اللّه عليهم فى جموعه، ففضّ عساكرهم، و أثخن فيهم، و نزل عليهم بقاعدتهم «طالقة» و قد تحصّنوا فيها منه، فابتنى عليهم مدينة «إشبيلية» اليوم، و اتّصل حصره و قتاله لهم حتى فتحها اللّه عليه، و غلبهم، و استوت له مملكة الأندلس بأسرها، و

دان له من كان فيها، فهدم مدينة طالقة، و نقل رخامها و آلاتها إلى مدينة إشبيلية، فاستتمّ بناءها، و اتّخذها دار مملكته، و استغلظ سلطانه فى الأرض، و كثرت جموعه، فعلا و عظم عتوّه، ثم غزا «إيليا» - و هى «القدس الشريف» - من إشبيلية بعد سنتين من ملكه، خرج إليها فى السفن فغنمها و هدمها، و قتل فيها من اليهود مائة ألف، و استرقّ مائة ألف، و نقل رخام «إيليا» و آلاتها إلى الأندلس، و قهر الأعداء، و اشتدّ سلطانه، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۲۴

[غرائب ما أصيب بالأندلس عند الفتح الإسلامى]

و ذكر بعض المؤرّخين أن الغرائب التى أصيبت فى مغانم الأندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة و السلام التى ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة و قليلة الدّرّ التى ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة و غيرهما من طرائف الذخائر، إنما كانت ممّا صار لصاحب الأندلس من غنيمة بيت المقدس، إذ حضر فتحها مع «بخت‌نصّر»، و كان اسم ذلك الملك «بريان»، و فى سهمه وقع ذلك و مثله ممّا كانت الجنّ تأتى به نبىّ اللّه سليمان، على نبيّنا و عليه و على جميع الأنبياء الصلاة و السلام! انتهى.

و قال غير واحد من المؤرخين: كان أهل المغرب الأقصى يضرّون بأهل الأندلس؛ لاتّصال الأرض، و يلقون منهم الجهد الجهيد فى كل وقت، إلى أن اجتاز بهم الإسكندر، فشكوا حالهم إليه، فأحضر المهندسين، و حضر إلى الزقاق، فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط و البحر الشامى، فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامى بشىء يسير، فأمر برفع البلاد التى على ساحل البحر الشامى، و نقلها من الحضيض إلى الأعلى، ثم أمر بحفر ما بين طنجة و بلاد الأندلس من الأرض، فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية، و بنى عليها رصيفا بالحجر و الجيّار بناء محكما و جعل طوله اثنى عشر ميلا، و هى المسافة التى كانت بين البحرين، و بنى رصيفا آخر يقابله من ناحية طنجة، و جعل بين الرصيفين سعة ستة أميال، فلمّا كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الأعظم، و أطلق فم الماء بين الرصيفين، فدخل فى البحر الشامى، ثم فاض ماؤه، فأغرق مدنا كثيرة، و أهلك أمما عظيمة كانت على الشطّين، و طفا الماء على الرصيفين إحدى عشرة قامة، فأمّا الرصيف الذى يلى بلاد الأندلس، فإنّه يظهر فى بعض الأوقات إذا نقص الماء ظهورا بيّنا مستقيما على خطّ واحد، و أهل الجزيرتين يسمّونه القنطرة، و أما الرصيف الذى من جهة العدوة، فإن الماء حمله فى صدره، و احتفر ما خلفه من الأرض اثنى عشر ميلا، و على طرفه من جهة المغرب قصر الجواز و سبتة و طنجة، و على طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد و جزيرة طريف و غيرهما و الجزيرة الخضراء، و بين سبتة و الجزيرة الخضراء عرض البحر. انتهى ملخصا، و قد تكرّر بعضه مع ما جلبناه، و العذر بيّن لارتباط الكلام بعضه ببعض.

[موقع الأندلس من الأقاليم]

و قال ابن سعيد: ذكر الشريف أن لا حظّ لأرض الأندلس فى الإقليم الثالث، قال: و يمرّ بجزيرة الأندلس الإقليم الرابع على ساحلها الجنوبى و ما قاربه من قرطبة و إشبيلية و مرسية

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۲۵

و بلنسية، ثم يمرّ على جزيرة صقلية و على ما فى سمتها من الجزائر، و الشمس مدبّرة له.

و الإقليم الخامس يمرّ على طليطلة و سرقسطة و ما فى سمتهما إلى بلاد أرغون التى فى جنوبيها برشلونة، ثم يمرّ على رومية و بلادها، و يشقّ بحر البنادقة، ثم يمرّ على القسطنطينية، و مدبّرته الزّهرة.

و السادس يمرّ على ساحل الأندلس الشمالى الذى على البحر المحيط و ما قاربه و بعض البلاد الداخلة فى قشتالة و برتقال و ما فى سمتها، و على بلاد برجان و الصقالبة و الروس، و مدبّره عطارد.

و يمرّ الإقليم السابع فى البحر المحيط الذى فى شماليّ الأندلس إلى جزيرة أنقلطرة و غيرها من الجزائر و ما فى سمتها من بلاد الصقالبة و برجان.

قال البيهقى: و فيه تقع جزيرة تولى و جزيرتا أجبال و النساء و بعض بلاد الروس الداخلة فى الشمال و البلغار، و مدبّره القمر، انتهى.

و قال بعض العلماء: إنّ النصارى حرموا جنّة الآخرة فأعطاهم اللّه جنة الدنيا بستانا متّصلا من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج القسطنطينية، و عندهم عموم شاه بلوط و البندق و الجوز و الفستق و غير ذلك مما يكون أكثر و أمكن فى الأقاليم الباردة، و التمر عندهم معدوم، و كذا الموز و قصب السكر، و ربما يكون شىء من ذلك فى الساحل؛ لأن هواء البحر يدفئ، انتهى.

[إشبان و الخصر عليه السلام]

قال ابن حيّان فى المقتبس: ذكر رواة العجم أن الخضر، عليه السلام، وقف على إشبان المذكور و هو يحرث الأرض بفدن له أيام حراثته، فقال له: يا إشبان، إنك لذو شأن، و سوف يحظيك زمان، و يعليك سلطان، فإذا أنت غلبت على إيليا فارفق بذرّيّة الأنبياء، فقال له إشبان: أساخر بى رحمك اللّه؟! أنّى يكون هذا منّى و أنا ضعيف ممتهن حقير فقير ليس مثلى ينال السلطان؟ فقال له: قد قدّر ذلك فيك من قدّر فى عصاك اليابسة ما تراه، فنظر إشبان إلى عصاه، فإذا بها قد أورقت، فريع لما رأى من الآية، و ذهب الخضر عنه، و قد وقع الكلام بخلده، و وفرت فى نفسه الثقة بكونه، فترك الامتهان من وقته، و داخل الناس، و صحب أهل البأس منهم، وسما به جدّه فارتقى فى طلب السلطان حتى أدرك منه عظيما، و كان منه ما كان.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۲۶

ثم أتى عليه ما أتى على القرون قبله، و كان ملكه كله عشرين سنة، و تمادى ملك الإشبانيين بعده إلى أن ملك منهم الأندلس خمسة و خمسون ملكا.

[دخول عجم رومة و القوط الأندلس، و دخول النصرانية إليها]

ثم دخل على هؤلاء الإشبانيين من عجم رومة أمّة يدعون البشتولقات، و ملكهم طلويش بن بيطة، و ذلك زمن بعث المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام! أتوا الأندلس من قبل رومة، و كانوا يملكون إفرنجة معها، و يبعثون عمالهم إليها، فاتخذوا دار مملكتهم بالأندلس مدينة ماردة، و استولوا على مملكة الأندلس، و اتصل ملكهم بها مدّة إلى أن ملك منهم سبعة و عشرون ملكا.

ثم دخل على هؤلاء البشتولقات أمّة القوط مع ملك لهم، فغلبوا على الأندلس، و اقتطعوها من يومئذ من صاحب رومة، و تفرّدوا بسلطانهم، و اتخذوا مدينة طليطلة دار مملكتهم، و أقرّوا بها سرير ملكهم، فبقى بإشبيلية علم الإشبانيين و رياسة أوليتهم.

و قد كان عيسى المسيح عليه السلام، بعث الحواريين فى الأرض يدعون الخلق إلى ديانته، فاختلف الناس عليهم، و قتلوا بعضهم، و استجاب لهم كثير منهم، و كان من أسرعهم إجابة لمن جاءه من هؤلاء الحواريين خشندش ملك القوط، فتنصّر، و دعا قومه إلى النصرانية، و كان من صميم أعاظمهم و خير من تنصّر من ملوكهم، و أجمعوا على أنه لم يكن فيهم أعدل منه حكما، و لا أرشد رأيا، و لا أحسن سيرة، و لا أجود تدبيرا، فكان الذى أصّل النصرانية فى مملكته، و مضى أهلها على سنّته إلى اليوم، و حكموا بها، و الإنجيلات فى المصاحف الأربعة التى يختلفون فيها من انتساخه و جمعه و تثقيفه، فتناسقت ملوك القوط بالأندلس بعده إلى أن غلبتهم العرب عليها، و أظهر اللّه تعالى دين الإسلام على جميع الأديان.

فوقع فى تواريخ العجم القديمة أنّ عدّة ملوك هؤلاء القوط بالأندلس من عهد أتاناوينوس الذى ملك فى السنة الخامسة من مملكة فلبش القيصرى لمضىّ أربعمائة و سبع من تاريخ الصفر المشهور عند العجم إلى عهد لذريق آخرهم الذى ملك فى السنة التاسعة و الأربعين و سبعمائة من تاريخ الصفر، و هو الذى دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط، ستة و ثلاثون ملكا، و أن مدّة أيام ملكهم

بالأندلس ثلاثمائة و اثنتان و أربعون سنة، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۲۷

[حكم القوط فى الأندلس و مناخها و خيراتها و معادنها]

و قال جماعة: إن القوط غير البشتولقات، و إن البشتولقات من عجم رومة، و إنهم جعلوا دار ملكهم ماردة، و اتّصل ملكهم إلى أن ملك منهم سبعة و عشرون ملكا، ثم دخل عليهم القوط، و اتّخذوا طليطلة دار مملكة، ثم ذكر تنصّر ملكهم خشندش مثل ما تقدّم، ثم ذكر أن عدّة ملوك القوط ستة و ثلاثون ملكا.

و ذكر الرازى أن القوط من ولد يأجوج بن يافث بن نوح، و قيل غير ذلك، انتهى.

و ذكر الرازى فى موضع آخر نحو ما تقدّم و زيادة، و نصّه: أن الأندلس فى آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة التى تقدّم ذكرها التى هى ربع معمور الدنيا فهى موسطة من البلدان، كريمة البقعة، بطبع الخلقة، طيبة التربة، مخصبة القاعة، منبجسة العيون الثّرار منفجرة الأنهار الغزار، قليلة الهوامّ ذوات السموم، معتدلة الهواء أكثر الأزمان لا يزيد قيظها زيادة منكرة تضرّ بالأبدان و كذا سائر فصولها فى أعمّ سنيها تأتى على قدر من الاعتدال، و توسّط من الحال، و فواكهها تتصل طول الزمان، فلا تكاد تعدم لأن الساحل و نواحيه يبادر بباكوره، كما أن الثغر و جهاته و الجبال التى يخصّ ها برد الهواء و كثافة الجوّ تستأخر بما فيها من ذلك، حتى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان، فمادّة الخيرات فيها متّصلة كلّ أوان. و من بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد المقدّم على أجناسه فى الطّيب و الصبر على النار، و بها شجر المحلب المعدود فى الأفاويه المقدّم فى أنواع الأشنان كثير واسع، و قد زعموا أنه لا يكون إلّا بالهند و بها فقط، و لها خواصّ نباتية يكثر تعدادها. انتهى.

و قد ذكر غيره تفصيل بعض ذلك فقال: يوجد فى ناحية دلاية من إقليم البشرّة عود الألنجوج، لا يفوقه العود الهندى ذكاء و عطر رائحة، و قد سيق منه إلى خيران الصقلبى صاحب المرية، و أنّ أصل منبته كان بين أحجار هنالك. و بأكشونبة جبل كثيرا ما يتضوّع، ريحه ريح العود الذكى إذا أرسلت فيه النار، و ببحر شذونة يوجد العنبر الطيب الغربى، و فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۲۸

جبل منت ليون المحلب، و يوجد بالأندلس القسط الطيب، و السنبل الطيب، و الجنطيانة تحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق، و هو عقار رفيع، و المرّ الطيب بقلعة أيوب، و أطيب كهرباء الأرض بشذونة، درهم منها يعدل دراهم من المجلوبة، و أطيب القرمز قرمز الأندلس، و أكثر ما يكون بنواحى إشبيلية و لبلة و شذونة و بلنسية، و من الأندلس يحمل إلى الآفاق. و بناحية لورقة من عمل تدمير يكون حجر اللازورد الجيد، و قد يوجد فى غيرها. و على مقربة من حضرة لورقة من عمل قرطبة معدن البلور، و قد يوجد بجبل شحيران و هو شرقى ببرة. و حجر النجادى يوجد بناحية مدينة الأشبونة فى جبل هنالك يتلألأ فيه ليلا كالسراج. و الياقوت الأحمر يوجد بناحية حصن منت ميور من كورة مالقة إلّا أنه دقيق جدّا لا يصلح للاستعمال لصغره. و يوجد حجر يشبه الياقوت الأحمر بناحية بجّانة فى خندق يعرف بقرية ناشرة أشكالا مختلفة كأنه مصبوغ، حسن اللون، صبور على النار. و حجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد فى كورة تدمير. و حجر الشادنة بجبال قرطبة كثير، و يستعمل ذلك فى التذاهيب. و حجر اليهودى فى ناحية حصن البونت، و هو أنفع شىء للحصاة. و حجر المرقيشينا الذهبية فى جبال أبّدة لا نظير لها فى الدنيا، و من الأندلس تحمل إلى جميع الآفاق لفضلها. و المغنيسيا بالأندلس كثير، و كذلك حجر الطّلق. و يوجد حجر اللؤلؤ بمدينة برشلونة إلّا أنه جامد اللون.

و يوجد المرجان بساحل بيرة من عمل المرية، ما لقط منه فى أقل من شهر نحو ثمانين ربعا.

و معدن الذهب بنهر لاردة يجمع منه كثير، و يجمع أيضا فى ساحل الأشبونة. و معادن الفضة فى الأندلس كثيرة فى كورة تدمير و جبال حمّة ببجّانة. و بإقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل. و بأكشونية معدن القصدير الذى لا مثيل له يشبه الفضة، و له

معادن بناحية إفرنجة و ليون. و معدن الزئبق فى جبل البرانس، و من هنالك يتجهّز به إلى الآفاق. و معادن الكبريت الأحمر و الأصفر بالأندلس كثيرة، و معدن التوتيا الطيبة بساحل إلبيرة بقرية تسمى بطرنة، و هى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۲۹

أزكى توتيا و أقواها فى صبغ النحاس، و بجبال قرطبة توتيا، و ليست كالبطرنية. و معدن الكحل المشبّه بالأصفهانى بناحية مدينة طرطوشة يحمل منها إلى جميع البلاد. و معادن الشبوب و الحديد و النحاس بالأندلس أكثر من أن تحصى. و ما ذكرت هنا و إن تكرّر بعضه مع ما سبق أو يأتى فهو لجمع النظائر، و ما لم نذكره أكثر، و اللّه تعالى أعلم.

[خواص طليطلة و بعض حاصلات الأندلس و معادنها، و وصف أهلها]

و من خواص طليطلة أنّ حنطتها لا تتغيّر و لا تسوّس على طول السنين، يتوارثها الخلف عن السلف، و زعفران طليطلة هو الذى يعمّ البلاد و يتجهّز به الرفاق إلى الآفاق، و كذلك الصبغ السماوى، انتهى.

و قال المسعودى فى «مروج الذهب» بعد كلام ما نصّه: و العنبر كثير ببحر الأندلس، يجهّز إلى مصر و غيرها، و يحمل إلى قرطبة من ساحل لها يقال له شنترين و شذونة، تبلغ الأوقية منه بالأندلس ثلاثة مثاقيل ذهبا، و الأوقية بالبغدادى، و تباع بمصر أوقيته بعشرين دينارا، و هو عنبر جيّد، و يمكن أن يكون هذا العنبر الواقع إلى بحر الروم ضربته الأمواج من بحر الأندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء. و بالأندلس معدن عظيم للفضة، و معدن للزئبق ليس بالجيد يجهّز إلى سائر بلاد الإسلام و الكفر، و كذلك يحمل من بلاد الأندلس الزعفران و عروق الزنجبيل.

و أصول الطّيب خمسة أصناف: المسك، و الكافور، و العود، و العنبر، و الزعفران، و كلها تحمل من أرض الهند و ما اتصل بها إلّا الزعفران و العنبر. انتهى. و هو و إن تكرّر مع ما ذكرته عن غيره فلا يخلو من فائدة، و اللّه تعالى أعلم.

و ذكر البعض أن فى بلاد الأندلس جميع المعادن الكائنات عن النيرات السبعة و هى:

الرصاص من زحل، و القصدير الأبيض من المشترى، و الحديد من قسم المريخ، و الذهب من قسم الشمس، و النحاس من الزهرة، و الزئبق من عطارد، و الفضّة من القمر.

[الأندلسيون و الأمم المجاورة و نبذة عن خراج الأندلس]

و ذكر الكاتب إبراهيم بن القاسم القروى المعروف بالرقيق بلد الأندلس، فقال: أهله أصحاب جهاد متّصل يحاربون من أهل الشّرك المحيطين بهم أمّة يدعون الجلالقة، يتاخمون حوزهم ما بين غرب إلى شرق، قوم لهم شدّة و لهم جمال و حسن وجوه، فأكثر رقيقهم الموصوفين بالجمال و الفراهة منهم ليس بينهم و بينهم درب، فالحرب متّصلة بينهم، ما لم تقع هدنة، و يحاربون بالأفق الشرقى أمّة يقال لهم الفرنجة هم أشدّ عليهم من جميع من يحاربونه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۳۰

من عدوّهم، إذ كانوا خلقا عظيما فى بلاد كثيرة واسعة جليلة متّصلة العمارة آهلة تدعى الأرض الكبيرة، هم أكثر عددا من الجليقيين و أشدّ بأسا و أحد شوكة و أعظم أمدادا. و هذه الأمة يحاربون أمّة الصقالبة المتّصلين بأرضهم لمخالفتهم إياهم فى الديانة فيسبونهم و يبيعون رقيقهم بأرض الأندلس، فلهم هنالك كثرة، و تخصيهم للفرنجة يهود ذمّتهم الذين بأرضهم، و فى ثغر المسلمين المتصل بهم، فيحمل خصيانهم من هنالك إلى سائر البلاد، و قد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك، فصاروا يخصون و يستحلّون المثلة.

قال ابن سعيد: و مخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام هو بساحل الأندلس الغربى بمكان يقال له الخضراء ما بين طنجة من أرض المغرب و بين الأندلس، فيكون مقدار عرضه هناك كما زعموا ثمانية عشر ميلا، و هذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة

بالقرب من سبتة، و هناك كانت القنطرة التى يزعم الناس أن الإسكندر بناها ليعبر عليها من برّ الأندلس إلى برّ العدوة، و يعرف هذا الموضع بالزقاق، و هو صعب المجاز؛ لأنه مجمع البحرين لا تزال الأمواج تتطاول فيه و الماء يدور، و طول هذا الزقاق الذى عرضه ثمانية عشر ميلا مضاعف ذلك إلى ميناء سبتة، و من هناك يأخذ البحر فى الاتّساع إلى ثمانمائة ميل و أزيد، و منتهاه مدينة صور من الشام، و فيه عدد عظيم من الجزائر.

قال بعضهم: إنها ثمان و عشرون جزيرة منها صقلية و مالطة و غيرهما، انتهى، و بعضه بالمعنى.

و قال بعضهم: عند وصفه ضيق بحر الزقاق قرب سبتة، ما صورته: ثم يتّسع كلّما امتدّ حتى يسير إلى ما لا ذرع له و لا نهاية.

و قال بعضهم: و كان مبلغ خراج الأندلس الذى كان يؤدّى إلى ملوك بنى أميّة قديما ثلاثمائة ألف دينار دراهم أندلسية كل سنة قوانين، و على كل مدينة من مدائنهم مال معلوم، فكانوا يعطون جندهم و رجالهم الثلث من ذلك مائة ألف دينار، و ينفقون فى أمورهم و نوائبهم و مؤن أهليهم مائة ألف دينار، و يدّخرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار، انتهى.

و ذكر غيره أن الجباية كانت بالأندلس أيام عبد الرحمن الأوسط ألف ألف دينار فى السنة، و كانت قبل ذلك لا تزيد على ستمائة ألف، حكاه ابن سعيد، و قال: إن الأندلس مسيرة شهر مدن و عمائر.

[خبر ابن خلدون عن الأمم التى استوطنت الأندلس، و وصف غرناطة]

و قال قاضى القضاة ابن خلدون الحضرمى فى تاريخه الكبير، ما صورته: كان هذا القطر الأندلسى من العدوة الشمالية من عدوتى البحر الرومى و بالجانب الغربى منها يسمّى عند العجم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۳۱

الأندلوش، و تسكنه أمم من إفرنجة المغرب أشدّهم و أكثرهم الجلالقة. و كان القوط قد تملّكوه و غلبوا على أهله لمئين من السنين قبل الإسلام، بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومة. ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط إلى الأندلس، فصاروا إليها و ملكوها. و لما أخذ الروم و اللطينيون بملّة النصرانية حملوا من وراءهم بالمغرب من أمم الفرنجة و القوط عليها فدانوا بها، و كان ملوك القوط ينزلون طليطلة، و كانت دار ملكهم. و ربما تنقّلوا ما بينها و بين قرطبة و إشبيلية و ماردة، و أقاموا كذلك نحوا من أربعمائة سنة إلى أن جاء اللّه بالإسلام و الفتح. و كان ملكهم لذلك العهد يسمّى لذريق، و هو سمة لملوكهم، كما أن جرجير سمة لملوك صقلية، انتهى.

و من أشهر بلاد الأندلس غرناطة، و قيل: إن الصواب إغرناطة- بالهمز- و معناه بلغتهم الرّمّانة، و كفاها شرفا ولادة لسان الدين بها.

و قال الشقندى: أما غرناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس، و مسرح الأبصار، و مطمح الأنفس، و لم تخل من أشراف أماثل، و علماء أكابر، و شعراء أفاضل، و لو لم يكن لها ما خصّها اللّه تعالى به من المرج الطويل العريض و نهر شنيل لكفاها.

و فى بعض كلام لسان الدين ما صورته: و ما لمصر تفخر بنيلها و ألف منه فى شنيلها؟

يعنى أن الشين عند أهل المغرب عددها ألف، فقولنا شنيل إذا اعتبرنا عدد شينه كان ألف نيل.

و فيها قيل: [مخلع البسيط]

غرناطة ما لها نظير ما مصر؟ ما الشام؟ ما العراق؟

ما هى إلّا العروس تجلى و تلك من جملة الصّداق

و تسمى كورة إلبيرة التى منها غرناطة دمشق لأنّ جند دمشق نزلوها عند الفتح، و قيل:

إنما سمّيت بذلك لشبهها بدمشق فى غزارة الأنهار، و كثرة الأشجار، حكاه صاحب مناهج الفكر، قال: و لما استولى الفرنج على معظم بلاد الأندلس انتقل أهلها إليها فصارت المصر المقصود، و المعقل الذى تنضوى إليه العساكر و الجنود. و يشقّها نهر عليه قناطر يجاز

عليها، و فى قبليها جبل شلير، و هو جبل لا يفارقه الثلج صيفا و لا شتاء، و فيه سائر النبات الهندى، لكن ليس فيه خصائصه، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۳۲

[غرناطة و أعمالها]

و من أعمال غرناطة قطر لوشة، و بها معدن للفضّة جيّد، و منها أعنى لوشة، أصل لسان الدين بن الخطيب. و هذا القطر ضخم ينضاف إليه من الحصون و القرى كثير، و قاعدته لوشة، بينها و بين غرناطة مرحلة، و هى ذات أنهار و أشجار، و هى على نهر غرناطة الشهير بشنيل.

و من أعمال غرناطة الكبار عمل باغة، و العامّة يقولون بيغه، و إذا نسبوا إليه قالوا بيغى، و قاعدته باغية طيبة الزرع، كثيرة الثمار، غزيرة المياه، و يجود فيها الزعفران.

و من أعمال غرناطة وادى آش، و يقال: وادى الأشات. و هى مدينة جليلة قد أحدقت بها البساتين و الأنهار، و قد خصّ اللّه أهلها بالأدب و حبّ الشعر، و فيها يقول أبو الحسن بن نزار:

[الكامل]

وادى الأشات يهيج وجدى كلّما أذكرت ما أفضت بك النعماء

للّه ظلّك و الهجير مسلّط قد برّدت لفحاته الأنداء

و الشمس ترغب أن تفوز بلحظة منه فتطرف طرفها الأفياء

و النهر يبسم بالحباب كأنه سلخ نضته حيّة رقشاء

فلذاك تحذره الغصون فميلها أبدا على جنباته إيماء

و من أعمال وادى آش حصن جليانة، و هو كبير يضاهى المدن، و به التفاح الجليانى الذى خصّ اللّه به ذلك الموضع، يجمع عظم الحجم و كرم الجوهر و حلاوة الطعم و ذكاء الرائحة و النقاء، و بين الحصن المذكور و وادى آش اثنا عشر ميلا.

و من غرائب الأندلس أنّ به شجرتين من شجر القسطل، و هما عظيمتان جدّا إحداهما بسند وادى آش و الأخرى ببشرّة غرناطة، فى جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب، و هذا أمر مشهور قاله أبو عبد اللّه بن جزىّ و غيره.

و كانت إلبيرة هى المدينة قبل غرناطة، فلما بنى الصّنهاجى مدينة غرناطة و قصبتها و أسوارها انتقل الناس إليها، ثم زاد فى عمارتها ابنه باديس بعده.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۳۳

[شهرة غرناطة و سرقسطة و برجة]

و ذكر غير واحد أن فى كورة سرقسطة الملح الأندرانى الأبيض الصافى الأملس الخالص، و ليس فى الأندلس موضع فيه مثل هذا الملح.

قال: و سرقسطة بناها قيصر ملك رومة الذى تؤرّخ من مدّته مدّة الصفر قبل مولد المسيح على نبيّنا و عليه و على سائر الأنبياء الصلاة و السلام، و تفسير اسمها قصر السيد، لأنه اختار ذلك المكان بالأندلس.

و قيل: إن موسى بن نصير شرب من ماء نهر جلّق بسرقسطة فاستعذبه، و حكم أنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه، و سأل عن اسمه، فقيل: جلّق، و نظر إلى ما عليه من البساتين فشبّهها بغوطة جلّق الشام، و قيل: إنها من بناء الإسكندر، و اللّه أعلم.

و بمدينة برجة - و هى من أعمال المرية- معدن الرصاص، و هى على واد مبهج يعرف بوادى عذراء، و هو محدق بالأزهار و

الأشجار. و تسمى برجة بهجة لبهجة منظرها، و فيها يقول أبو الفضل بن شرف القيروانى رحمه اللّه تعالى: [المتقارب]

رياض تعشّقها سندس توشّت معاطفها بالزّهر

مدامعها فوق خدّى ربا لها نظرة فتنت من نظر

و كلّ مكان بها جنّة و كلّ طريق إليها سقر

و فيها أيضا قوله: [المجتث]

حطّ الرحال ببرجه و ارتد لنفسك بهجه

فى قلعة كسلاح و دوحة مثل لجّه

فحصنها لك أمن و روضها لك فرجه

كلّ البلاد سواها كعمرة و هى حجّه

و بمالقة التين الذى يضرب المثل بحسنه، و يجلب حتى الهند و الصين، و قيل: إنه ليس فى الدنيا مثله، و فيه يقول أبو الحجّاج يوسف ابن الشيخ البلوى المالقى حسبما أنشده غير واحد، منهم ابن سعيد: [السريع]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۳۴

مالقة، حيّيت يا تينها الفلك من أجلك يا تينها

نهى طبيبى عنه فى علّتى ما لطبيبى عن حياتى نهى

و ذيّل عليه الإمام الخطيب أبو محمد عبد الوهاب المنشى بقوله: [السريع]

و حمص لا تنس لها تينها و اذكر مع التين زياتينها

و فى بعض النسخ: [السريع]

لا تنس لإشبيليّة تينها و اذكر مع التين زياتينها

و هو نحو الأول؛ لأن حمص هى إشبيلية، لنزول أهل حمص من المشرق بها، حسبما سنذكره.

و نسب ابن جزى فى ترتيبه لرحلة ابن بطّوطة البيتين الأولين للخطيب أبى محمد عبد الوهاب المالقى، و التذييل لقاضى الجماعة أبى عبد اللّه بن عبد الملك، فاللّه أعلم.

[شهرة برجة و مالقة و وصف مالقة و أشبونة و قرطبة]

و قال ابن بطوطة: و بمالقة يصنع الفخّار المذهّب العجيب، و يجلب منها إلى أقاصى البلاد، و مسجدها كبير الساحة، كثير البركة شهيرها، و صحنه لا نظير له فى الحسن، و فيه أشجار النارنج البديعة، انتهى.

و قال قبله: إن مالقة إحدى قواعد الأندلس، و بلادها الحسان، جامعة بين مرافق البرّ و البحر، كثيرة الخيرات و الفواكه، رأيت العنب يباع فى أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير، و رمّانها المرسى الياقوتى لا نظير له فى الدنيا، و أمّا التين و اللوز فيجلبان منها و من أحوازها إلى بلاد المشرق و المغرب، انتهى.

و بكورة أشبونة المتصلة بشنترين معدن التّبر، و فيها عسل يجعل فى كيس كتّان فلا يكون له رطوبة كأنه سكر، و يوجد فى ريفها العنبر الذى لا يشبهه إلّا الشّحرى.

و من أشهر مدن الأندلس مدينة قرطبة- أعادها اللّه تعالى للإسلام!- و بها الجامع المشهور، و القنطرة المعروفة بالجسر.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۳۵

و قد ذكر ابن حيان أنه بنى على أمر عمر بن عبد العزيز، رضى اللّه عنه، و نصه: و قام فيها بأمره على النهر الأعظم بدار مملكتها قرطبة

الجسر الأكبر الذى ما يعرف فى الدنيا مثله، انتهى.

و فيها يقول بعض علماء الأندلس: [البسيط]

بأربع فاقت الأمصار قرطبة منهنّ قنطرة الوادى، و جامعها

هاتان ثنتان، و الزهراء ثالثة، و العلم أعظم شىء، و هو رابعها

[نبذة من قرطبة و شهرتها]

و قال الحجارى فى «المسهب»: كانت قرطبة فى الدولة المروانية قبّة الإسلام، و مجتمع أعلام الأنام، بها استقرّ سرير الخلافة المروانية، و فيها تمحّضت خلاصة القبائل المعدّية و اليمانية، و إليها كانت الرّحلة فى الرواية إذ كانت مركز الكرماء، و معدن العلماء، و هى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، و نهرها من أحسن الأنهار، مكتنف بديباج المروج مطرّز بالأزهار، تصدح فى جنباته الأطيار، و تنعر النواعير و يبسم النّوّار، و قرطاها الزاهرة و الزهراء، حاضرتا الملك و أفقاه النعماء و السرّاء. و إن كان قد أخنى عليها الزمان، و غيّر بهجة أوجهها الحسان، فتلك عادته و سل الخورنق و السدير و غمدان، و قد أعذر بإنذاره إذ لم يزل ينادى بصروفه لا أمان لا أمان، و قد قال الشاعر: [المتقارب]

و ما زلت أسمع أنّ الملو ك تبنى على قدر أخطارها

و قال السلطان يعقوب المنصور ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن على لأحد رؤساء أجنادها: ما تقول فى قرطبة؟ فخاطبه على ما يقتضيه كلام عامّة الأندلس بقوله:

جوفها شمام، و غربيها قمام، و قبلتها مدام، و الجنة هى و السلام.

يعنى بالشّمام جبال الورد، و يعنى بالقمام ما يؤكل إشارة إلى محرث الكنبانيّة، و يعنى بالمدام النهر.

و لما قال والده السلطان يوسف بن عبد المؤمن لأبى عمران موسى بن سعيد العنسى:

ما عندك فى قرطبة؟ قال له: ما كان لى أن أتكلّم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها، فقال السلطان: إن ملوك بنى أمية حين اتّخذوها حضرة مملكتهم لعلى بصيرة، الديار المنفسحة

الكبيرة، و الشوارع المتّسعة، و المبانى الضخمة المشيدة، و النهر الجارى، و الهواء المعتدل، و الخارج الناضر، و المحرث العظيم، و الشّعراء الكافية، و التوسّط بين شرق الأندلس و غربها، قال: فقلت: ما أبقى لى أمير المؤمنين ما أقول.

قال ابن سعيد: و لأهلها رياسة و وقار، لا تزال سمة العلم و الملك متوارثة فيهم، إلّا أنّ عامّتها أكثر الناس فضولا، و أشدّهم تشغيبا، و يضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس فى القيام على الملوك، و التشنيع على الولاة، و قلّة الرضا بأمورهم، حتى إنّ السيد أبا يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لمّا انفصل عن ولايتها: كيف وجدت أهل قرطبة؟ فقال: مثل الجمل، إن خفّفت عنه الحمل صاح، و إن أثقلته صاح، ما ندرى أين رضاهم فنقصده، و لا أين سخطهم فنجتنبه، و ما سلّط اللّه عليهم حجّاج الفتنة حتى كان عامّتها شرّا من عامّة العراق، و إن العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندى ولاية، إنى و إن كلّفت العود إليها لقائل: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، انتهى.

و قال أبو الفضل التيفاشى: جرت مناظرة بين يدى ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه أبى الوليد بن رشد و الرئيس أبى بكر بن زهر، فقال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة: ما أدرى ما تقول، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، و إن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية، قال: و قرطبة أكثر بلاد اللّه كتبا، انتهى.

و حكى الإمام ابن بشكوال عن الشيخ أبى بكر بن سعادة أنه دخل مدينة طليطلة مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبى بكر المخزومى، قال:

فسألنا: من أين؟ فقلنا: من قرطبة، فقال: متى عهدكما بها؟ فقلنا: الآن وصلنا منها، فقال: اقربا إليّ أشمّ نسيم قرطبة، فقربنا منه، فشمّ رأسي و قبّله، و قال لي: اكتب: [الطويل]

أقرطبة الغرّاء هل لي أوبة إليك؟ و هل يدنو لنا ذلك العهد

سقى الجانب الغربيّ منك غمامة و قعقع في ساحات دوحاتك الرّعد

لياليك أسحار، و أرضك روضة، و تربك في استنشاقها عنبر ورد

و كتب الرئيس الكاتب أبو بكر بن القبطرنة للعالم أبي الحسين بن سراج بقوله: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۳۷

يا سيّدي و أبي هوى و جلالة و رسول ودّي إن طلبت رسولا

عرّج بقرطبة إذا بلّغتها بأبي الحسين و ناده تمويلا

و إذا سعدت بنظرة من وجهه أهد السلام لكفّه تقبيلا

و اذكر له شوقي و شكري مجملا و لو استطعت شرحته تفصيلا

بتحية تهدى إليه كأنما جرّت على زهر الرياض ذيولا

و في باب اليهود بقرطبة يقول أبو عامر بن شهيد: [المتقارب]

لقد أطلعوا عند باب اليهود بدرا أبي الحسن أن يكسفا

تراه اليهود على بابها أميرا فتحسبه يوسفا

و استقبحوا قولهم «باب اليهود» فقالوا «باب الهدى» و سنذكر قرطبة و الزهراء و الزاهرة و مسجدها في الباب المنفرد بها إن شاء اللّه تعالى، و كذلك القنطرة.

[إشبيلية و إقليمها]

و من أعظم مدن الأندلس إشبيلية- قال الشقندي: من محاسنها اعتدال الهواء، و حسن المباني، و نهرها الأعظم الذي يصعد المدّ فيه اثنين و سبعين ميلا ثم يحسر، و فيه يقول ابن سفر: [الكامل]

شقّ النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطّيه يطلب ثاره

فتضاحكت ورق الحمام بدوحها هزأ فضمّ من الحياء إزاره

و قيل لأحد من رأى مصر و الشام: أيّهما رأيت أحسن؟ أهذان أم إشبيلية؟ فقال بعد تفضيل إشبيلية: شرفها غابة بلا أسد، و نهرها نيل بلا تمساح، انتهى.

و يقال: إن الذي بنى إشبيلية اسمه يوليس، و إنه أول من سمّى قيصر، و إنه لمّا دخل الأندلس أعجب بساحاتها و طيب أرضها و جبلها المعروف بالشّرف، فردم على النهر الأعظم مكانا، و أقام فيه المدينة، و أحدق عليها بأسوار من صخر صلد، و بنى في وسط المدينة قصبتين بديعتي الشأن تعرفان بالأخوين، و جعلها أمّ قواعد الأندلس، و اشتقّ لها اسما من رومية، و من اسمه، فسمّاها رومية يوليس، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۳۸

و قد تقدّم شيء من هذا.

و كان الأوّلون من ملوك الأعاجم يتداولون بسكناهم أربعة بلاد من بلاد الأندلس:

إشبيلية، و قرطبة، و قرمونة، و طليطلة، و يقسمون أزمانهم على الكينونة بها.

و أما شرف إشبيلية، فهو شريف البقعة، كريم التربة، دائم الخضرة، فرسخ فى فرسخ طولا و عرضا، لا تكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه.

و اعلم أن إشبيلية لها كور جليلة، و مدن كثيرة، و حصون شريفة، و هى من الكور المجندة، نزلها جند حمص و لواؤهم فى الميمنة بعد لواء جند دمشق. و انتهت جباية إشبيلية أيام الحكم بن هشام إلى خمسة و ثلاثين ألف دينار و مائة دينار.

و فى إقليم طالقة من أقاليم إشبيلية وجدت صورة جارية من مرمر معها صبى، و كأن حيّة تريده، لم يسمع فى الأخبار و لا رئى فى الآثار صورة أبدع منها، جعلت فى بعض الحمامات و تعشّقها جماعة من العوامّ.

و فى كورة ماردة حصن شنت أفرج فى غاية الارتفاع، لا يعلوه طائر البتّة لا نسر و لا غيره.

و من عجائب الأندلس البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليش، فإن طول كل جائزة منه مائة شبر و أحد عشر شبرا، و هى مربعة منحوتة مستوية الأطراف.

و قال بعض من وصف إشبيلية: إنها مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة، و عليه جسر مربوط بالسفن، و بها أسواق قائمة، و تجارات رابحة، و أهلها ذوو أموال عظيمة، و أكثر متاجرهم الزيت، و هو يشتمل على كثير من إقليم الشّرف، و إقليم الشرف على تلّ عال من تراب أحمر مسافته أربعون ميلا فى مثلها، يمشى به السائر فى ظلّ الزيتون و التين، و لها- فيما ذكر بعض الناس- قرى كثيرة، و كل قرية عامرة بالأسواق و الديار الحسنة و الحمامات و غيرها من المرافق.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۳۹

و قال صاحب مناهج الفكر، عند ذكر إشبيلية: و هذه المدينة من أحسن مدن الدنيا، و بأهلها يضرب المثل فى الخلاعة، و انتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة، و يعينهم على ذلك واديها الفرج، و ناديها البهج، و هذا الوادى يأتيها من قرطبة، و يجزر فى كل يوم، و لها جبل الشّرف، و هو تراب أحمر طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلا، و عرضه من المشرق إلى المغرب اثنا عشر ميلا، يشتمل على مائتين و عشرين قرية، قد التحفت بأشجار الزيتون و اشتملت، انتهى.

[باجة و جبل طارق]

و لكورة باجة من الكور الغربية التى كانت من أعمال إشبيلية أيام بنى عبّاد خاصّيّة فى دباغة الأديم و صناعة الكتّان، و فيها معدن فضّة، و بها ولد المعتمد بن عبّاد، و هى متصلة بكورة ماردة.

و لجبل طارق حوز قصب السّبق بنسبته إلى طارق مولى موسى بن نصير، إذ كان أوّل ما حلّ به مع المسلمين من بلاد الأندلس عند الفتح، و لذا شهر بجبل الفتح و هو مقابل الجزيرة الخضراء، و قد تجوّن البحر هنالك مستديرا حتى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء، و فيه يقول مطرّف شاعر غرناطة: [الطويل]

و أقود قد ألقى على البحر متنه فأصبح عن قود الجبال بمعزل

يعرّض نحو الأفق وجها كأنما تراقب عيناه كواكب منزل

و إذا أقبل عليه المسافرون من جهة سبتة فى البحر بان كأنه سرج، قال أبو الحسن على بن موسى بن سعيد: أقبلت عليه مرة مع والدى فنظرنا إليه على تلك الصفة، فقال والدى: أجز: [المجتث]

انظر إلى جبل الفت ح راكبا متن لجّ

فقلت: [المجتث]

و قد تفتّح مثل ال أفنان فى شكل سرج

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۴۰

و أما جزيرة طريف فليست بجزيرة، و إنّما سمّيت بذلك الجزيرة التى أمامها فى البحر مثل الجزيرة الخضراء، و طريف المنسوبة إليه بربرى من موالى موسى بن نصير، و يقال: إن موسى بعثه قبل طارق فى أربعمائة رجل، فنزل بهذه الجزيرة فى رمضان سنة إحدى و تسعين، و بعده دخل طارق، و اللّه أعلم.

[كورة طليطلة و ما اشتهرت به]

و من أعظم كور الأندلس كورة طليطلة، و هى من متوسط الأندلس، و كانت دار مملكة بنى ذى النّون من ملوك الطوائف، و كان ابتداء ملكهم صدر المائة الخامسة، و سمّاها قيصر بلسانه بزليطلة، و تأويل ذلك: أنت فارح، فعرّبتها العرب و قالت: طليطلة، و كانوا يسمّونها و جهاتها فى دولة بنى أميّة بالثغر الأدنى، و يسمّون سرقسطة و جهاتها بالثغر الأعلى، و تسمّى طليطلة مدينة الأملاك؛ لأنها فيما يقال ملكها اثنان و سبعون إنسانا، و دخلها سليمان بن داود، عليهما السلام، و عيسى ابن مريم، و ذو القرنين، و فيها وجد طارق مائدة سليمان، و كانت من ذخائر إشبان ملك الروم الذى بنى إشبيلية، أخذها من بيت المقدس كما مرّ، و قوّمت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار، و قيل: إنها كانت من زمرّد أخضر، و يقال:

إنها الآن برومة، و اللّه أعلم بذلك.

و وجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة، منها مائة و سبعون تاجا من الدّرّ و الياقوت و الأحجار النفيسة، و إيوان ممتلئ من أوانى الذهب و الفضّة، و هو كبير، حتى قيل: إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه، و قد قيل: إن أوانى المائدة من الذهب و صحافها من اليشم و الجزع، و ذكروا فيها غير هذا ممّا لا يكاد يصدّقه الناظر فيه.

و بطليطلة بساتين محدقة، و أنهار مخترقة، و رياض و جنان، و فواكه حسان، مختلفة الطعوم و الألوان، و لها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة، و رساتيق مريعة، و ضياع بديعة، و قلاع منيعة، و بالجملة فمحاسنها كثيرة، و لعلنا نلمّ ببعض منتزهاتها فيما يأتى من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

و طليطلة قاعدة ملك القوطيين، و هى مطلة على نهر تاجه، و عليه كانت القنطرة التى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۴۱

يعجز الواصفون عن وصفها، و كانت على قوس واحد تكنفه فرجتان من كل جانب، و طول القنطرة ثلاثمائة باع، و عرضها ثمانون باعا، و خربت أيام الأمير محمد لما عصى عليه أهلها فغزاهم، و احتال فى هدمها، و فى ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس: [الكامل]

أضحت طليطلة معطّلة من أهلها فى قبضة الصّقر

تركت بلا أهل تؤهّلها مهجورة الأكناف كالقبر

ما كان يبقى اللّه قنطرة نصبت لحمل كتائب الكفر

و سيأتى بعض أخبار طليطلة.

[مدينة المرية، و ما اشتهرت به]

و من مشهور مدن الأندلس المرية، و هى على ساحل البحر، و لها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران، بناها عبد الرحمن الناصر، و عظمت فى دولة المنصور بن أبى عامر، و ولّى عليها مولاه خيران، فنسبت القلعة إليه، و بها من صنعة الديباج ما تفوق به على سائر البلاد، و فيها دار الصناعة، و تشتمل كورتها على معدن الحديد و الرخام، و من أبوابها باب العقاب عليه صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر.

و قال بعضهم: كان بالمريّة لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول، و للحلل النفيسة و الديباج الفاخر ألف نول، و للأسقلاطون كذلك، و

للثياب الجرجانية كذلك، و للأصفهانية مثل ذلك، و للعنابى و المعاجر المدهشة و الستور المكلّلة. و يصنع بها من صنوف آلات الحديد و النحاس و الزجاج ما لا يوصف. و فاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسنا، و ساحلها أفضل السواحل، و بها قصور الملوك القديمة الغريبة العجيبة، و قد ألّف فيها أبو جعفر بن حاتمة تاريخا حافلا سمّاه ب «مزيّة المرية، على غيرها من البلاد الأندلسية» فى مجلد ضخم تركته من جملة كتبى بالمغرب، و اللّه سبحانه المسؤول فى جمع الشمل، فله الأمر من بعد و من قبل.

و وادى المرية طوله أربعون ميلا فى مثلها كلها بساتين بهجة، و جنات نضرة، و أنهار مطّردة، و طيور مغرّدة.

قال بعضهم: و لم يكن فى بلاد الأندلس أكثر مالا من أهل المرية، و لا أعظم متاجر و ذخائر، و كان بها من الحمامات و الفنادق نحو الألف، و هى بين الجبلين بينهما خندق معمور،

و على الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة، و على الآخر ربضها، و السور محيط بالمدينة و الربض، و غربيها ربض لها آخر يسمى ربض الحوض ذو فنادق و حمامات و خنادق و صناعات، و قد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة، و أحجار أولية، و كأنما غربلت أرضها من التراب، و لها مدن و ضياع عامرة متصلة الأنهار، انتهى.

[شنتره و خصائصها]

و قال ابن اليسع، عند ذكره مدينة شنترة: إنّ من خواصّها أنّ القمح و الشعير يزرعان فيها و يحصدان عند مضى أربعين يوما من زراعته، و إن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار و أكثر، قال لى أبو عبد اللّه الباكورى، و كان ثقة: أبصرت عند المعتمد بن عباد رجلا من أهل شنترة أهدى إليه أربعا من التفاح ما يقلّ الحامل على رأسه غيرها، دور كل واحدة خمسة أشبار، و ذكر الرجل بحضرة ابن عبّاد أن المعتاد عندهم أقلّ من هذا، فإذا أرادوا أن يجيء بهذا العظم و هذا القدر قطعوا أصلها و أبقوا منه عشرا أو أقلّ و جعلوا تحتها دعامات من الخشب، انتهى.

و بحصن شنش على مرحلة من المرية التّوت الكثير، و فيها الحرير و القرمز، و يعرف واديها بوادى طبرنش.

و بغربى مالقة عمل سهيل، و هو عمل عظيم كثير الضياع، و فيه جبل سهيل لا يرى نجم سهيل بالأندلس إلّا منه.

و من كور الأندلس الشرقية تدمير، و تسمى مصر أيضا لكثرة شبهها بها؛ لأنّ لها أرضا يسيح عليها نهر فى وقت مخصوص من السنة، ثم ينضب عنها، فتزرع كما تزرع أرض مصر، و صارت القصبة بعد تدمير مرسية، و تسمى البستان؛ لكثرة جنّاتها المحيطة بها، و لها نهر يصبّ فى قبليّها.

و اعلم أنّ جزيرة الأندلس- أعادها اللّه للإسلام!- مشتملة على موسطة، و شرق، و غرب.

فالموسطة فيها من القواعد الممصرة التى كل مدينة منها مملكة مستقلة لها أعمال ضخام و أقطار متّسعة: قرطبة، و طليطلة، و جيّان، و غرناطة، و المرية، و مالقة. فمن أعمال قرطبة إستجة و بلكونة و قبرة و رندة و غافق و المدوّر و أسطبة و بيّانة و اليسّانة و القصير و غيرها. و من

أعمال طليطلة وادى الحجارة و قلعة رباح و طلمنكة و غيرها. و من أعمال جيّان أبّدة و بيّاسة و قسطلّة و غيرها. و من أعمال غرناطة وادى آش و المنكب و لوشة و غيرها. و من أعمال المرية أندرش و غيرها. و من أعمال مالقة بلّش و الحامة و غيرهما. و ببلّش من الفواكه ما بمالقة، و بالحامة العين الحارّة على ضفة واديها.

و أما شرق الأندلس ففيه من القواعد: مرسية، و بلنسية، و دانية، و السهلة، و الثغر الأعلى. فمن أعمال مرسية أوريولة و القنت و لورقة و غير ذلك. و من أعمال بلنسية شاطبة التى يضرب بحسنها المثل و يعمل بها الورق الذى لا نظير له و جزيرة شقر و غير ذلك. و أما

دانية فهى شهيرة و لها أعمال. و أما السهلة فإنها متوسطة بين بلنسية و سرقسطة و لذا عدّها بعضهم من كور الثغر الأعلى و لها مدن و حصون. و من أعمال الثغر الأعلى: سرقسطة و هى أمّ ذلك الثغر، و كورة لاردة، و قلعة رباح، و تسمى بالبيضاء، و كورة تطيلة، و مدينتها طرسونة، و كورة وشقة، و مدينتها تمريط، و كورة مدينة سالم، و كورة قلعة أيوب، و مدينتها بليانة، و كورة برطانية، و كورة باروشة.

و أما غرب الأندلس ففيه: إشبيلية، و ماردة، و أشبونة، و شلب. فمن أعمال إشبيلية شريش و الخضراء و لبله و غيرها. و من أعمال ماردة بطليوس و بابرة و غيرهما. و من أعمال أشبونة شنترين و غيرها. و من أعمال شلب شنت رية و غيرها.

[الجزر البحرية بالأندلس]

و أما الجزر البحرية بالأندلس فمنها جزيرة قادس، و هى من أعمال إشبيلية، و قال ابن سعيد: إنها من كورة شريش، و لا منافاة لأن شريشا من أعمال إشبيلية كما مرّ، قال: و بيد صنم قادس مفتاح، و لمّا ثار بقادس ابن أخت القائد أبى عبد اللّه بن ميمون- و هو على بن عيسى قائد البحر بها- ظنّ أنّ تحت الصنم مالا فهدمه فلم يجد شيئا، انتهى. و هى- أعنى جزيرة قادس- فى البحر المحيط؛ و فى البحر المحيط الجزائر الخالدات السبع، و هى غربى مدينة سلا تلوح للناظر فى اليوم الصاحى الخالى الجوّ من الأبخرة الغليظة، و فيها سبعة أصنام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۴۴

على أمثال الآدميين، تشير أن لا عبور و لا مسلك وراءها. و فيه بجهة الشمال جزائر السعادات، و فيها من المدن و القرى ما لا يحصى، و منها يخرج قوم يقال لهم المجوس على دين النصارى: أولها جزيرة برطانية، و هى بوسط البحر المحيط بأقصى شمال الأندلس، و لا جبال فيها، و لا عيون، و إنما يشربون من ماء المطر، و يزرعون عليه.

قال ابن سعيد: و فيه جزيرة شلطيش، و هى آهلة و فيها مدينة، و بحرها كثير السمك، و منها يحمل مملّحا إلى إشبيلية، و هى من كورة لبلة مضافة إلى عمل أونبة، انتهى.

و قال بعضهم، لما أجرى ذكر قرطاجنة من بلاد الأندلس: إن الزرع فى بعض أقطارها يكتفى بمطرة واحدة، و بها أقواس من الحجارة المقربصة، و فيها من التصاوير و التماثيل و أشكال الناس و صور الحيوانات ما يحيّر البصر و البصيرة، و من أعجب بنائها الدواميس، و هى أربعة و عشرون على صفّ واحد من حجارة مقربصة، طول كل داموس مائة و ثلاثون خطوة فى عرض ستّين خطوة، و ارتفاع كل واحد أكثر من مائتى ذراع، بين كل داموسين أنقاب محكمة تتصل فيها المياه من بعضها إلى بعض فى العلوّ الشاهق بهندسة عجيبة و إحكام بديع، انتهى.

قلت: أظن هذا غلطا؛ فإن قرطاجنة التى بهذه الصفة قرطاجنة إفريقية، لا قرطاجنة الأندلس، و اللّه أعلم.

و قال صاحب مناهج الفكر، عندما ذكر قرطاجنة: و هى على البحر الرومى مدينة قديمة بقى منها آثار، لها فحص طوله ستة أيام و عرضه يومان معمور بالقرى، انتهى.

و ذكر قبل ذلك فى لورقة أنّ بناحيتها يوجد حجر اللازورد. و فى البحر الشامى الخارج من المحيط جزيرتى ميورقة و منورقة، و بينهما خمسون ميلا، و جزيرة ميورقة مسافة يوم، بها مدينة حسنة، و تدخلها ساقية جارية على الدوام، و فيها يقول ابن اللّبّانة: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۴۵

بلد أعارته الحمامة طوقها و كساه حلّة ريشه الطاووس

فكأنّما الأنهار فيه مدامة و كأنّ ساحات الديار كؤوس

و قال يخاطب ملكها ذلك الوقت: [الكامل]

و غمرت بالإحسان أرض ميورقة و بنيت ما لم يبنه الإسكندر

و جزيرة يابسة.

و استقصاء ما يتعلّق بهذا الفصل يطول، و لو تتبّع لكان تأليفا مستقلّا، و ما أحسن قول ابن خفاجة: [الكامل]

إنّ للجنّة بالأندلس مجتلى حسن وريّا نفس

فسنا صبحتها من شنب و دجى ليلتها من لعس

و إذا ما هبّت الريح صبا صحت وا شوقى إلى الأندلس

و قال بعضهم فى طليطلة: [الكامل]

زادت طليطلة على ما حدّثوا بلد عليه نضرة و نعيم

اللّه زيّنه فوشّح خصره نهر المجرّة و الغصون نجوم

[خطاب يتضمن المناظرة بين بلاد الأندلس]

و لا حرج إن أوردنا هنا ما خاطب به أديب الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس الأمير عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن على، فإنه مناسب، و نصّه: مولاى، أمتع اللّه ببقائك الزمان و أبناءه، كما ضمّ على حبّك أحناءهم و أحناءه، و أوصل لك ما شئت من المنّ و الأمان، كما نظم قلائد فخرك على لبّة الدهر نظم الجمان، فإنك الملك الهمام، و القمر التمام، أيامك غرر و حجول، و فرند بهائها فى صفحات الدهر يجول، ألبست الرعية برود التأمين، فتنافست فيك من نفيس ثمين، و تلقّت دعوات خلدك لها باليمين، فكم للناس، من أمن بك و إيناس، و للأيام، من لوعة فيك و هيام، و للأقطار، من لبانات لديك و أوطار، و للبلاد، من قراع على تملّكك لها و جلاد، يتمنّون شخصك الكريم على اللّه و يقترحون، و يغتبقون فى رياض ذكرك العاطر بمدام حبك و يصطبحون، كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الروم: ۳۰]، محبة من اللّه ألقاها لك حتى على الجماد، و نصرا مؤزّرا تنطق به ألسنة السيوف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۴۶

على أفواه الأغماد، و من أسرّ سريرة ألبسه اللّه رداءها، و من طوى حسن نية ختم اللّه له بالجميل إعادتها و إبداءها، و من قدّم صالحا فلا بدّ أن يوازيه، و من يفعل الخير لا يعدم جوازيه. و لمّا تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار، و طال بها الوقوف على حبك و الاقتصار، كلّها يفصح قولا، و يقول: أنا أحقّ و أولى، و يصيخ إلى إجابة دعوته و يصغى، و يتلو إذا بشّر بك ذٰلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ [الكهف: ۶۴]، تنمّرت حمص غيظا، و كادت تفيظ فيظا و قالت: ما لهم يزيدون و ينقصون، و يطمعون و يحرصون، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ [يونس: ۶۶].

ألهم السّهم الأسدّ، و الساعد الأشدّ، و النهر، الذى يتعاقب عليه الجزر و المدّ، أنا مصر الأندلس و النّيل نهرى، و سمائى التأنّس و النجوم زهرى، إن تجاريتم فى ذلك الشرف، فحسبى أن أفيض فى ذلك الشرف، و إن تبجحتم بأشرف اللبوس، فأى إزار اشتملتموه كشنتبوس، لى ما شئت من أبنية رحاب، و روض يستغنى بنضرته عن السّحاب، قد ملأت زهراتى وهادا و نجادا، و توشّح سيد نهرى بحدائقى نجادا، فأنا أولاكم بسيدنا الهمام و أحقّ، الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ [يوسف: ۵۱].

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ۱؛ ص ۱۴۶

ظرتها قرطبة شزرا، و قالت: لقد كثّرت نزرا. و بذرت فى الصخر الأصمّ بزرا، كلام العدى ضرب من الهذيان، و أنّى للإيضاح و البيان، متى استحال المستقبح مستحسنا، و من أودع أجفان المهجور و سنا، أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً [فاطر: ۸]. يا عجبا للمراكز يقدّم على الأسنّة، و للأثفار تفضّل على الأعنّة، إن ادّعيتم سبقا، فما عند اللّه خير و أبقى، لى البيت المطهر الشريف، و الاسم الذى ضرب عليه رواقه التعريف، فى بقيعى محل الرجال الأفاضل، فليرغم أنف المناضل، و فى جامعى مشاهد ليلة القدر، فحسبى من نباهة

القدر، فما لأحد أن يستأثر عليّ بهذا السيد الأعلى، و لا أرضى له أن يوطئ غير ترابى نعلا، فأقرّوا لى بالأبوّة، و انقادوا لى على حكم النبوّة، وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ [النحل: ۹۲]، و كفّوا عن تباريكم، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ [البقرة: ۵۴].

فقالت غرناطة: لى المعقل الذى يمتنع ساكنه من النجوم، و لا تجرى إلّا تحته جياد الغيث السّجوم، فلا يلحقنى من معاند ضرر و لا حيف، و لا يهتدى إليّ خيال طارق و لا طيف، فاستسلموا قولا و فعلا، فقد أفلح اليوم من استعلى، لى بطاح تقلّدت من جداولها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۴۷

أسلاكا، و أطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكا، و مياه تسيل على أعطافى كأدمع العشاق، و برد نسيم يردّد ماء المستجير بالانتشاق، فحسنى لا يطمع فيه و لا يحتال، فدعونى فكل ذات ذيل تختال، فأنا أولى بهذا السيّد الأعدل، و ما لى به من عوض و لا بدل، و لم لا يعطف عليّ عنان مجده و يثنى، و إن أنشد يوما فإياى يعنى: [الطويل]

بلاد بها عقّ الشباب تمائمى و أول أرض مسّ جلدى ترابها

فما لكم تعتزون لفخرى و تنتمون، و تتأخرون فى ميدانى و تتقدمون، تبرّءوا إليّ مما تزعمون، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [التوبة: ۴۱].

فقالت مالقة: أ تتركونى بينكم هملاء و لم تعطونى فى سيدنا أملاء و لم ولى البحر العجاج، و السبل الفجاج، و الجنّات الأثيرة، و الفواكه الكثيرة، لدىّ من البهجة ما تستغنى به الحمام عن الهديل، و لا تجنح الأنفس الرقاق الحواشى إلى تعويض عنه و لا تبديل، فما لى لا أعطى فى ناديكم كلاما، و لا أنشر فى جيش فخاركم أعلاما؟

فكأن الأمصار نظرتها ازدراء، فلم تر لحديثها فى ميدان الذكر إجراء، لأنها موطن لا يحلى منه بطائل، و نظن البلاد تأوّلت فيها قول القائل: [الوافر]

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السّكوت

فقالت مرسية: أمامى تتعاطون الفخر، و بحضرة الدّرّ تنفقون الصخر؟ إن عدّت المفاخر، فلى منها الأول و الآخر، أين أوشالكم من بحرى، و خرزكم من لؤلؤ نحرى، و جعجعتكم من نفثات سحرى؟ فلى الروض النّضير، و المرأى الذى ما له من نظير، و رتقاتى التى سار مثلها فى الآفاق، و تبرقع وجه جمالها بغرّة الإصفاق، فمن دوحات، كم لها من بكور و روحات، و من أرجاء، إليها تمدّ أيدى الرجاء، فأبنائى فيه فى الجنة الدنيوية مودعون، يتنعمون فيما يأخذون و يدعون، و لهم فيها ما تشتهى أنفسهم و لهم فيها ما يدّعون. فانقادوا لأمرى، و حاذروا اصطلاء جمرى، و خلّوا بينى و بين سيدنا أبى زيد، و إلّا ضربتكم ضرب زيد، فأنا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم، وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (۳۵) [فصلت: ۳۵].

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۴۸

فقالت بلنسية: فيم الجدال و القراع؟ و علام الاستهام و الاقتراع؟ و إلام التعريض و التصريح؟ و تحت الرّغوة اللبن الصريح، أنا أحوزه من دونكم، فأخمدوا نارى تحرككم و هدوئكم، فلى المحاسن الشامخة الأعلام، و الجنّات التى تلقى إليها الآفاق يد الاستسلام، و برصافتى و جسرى أعارض مدينة السلام، فأجمعوا على الانقياد لى و السلام، و إلّا فعضّوا بنانا، و اقرعوا أسنانا، فأنا حيث لا تدركون و أنّى، و مولانا لا يهلكنا بما فعل السفهاء منّا.

فعند ذلك ارتمت جمرة تدمير بالشّرار، و اشتدّت أسهمها لنحور الشّرار، و قالت: عش رجبا، ترعجبا، أبعد العصيان و العقوق، تتهيّأن لرتب ذوى الحقوق؟ هذه سماء الفخر فمن ضمّنك أن تعرجى، ليس بعشّك فادرجى، لك الوصب و الخبل، آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ [يونس: ۹۱].

أيتها الصانعة الفاعلة، من أدراك أن تضربى و ما أنت فاعلة؟ ما الذى يجديك الروض و الزّهر؟

أم ما يفيدك الجدول و النهر؟ و هل يصلح العطّار ما أفسد الدّهر؟ هل أنت إلّا محطّ رحل النفاق، و منزل ما لسوق الخصب فيه من

نفاق؟ ذراك لا يكتحل الطرف فيه بهجوع، و قراك لا يسمن و لا يغنى من جوع، فإلام تبرز الإماء فى منصّة العقائل؟ و لكن اذكرى قول القائل: [الطويل]

بلنسية بينى عن القلب سلوة فإنّك روض لا أحنّ لزهرك

و كيف يحبّ المرء دارا تقسّمت على صارمى جوع و فتنة مشرك؟

بيد أنى أسأل اللّه تعالى أن يوقد من توفيقك ما خمد، و يسيل من تسديدك ما جمد، و لا يطيل عليك فى الجهالة الأمد، و إيّاه سبحانه نسأل أن يردّ سيدنا و مولانا إلى أفضل عوائده، و يجعل مصائب أعدائه من فوائده، و يمكّن حسامه من رقاب المشغّبين، و يبقيه وجيها فى الدنيا و الآخرة و من المقرّبين، و يصل له تأييدا و تأبيدا، و يمهّد له الأيام حتى تكون الأحرار لعبيد عبيده عبيدا، و يمدّ على الدنيا سعده، و يهبه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده: [البسيط]

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتّى أضيف إليها ألف آمينا

ثم السلام الذى يتأنّق عبقا و نشرا، و يتألّق رونقا و بشرا، على حضرتهم العليّة، و مطالع أنوارهم السنيّة الجليّة، و رحمة اللّه تعالى و بركاته، انتهى.

و لما ألمّ الرحّالة ابن بطوطة فى رحلته بدخوله بلاد الأندلس- أعادها اللّه تعالى للإسلام!- قال: فوصلت إلى بلاد الأندلس- حرسها اللّه تعالى!- حيث الأجر موفور

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۴۹

للساكن، و الثواب مذخور للمقيم و الظاعن، إلى أن قال عند ذكره غرناطة ما نصّه: قاعدة بلاد الأندلس، و عروس مدنها، و خارجها لا نظير له فى الدنيا، و هو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور، و سواه من الأنهار الكثيرة، و البساتين الجليلة، و الجنّات و الرياضات و القصور، و الكروم محدقة بها من كل جهة، و من عجيب مواضعها عين الدمع، و هو جبل فيه الرياضات و البساتين، لا مثل له بسواها، انتهى.

[عود إلى ذكر غرناطة]

و قال الشقندى: غرناطة دمشق بلاد الأندلس، و مسرح الأبصار، و مطمح الأنفس، و لم تخل من أشراف أماثل، و علماء أكابر، و شعراء أفاضل، و لو لم يكن بها إلّا ما خصّها اللّه تعالى به من كونها قد نبع فيها النساء الشواعر كنزهون القلعية و الرّكونية و غيرهما، و ناهيك بهما فى الظّرف و الأدب، انتهى.

و لبعضهم يتشوّق إلى غرناطة فيما ذكره بعض المؤرخين، و الصواب أن الأبيات قيلت فى قرطبة كما مرّ، و اللّه أعلم. [الطويل]

أغرناطة الغرّاء هل لى أوبة إليك؟ و هل يدنو لنا ذلك العهد؟

سقى الجانب الغربىّ منك غمامة و قعقع فى ساحات روضتك الرّعد؟

لياليك أسحار، و أرضك جنّة، و تربك فى استنشاقها عنبر ورد

و قال ابن مالك الرّعينى: [الطويل]

رعى اللّه بالحمراء عيشا قطعته ذهبت به للأنس، و الليل قد ذهب

ترى الأرض منها فضّة فإذا اكتست بشمس الضّحى عادت سبيكتها ذهب

و هو القائل: [الرمل]

لا تظنّوا أنّ شوقى خمدا بعدكم أو أنّ دمعى جمدا

كيف أسلو عن أناس مثلهم قلّ أن تبصر عينى أحدا

و غرناطة من أحسن بلاد الأندلس، و تسمّى بدمشق الأندلس؛ لأنها أشبه شيء بها، و يشقّها نهر حدرة، و يطلّ عليها الجبل المسمّى بشلير الذى لا يزول الثلج عنه شتاء و صيفا،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۵۰

و يجمد عليه حتى يصير كالحجر الصّلد، و فى أعلاه الأزاهر الكثيرة، و أجناس الأفاويه الرفيعة، و نزل بها أهل دمشق لمّا جاؤوا إلى الأندلس لأجل الشبه المذكور، و قرى غرناطة- فيما ذكر بعض المتأخرين- مائتان و سبعون قرية.

[ابن جزىّ يصف غرناطة]

و قال ابن جزىّ مرتب رحلة ابن بطوطة، بعد ذكر كلامه، ما نصّه: قال ابن جزى:

لو لا خشية أن أنسب إلى العصبيّة لأطلت القول فى وصف غرناطة، فقد وجدت مكانه، و لكنّ ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه. و اللّه درّ شيخنا أبى بكر بن محمد بن شيرين السبتى نزيل غرناطة حيث يقول: [الطويل]

رعى اللّه من غرناطة متبوّأ يسرّ حزينا أو يجير طريدا

تبرّم منها صاحبى عندما رأى مسارحها بالثلج عدن جليدا

هى الثّغر صان اللّه من أهلت به و ما خير ثغر لا يكون برودا؟

[وصف قرية نارجة]

و قال ابن سعيد عندما أجرى ذكر قرية نارجة- و هى قرية كبيرة تضاهى المدن، قد أحدقت بها البساتين، و لها نهر يفتن الناظرين، و هى من أعمال مالقة-: إنّه اجتاز مرة عليها مع والده أبى عمران موسى، و كان ذلك زمان صباغة الحرير عندهم، و قد ضربوا فى بطن الوادى بين مقطّعاته خيما، و بعضهم يغنى و يطرب، و سألوا: بم يعرف ذلك الموضع؟ فقالوا:

الطراز، فقال والدى: اسم طابق مسمّاه، و لفظ وافق معناه: [البسيط]

و قد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لسانا قائلا فقل

ثم قال أجز: [الطويل]

بنارجة حيث الطراز المنمنم

فقلت:

أقم فوق نهر ثغره يتبسّم

فقال:

و سمعك نحو الهاتفات فإنها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۵۱

فقلت:

لما أبصرت من بهجة تترنّم

فقال:

أيا جنّة الفردوس لست بآدم

فقلت:

فلا يك حظّى من جناك التندّم

فقال:

يعزّ علينا أن نزوركَ مثل ما

فقلت:

يزول خيال من سليمى مسلّم

فقال:

فلو أنني أعطى الخيار لما عدت

فقلت:

محلّك لي عين بمرآك تنعم

فقال:

بحيث الصّبا و الطّلّ من نفثاتها

فقلت:

وقت لسع روض فيه للنهر أرقم

فقال:

فوا أسفى إن لم تكن لي عودة

فقلت:

فكن مالكا إني عليك متمّم

فقال:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۵۲

فأحسب هذا آخر العهد بيننا

فقلت:

و قد يلحظ الرّحمن شوقي فيرحم

فقال:

سلام سلام لا يزال مردّدا

فقلت:

عليكَ و لا زالت بكَ السّحب تسجم

[وصف بلنسية]

و قال ابن سعيد: إن كورة بلنسية من شرق الأندلس ينبت بها الزعفران، و تعرف بمدينة التراب، و بها كمثرى تسمّى الأرزة في قدر حبّة العنب، قد جمع مع حلاوة الطعم ذكاء الرائحة، إذا دخل دارا عرف بريحه، و يقال: إن ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس، و بها منارة و مسارح، و من أبدعها و أشهرها الرّصافة و منية ابن أبي عامر.

و قال الشرف أبو جعفر بن مسعدة الغرناطي من أبيات فيها: [الوافر]

هي الفردوس في الدنيا جمالا لساكنها و كارهها البعوض

و قال بعضهم فيها: [المجتث]

ضاقت بلنسية بى و ذاد عنّى غموضى

رقص البراغيث فيها على غناء البعوض

و فيها لابن الزّقّاق البلنسى: [الوافر]

بلنسية- إذا فكّرت فيها و فى آياتها- أسنى البلاد

و أعظم شاهدى منها عليها و أنّ جمالها للعين بادى

كساها ربّها ديباج حسن لها علمان من بحر و وادى

و قال ابن سعيد أيضا: أنشدنى والدى قال: أنشدنى مروان بن عبد اللّه بن عبد العزيز ملك بلنسية لنفسه بمراكش قوله: [المتقارب]

كأن بلنسية كاعب و ملبسها سندس أخضر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۵۳

إذا جئتها سترت نفسها بأكمامها فهى لا تظهر

و أما قول أبى عبد اللّه بن عياش «بلنسية بينى- البيتين» و قد سبقا، فقال ابن سعيد: إن ذلك حيث صارت ثغرا يصابحها العدوّ و يماسيها، انتهى.

و قال أبو الحسن بن حريق يجاوب ابن عياش: [الكامل]

بلنسية قرارة كلّ حسن حديث صحّ فى شرق و غرب

فإن قالوا: محلّ غلاء سعر و مسقط ديمتى طعن و ضرب

فقل هى جنّة حفّت رباها بمكروهين من جوع و حرب

و قال الرّصافى فى رصافتها: [المتقارب]

و لا كالرّصافة من منزل سقته السحائب صوب الولىّ

أحنّ إليها و من لى بها و أين السّرىّ من الموصلىّ

و قال ابن سعيد: و برصافة بلنسية مناظر و بساتين و مياه، و لا نعلم فى الأندلس ما يسمّى بهذا الاسم إلّا هذه و رصافة قرطبة، انتهى.

[بعض أعمال بلنسية و بعض متفرجات إشبيلية]

و من أعمال بلنسية قرية المنصف التى منها الفقيه الزاهد أبو عبد اللّه المنصفىّ و قبره كان بسبتة يزار، رحمه اللّه تعالى! و من نظمه: [السريع]

قالت لى النفس أتاك الردى و أنت فى بحر الخطايا مقيم

فما ادّخرت الزاد، قلت: اقصرى هل يحمل الزاد لدار الكريم

و من عمل بلنسية قرية بطرنة، و هى التى كانت فيها الوقعة المشهورة للنصارى على المسلمين، و فيها يقول أبو إسحاق بن يعلى الطّرسونى: [الطويل]

لبسوا الحديد إلى الوغى و لبستم حلل الحرير عليكم ألوانا

ما كان أقبحهم و أحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۵۴

و من عمل بلنسية متيطة التى نسب إليها جماعة من العلماء و الأدباء.

و من عمل بلنسية مدينة أندة التى فى جبلها معدن الحديد، و أما رندة- بالراء- فهى فى متوسط الأندلس، و لها حصن يعرف بأندة

أيضا.

و فى إشبيليـة- أعادها اللّه!- من المتفرّجات و المتنزهات كثير، و من ذلك مدينة طريانة، فإنها من مدن إشبيلية و متنزهاتها، و كذلك تيطل، فقد ذكر ابن سعيد جزيرة تيطل فى المتفرجات.

[موسى بن سعيد يعتذر عن مفارقة الأندلس]

و قال أبو عمران موسى بن سعيد فى جوابه لأبى يحيى صاحب سبتة لما استوزره مستنصر بنى عبد المؤمن، و كتب إلى المذكور يرغّبه فى النقلة عن الأنـدلس إلى مرّاكش، ما نصّ محلّ الحاجة منه: و أما ما ذكر سيدى من التخيير بين ترك الأندلس و بين الوصول إلى حضرة مراكش، فكفى الفهم العالى من الإشارة قول القائل: [الكامل]

و العزّ محمود و ملتمس و ألذّه ما كان فى الوطن

فإذا نلت بك السماء فى تلك الحضرة، فعلى من أسود فيها؟ و من ذا أضاهى بها؟:

[الرمل]

لا رقت بى همّة إن لم أكن فيك قد أمّلت كلّ الأمل

و بعد هذا، فكيف أفارق الأندلس و قد علم سيدى أنها جنّة الدنيا بما حباها اللّه به من اعتدال الهواء، و عذوبة الماء، و كثافة الأفياء، و أن الإنسان لا يبرح فيها بين قرّة عين و قرار نفس: [الطويل]

هى الأرض لا ورد لديها مكدّر و لا طلّ مقصور و لا روض مجدب

أفق صـقيل، و بساط مدبّج، و ماء سائح، و طائر مترنّم بليل، و كيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصـفة؟ فيا سـموأل الوفاء، و يا حاتم السماح، و يا جذيمة الصفاء،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۵۵

كمّل لمن أمّلك النعمة بتركه فى موطنه، غير مكدّر لخاطره بالتحرّك من معدنه، متلفّتا إلى قول القائل: [البسيط]

و سوّلت لى نفسى أن أفارقها و الماء فى المزن أصفى منه فى الغدر

فإن أغناه اهتمام مؤمّله عن ارتياد المراد، و بلّغه دون أن يشدّ قتبا و لا أن ينضى عيسا غاية المراد، أنشد ناجح المرغوب، بالغ المطلوب: [الطويل]

و ليس الذى يتّبع الوبل رائدا كمن جاءه فى داره رائد الوبل

و ربّ قائـل إذا سـمع هـذا التبسّـط على الأمـانى: مـا له تشـطّط، و عـدل عن سبيـل التأدّب و تبسّط؟ و لا جواب عنـدى إلّا قول القائل: [البسيط]

فهذه خطّة ما زلت أرقبها فاليوم أبسط آمالى و أحتكم

و ما لى لا أنشد ما قاله المتنبى فى سيف الدولة: [المتقارب]

و من كنت بحرا له يا علىّ لم يقبل الدّرّ إلّا كبارا

انتهى المقصود منه.

[وصف شريش و شلب و كورة اشكونية]

و قال الحجارى: إن مدينة شـريش بنت إشبيلية، و واديها ابن واديها، ما أشبه سعدى بسعيد، و هى مدينة جليلة ضخمة الأسواق، لأهلها همم، و ظرف فى اللبـاس، و إظهـار الرفاهيـة، و تخلّق بالآـداب، و لاـ تكـاد ترى بهـا إلّما عاشـقا أو معشوقـا، و لها من الفواكه ما يعمّ و

يفضل، و ممّا اختصّت به إحسان الصنعة فى المجبنات، و طيب جبنها يعين على ذلك، و يقول أهل الأندلس: من دخل شريش و لم يأكل بها المجبنات فهو محروم، انتهى.

و المجبنات: نوع من القطائف يضاف إليها الجبن فى عجينها، و تقلى بالزيت الطيب.

و فى شلب يقول الفاضل الكاتب أبو عمرو بن مالك بن سبدمير: [الخفيف]

أشجاك النسيم حين يهبّ أم سنى البرق إذ يخبّ و يخبو

أم هتوف على الأراكة تشدو أم هتون من الغمامة سكب

كلّ هذاك للصّبابة داع أىّ صبّ دموعه لا تصبّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۵۶

أنا لو لا النسيم و البرق و الور ق و صوب الغمام ما كنت أصبو

ذكّرتنى شلبا، و هيهات منّى بعدما استحكم التّباعد، شلب

و تسمى أعمال شلب كورة أشكونبة، و هى متصلة بكورة أشبونة، و هى- أعنى أشكبونة- قاعدة جليلة، لها مدن و معاقل، و دار ملكها قاعدة شلب، و بينها و بين قرطبة سبعة أيام، و لمّا صارت لبنى عبد المؤمن ملوك مراكش أضافوها إلى كورة إشبيلية، و تفتخر شلب بكون ذى الوزارتين ابن عمّار منها، سامحه اللّه!.

و منها القائد أبو مروان عبد الملك بن بدران، و ربما قيل «ابن بدرون» الأديب المشهور، شارح قصيدة ابن عبدون التى أولها: [البسيط]

الدّهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح و الصّور

و هذا الشرح شهير بهذه البلاد المشرقية، و من نظم ابن بدرون المذكور قوله: [البسيط]

العشق لذّته التّعنيق و القبل كما منغّصه التثريب و العذل

يا ليت شعرى هل يقضى وصالكم لو لا المنى لم يكن ذا العمر يتّصل

و منها نحوىّ زمانه و علّامته أبو محمد عبد اللّه بن السّيد البطليوسى، فإنّ شلبا بيضته، و منها كانت حركته و نهضته، كما فى الذخيرة، و هو القائل: [المتقارب]

إذا سألونى عن حالتى و حاولت عذرا فلم يمكن

أقول: بخير، و لكنّه كلام يدور على الألسن

و ربّك يعلم ما فى الصّدور و يعلم خائنة الأعين

[فى بطليوس و شاطبة]

و قال الوزير أبو عمرو بن الغلّاس يمدح بطليوس بقوله: [الطويل]

بطليوس لا أنساك ما اتّصل البعد فللّه غور فى جنابك أو نجد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۵۷

و للّه دوحات تحفّك ينّعا تفجّر واديها كما شقّق البرد

و بنو الغلاس من أعيان حضرة بطليوس، و أبو عمرو المذكور أشهرهم، و هو من رجال الذخيرة و المسهب، رحمه اللّه تعالى!.

و فى شاطبة يقول بعضهم: [المديد]

نعم ملقى الرّحل شاطبة لفتى طالت به الرّحل

بلدة أوقاتها سحر و صبا فى ذيله بلل

و نسيم عرفه أرج و رياض غصنها ثمل

و وجوه كلّها غرر و كلام كلّه مثل

و فى برجة يقول بعضهم: [المتقارب]

إذا جئت برجة مستوفزا فخذ فى المقام و خلّ السّفر

فكلّ مكان بها جنّة و كلّ طريق إليها سقر

[كتاب لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه فى تفضيل الجهاد]

و اعلم أنه لو لم يكن للأندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد لكان كافيا، و يرحم اللّه لسان الدين بن الخطيب حيث كتب على لسان سلطانه إلى بعض العلماء العاملين ما فيه إشارة إلى بعض ذلك، ما نصّه: من أمير المسلمين فلان، إلى الشيخ كذا ابن الشيخ كذا، وصل اللّه له سعادة تجذبه، و عناية إليه تقرّبه، و قبولا منه يدعوه إلى خير ما عند اللّه و يندبه! سلام كريم عليكم و رحمة اللّه و بركاته، أمّا بعد حمد اللّه المرشد المثيب، السميع المجيب، معوّد اللطف الخفى و الصنع العجيب، المتكفّل بإنجاز وعد النصر العزيز و الفتح القريب، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد رسوله ذى القدر الرفيع و العزّ المنيع و الجناب الرحيب، الذى به نرجو ظهور عبدة اللّه على عبدة الصليب، و نستظهر منه على العدوّ بالحبيب، و نعدّه عدّتنا لليوم العصيب، و الرضا عن آله و صحبه الذين فازوا من مشاهدته بأوفى النصيب، و رموا إلى هدف مرضاته بالسّهم المصيب، فإنّا كتبناه إليكم- كتب اللّه تعالى لكم عملا صالحا يختم الجهاد صحائف برّه، و تتمخّض لأن تكون كلمة اللّه هى العليا جوامع أمره! و جعلكم ممّن تهنّى فى الأرض التى فيها أبواب الجنّة مدة عمره!- من حمراء غرناطة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۵۸

- حرسها اللّه تعالى!- و لطف اللّه هامى السحاب، و صنعه رائق الجناب، و اللّه يصل لنا و لكم ما عوّده من صلة لطفه عند انبتات الأسباب، و إلى هذا أيّها المولى الذى هو بركة المغرب المشار إليه بالبنان، و واحده فى رفعة الشأن، المؤثر ما عند اللّه على الزخرف الفتّان، المتقلّل من المتاع الفان، المستشرف إلى مقام العرفان، من درج الإسلام و الإيمان و الإحسان، فإننا لما نؤثره من برّكم الذى نعدّه من الأمر الأكيد، و نضمره من ودّكم الذى نحلّه محلّ الكنز العتيد، و نلتمسه من دعائكم التماس العدّة و العديد، لا نزال نسأل عن أحوالكم التى ترقّت فى أطوار السعادة، و وصلت جناب الحقّ بهجر العادة، و ألقت إلى يد التسليم للّه و التوكّل عليه بالمقادة، فنسرّ بما هيّأ اللّه تعالى لكم من القبول، و بلّغكم من المأمول، و ألهمكم من الكلف بالقرب إليه و الوصول، و الفوز بما لديه و الحصول. و عندما ردّ اللّه علينا ملكنا الردّ الجميل، و أنالنا فضله الجزيل، و كان لعثارنا المقيل، خاطبناكم بذلك لمكانكم من ودادنا، و محلّكم من حسن اعتقادنا، و وجّهنا إلى وجهة دعائكم وجه اعتدادنا، و اللّه ينفعنا بجميل الظنّ فى دينكم المتين، و فضلكم المبين، و يجمع الشّمل بكم فى الجهاد عن الدين. و تعرّفنا الآن بمن له بأنبائكم اعتناء، و على جلالكم حمد و ثناء، و لجناب ودّكم اعتزاء و انتماء، بتجاول عزمكم بين حجّ مبرور ترغبون من أجره فى ازدياد، و تجددون العهد منه بأليف اعتياد، و بين رباط فى سبيل اللّه و جهاد، و توثير مهاد بين ربا أثيرة عند اللّه و وهاد، يحشر يوم القيامة شهداؤها مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيّين و الصدّيقين، فرحين بما آتاهم اللّه من فضله، و اللّه أصدق القائلين الصادقين، حيث لا غارة لغير عدوّ الإسلام تتّقى، إلّا لابتغاء ما لدى اللّه ترتقى، حيث رحمة اللّه قد فتحت أبوابها، و حور الجنان قد زيّنت أترابها، دار العرب الذين قرعوا باب الفتح، و فازوا بجزيل المنح، و خلّدوا الآثار، و أرغموا الكفّار، و أقالوا العثار، و أخذوا الثار، و أمنوا من لفح جهنّم بما علا على وجوههم من ذلك الغبار، فكتبنا إليكم هذا نقوّى بصيرتكم على جهة الجهاد من العزمين، و نهبّ بكم إلى إحدى الحسنيين، و الصبح غير خاف على ذى عينين، و الفضل ظاهر لإحدى المنزلتين، فإنكم إن حججتم أعدتم فرضا أدّيتموه، و فضلا ارتديتموه، فائدته عليكم مقصورة، و قضيّته فيكم محصورة، و إذا أقمتم

الجهاد جلبتم إلى حسناتكم عملا غريبا، و استأنفتم سعيا من اللّه قريبا، و تعدّت المنفعة إلى ألوف من النفوس، المستشعرة لباس البوس، و لو كان الجهاد بحيث يخفى عليكم فضله لأظنبنا، و أعنّة الاستدلال أرسلنا، هذا لو قدمتم على هذا الوطن و فضلكم غفل من الاشتهار، و من به لا يوجب لكم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۵۹

ترفيع المقدار، فكيف و فضلكم أشهر من محيّا النهار؟ و لقاؤكم أشهى الآمال و آثر الأوطار، فإن قوى عزمكم و اللّه يقوّيه، و يعيننا من برّكم على ما ننويه، فالبلاد بلادكم، و ما فيها طريفكم و تلادكم، و كهولها إخوانكم، و أحداثها أولادكم، و نرجو أن تجدوا لذكركم اللّه فى رباها حلاوة زائدة، و لا تعدموا من روح اللّه فيها فائدة، و تتكيف نفسكم فيها تكيّفات تقصر عنها خلوات السلوك، إلى ملك الملوك، حتى تغتبطوا بفضل اللّه الذى يوليكم، و تروا أثر رحمته فيكم، و تخلفوا فخر هذا الانقطاع إلى اللّه فى قبيلكم و بنيكم، و تختموا العمر الطيب بالجهاد الذى يعليكم، و من اللّه تعالى يدنيكم، فنبيّكم العربى صلوات اللّه عليه و سلامه نبيّ الرحمة و الملاحم، و معمل الصوارم، و بجهاد الفرنج ختم عمل جهاده و الأعمال بالخواتم، هذا على بعد بلادهم من بلاده، و أنتم أحقّ الناس باقتفاء جهاده، و الاستباق إلى آماده، هذا ما عندنا حثثناكم عليه، و ندبناكم إليه، و أنتم فى إيثار هذا الجوار، و مقارضة ما عندنا بقدومكم على بلادنا من الاستبشار، بحسب ما يخلق عنكم من بيده مقادة الاختيار، و تصريف الليل و النهار، و تقليب القلوب و إجالة الأفكار، و إذا تعارضت الحظوظ فما عند اللّه خير للأبرار، و الدار الآخرة دار القرار، و خير الأعمال عمل أوصل إلى الجنة و باعد من النار، و لتعلموا أنّ نفوس أهل الكشف و الاطّلاع، بهذه الأرجاء و الأصقاع، قد اتّفقت أخبارها، و اتّحدت أسرارها، على البشارة بفتح قرب أوانه، و أظلّ زمانه، فنرجو اللّه أن تكونوا ممّن يحضر مدعاه، و يكرم فيه مسعاه، و يسلف فيه العمل الذى يشكره اللّه و يرعاه، و السلام الكريم يخصّكم و رحمة اللّه و بركاته، انتهى.

[ابن تاشفين يصف الأندلس و يشبهها بالعقاب]

و لمّا دخل الأندلس أمير المسلمين علىّ بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللّمتونى ملك المغرب و الأندلس، و أمعن النظر فيها، و تأمّل وصفها و حالها، قال: إنها تشبه عقابا مخالبه طليطلة، و صدره قلعة رباح، و رأسه جيّان، و منقاره غرناطة، و جناحه الأيمن باسط إلى المغرب، و جناحه الأيسر باسط إلى المشرق، فى خبر طويل لم يحضرنى الآن، إذ تركته مع كتبى بالمغرب، جمعنى اللّه بها على أحسن الأحوال!.

و مع كون أهل الأندلس سبّاق حلبة الجهاد، مهطعين إلى داعيه من الجبال و الوهاد، فكان لهم فى التّرف و النعيم و المجون و مداراة الشعراء خوف الهجاء محلّ و ثير المهاد، و سيأتى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۶۰

فى الباب السابع من هذا القسم من ذلك و غيره ما يشفى و يكفى،

[أبو بكر المخزومى الهجاء و الوزير أبو بكر بن سعيد]

و لكن سنح لى أن أذكر هنا حكاية أبى بكر المخزومى الهجّاء المشهور الذى قال فيه لسان الدين بن الخطيب فى الإحاطة: إنه كان أعمى شديد الشرّ، معروفا بالهجاء، مسلّطا على الأعراض، سريع الجواب، ذكىّ الذهن، فطنا للمعاريض، سابقا فى ميدان الهجاء، فإذا مدح ضعف شعره.

و الحكاية هى ما حكاه أبو الحسن بن سعيد فى الطالع السعيد، إذ قال حكاية عن أبيه فيما أظن: قدم المذكور- يعنى المخزومى- على غرناطة أيام ولاية أبى بكر بن سعيد، و نزل قريبا منى، و كنت أسمع به بنار صاعقة يرسلها اللّه على من يشاء من عباده، ثم رأيت أن

أبدأه بالتأنيس و الإحسان، فاستدعيته بهذه الأبيات: [المجتثّ]

يا ثانيا للمعرّى فى حسن نظم و نثر

و فرط ظرف و نبل و غوص فهم و فكر

صل ثمّ واصل حفيّا بكلّ برّ و شكر

و ليس إلّا حديث كما زها عقد درّ

و شادن يتغنّى على رباب و زمر

و ما يسامح فيه ال غفور من كأس خمر

و بيننا عهد حلف لياسر حلف كفر

نعم فجدّده عهدا بطيب شكر و يسر

و الكأس مثل رضاع و من كمثلك يدرى

و وجّه له الوزير أبو بكر بن سعيد عبدا صغيرا قاده، فلما استقرّ به المجلس، و أفعمته روائح النّدّ و العود و الأزهار، و هزّت عطفه الأوتار، قال: [البسيط]

دار السّعيدىّ ذى أم دار رضوان ما تشتهى النّفس فيها حاضر دانى

سقت أباريقها للنّدّ سحب ندى تحدى برعد لأوتار و عيدان

و البرق من كلّ دنّ ساكب مطرا يحيى به ميت أفكار و أشجان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۶۱

هذا النّعيم الذى كنّا نحدّثه و لا سبيل له إلّا بآذان

[أبو بكر المخزومى و الشاعرة نزهون الغرناطية]

فقال له أبو بكر بن سعيد: و إلى الآن لا سبيل له إلّا بآذان؟ فقال: حتى يبعث اللّه ولد زنى كلما أنشدت هذه الأبيات قال: إنها لأعمى، فقال: أمّا أنا، فلا أنطق بحرف، فقال:

من صمت نجا. و كانت نزهون بنت القلاعى حاضرة فقالت: و تراك يا أستاذ، قديم النعمة بمجمر ندّ و غناء و شراب، فتعجب من تأتّيه و تشبّهه بنعيم الجنة، و تقول: ما كان يعلم إلّا بالسماع، و لا يبلغ إليه بالعيان؟ و لكن من يجىء من حصن المدوّر، و ينشأ بين تيوس و بقر، من أين له معرفة بمجالس النعيم؟ فلمّا استوفت كلامها تنحنح الأعمى، فقالت له: ذبحة، فقال:

من هذه الفاضلة؟ فقالت: عجوز مقام أمّك، فقال: كذبت، ما هذا صوت عجوز، إنّما هذه نغمة قحبة محترقة تشمّ روائح هنها على فراسخ، فقال له أبو بكر: يا أستاذ، هذه نزهون بنت القلاعى الشاعرة الأديبة، فقال: سمعت بها، لا أسمعها اللّه خيرا! و لا أراها إلّا أيرا! فقالت له: يا شيخ سوء تناقضت، و أىّ خير للمرأة مثل ما ذكرت؟ ففكّر ساعة ثم قال: [الطويل]

على وجه نزهون من الحسن مسحة و إن كان قد أمسى من الضوء عاريا

قواصد نزهون توارك غيرها و من قصد البحر استقلّ السّواقيا

فأعملت فكرها ثم قالت: [المجتث]

قل للوضيع مقالا يتلى إلى حين يحشر

من المدوّر أنشئ ت و الخرا منه أعطر

حيث البداوة أمست فى مشيها تتبختر

لذاك أمسيت صبّا بكلّ شيء مدوّر

خلقت أعمى و لكن تهيم فى كل أعور

جازيت شعرا بشعر فقل لعمرى من اشعر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۶۲

إن كنت فى الخلق أنثى فإنّ شعرى مذكّر

فقال لها اسمعى: [المتقارب]

ألا قل لنزهونة ما لها تجرّ من التّيه أذيالها

و لو أبصرت فيشة شمّرت - كما عوّدتنى- سربالها

فحلف أبو بكر بن سعيد أن لا يزيد أحدهما على الآخر فى هجو كلمة، فقال المخزومى: أكون هجّاء الأندلس و أكفّ عنها دون شيء؟ فقال: أنا أشترى منك عرضها فاطلب، فقال: بالعبد الذى أرسلته فقادنى إلى منزلك، فإنه ليّن اليد رقيق المشى، فقال أبو بكر: لو لا كونه صغيرا كنت أبلغك به مرادك، و أهبه لك، ففهم قصده و قال: أصبر عليه حتى يكبر، و لو كان كبيرا ما آثرتنى به على نفسك، فضحك أبو بكر، و قال: إن لم تهج نظما هجوت نثرا، فقال: أيها الوزير، لا تبديل لخلق اللّه. و انفصل المخزومى بالعبد بعد ما أصلح الوزير بينه و بين نزهون، انتهى.

و فى كتاب «الدرّ المنضد، فى وفيات أعيان أمة محمد» تأليف الإمام صارم الدين إبراهيم بن دقماق، قال أبو القاسم بن خلف: كان- يعنى المخزومى المذكور- حيّا بعد الأربعين و خمسمائة، انتهى.

[عبد الوهاب بن الحسين الحاجب المغنى الشاعر]

و نقلت من كتاب «قطب السرور» لابن الرقيق المغربى، ما ملخّصه: و ممّن أدركته و عاشرته عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب، و ذكرته هنا؛ لأنه ملحق بالأمراء المتقدمين غير خارج منهم و لا مقصّر عنهم، بل كان واحد عصره فى الغناء الرائق، و الأدب الرائع، و الشعر الرقيق، و اللفظ الأنيق، و رقّة الطبع، و إصابة النادر، و التشبيه المصيب، و البديهة التى لا يلحق فيها، مع شرف النفس، و علوّ الهمّة، و كان قد قطع عمره، و أفنى دهره، فى اللّهو و اللعب، و الفكاهة و الطرب، و كان أعلم الناس بضرب العود، و اختلاف طرائقه، و صنعة اللحون، و كثيرا ما يقول المعانى اللطيفة فى الأبيات الحسنة، و يصوغ عليها الألحان المطربة البديعة المعجبة، اختراعا منه و حذقا، و كانت له فى ذلك قريحة و طبع، و كان إذا لم يزره أحد من إخوانه أحضر مائدته و شرابه عشرة من أهل بيته، منهم ولده و عبد اللّه ابن أخيه و بعض غلمانه، و كلّهم يغنّى فيجيد، فلا يزالون يغنّون بين يديه حتى يطرب، فيدعو بالعود و يغنى لنفسه و لهم، و كان بشارة الزامر الذى يزمر عليه من حذّاق زمرة المشرق، و كان بعيد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۶۳

الهمّة سمحا بما يجد، تغلّ عليه ضياعه كلّ عام أموالا جليلة، فلا تحول السنة حتى ينفد جميع ذلك و يستسلف غيره، فكان لا يطرأ من المشرق مغنّ إلّا سأل من يقصد بهذا الشأن، فيدلّ عليه، فمن وصله منهم استقبله بصنوف البرّ و الإكرام، و كساه و خلطه بنفسه و لم يدعه إلى أحد من الناس، فلا يزال معه فى صبوح و غبوق، و هو مجدّد له كل يوم كرامة، حتى يأخذ جميع ما معه من صوت مطرب أو حكاية نادرة.

و جلس يوما و قد زاره رجلان من إخوانه، و حضر أقرباؤه، فطعموا و شربوا و أخذوا فى الغناء، فارتجّ المجلس، إذ دخل عليه بعض غلمانه فقال: بالباب رجل غريب عليه ثياب السفر، ذكر أنّه ضيف، فأمر بإدخاله، فإذا رجل أسمر سناط، رثّ الهيئة، فسلّم عليه، قال: أين بلد الرجل؟ قال: البصرة، فرحّب به، و أمره بالجلوس، فجلس مع الغلمان فى صفّة، و أتى بطعام فأكل و سقى أقداحا، و دار الغناء

فى المجلس، حتى انتهى إلى آخرهم، فلمّا سكتوا اندفع يغنى بصوت ندىّ و طبع حسن: [الهزج]

ألا يا دار ما الهجر لسكّانك من شانى

سقيت الغيث من دار و إن هيّجت أشجانى

و لو شئت لما استسقى ت غيثا غير أجفانى

بنفسى حلّ أهلوك و إن بانوا بسلوانى

و ما الدّهر بمأمون على تشتيت خلّانى

فطرب عبد الوهاب و صاح، و تبيّن الحذق فى إشارته، و الطّيب فى طبعه، و قال: يا غلام، خذ بيده إلى الحمّام، و عجّل علىّ به، فأدخل الحمّام، و نظف، ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فألقيت عليه، و رفعه فأجلسه عن يساره، و أقبل عليه و بسطه، فغنى له: [مخلع البسيط]

قومى امزجى التّبر باللّجين و احتملى الرّطل باليدين

و اغتنمى غفلة اللّيالى فربّما أيقظت لحين

فقد لعمرى أقرّ منّا هلال شوّال كلّ عين

ذات الخلاخيل أبصرته كنصف خلخالها اللّجين

فطرب و شرب، و استزاده، فغنّاه: [الكامل]

من لى على رغم الحسود بقهوة بكر ربيبة حانة عذراء

موج من الذهب المذاب تضمّه كأس كقشر الدّرّة البيضاء

و النّجم فى أفق السماء كأنّه عين تخالس غفلة الرّقباء

فشرب عبد الوهاب ثم قال: زدنى، فغنّاه: [الطويل]

و أنت الذى أشرقت عينى بمائها و علّمتها بالهجر أن تهجر الغمضا

و أغرقتها بالدّمع حتى جفونها لينكر من فقد الكرى بعضها بعضا

فمرّ يوم من أحسن الأيام و أطيبها، و وصله و أحسن إليه، و لم يزل عنده مقرّبا مكرّما، و كان خليعا ماجنا مشتهرا بالنبيذ، فخلّاه و ما أحبّ، ثمّ وصف له الأندلس و طيبها، و كثرة خمورها، فمضى إليها و مات بها، و على نحو هذه الحال كان يفعل بكل طارىء يطرأ من المشرق، و لو ذكرتهم لطال بهم الكتاب، انتهى.

و غرضى من إيراد هذه الحكاية هنا كونه وصف للمشرقىّ الأندلس و طيبها، و ذلك أمر لا يشكّ فيه و لا يرتاب، و اللّه المسؤول فى حسن المتاب.

و رأيت فى بعض كتب تاريخ الأندلس فى ترجمة السلطان باديس الصّنهاجىّ صاحب غرناطة، ما نصّه: و هو الذى أكمل ترتيب قصبة مالقة، و كان أفرس الناس، و أنبلهم، ذا مروءة و نجدة، و قصره بغرناطة ليس ببلاد الإسلام و الكفر مثله، فيما قيل، انتهى.

و هذا القصر هو الذى عناه لسان الدين بن الخطيب فى قصيدته السينية المذكورة فى الباب الخامس من القسم الثانى من هذا الكتاب فلتراجع ثمة.

[بعض عجائب سرقسطة]

و ذكر غير واحد من المحدّثين و المؤرّخين أن مدينة سرقسطة لا يدخلها الثعبان من قبل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۶۵

نفسه، و إذا أدخله أحد لم يتحرّك، و نظير هذا المعنى فى بعض الحيوانات بالنسبة إلى بعض البلاد كثير، و ذلك برصد أو طلّسم، و قد استطرد بعض علماء أصول الدين ذلك عندما تكلّموا على السحر حسبما قرّر فى محله، و اللّه أعلم.

هكذا رأيت فى كلام بعض علماء المشارقة، و الذى رأيته لبعض مؤرّخى المغرب فى سرقسطة أنها لا تدخلها عقرب و لا حيّة إلّا ماتت من ساعتها، و يؤتى بالحيّات و العقارب إليها حيّة فبنفس ما تدخل إلى جوف البلد تموت، قال: و لا يتسوّس فيها شىء من الطعام، و لا يعفن، و يوجد فيها القمح من مائة سنة، و العنب المعلّق من ستة أعوام، و التين و الخوخ و حب الملوك و التفاح و الإجّاص اليابسة من أربعة أعوام، و الفول و الحمص من عشرين سنة، و لا يسوّس فيها خشب و لا ثوب كان صوفا أو حريرا أو كتّانا، و ليس فى بلاد الأندلس أكثر فاكهة منها، و لا أطيب طعما، و لا أكبر جرما، و البساتين محدقة بها من كل ناحية ثمانية أميال، و لها أعمال كثيرة: مدن و حصون و قرى مسافة أربعين ميلا، و هى تضاهى مدن العراق فى كثرة الأشجار و الأنهار، و بالجملة فأمرها عظيم، و قد أسلفنا ذكرها.

[السمور بالأندلس]

و اعلم أنّ بأرض الأندلس من الخصب و النّضرة و عجائب الصنائع و غرائب الدّنيا ما لا يوجد مجموعة غالبا فى غيرها، فمن ذلك ما ذكره الحجارى فى المسهب: أنّ السّمّور الذى يعمل من وبره الفراء الرفيعة يوجد فى البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية، و يجلب إلى سرقسطة و يصنع بها. و لمّا ذكر ابن غالب وبر السّمّور الذى يصنع بقرطبة قال:

هذا السمّور المذكور هنا لم أتحقّق ما هو، و لا ما عنى به، إن كان هو نباتا عندهم أو وبر الدابة المعروفة، فإن كانت الدابة المعروفة فهى دابّة تكون فى البحر، و تخرج إلى البرّ، و عندها قوّة ميز. و قال حامد بن سمحون الطبيب صاحب كتاب الأدوية المفردة: هو حيوان يكون فى بحر الروم، و لا يحتاج منه إلّا إلى خصاه، فيخرج الحيوان من البحر فى البرّ، فيؤخذ و تقطع خصاه، و يطلق، فربّما عرض للقنّاصين مرة أخرى، فإذا أحسّ بهم و خشى أن لا يفوتهم استلقى على ظهره و فرج بين فخذيه ليرى موضع خصييه خاليا، فإذا رآه القناصون كذلك تركوه. قال ابن غالب: و يسمّى هذا الحيوان أيضا الجندبادستر، و الدواء الذى يصنع من خصييه من الأدوية الرفيعة، و منافعه كثيرة، و خاصيته فى العلل الباردة، و هو حارّ يابس فى الدرجة الرابعة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۶۶

[بعض وحش الأندلس و حيوانها و طيورها]

و القنلية حيوان أدقّ من الأرنب و أطيب فى الطعم و أحسن وبرا، و كثيرا ما يلبس فراؤها، و يستعملها أهل الأندلس من المسلمين و النصارى، و لا توجد فى برّ البربر إلّا ما جلب منها إلى سبتة فنشأ فى جوانبها. قال ابن سعيد: و قد جلبت فى هذه المدّة إلى تونس حضرة إفريقية.

و يكون بالأندلس من الغزال و الأيّل و حمار الوحش و بقره و غير ذلك ممّا لا يوجد فى غيرها كثيرا. و أما الأسد، فلا يوجد فيها البتّة، و لا الفيل و الزرافة و غير ذلك ممّا يكون فى أقاليم الحرارة، و لها سبع يعرف باللّب أكبر بقليل من الذئب فى نهاية من القحة، و قد يفترس الرجل إذا كان جائعا.

و بغال الأندلس فارهة، و خيلها ضخمة الأجسام، حصون للقتال لحملها الدروع و ثقال السلاح و العدو فى خيل البرّ الجنوبىّ.

و لها من الطيور الجوارح و غيرها ما يكثر ذكره و يطول، و كذلك حيوان البحر، و دوابّ بحرها المحيط فى نهاية من الطول و العرض.

قال ابن سعيد: عاينت من ذلك العجب، و المسافرون فى البحر يخافون منها لئلّا تقلب المراكب، فيقطعون الكلام، و لها نفخ بالماء من فيها يقوم فى الجو ذا ارتفاع مفرط.

و قال ابن سعيد: قال المسعودى فى «مروج الذهب»: فى الأندلس من أنواع الأفاويه خمسة و عشرون صنفا: منها السنبل، و القرنفل، و الصندل، و القرفة، و قصب الذريرة، و غير ذلك.

و ذكر ابن غالب أنّ المسعودى قال: أصول الطّيب خمسة أصناف: المسك، و الكافور، و العود، و العنبر، و الزعفران، و كلها من أرض الهند، إلّا الزعفران و العنبر، فإنهما موجودان فى أرض الأندلس، و يوجد العنبر فى أرض الشّحر.

قال ابن سعيد: و قد تكلّموا فى أصل العنبر، فذكر بعضهم أنه عيون تنبع فى قعر البحر يصير منها ما تبلعه الدواب و تقذفه. قال الحجارى: و منهم من قال: إنه نبات فى قعر البحر.

و قد تقدّم قول الرازى أن المحلب- و هو المقدّم فى الأفاويه، و المفضّل فى أنواع الأشنان- لا يوجد فى شىء من الأرض إلّا بالهند و الأندلس.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۶۷

قال ابن سعيد: و فى الأندلس مواضع ذكروا أن النار إذا أطلقت فيها فاحت بروائح العود و ما أشبهه، و فى جبل شلير أفاويه هندية.

[ثمار الأندلس و معادنها]

قال: و أمّا الثمار و أصناف الفواكه، فالأندلس أسعد بلاد اللّه بكثرتها، و يوجد فى سواحلها قصب السكر و الموز، و يوجدان فى الأقاليم الباردة، و لا يعدم منها إلّا التمر، و لها من أنواع الفواكه ما يعدم فى غيرها أو يقلّ، كالتين القوطىّ و التين السفرىّ بإشبيلية.

قال ابن سعيد: و هذان صنفان لم تر عينى و لم أذق لهما منذ خرجت من الأندلس ما يفضلهما، و كذلك التين المالقىّ و الزبيب المنكّبىّ و الزبيب العسلىّ و الرمان السفرى و الخوخ و الجوز و اللوز، و غير ذلك مما يطول ذكره.

و قد ذكر ابن سعيد أيضا أن الأرض الشمالية المغربية فيها المعادن السبعة، و أنها فى الأندلس التى هى بعض تلك الأرض، و أعظم معدن للذهب بالأندلس فى جهة شنت ياقور قاعدة الجلالقة على البحر المحيط، و فى جهة قرطبة الفضّة و الزئبق، و النحاس فى شمال الأندلس كثير، و الصّفر الذى يكاد يشبه الذهب، و غير ذلك من المعادن المتفرقة فى أماكنها.

و العين التى يخرج منها الزاج فى لبلة مشهورة، و هو كثير مفضل فى البلاد منسوب لجبل طليطلة جبل الطّفل الذى يجهز إلى البلاد و يفضل على كل طفل بالمشرق و المغرب.

و بالأندلس عدة مقاطع للرخام، و ذكر الرازى أن بجبل قرطبة مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون و الخمرى، و فى ناشرة مقطع عجيب للعمد، و بباغه من مملكة غرناطة مقاطع للرخام كثيرة غريبة موشّاة فى حمرة و صفرة، و غير ذلك من المقاطع التى بالأندلس من الرخام الحالك و المجزّع.

و حصى المريّة يحمل إلى البلاد فإنه كالدّرّ فى رونقه، و له ألوان عجيبة، و من عادتهم أن يضعوه فى كيزان الماء.

و فى الأندلس من الأمنان التى تنزل من السماء القرمز الذى ينزل على شجرة البلّوط فيجمعه الناس زمن الشّعرى و يصبغون به، فيخرج منه اللون الأحمر الذى لا تفوقه حمرة.

[بعض مصنوعات الأندلس]

قال ابن سعيد: و إلى مصنوعات الأندلس ينتهى التفضيل، و للمتعصّبين لها فى ذلك كلام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۶۸

كثير، فقد اختصّت المريّة و مالقة و مرسية بالموشّى المذهّب، يتعجّب من حسن صنعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئا، و فى نتالة من عمل مرسية تعمل البسط التى يغالى فى ثمنها بالمشرق، و يصنع فى غرناطة و بسطة من ثياب اللباس المحرّرة الصنف الذى يعرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة، و يصنع فى مرسية من الأسرّة المرصّعة و الحصر الفتّانة الصنعة و آلات الصّفر و الحديد من السكاكين و الأمقاص المذهّبة و غير ذلك من آلات العروس و الجندىّ ما يبهر العقل، و منها تجهّز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية و غيرها. و يصنع بها و بالمريّة و مالقة الزجاج الغريب العجيب و فخار مزجّج مذهب، و يصنع بالأندلس نوع من المفضض المعروف فى المشرق بالفسيفساء و نوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزّليجى يشبه المفضض، و هو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملوّن الذى يصرفه أهل المشرق فى زخرفة بيوتهم كالشاذروان، و ما يجرى مجراه.

[الآلات الحربية و الآثار الأولية بالأندلس]

و أما آلات الحرب من التّراس و الرّماح و السّروج و الألجم و الدروع و المغافر فأكثر همم أهل الأندلس- فيما حكى ابن سعيد- كانت مصروفة إلى هذا الشأن، و يصنع فيها فى بلاد الكفر ما يبهر العقول، قال: و السيوف البرذليات مشهورة بالجودة، و برذيل: آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال و المشرق، و الفولاذ الذى بإشبيلية إليه النهاية، و فى إشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره.

و قد أفرد ابن غالب فى «فرحة الأنفس» للآثار الأولية التى بالأندلس من كتابه مكانا، فقال: منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح إلى الأرحىّ التى بطرّكونة على وزن لطيف و تدبير محكم حتى طحنت به، و ذلك من أعجب ما صنع. و من ذلك ما صنعه الأول أيضا من جلب الماء من البحر المحيط إلى جزيرة قادس من العين التى فى إقليم الأصنام، جلبوه فى جوف البحر فى الصخر المجوّف ذكرا فى أنثى و شقّوا به الجبال، فإذا وصلوا به إلى المواضع المنخفضة بنوا له قناطر على حنايا، فإذا جاوزها و اتّصل بالأرض المعتدلة رجعوا إلى البنيان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۶۹

المذكور، فإذا صادف سبخة بنى له رصيف و أجرى عليه، هكذا إلى أن انتهى به إلى البحر، ثمّ دخل به فى البحر، و أخرج فى جزيرة قادس، و البنيان الذى عليه الماء فى البحر ظاهر بيّن، قال ابن سعيد: إلى وقتنا هذا.

و منها الرصيف المشهور بالأندلس، قال فى بعض أخبار رومية: إنه لمّا ولى بوليش المعروف بجاشر، و ابتدأ بتذريع الأرض و تكسيرها، كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها و إلى المغرب و إلى الشمال و إلى الجنوب، ثم بدأ بفرش المبلّطة، و أقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أن بلغ بها أرض الأندلس و ركزها شرقى قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار، ثم ابتدأها من باب القنطرة قبلىّ قرطبة إلى شقندة إلى إستجة إلى قرمونة إلى البحر، و أقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة رومية، و ذكر أنه أراد تسقيفها فى بعض الأماكن راحة للخاطرين من وهج الصيف و هول الشتاء، ثم توقّع أن يكون ذلك فسادا فى الأرض و تغييرا للطرق عند انتشار اللصوص و أهل الشرّ فيها فى المواضع المنقطعة النائية عن العمران، فتركها على ما هى عليه. و ذكر فى هذه الآثار صنم قادس الذى ليس له نظير إلّا الصنم الذى بطرف جلّيقية، و ذكر قنطرة طليطلة، و قنطرة السيف و قنطرة ماردة، و ملعب مربيطر.

[ابن سعيد يذكر بعض عجائب الأندلس]

قال ابن سعيد: و فى الأندلس عجائب، منها الشجرة التى لو لا كثرة ذكر العامة لها بالأندلس ما ذكرتها، فإنّ خبرها عندهم شائع متواتر، و قد رأيت من يشهد بخبرها و رؤيتها، و هم جمّ غفير، و هى شجرة زيتون تصنع الورق و النّور و الثمر من يوم واحد معلوم عندهم من أيام السنة الشمسية.

و من العجائب: السارية التى بغرب الأندلس، يزعم الجمهور أنّ أهل ذلك المكان إذا أحبّوا المطر أقاموها فيمطر اللّه جهتهم.

و منها صنم قادس، طول ما كان قائما كان يمنع الريح أن تهبّ فى البحر المحيط فلا تستطيع المراكب الكبار على الجرى فيه، فلمّا هدم فى أول دولة بنى عبد المؤمن صارت السفن تجرى فيه.

و بكورة قبرة مغارة ذكرها الرازى و حكى أنه يقال: إنها باب من أبواب الريح لا يدرك لها قعر.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۷۰

و ذكر الرازى أن فى جهة قلعة ورد جبلا فيه شقّ فى صخرة داخل كهف فيه فأس حديد متعلّق من الشق الذى فى الصخرة، تراه العيون و تلمسه اليد، و من رام إخراجه لم يطق ذلك، و إذا رفعته اليد ارتفع و غاب فى شق الصخرة ثم يعود إلى حالته.

و أمّا ما أورده ابن بشكوال من الأحاديث و الآثار فى شأن فضل الأندلس و المغرب فقد ذكرها ابن سعيد فى كتابه المغرب، و لم أذكرها أنا، و اللّه أعلم بحقيقة أمرها، و كذلك ما ذكره ابن بشكوال من أنّ فتح القسطنطينية إنما يكون من قبل الأندلس، قال: و ذكره سيف عن عثمان بن عفّان، رضى اللّه تعالى عنه،- و اللّه أعلم بصحة ذلك- و لعلّ المراد بالقسطنطينية رومية، و اللّه أعلم.

قال سيف: و ذلك أن عثمان ندب جيشا من القيروان إلى الأندلس، و كتب لهم: أمّا بعد، فإنّ فتح القسطنطينية إنما يكون من قبل الأندلس، فإنكم إن فتحتموها كنتم الشركاء فى الأجر، و السلام، انتهى.

قلت: عهدة هذه الأمور على ناقلها، و أنا برىء من عهدتها، و إن ذكرها ابن بشكوال و صاحب المغرب و غير واحد فإنها عندى لا أصل لها، و أىّ وقت بعث عثمان إلى الأندلس؟

مع أن فتحها بالاتفاق إنما كان زمان الوليد، و إنما ذكرت هذا للتنبيه عليه، و اللّه أعلم.

[وصف ابن سعيد للأندلس]

قال ابن سعيد: و ميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار، فأكثرت فيها الخصب و العمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا- تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى و مياه و مزارع، و الصحارى فيها معدومة. و مما اختصّت به أنّ قراها فى نهاية من الجمال لتصنّع أهلها فى أوضاعها و تبييضها، لئلا تنبو العيون عنها، فهى كما قال الوزير ابن الحمارة فيها: [الكامل]

لاحت قراها بين خضرة أيكها كالدّرّ بين زبرجد مكنون

و لقد تعجّبت لمّا دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدّر العين بسوادها، و يضيق الصدر بضيق أوضاعها. و فى الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممصّرة من مثلها، و المثال فى ذلك أنك إذا توجّهت من إشبيلية فعلى مسيرة يوم و بعض آخر مدينة شريش، و هى فى نهاية من الحضارة و النّضارة، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك، ثم مالقة، و هذا كثير فى الأندلس، و لهذا كثرت مدنها و أكثرها مسوّر من أجل الاستعداد للعدوّ، فحصل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۷۱

لها بذلك التشييد و التزيين، و فى حصونها ما يبقى فى محاربة العدوّ ما يتيّف على عشرين سنة لامتناع معاقلها، و دربة أهلها على الحرب، و اعتيادهم لمجاورة العدوّ بالطّعن و الضرب، و كثرة ما تنخزن الغلة فى مطاميرها، فمنها ما يطول صبره عليها نحوا من مائة سنة. قال ابن سعيد:

و لذلك أدامها اللّه تعالى من وقت الفتح إلى الآن، و إن كان العدوّ قد نقصها من أطرافها، و شارك فى أوساطها ففى البقية منعة عظيمة، فأرض بقى فيها مثل إشبيلية و غرناطة و مالقة و المريّة و ما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة الممصّرة، الرجاء فيها قوىّ بحول اللّه و قوته، انتهى.

قلت: قد خاب ذلك الرجاء، و صارت تلك الأرجاء للكفر معرجا، و نسأل اللّه تعالى الذى جعل للهمّ فرجا، و للضيق مخرجا، أن يعيد

إليها كلمة الإسلام حتى يستنشق أهله منه فيها أرجا! آمين.

[بيلتا طليطلة]

و من غرائب الأندلس: البيلتان اللتان بطليطلة، صنعهما عبد الرحمن لمّا سمع بخبر الطّلّسم الذى بمدينة أرين من أرض الهند، و قد ذكره المسعودى، و أنه يدور بإصبعه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة فى بيت مجوّف فى جوف النهر الأعظم فى الموضع المعروف بباب الدباغين، و من عجبهما أنهما يمتلئان و ينحسران مع زيادة القمر و نقصانه، و ذلك أنّ أوّل انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء، فإذا أصبح كان فيهما ربع سبعهما من الماء، فإذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع، و لا يزال كذلك بين اليوم و الليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام و سبع ليال، فيكون فيهما نصفهما، و لا تزال كذلك الزيادة نصف سبع فى اليوم و الليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر، فإذا كان فى ليلة خمسة عشر و أخذ القمر فى النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يوم و ليلة نصف سبع، فإذا كان تسعة و عشرون من الشهر لا يبقى فيهما شىء من الماء، و إذا تكلّف أحد حين تنقصان أن يملأهما و جلب لهما الماء ابتلعا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما إلّا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۷۲

ما كان فيهما فى تلك الساعة، و كذا لو تكلّف عند امتلائهما إفراغهما و لم يبق منهما شيئا ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما فى الحين. و هما أعجب من طلّسم الهند؛ لأن ذلك فى نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار، و أما هاتان فليستا فى مكان الاعتدال، و لم تزالا فى بيت واحد حتى ملك النصارى- دمّرهم اللّه!- طليطلة، فأراد الفنش أن يعلم حركاتهما، فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتى إليها الماء، و كيف الحركة فيهما، فقلعت، فبطلت حركتهما، و ذلك سنة ۵۲۸. و قيل: إن سبب فسادهما حنين اليهودى الذى جلب حمام الأندلس كلها إلى طليطلة فى يوم واحد، و ذلك سنة ۵۲۷، و هو الذى أعلم الفنش أنّ ولده سيدخل قرطبة و يملكها، فأراد أن يكشف حركة البيلتين فقال له: أيها الملك، أنا أقلعهما و أردّهما أحسن ممّا كانتا، و ذلك أنى أجعلهما تمتلئان بالنهار و تحسران فى الليل، فلما قلعت لم يقدر على ردّها، و قيل: إنه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت، و لم تزل الأخرى تعطى حركتها، و اللّه أعلم بحقيقة الحال.

[عود إلى ذكر إشبيلية]

و قال بعضهم فى إشبيلية: إنها قاعدة بلاد الأندلس و حاضرتها، و مدينة الأدب و اللهو و الطرب، و هى على ضفة النهر الكبير، عظيمة الشأن، طيبة المكان، لها البرّ المديد، و البحر الساكن، و الوادى العظيم، و هى قريبة من البحر المحيط، إلى أن قال: و لو لم يكن لها من الشّرف إلّا موضع الشّرف المقابل لها المطل عليها المشهور بالزيتون الكثير الممتدّ فراسخ فى فراسخ لكفى، و بها منارة فى جامعها بناها يعقوب المنصور، ليس فى بلاد الإسلام أعظم بناء منها. و عسل الشرف يبقى حينا لا يترمّل و لا يتبدّل، و كذلك الزيت و التين.

و قال ابن مفلح: إن إشبيلية عروس بلاد الأندلس؛ لأنّ تاجها الشرف، و فى عنقها سمط النهر الأعظم، و ليس فى الأرض أتمّ حسنا من هذا النهر، يضاهى دجلة و الفرات و النّيل، تسير القوارب فيه للنزهة و السير و الصيد تحت ظلال الثمار، و تغريد الأطيار، أربعة و عشرين ميلا، و يتعاطى الناس السّرح من جانبيه عشرة فراسخ فى عمارة متصلة و منارات مرتفعة و أبراج مشيدة، و فيه من أنواع السمك ما لا يحصى. و بالجملة فهى قد حازت البرّ و البحر، و الزّرع و الضّرع، و كثرة الثمار من كل جنس، و قصب السكر، و يجمع منها القرمز الذى هو أجلّ من اللّكّ الهندى، و زيتونها يخزّن تحت الأرض أكثر من ثلاثين سنة، ثم يعتصر فيخرج منه أكثر ممّا يخرج منه و هو طرى، انتهى ملخصا.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۷۳

و لما ذكر ابن اليسع الأندلس قال: لا يتزوّد فيها أحد ماء حيث سلك؛ لكثرة أنهارها و عيونها، و ربما لقى المسافر فيها فى اليوم الواحد أربع مدائن، و من المعاقل و القرى ما لا يحصى، و هى بطاح خضر، و قصور بيض. انتهى.

[ابن سعيد يقارن بين الأندلس و غيرها]

قال ابن سعيد: و أنا أقول كلاما فيه كفاية: منذ خرجت من جزيرة الأندلس و طفت فى برّ العدوة، و رأيت مدنها العظيمة كمراكش و فاس و سلا و سبتة، ثم طفت فى إفريقية و ما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية و تونس، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية و القاهرة و الفسطاط، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق و حلب و ما بينهما- لم أر ما يشبه رونق الأندلس فى مياهها و أشجارها إلّا مدينة فاس بالمغرب الأقصى، و مدينة دمشق بالشام، و فى حماة مسحة أندلسية، و لم أر ما يشبهها فى حسن المبانى و التشييد و التصنيع، إلّا ما شيّد بمراكش فى دولة بنى عبد المؤمن، و بعض أماكن فى تونس، و إن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية، و لكن الإسكندرية أفسح شوارع و أبسط و أبدع، و مبانى حلب داخلة فيما يستحسن؛ لأنها من حجارة صلبة، و فى وضعها و ترتيبها إتقان، انتهى.

و من أحسن ما جاء من النظم فى الأندلس قول ابن سفر المرينى، و الإحسان له عادة:

[البسيط]

فى أرض أندلس تلتذّ نعماء و لا يفارق فيها القلب سرّاء

و ليس فى غيرها بالعيش منتفع و لا تقوم بحقّ الأنس صهباء

و أين يعدل عن أرض تحضّ بها على المدامة أمواه و أفياء

و كيف لا يبهج الأبصار رؤيتها و كلّ روض بها فى الوشى صنعاء

أنهارها فضّة، و المسك تربتها و الخزّ روضتها، و الدّرّ حصباء

و للهواء بها لطف يرقّ به من لا يرقّ، و تبدو منه أهواء

ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا و لا انتثار لآلى الطّلّ أنداء

و إنما أرج النّدّ استثار بها فى ماء ورد فطابت منه أرجاء

و أين يبلغ منها ما أصنّفه و كيف يحوى الذى حازته إحصاء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۷۴

قد ميّزت من جهات الأرض حين بدت فريدة و تولّى ميزها الماء

دارت عليها نطاقا أبحر خفقت وجدا بها إذ تبدّت و هى حسناء

لذاك يبسم فيها الزّهر من طرب و الطير يشدو و للأغصان إصغاء

فيها خلعت عذارى ما بها عوض فهى الرّياض، و كلّ الأرض صحراء

و للّه درّ ابن خفاجة حيث يقول: [الرمل]

إنّ للجنة بالأندلس مجتلى مرأى و ريّا نفس

فسنى صبحتها من شنب و دجى ظلمتها من لعس

فإذا ما هبّت الرّيح صبا صحت وا شوقى إلى الأندلس

و قد تقدمت هذه الأبيات.

قال ابن سعيد: قال ابن خفاجة هذه الأبيات و هو بالمغرب الأقصى فى برّ العدوة، و منزله فى شرق الأندلس بجزيرة شقر.

[وصف ابن حوقل لرخاء الأندلس و ردّ ابن سعيد على ابن حوقل]

و قال ابن سعيد فى المغرب ما نصه: قواعد من كتاب «الشهب الثاقبة، فى الإنصاف بين المشارقة و المغاربة» أول ما نقدّم الكلام على قاعدة السلطنة بالأندلس، فنقول: إنها مع ما بأيدى عبّاد الصّليب منها أعظم سلطنة كثرت ممالكها، و تشعّبت فى وجوه الاستظهار للسلطان إعانتها. و ندع كلامنا فى هذا الشأن، و ننقل ما قاله ابن حوقل النصيبى فى كتابه لمّا دخلها فى مدة خلافة بنى مروان بها فى المائة الرابعة، و ذلك أنه لمّا وصفها قال: و أما جزيرة الأندلس، فجزيرة كبيرة، طولها دون الشهر فى عرض نيّف و عشرين مرحلة، تغلب عليها المياه الجارية و الشجر و الثمر، و الرخص و السعة فى الأحوال من الرقيق الفاخر و الخصب الظاهر، إلى أسباب التملّك الفاشية فيها، و لما هى به من أسباب رغد العيش وسعته و كثرته، يملك ذلك منهم مهينهم و أرباب صنائعهم لقلّة مؤنتهم و صلاح معاشهم و بلادهم. ثم أخذ فى عظم سلطانها و وصف وفور جباياته و عظم مرافقه، و قال فى أثناء ذلك: و ممّا يدلّ بالقليل منه على كثيره أنّ سكة دار ضربه على الدراهم و الدنانير دخلها فى كل سنة مائتا ألف دينار، و صرف الدينار سبعة عشر درهما، هذا إلى صدقات البلد و جباياته و خراجاته و أعشاره و ضماناته و الأموال المرسومة على المراكب الواردة و الصادرة و غير ذلك.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۷۵

و ذكر ابن بشكوال أن جباية الأندلس بلغت فى مدّة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف ألف دينار و أربعمائة ألف و ثمانين ألفا، من السوق، و المستخلص سبعمائة ألف و خمسة و ستون ألف دينار.

ثم قال ابن حوقل: و من أعجب ما فى هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، و نقص عقولهم، و بعدهم من البأس و الشجاعة و الفروسية و البسالة، و لقاء الرجال، و مراس الأنجاد و الأبطال، مع علم أمير المؤمنين بمحلّها فى نفسها و مقدار جباياتها و مواقع نعمها و لذّاتها.

قال على بن سعيد مكمل هذا الكتاب: لم أر بدّا من إثبات هذا الفصل و إن كان على أهل بلدى فيه من الظلم و التعصّب ما لا يخفى، و لسان الحال فى الردّ أنطق من لسان البلاغة، و ليت شعرى إذا سلب أهل هذه الجزيرة العقول و الآراء و الهمم و الشجاعة فمن الذين دبّروها بآرائهم و عقولهم مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة و نيّف؟ و من الذين حموها ببسالتهم من الأمم المتّصلة بهم فى داخلها و خارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة فى نصرة الصليب؟ و إنى لأعجب منه إذ كان فى زمان قد دلفت فيه عبّاد الصليب إلى الشام و الجزيرة و عاثوا كل العيث فى بلاد الشام، حيث الجمهور و القبة العظمى، حتى أنهم دخلوا مدينة حلب، و ما أدراك؟ و فعلوا فيها ما فعلوا، و بلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة، إلى غير ذلك مما هو مسطور فى كتب التواريخ، و من أعظم ذلك و أشدّه أنهم كانوا يتغلّبون على الحصن من حصون الإسلام التى يتمكّنون بها من بسائط بلادهم، فيسبون و يأسرون، فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حسم الداء فى ذلك، و قد يستعين به بعضهم على بعض، فيتمكّن من ذلك الداء الذى لا يطبّ، و قد كانت جزيرة الأندلس فى ذلك الزمان بالضدّ من البلاد التى ترك وراء ظهره، و ذلك موجود فى تاريخ ابن حيّان و غيره، و إنما كانت الفتنة بعد ذلك، الأعلام بيّنة، و الطريق واضح.

[لمحة من تاريخ الحكم فى الأندلس منذ الفتح]

فلنرجع إلى ما نحن بسبيله: كانت سلطنة الأندلس فى صدر الفتح على ما تقدّم من اختلاف الولاة عليها من سلاطين إفريقية، و اختلاف الولاة داع إلى الاضطراب، و عدم تأثّل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۷۶

الأحوال و تربية الضخامة فى الدولة، و لمّا صارت الأندلس لبنى أمية و توارثوا ممالكها و انقاد إليهم كلّ أبىّ فيها و أطاعهم كلّ

عصىّ عظمت الدولة بالأندلس، و كبرت الهمم و ترتّبت الأحوال، و ترتّبت القواعد، و كانوا صدرا من دولتهم يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف، ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة، و ملكوا من برّ العدوة و ما ضخمت به دولتهم، و كانت قواعدهم إظهار الهيبة، و تمكّن الناموس من قلوب العالم، و مراعاة أحوال الشرع فى كل الأمور، و تعظيم العلماء، و العمل بأقوالهم، و إحضارهم فى مجالسهم، و استشارتهم، و لهم حكايات فى تاريخ ابن حيّان: منها ما هو مذكور من توجّه الحكم على خليفتهم أو على ابنه أو أحد حاشيته المختصّين، و أنهم كانوا فى نهاية من الانقياد إلى الحق لهم أو عليهم، و بذلك انضبط لهم أمر الجزيرة. و لما خرقوا هذا الناموس كان أول ما تهتّك أمرهم، ثم اضمحلّ، و كانت ألقاب الأول منهم الأمراء أبناء الخلائف، ثم الخلفاء أمراء المؤمنين، إلى أن وقعت الفتنة بحسد بعضهم لبعض، و ابتغاء الخلافة من غير وجهها الذى رتّبت عليه، فاستبدّت ملوك الممالك الأندلسية ببلادها، و سمّوا بملوك الطوائف، و كان فيهم من خطب للخلفاء المروانيين و إن لم يبق لهم خلافة، و منهم من خطب للخلفاء العباسيين المجمع على إمامتهم، و صار ملوك الطوائف يتباهون فى أحوال الملك، حتى فى الألقاب، فآل أمرهم إلى أن تلقّبوا بنعوت الخلفاء، و ترفّعوا إلى طبقات السلطنة العظمى، و ذلك بما فى جزيرتهم من أسباب الترفّه و الضخامة التى تتوزّع على ملوك شتى، فتكفيهم، و تنهض بهم للمباهاة. و لأجل توثّبهم على النعوت العباسية قال ابن رشيق القيروانى: [البسيط]

ممّا يزهّدنى فى أرض أندلس تلقيب معتضد فيها و معتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهرّ يحكى انتفاخا صولة الأسد

و كان عبّاد بن محمد بن عبّاد قد تلقّب بالمعتضد، و اقتفى سيرة المعتضد العباسى أمير المؤمنين، و تلقّب ابنه محمد بن عبّاد بالمعتمد، و كانت لبنى عبّاد مملكة إشبيلية ثم انضاف إليها غيرها.

و كان خلفاء بنى أميّة يظهرون للناس فى الأحيان على أبّهة الخلافة، و قانون لهم فى ذلك معروف، إلى أن كانت الفتنة، فازدرت العيون ذلك الناموس، و استخفّت به.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۷۷

و قد كان بنو حمّود من ولد إدريس العلوى الذين توثّبوا على الخلافة فى أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاظمون، و يأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بنى العباس، و كانوا إذا حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم يتكلّم من وراء حجاب، و الحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة، و لمّا حضر ابن مقانا الأشبونىّ أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودى الذى خطب له بالخلافة فى مالقة، و أنشده قصيدته المشهورة النونية التى منها قوله: [الرمل]

و كأنّ الشمس لمّا أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين

وجه إدريس بن يحيى بن علىّ بن حمّود أمير المؤمنين

و بلغ فيها إلى قوله:

انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور ربّ العالمين

رفع الخليفة الستر بنفسه، و قال: انظر كيف شئت؛ و انبسط مع الشاعر، و أحسن إليه.

و لما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسّطون للخاصّة و كثير من العامّة، و يظهرون مداراة الجند و عوام البلاد، و كان أكثرهم يحاضر العلماء و الأدباء، و يحبّ أن يشهر عنه ذلك عند مباديه فى الرياسة.

و مذ وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن إمام الجماعة، و صار فى كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك، و مرنوا على ذلك، فصعب ضبطهم إلى نظام واحد، و تمكّن العدوّ منهم بالتفرّق و عداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة و الطمع، إلى أن انقادوا إلى عبد المؤمن و بنيه، و تلك القواعد فى رؤوسهم كامنة، و الثوّار فى المعاقل تثور، و تروم الكرّة، إلى أن ثار ابن هود، و تلقّب بالمتوكّل، و وجد القلوب منحرفة عن دولة برّ العدوة، مهيأة للاستبداد، فملكها بأيسر

محاولـة، مع الجهـل المفرط و ضـعف الرأى، و كـان مع العامّـة كـأنه صاحب شـعوذة، يمشـى فى الأسواق و يضـحك فى وجوههم و يبادرهم بالسؤال. و جاء للناس منه ما لم يعتادوه من سلطان، فأعجب ذلك سفهاء الناس و عامّتهم العمياء، و كان كما قيل: [الوافر]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۷۸

أمور يضحك السفهاء منها و يبكى من عواقبها الحليم

فآل ذلك إلى تلف القواعـد العظيمة، و تملّك الأمصار الجليلة، و خروجها من يد الإسـلام و الضابط فيما يقال فى شأن أهل الأندلس فى السـلطان أنهم إذا وجدوا فارسا يبرع الفرسان أو جوادا يبرع الأجواد تهافتوا فى نصـرته، و نصـبوه ملكا من غير تدبير فى عاقبة الأمر إلام يؤول، و بعد أن يكون الملك فى مملكة قد تووثت و تدوولت، و يكون فى تلك المملكة قائد من قوّادها قد شـهرت عنه وقائع فى العـدوّ و ظهر منه كرم نفس للأجنـاد و مراعـاة، قـدّموه ملكـا فى حصن من الحصـون، و رفضـوا عيـالهم و أولادهم- إن كـان لهم ذلك- بكرسـىّ الملك، و لم يزالوا فى جهاد و إتلاف أنفس حتى يظفر صاحبهم بطلبته. و أهل المشـرق أصوب رأيا منهم فى مراعاة نظام الملك، و المحافظة على نصابه، لئلّا يدخل الخلل الذى يقضى باختلال القواعد و فساد التربية و حلّ الأوضاع.

و نحن نمثّل فى ذلك بما شاهـدناه: لمّا كانت هـذه الفتنـة الأخيرة بالأنـدلس تمخّضت عن رجل من حصن يقال له أرجونـة، و يعرف الرجل بابن الأحمر، كان يكثر مغاورة العدوّ من حصـنه، و ظهرت له مخايل و شواهد على الشـجاعة، إلى أن طار اسمه فى الأندلس، و آل ذلك إلى أن قدّمه أهل حصـنه على أنفسـهم، ثم نهض فملك قرطبة العظمى، و ملك إشبيلية، و قتل ملكها الباجىّ، و ملك جيّان أحصن بلـد بالأنـدلس و أجلّه قـدرا فى الامتناع، و ملك غرناطـة و مالقـة، و سـمّوه بأمير المسـلمين، فهو الآن المشار إليه بالأنـدلس و المعتمد عليه.

[الوزارة فى الأندلس]

و أمّا قاعـدة الوزارة بالأنـدلس، فإنها كانت فى مدة بنى أمية مشتركة فى جماعة يعيّنهم صاحب الدولة للإعانة و المشاورة، و يخصّهم بالمجالسة، و يختار منهم شـخصا لمكان النائب المعروف بالوزير فيسـمّيه بالحاجب، و كانت هذه المراتب لضـبطها عندهم كالمتوارثة فى البيوت المعلومـة لـذلك، إلى أن كانت ملوك الطوائف، فكان الملك منهم- لعظم اسم الحاجب فى الدولـة المروانيـة، و أنه كان نائبـا عـن خليفتهـم- يسـمّى بالحـاجب، و يرى أنّ هـذه السـمة أعظم مـا تنـوفس فيه و ظفر به، و هى موجـودة فى أمـداح شـعرائهم و تواريخهم. و صار اسم الوزارة عامّا لكلّ من يجالس الملوك و يختصّ بهم، و صار الوزير الذى ينوب عن الملك يعرف بذى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۷۹

الوزارتين، و أكثر ما يكون فاضلا فى علم الأدب، و قد لا يكون كذلك، بل عالما بأمور الملك خاصّة.

[الكتابة، و الخراج فى الأندلس، القضاء، و الشرطة]

و أما الكتابة فهى على ضربين: أعلاهما: كاتب الرسائل، و له حظ فى القلوب و العيون عند أهل الأندلس، و أشرف أسمائه الكاتب، و بهذه السّمة يخصّه من يعظمه فى رسالة.

و أهل الأنـدلس كثير و الانتقاد على صاحب هـذه السّـمة، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة، فإن كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جـاهه و لا- مكـانه من سـلطانه من تسـلّط الألسن فى المحافـل و الطّعن عليه و على صاحبه و الكاتب الآخر كاتب الزمام، هكـذا يعرفون كاتب الجهبـذة، و لا يكون بالأنـدلس و برّ العـدوة لا نصـرانيّا و لا يهوديّا البتّـة، إذا هـذا الشـغل نبيه يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس و وجوههم.

و صاحب الأشـغال الخراجيـة فى الأنـدلس أعظم من الوزير، و أكثر أتباعا و أصـحابا و أجـدى منفعة، فإليه تميل الأعناق، و نحوه تمدّ

الأكفّ، و الأعمال مضبوطة بالشهود و النظار، و مع هذا إن تأثّلت حالته و اغترّ بكثرة البناء و الاكتساب نكب و صودر، و هذا راجع إلى تقلّب الأحوال و كيفية السلطان.

و أما خطّة القضاء بالأندلس فهى أعظم الخطط عند الخاصّة و العامّة، لتعلّقها بأمور الدين، و كون السلطان لو توجّه عليه حكم حضر بين يدى القاضى، هذا وصفها فى زمان بنى أمية، و من سلك مسلكهم، و لا سبيل أن يتّسم بهذه السّمة إلّا من هو وال للحكم الشرعى فى مدينة جليلة، و إن كانت صغيرة فلا يطلق على حاكمها إلّا مسدّد، خاصة، و قاضى القضاة يقال له: قاضى القضاة، و قاضى الجماعة.

و أمّا خطة الشّرطة بالأندلس، فإنها مضبوطة إلى الآن، معروفة بهذه السّمة، و يعرف صاحبها فى ألسن العامّة بصاحب المدينة و صاحب الليل، و إذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان، و ذلك قليل، و لا يكون إلّا فى حضرة السلطان الأعظم، و هو الذى يحدّ على الزنى و شرب الخمر، و كثير من الأمور الشرعية راجع إليه، قد صارت تلك عادة تقرّر عليها رضا القاضى، و كانت خطة القاضى أوقر و أتقى عندهم من ذلك.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۸۰

[الحسبة فى الأندلس، الطواف بالليل، و التدين فى الأندلس]

و أما خطة الاحتساب، فإنها عندهم موضوعة فى أهل العلم و الفطن، و كأنّ صاحبها قاض، و العادة فيه أن يمشى بنفسه راكبا على الأسواق، و أعوانه معه، و ميزانه الذى يزن به الخبز فى يد أحد الأعوان؛ لأنّ الخبز عندهم معلوم الأوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم، و كذلك للثّمن، و فى ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبىّ الصغير أو الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق فى معرفة الأوزان، و كذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره، و لا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حدّ له المحتسب فى الورقة، و لا يكاد تخفى خيانته، فإن المحتسب يدسّ عليه صبيّا أو جارية يبتاع أحدهما منه، ثم يختبر الوزن المحتسب، فإن وجد نقصا قاس على ذلك حاله مع الناس، فلا تسأل عمّا يلقى، و إن كثر ذلك منه و لم يتب بعد الضرب و التجريس فى الأسواق نفى من البلد. و لهم فى أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها و يتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه؛ لأنها عندهم تدخل فى جميع المبتاعات و تتفرّع إلى ما يطول ذكره.

و أما خطة الطواف بالليل و ما يقابل من المغرب أصحاب أرباع فى المشرق، فإنهم يعرفون فى الأندلس بالدرّابين؛ لأنّ بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة، و لكل زقاق بائت فيه، له سراج معلّق و كلب يسهر و سلاح معدّ، و ذلك لشطارة عامّتها و كثرة شرّهم، و إعيائهم فى أمور التلصّص، إلى أن يظهروا على المبانى المشيدة، و يفتحوا الأغلاق الصعبة، و يقتلوا صاحب الدار خوف أن يقرّ عليهم أو يطالبهم بعد ذلك، و لا تكاد فى الأندلس تخلو من سماع «دار فلان دخلت البارحة» و «فلان ذبحه اللصوص على فراشه» و هذا يرجع التكثير منه و التقليل إلى شدّة الوالى و لينه، و مع إفراطه فى الشدّة و كون سيفه يقطر دما فإن ذلك لا يعدم، و قد آل الحال عندهم إلى أن قتلوا على عنقود سرقه شخص من كرم و ما أشبه ذلك، و لم ينته اللصوص.

و أمّا قواعد أهل الأندلس فى ديانتهم، فإنّها تختلف بحسب الأوقات و النظر إلى السلاطين، و لكن الأغلب عندهم إقامة الحدود، و إنكار التهاون بتعطيلها، و قيام العامّة فى ذلك و إنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان، و قد يلج السلطان فى شىء من ذلك و لا ينكره، فيدخلون عليه قصره المشيد و لا يعبؤون بخيله و رجله حتى يخرجوه من بلدهم، و هذا كثير فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۸۱

أخبارهم. و أمّا الرّجم بالحجر للقضاة و الولاة للأعمال إذا لم يعدلوا فكلّ يوم.

[التسول، و العلوم و الآداب فى الأندلس]

و أما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق فى الدّورة التى تكسل عن الكدّ و تخرج الوجوه للطلب فى الأسواق فمستقبحة عندهم إلى النهاية، و إذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبّوه و أهانوه، فضلا عن أن يتصدّقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلا إلّا أن يكون صاحب عذر.

و أما حال أهل الأندلس فى فنون العلوم، فتحقيق الإنصاف فى شأنهم فى هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميّز، فالجاهل الذى لم يوفّقه اللّه للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، و يربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس؛ لأنّ هذا عندهم فى نهاية القبح، و العالم عندهم معظّم من الخاصّة و العامّة، يشار إليه، و يحال عليه، و ينبه قدره و ذكره عند الناس، و يكرم فى جوار أو ابتياع حاجة، و ما أشبه ذلك.

و مع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرءون جميع العلوم فى المساجد بأجرة، فهم يقرءون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جاريا، فالعالم منهم بارع؛ لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذى يستفيد منه، و ينفق من عنده حتى يعلم، و كل العلوم لها عندهم حظ و اعتناء، إلّا الفلسفة و التنجيم، فإنّ لهما حظّا عظيما عند خواصّهم، و لا يتظاهر بها خوف العامّة، فإنه كلّما قيل «فلان يقرأ الفلسفة» أو «يشتغل بالتنجيم» أطلقت عليه العامّة اسم زنديق، و قيّدت عليه أنفاسه، فإن زلّ فى شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرّبا لقلوب العامّة، و كثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، و بذلك تقرّب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه و إن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن على ما ذكره الحجارى و اللّه أعلم. و قراءة القرآن بالسبع و رواية الحديث عندهم رفيعة، و للفقه رونق و وجاهة، و لا مذهب لهم إلّا مذهب مالك، و خواصّهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم. و سمة الفقيه عندهم جليلة، حتى إن المسلمين كانوا يسمّون الأمير العظيم منهم الذى يريدون تنويهه بالفقيه، و هى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق، و قد يقولون للكاتب و النحوى و اللغوى فقيه؛ لأنها عندهم أرفع السّمات.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۸۲

و علم الأصول عندهم متوسّط الحال، و النّحو عندهم فى نهاية من علوّ الطبقة، حتى إنهم فى هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل و سيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلّا جدّة، و هم كثيرو البحث فيه و حفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، و كل عالم فى أىّ علم لا يكون متمكّنا من علم النحو- بحيث لا تخفى عليه الدقائق- فليس عندهم بمستحقّ للتمييز، و لا سالم من الازدراء، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع فى الخواصّ و العوامّ كثير الانحراف عمّا تقتضيه أوضاع العربية، حتى لو أنّ شخصا من العرب سمع كلام الشلوبينى أبى علىّ المشار إليه بعلم النحو فى عصرنا الذى غرّبت تصانيفه و شرّقت و هو يقرئ درسه لضحك بملء فيه من شدّة التحريف الذى فى لسانه، و الخاصّ منهم إذا تكلّم بالإعراب و أخذ يجرى على قوانين النحو استثقلوه و استبردوه، و لكن ذلك مراعى عندهم فى القراءات و المخاطبات بالرسائل. و علم الأدب المنثور من حفظ التاريخ و النظم و النثر و مستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم، و به يتقرّب من مجالس ملوكهم و أعلامهم، و من لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۱؛ ص۱۸۲

الشعر عندهم له حظّ عظيم، و للشعراء من ملوكهم و جاهة، و لهم عليهم حظ و وظائف، و المجيدون منهم ينشدون فى مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، و يوقّع لهم بالصّلات على أقدارهم، إلّا أن يختلّ الوقت و يغلب الجهل فى حين ما، و لكن هذا الغالب.

و إذا كان الشخص بالأندلس نحويّا أو شاعرا فإنه يعظم فى نفسه لا محالة و يسخف و يظهر العجب، عادة قد جبلوا عليها.

[زىّ أهل الأندلس]

و أما زىّ أهل الأندلس، فالغالب عليهم ترك العمائم، لا سيما فى شرق الأندلس، فإنّ أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا و لا فقيها

مشارا إليه إلّا و هو بعمامة، و قد تسامحوا بشرقها فى ذلك، و لقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية حضرة السلطان فى ذلك الأوان، و إليه الإشارة، و قد خطب له بالملك فى تلك الجهة، و هو حاسر الرأس، و شيبه قد غلب على سواد شعره. و أما الأجناد و سائر الناس، فقليل منهم من تراه بعمّة فى شرق منها أو فى غرب، و ابن هود الذى ملك الأندلس فى عصرنا رأيته فى جميع أحواله ببلاد الأندلس و هو دون عمامة، و كذلك ابن الأحمر الذى معظم الأندلس الآن فى يده، و كثيرا ما يتزيّا سلاطينهم و أجنادهم بزيّ النصارى المجاورين لهم، فسلاحهم كسلاحهم، و أقبيتهم من الإشكرلاط و غيره كأقبيتهم، و كذلك أعلامهم و سروجهم.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۸۳

و محاربتهم بالتّراس و الرّماح الطويلة للطعن، و لا يعرفون الدبابيس، و لا قسىّ العرب، بل يعدون قسىّ الإفرنج للمحاصرات فى البلاد، أو تكون للرجّالة عند المصافة للحرب، و كثيرا ما تصبر الخيل عليهم أو تمهلهم لأن يؤثروها و لا تجد فى خواصّ الأندلس و أكثر عوامّهم من يمشى دون طيلسان، إلّا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلّا الأشياخ المعظّمون، و غفائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حمرا و خضرا؛ و الصّفر مخصوصة باليهود، و لا سبيل ليهودى أن يتعمّم البتّة، و الذؤابة لا يرخيها إلّا العالم، و لا يصرفونها بين الأكتاف، و إنّما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى. و هذه الأوضاع التى بالمشرق فى العمائم لا يعرفها أهل الأندلس، و إن رأوا فى رأس مشرقى داخل إلى بلادهم شكلا منها أظهروا التعجّب و الاستظراف، و لا يأخذون أنفسهم بتعليمها؛ لأنهم لم يعتادوا و لم يستحسنوا غير أوضاعهم، و كذلك فى تفصيل الثياب.

[نظافة الأندلسيين، و احتياطهم، و تدبيرهم، و مروءاتهم]

و أهل الأندلس أشدّ خلق اللّه اعتناء بنظافة ما يلبسون و ما يفرشون، و غير ذلك مما يتعلّق بهم، و فيهم من لا يكون عنده إلّا ما يقوته يومه، فيطويه صائما و يبتاع صابونا يغسل به ثيابه، و لا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها.

و هم أهل احتياط و تدبير فى المعاش و حفظ لما فى أيديهم خوف ذلّ السؤال، فلذلك قد ينسبون للبخل، و لهم مروءات على عادة بلادهم، لو فطن لها حاتم لفضّل دقائقها على عظائمه؛ و لقد اجتزت مع والدى على قرية من قراها، و قد نال منّا البرد و المطر أشدّ النّيل، فأوينا إليها، و كنّا على حال ترقّب من السلطان و خلوّ من الرفاهية، فنزلنا فى بيت شيخ من أهلها، من غير معرفة متقدّمة، فقال لنا: إن كان عندكم ما أشترى لكم فحما تسخنون به فإنى أمضى فى حوائجكم، و أجعل عيالى يقومون بشأنكم، فأعطيناه ما اشترى به فحما، فأضرم نارا، فجاء ابن له صغير ليصطلى، فضربه، فقال له والدى: لم ضربته؟ فقال: يتعلّم استغنام أموال الناس و الضّجر للبرد من الصغر، ثم لما جاء النوم قال لابنه: أعط هذا الشابّ كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه، فدفع كساءه إلىّ، ثم لما قمنا عند الصباح وجدت الصبىّ منتبها و يده فى الكساء، فقلت ذلك لوالدى، فقال: هذه مروءات أهل الأندلس، و هذا احتياطهم، أعطاك الكساء و فضّلك على نفسه، ثم أفكر فى أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لصّ، فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفا من انفصالك بها و هو نائم، و على هذا الشىء الحقير فقس الشىء الجليل؛ انتهى كلام ابن سعيد فى «المغرب» باختصار يسير.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۸۴

[منهج كتاب المغرب لابن سعيد]

و للّه درّه! فإنه أبدع فى هذا الكتاب ما شاء، و قسمه إلى أقسام: منها كتاب «و شى الطّرس، فى حلى جزيرة الأندلس» و هو ينقسم إلى أربعة كتب: الكتاب الأول كتاب «حلى العرس، فى حلى غرب الأندلس». الكتاب الثانى «كتاب الشّفاه اللّعس، فى حلى موسطة الأندلس». الكتاب الثالث كتاب «الأنس فى حلى شرق الأندلس». الكتاب الرابع كتاب «لحظات المريب، فى ذكر ما حماه من الأندلس عبّاد الصليب». و القسم الثانى كتاب «الألحان المسلية، فى حلى جزيرة صقلية» و هو أيضا ذو أنواع. و القسم الثالث كتاب

«الغاية الأخيرة، فى حلى الأرض الكبيرة» و هو أيضا ذو أقسام. و صوّر- رحمه اللّه تعالى!- أجزاء الأندلس فى كتاب «وشى الطّرس». و قال أيضا؛ إن كلّا من شرق الأندلس و غربها و وسطها يقرب فى قدر المساحة بعضه من بعض، و ليس فيها جزء يجاوز طوله عشرة أيام، ليصدق التثليث فى القسمة، و هذا دون ما بقى بأيدى النصارى. و قدّم- رحمه اللّه!- كتاب «حلى العرس، فى حلى غرب الأندلس»؛ لكون قرطبة قطب الخلافة المروانية و إشبيلية التى ما فى الأندلس أجمل منها فيه، و قسّمه إلى سبعة كتب، كل كتاب منها يحتوى على مملكة منحازة عن الأخرى: الكتاب الأول كتاب «الحلّة المذهّبة، فى حلى مملكة قرطبة». الكتاب الثانى كتاب «الذهبية الأصيلية، فى حلى المملكة الإشبيلية». الكتاب الثالث كتاب «خدع الممالقة، فى حلى مملكة مالقة». الكتاب الرابع كتاب «الفردوس، فى حلى مملكة بطليوس». الكتاب الخامس كتاب «الخلب، فى حلى مملكة شلب». الكتاب السادس كتاب «الديباجة، فى حلى مملكة باجة». الكتاب السابع كتاب «الرياض المصونة، فى حلى مملكة أشبونة». و قد ذكر- رحمه اللّه تعالى-! فى كل قسم ما يليق به، و صوّر أجزاءه على ما ينبغى، فاللّه يجازيه خيرا! و الكلام فى الأندلس طويل عريض.

[وصف بعض المؤرخين للأندلس]

و قال بعض المؤرخين: طول الأندلس ثلاثون يوما، و عرضها تسعة أيام، و يشقّها أربعون نهرا كبارا، و بها من العيون و الحمّامات و المعادن ما لا يحصى، و بها ثمانون مدينة من القواعد الكبار، و أزيد من ثلاثمائة من المتوسطة، و فيها من الحصون و القرى و البروج ما لا يحصى كثرة، حتى قيل: إنّ عدد القرى التى على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية، و ليس فى معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن و أربعا من يومه إلّا بالأندلس، و من بركتها أنّ المسافر لا يسافر فيها فرسخين دون ماء أصلا، و حيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت فى الفلوات و الصحارى و الأودية و رؤوس الجبال لبيع الخبز و الفواكه و الجبن و اللحم و الحوت و غير ذلك من ضروب الأطعمة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۸۵

و ذكر صاحب الجغرافيا أن جزيرة الأندلس مسيرة أربعين يوما طولا فى ثمانية عشر يوما عرضا، و هو مخالف لما سبق.

و قال ابن سيده: أخذت الأندلس فى عرض الإقليمين الخامس و السادس من البحر الشامى فى الجنوب إلى البحر المحيط فى الشمال، و بها من الجبال سبعة و ثمانون جبلا، انتهى.

[مقطعات فى وصف الأندلس]

و لبعضهم: [الكامل]

للّه أندلس و ما جمعت بها من كلّ ما ضمّت لها الأهواء

فكأنما تلك الديار كواكب و كأنما تلك البقاع سماء

و بكلّ قطر جدول فى جنّة ولعت بها الأفياء و الأنداء

و قال غيره: [البسيط]

فى أرض أندلس تلتذّ نعماء و لا يفارق فيها القلب سرّاء

و ليس فى غيرها بالعيش منتفع و لا تقوم بحقّ الأنس صهباء

و أين يعدل عن أرض يحضّ بها على الشهادة أزواج و أبناء

و أين يعدل عن أرض تحثّ بها على المدامة أمواه و أفياء

و كيف لا تبهج الأبصار رؤيتها و كلّ أرض بها فى الوشى صنعاء

أنهارها فضّة، و المسك تربتها و الخزّ روضتها، و الدّرّ حصباء

و للهواء بها لطف يرقّ به من لا يرقّ، و تبدو منه أهواء

ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا و لا انتشار لآلى الطّلّ أنداء

و إنّما أرج النّدّ استثار بها فى ماء ورد فطابت منه أرجاء

و أين يبلغ منها ما أصنّفه و كيف يحوى الذى حازته إحصاء

قد ميّزت من جهات الأرض ثم بدت فريدة، و تولّى ميزها الماء

دارت عليها نطاقا أبحر خفقت وجدا بها إذ تبدّت و هى حسناء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۸۶

لذاك يبسم فيها الزّهر من طرب و الطّير يشدو، و للأغصان إصغاء

فيها خلعت عذارى ما بها عوض فهى الرياض، و كلّ الأرض صحراء

و قد تقدمت هذه القصيدة.

و قال آخر: [الرمل]

حبّذا أندلس من بلد لم تزل تنتج لى كلّ سرور

طائر شاد، و ظلّ وارف و مياه سائحات و قصور

و قال آخر: [الكامل]

يا حسن أندلس و ما جمعت لنا فيها من الأوطار و الأوطان

تلك الجزيرة لست أنسى حسنها بتعاقب الأحيان و الأزمان

نسج الربيع نباتها من سندس موشيّة ببدائع الألوان

و غدا النسيم بها عليلا هائما بربوعها و تلاطم البحران

يا حسنها و الطلّ ينثر فوقها دررا خلال الورد و الرّيحان

و سواعد الأنهار قد مدّت إلى ندمائها بشقائق النّعمان

و تجاوبت فيها شوادى طيرها و التفّت الأغصان بالأغصان

ما زرتها إلّا و حيّانى بها حدق البهار و أنمل السّوسان

من بعدها ما أعجبتنى بلدة مع ما حللت به من البلدان

[من خصائص الأندلس]

و حكى بعضهم أنّ بالجامع من مدينة أقليش بلاطا فيه جوائز منشورة مربعة مستوية الأطراف، طول الجائزة منها مائة شبر و أحد عشر شبرا.

و فى الأندلس جبل، من شرب من مائه كثر عليه الاحتلام، من غير إرادة و لا تفكّر، و فيها غير ذلك مما يطول ذكره، و اللّه أعلم.

و لنمسك العنان فى هذا الباب، فإنّ بحر الأندلس طويل مديد، و ربما كررنا الكلام لارتباط بعضه ببعض، أو لنقل صاحبه المروى عنه، أو لاختلاف ما، أو غير ذلك من غرض سديد.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۸۷

الباب الثانى فتح الأندلس

[فتح الأندلس و أسبابه]

فى إلقاء الأندلس للمسلمين بالقياد، و فتحها على يد موسى بن نصير و مولاه طارق بن زياد، و صيرورتها ميدانا لسبق الجياد، و محطّ رحل الارتياء و الارتياد، و ما يتبع ذلك من خبر حصل بازديانه ازدياد، و نبإ وصل إليه اعتيام و تقرّر بمثله اعتياد.

اعلم أنه لما قضى اللّه سبحانه بتحقيق قول رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلّم: «زويت لى مشارق الأرض و مغاربها، و سيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها» وقع الخلاف بين لذريق ملك القوط و بين ملك سبتة الذى على مجاز الزّقاق، فكان ما يذكر من فتح الأندلس على يد طارق و طريف و مولاهما الأمير موسى بن نصير، رحم اللّه الجميع!.

و ذكر الحجارى و ابن حيّان و غيرهما أن أوّل من دخل جزيرة الأندلس من المسلمين برسم الجهاد طريف البربرىّ مولى موسى بن نصير الذى تنسب إليه جزيرة طريف التى على المجاز، غزاها بمعونة صاحب سبتة يليان النصرانى، لحقده على لذريق صاحب الأندلس، و كان فى مائة فارس و أربعمائة راجل، جاز البحر فى أربعة مراكب، فى شهر رمضان سنة إحدى و تسعين، و انصرف بغنيمة جليلة، فعقد موسى بن نصير صاحب المغرب لمولاه طارق بن زياد على الأندلس، و وجّهه مع يليان صاحب سبتة، انتهى.

و سيأتى فى أمر طريف و غيره ما يخالف هذا السياق، و هى أقوال.

و قال ابن حيّان: إن أول أسباب فتح الأندلس كان أن ولّى الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير مولى عمّه عبد العزيز على إفريقية و ما خلفها سنة ثمان و ثمانين فخرج فى نفر قليل من المطّوّعة، فلما ورد مصر أخرج معه من جندها بعثا، و فعل ذلك فى إفريقية،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۸۸

و جعل على مقدّمته مولاه طارقا، فلم يزل يقاتل البربر و يفتح مدائنهم، حتى بلغ مدينة طنجة، و هى قصبة بلادهم و أمّ مدائنهم، فحصرها حتى فتحها، و أسلم أهلها، و لم تكن فتحت قبله، و قيل: بل فتحت ثم استغلقت.

و ذكر ابن حيّان أيضا استصعاب سبتة على موسى بتدبير صاحبها الداهية الشجاع يليان النصرانى، و أنه فى أثناء ذلك وقع بينه و بين لذريق صاحب الأندلس، ثم سرد ما يأتى ذكره.

و قال لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه: و حديث الفتح، و ما منّ اللّه به على الإسلام من المنح، و أخبار ما أفاء اللّه من الخير، على موسى بن نصير، و كتب من جهاد، لطارق بن زياد، مملول قصّاص و أوراق، و حديث أفول و إشراق، و إرعاد و إبراق، و عظم امتشاش، و آلة معلّقة فى دكان قشّاش، انتهى.

و قال فى المغرب: طارق بن زياد من إفريقية.

و قال ابن بشكوال: إنه طارق بن عمرو، فتح جزيرة الأندلس و دوّخها، و إليه ينسب جبل طارق الذى يعرفه العامّة بجبل الفتح، فى قبلة الجزيرة الخضراء، و رحل مع سيّده بعد فتح الأندلس إلى الشام و انقطع خبره، انتهى.

و قال أيضا: إن طارقا كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه، و أما المعارف السلطانية فيكفيه ولاية سلطنة الأندلس و ما فتح فيها من البلاد إلى أن وصل سيده موسى بن نصير.

و من تاريخ ابن بشكوال: احتل طارق بالجبل المنسوب إليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين و تسعين فى اثنى عشر ألفا غير اثنى عشر رجلا من البربر، و لم يكن فيهم من العرب إلّا شىء يسير، و إنه لمّا ركب البحر رأى، و هو نائم، النبىّ، صلّى اللّه عليه و سلّم، و حوله المهاجرون و الأنصار قد تقلّدوا السيوف و تنكّبوا القسىّ، فيقول له رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلّم: «يا طارق، تقدّم لشأنك»، و نظر إليه و إلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدّامه، فهبّ من نومه مستبشرا، و بشّر أصحابه، و ثابت نفسه ببشراه، و لم يشكّ فى الظفر، فخرج من الجبل، و اقتحم بسيط البلد شانّا للغارة، و أصاب عجوزا من أهل الجزيرة فقالت له فى بعض قولها: إنه كان لها

زوج عالم بالحدثان، فكان يحدّثهم عن أمير يدخل إلى بلدهم هذا فيغلب عليه، و يصف من نعته أنه ضخم الهامة، فأنت كذلك، و منها أن فى كتفه الأيسر شامة عليها شعر، فإن كانت فيك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۸۹

فأنت هو، فكشف ثوبه فإذا بالشامة فى كتفه على ما ذكرت، فاستبشر بذلك و من معه.

و من تاريخ ابن حيّان: لما حرّض يليان النصرانى صاحب سبتة للأمر الذى وقع بينه و بين صاحب الأندلس موسى بن نصير على غزو الأندلس جهّز لها مولاه طارقا المذكور فى سبعة آلاف من المسلمين، جلّهم البربر، فى أربع سفن، و حطّ بجبل طارق المنسوب إليه يوم السبت فى شعبان سنة اثنتين و تسعين، و لم تزل المراكب تعود حتى توافى جميع أصحابه عنده بالجبل، قال: و وقع على لذريق صاحب الأندلس الخبر، و أنّ يليان السبب فيه، و كان يومئذ غازيا فى جهة البشكنس، فبادر فى جموعه و هم نحو مائة ألف ذوى عدّة و عدد، و كتب طارق إلى موسى بأنه قد زحف عليه لذريق بما لا طاقة له به، و كان عمل من السفن عدّة، فجهّز له فيها خمسة آلاف من المسلمين، فكملوا بمن تقدّم اثنى عشر ألفا، و معهم يليان صاحب سبتة فى حشده يدلّهم على العورات، و يتجسّس لهم الأخبار، و أقبل نحوهم لذريق و معه خيار العجم و أملاكها و فرسانها، و قلوبهم عليه، فتلاقوا فيما بينهم، و قالوا؛ إن هذا الخبيث غلب على سلطاننا، و ليس من بيت الملك، و إنّما كان من أتباعنا، و لسنا نعدم من سيرته خبالا و اضطرابا، و هؤلاء القوم الذين طرقوا لا حاجة لهم فى إيطان بلدنا، و إنّما مرادهم أن يملئوا أيديهم من الغنائم و يخرجوا عنّا، فهلمّ فلننهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم، فلعلّهم يكفوننا أمره، فإذا هم انصرفوا عنّا أقعدنا فى ملكنا من يستحقه، فأجمعوا على ذلك، انتهى.

[رواية ابن خلدون فى فتح الأندلس و بعض أمراؤها]

و قال ابن خلدون: بعد ذكره أن القوطيين كان لهم ملك الأندلس، و أن ملكهم لعهد الفتح يسمّى لذريق. ما نصّه: «و كانت لهم خطوة وراء البحر فى هذه العدوة الجنوبية خطوها من فرضة المجاز بطنجة، و من زقاق البحر إلى بلاد البربر، و استعبدوهم. و كان ملك البربر بذلك القطر الذى هو اليوم جبال غمارة يسمى يليان، فكان يدين بطاعتهم و بملّتهم، و موسى بن نصير أمير المغرب إذ ذاك عامل على إفريقية من قبل الوليد بن عبد الملك، و منزله بالقيروان. و كان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى، و دوّخ أقطاره، و أثخن فى جبال طنجة هذه حتى وصل خليج الزّقاق، و استنزل يليان لطاعة الإسلام، و خلّف مولاه طارق بن زياد الليثى واليا بطنجة، و كان يليان ينقم على لذريق ملك القوط لعهده بالأندلس فعلة فعلها زعموا بابنته الناشئة فى داره على عادتهم فى بنات بطارقتهم، فغضب لذلك، و أجاز إلى لذريق، و أخذ ابنته منه. ثم لحق بطارق فكشف للعرب عورة القوط و دلّهم على عورة فيهم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۹۰

أمكنت طارقا فيها الفرصة فانتهزها لوقته، و أجاز البحر سنة اثنتين و تسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصير فى نحو ثلاثمائة من العرب، و احتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف، فصيّرهما عسكرين؛ أحدهما على نفسه و نزل به جبل الفتح، فسمّى جبل طارق به، و الآخر على طريف بن مالك النخعى، و نزل بمكان مدينة طريف، فسمّى به، و أداروا الأسوار على أنفسهم للتحصّن. و بلغ الخبر إلى لذريق فنهض إليهم يجرّ أمم الأعاجم و أهل ملّة النصرانية فى زهاء أربعين ألفا، و زحفوا إليه، فالتقوا بفحص شريش، فهزمه اللّه و نفلهم أموال أهل الكفر و رقابهم. و كتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح و بالغنائم، فحرّكته الغيرة، و كتب إلى طارق يتوعّده إن توغّل بغير إذنه، و يأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، و استخلف على القيروان ولده عبد اللّه، و خرج معه حبيب بن منده الفهرى. و نهض من القيروان سنة ثلاث و تسعين من الهجرة فى عسكر ضخم من وجوه العرب الموالى و عرفاء البربر، و وافى خليج الزّقاق ما بين طنجة و الجزيرة الخضراء، فأجاز إلى الأندلس، و تلقّاه طارق فانقاد و اتبع، و أتمّ موسى الفتح، و توغّل فى الأندلس إلى

برشلونة فى جهة الشرق و أربونة فى الجوف، و صنم قادس فى الغرب، و دوّخ أقطارها، و جمع غنائمها. و أجمع أن يأتى المشرق من ناحية القسطنطينية، و يتجاوز إلى الشام دروبه و دروب الأندلس، و يخوض بينهما من أمم الأعاجم النصرانية، مجاهدا فيهم، مستلحما لهم، إلى أن يلحق بدار الخلافة. و نمى‌الخبر إلى الوليد فاشتدّ قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، و رأى أنّ ما همّ به موسى غرر بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ و الانصراف. و أسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع، و كتب له بذلك عهده، ففتّ ذلك فى عزم موسى، و قفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة و الحامية بثغورها، و أنزل ابنه عبد العزيز لسدّها و جهاد عدوّها، و أنزله بقرطبة فاتّخذها دار إمارة، و احتلّ موسى بالقيروان سنة خمس و تسعين، و ارتحل إلى المشرق سنة ستّ بعدها بما كان معه من الغنائم و الذخائر و الأموال على العجل و الظّهر. يقال: إن من جملتها ثلاثين ألف رأس من السّبى، و ولّى على إفريقية ابنه عبد اللّه، و قدم على سليمان بن عبد الملك فسخطه و نكبه. و ثارت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز بإغراء سليمان فقتلوه لسنتين من ولايته، و كان خيّرا فاضلا، و افتتح فى ولايته مدائن كثيرة. و ولى من بعده أيوب بن حبيب اللخمى، و هو ابن أخت موسى بن نصير، فولى عليها ستة أشهر. ثم تتابعت ولاة العرب على الأندلس؛ تارة من قبل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۹۱

الخليفة، و تارة من قبل عامله بالقيروان، و أثخنوا فى أمم الكفر، و افتتحوا برشلونة من جهة المشرق، و حصون قشتالة و بسائطها من جهة الجوف، و انقرضت أمم القوط، و أوى الجلالقة و من بقى من أمم العجم إلى جبال قشتالة و أربونة و أفواه الدّروب فتحصّنوا بها، و أجازت عساكر المسلمين ما وراء برشلونة من دروب الجزيرة حتى احتلّوا البسائط وراءها، و توغّلوا فى بلاد الفرنجة، و عصفت ريح الإسلام بأمم الكفر من كل جهة، و ربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف و تنازع أوجد للعدوّ بعض الكرّة، فرجّع الإفرنج ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد برشلونة لعهد ثمانين سنة من لدن فتحها، و استمرّ الأمر على ذلك».

و كان محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان بن عبد الملك- لمّا بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير- بعث إلى الأندلس الحرّ بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفى، فقدم الأندلس، و عزل أيوب بن حبيب، و ولى سنتين و ثمانية أشهر.

ثم بعث عمر بن عبد العزيز على الأندلس السّمح بن مالك الخولانى على رأس المائة من الهجرة، و أمره أن يخمس أرض الأندلس، فخمسها، و بنى قنطرة قرطبة، و استشهد غازيا بأرض الفرنجة سنة اثنتين و مائة، فقدّم أهل الأندلس عليهم عبد الرحمن بن عبد اللّه الغافقى إلى أن قدم عنبسة بن سحيم الكلبى من قبل يزيد بن أبى مسلم عامل إفريقية، فقدمها فى صفر سنة ثلاث و مائة، فاستقام أمر الأندلس، و غزا الفرنجة، و توغّل فى بلادهم، و استشهد سنة سبع و مائة لأربع سنين و أربعة أشهر».

[ولاة الأمراء و أمراؤها]

ثم تتابعت ولاة الأندلس من قبل أمراء إفريقية، فكان أولهم يحيى بن سلمة الكلبى، أنفذه بشر بن صفوان الكلبى والى إفريقية، لمّا استدعى منه أهل الأندلس واليا بعد مقتل عنبسة، فقدمها آخر سنة سبع، و أقام فى ولايتها سنتين و نصفا، و لم يغز، و قدم إليها عثمان بن أبى نسعة اللخمى واليا من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السّلمى صاحب إفريقية، و عزله لخمسة أشهر بحذيفة بن الأحوص القيسى فوافاها سنة عشر، و عزل قريبا يقال: لسنة من ولايته، و اختلف: هل تقدّمه عثمان أو هو تقدّم عثمان؟ ثم ولى بعده الهيثم بن عبيد الكلابى من قبل عبيدة بن عبد الرحمن أيضا، قدم فى المحرم سنة إحدى عشرة، و غزا أرض مقوشة فافتتحها.

و توفى سنة ثلاث عشرة و مائة لسنتين من ولايته، و قدم بعده محمد بن عبد اللّه الأشجعى،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۹۲

فولى شهرين، ثم قدم عبد الرحمن بن عبد اللّه الغافقى من قبل عبيد اللّه بن الحبحاب صاحب إفريقية، فدخلها سنة ثلاث عشرة، و غزا الإفرنجة، و كانت له فيهم وقائع، و أصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة، فى موضع يعرف ببلاط الشهداء، و به عرفت الغزوة، و

كانت ولايته سنة و ثمانية أشهر، ثم ولى عبد الملك بن قطن الفهرى، و قدم فى رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين.- و قال الواقدى: أربع سنين- و كان ظلوما جائرا فى حكومته، و غزا أرض البشكنس سنة خمس عشرة و مائة، فأوقع بهم و غنم، ثم عزل فى رمضان سنة ست عشرة، و ولى عقبة بن الحجاج السّلولى من قبل عبيد اللّه بن الحبحاب، فأقام خمس سنين محمود السّيرة مجاهدا مظفّرا، حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة، و صار رباطهم على نهر ردونة. ثم وثب عليه عبد الملك بن قطن الفهرى سنة إحدى و عشرين، فخلعه و قتله. و يقال: أخرجه من الأندلس و ولى مكانه إلى أن دخل بلج بن بشر بأهل الشام سنة أربع و عشرين، فغلب عليه، و ولى الأندلس سنة أو نحوها»..

و قال الرازى: ثار أهل الأندلس بأميرهم عقبة فى صفر سنة ثلاث و عشرين فى خلافة هشام بن عبد الملك، و ولّوا عليهم عبد الملك بن قطن ولايته الثانية، فكانت ولاية عقبة ستة أعوام و أربعة أشهر. و توفى بقرمونة فى صفر سنة ثلاث و عشرين، و استقام الأمر لعبد الملك.

ثم دخل بلج بن بشر القشيرى بجند الشام ناجيا من وقعة كلثوم بن عياض مع البربر بملوية، فثار على عبد الملك، و قتله و هو ابن سبعين سنة، و استوثق له الأمر بعد مقتل عبد الملك، و انحاز الفهريون إلى جانب، فامتنعوا عليه، و كاشفوه، و اجتمع إليهم من أنكر فعلته بابن قطن، و قام بأمرهم قطن و أميّة ابنا عبد الملك بن قطن، و التقوا، فكانت الدائرة على الفهريين، و هلك بلج من الجراح التى نالته فى حربهم، و ذلك سنة أربع و عشرين لسنة أو نحوها من إمارته، ثم ولى ثعلبة بن سلامة الجذامى، و غلب على إمارة الأندلس بعد مهلك بلج، و انحاز عنه الفهريون فلم يطيعوه، و ولى سنتين أظهر فيهما العدل و دانت له الأندلس عشرة أشهر، إلى أن مالت به العصبية فى يمانيته، ففسد أمره، و هاجت الفتنة. و قدم أبو الخطّار حسام بن ضرار الكلبى من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية؛ ركب إليها البحر من تونس سنة خمس و عشرين، فدان له أهل الأندلس و أقبل إليه ثعلبة و ابن أبى نسعة و ابنا عبد الملك، فلقيهم و أحسن إليهم، و استقام أمره. و كان شجاعا كريما ذا رأى و حزم، و كثر أهل الشام عنده، و لم تحملهم قرطبة، ففرّقهم فى البلاد، و أنزل أهل دمشق إلبيرة لشبهها بها، و سمّاها دمشق، و أنزل أهل حمص إشبيلية، و سمّاها حمص، و أهل قنّسرين جيّان، و سمّاها قنّسرين، و أهل الأردنّ ريّة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۹۳

و مالقة، و سمّاها الأردنّ، و أهل فلسطين شذونة- و هى شريش- و سمّاها فلسطين، و أهل مصر تدمير، و سمّاها مصر. و قفل ثعلبة إلى المشرق، و لحق بمروان بن محمد، و حضر حروبه، و كان أبو الخطار أعرابيّا عصبيّا أفرط عند ولايته فى التعصّب لقومه من اليمانية، و تحامل على المضرية، و أسخط قيسا، و أمر فى بعض الأيام بالصّميل بن حاتم كبير القيسية- و كان من طوالع بلج، و هو الصميل بن حاتم بن شمر بن ذى الجوشن، و رأس على المضرية- فأقيم من مجلسه، و تقنّع، فقال له بعض الحجّاب و هو خارج من القصر: أقم عمامتك يا أبا الجوشن، فقال: إن كان لى قوم فسيقيمونها، فسار الصميل بن حاتم أميرهم يومئذ و زعيمهم، و ألّب عليه قومه، و استعان بالمنحرفين عنه من اليمانية، فخلع أبو الخطار سنة ثمان و عشرين لأربع سنين و تسعة أشهر من ولايته، و قدّم مكانه ثوابة بن سلامة الجذامى، و هاجت الحرب المشهورة. و خاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب إفريقية، فكتب إلى ثوابة بعهده على الأندلس، منسلخ رجب سنة تسع و عشرين، فضبط الأندلس، و قام بأمره الصّميل، و اجتمع عليه الفريقان. و هلك لسنة من ولايته. و وقع الخلاف بإفريقية، و التاث أمر بنى أمية بالمشرق، و شغلوا عن قاصية الثغور بكثرة الخوارج، و عظم أمر المسوّدة فبقى أهل الأندلس فوضى، و نصبوا للأحكام خاصّة عبد الرحمن بن كثير. ثم اتفق جند الأندلس على اقتسام الإمارة بين المضريّة و اليمانيّة و إدالتها بين الجندين سنة لكل دولة. و قدّم المضريّة على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى سنة تسع و عشرين، و استتمّ سنة ولايته بقرطبة دار الإمارة. ثم وافته اليمانية لميعاد إدالتهم واثقين بمكان عهدهم و تراضيهم و اتفاقهم، فبيّتهم يوسف بمكان نزولهم من شقندة فى قرى قرطبة بممالأة من الصّميل بن حاتم و القيسية و سائر المضرية، فاستلحموهم، و ثار أبو الخطار فقاتله الصّميل و

هزمه و قتله سنة تسع و عشرين، و استبدّ يوسف بما وراء البحر من عدوة الأندلس، و غلب اليمنية على أمرهم، فاستكانوا لغلبه، و تربّصوا الدوائر إلى أن جاء عبد الرحمن الداخل. و كان يوسف ولّى الصميل سرقسطة، فلما ظهر أمر المسوّدة بالمشرق ثار الحباب الزهريّ بالأندلس داعيا لهم، و حاصر الصميل بسرقسطة، و استمدّ يوسف، فلم يمدّه رجاء هلاكه لما كان يغصّ به. و أمدّته القيسية،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۹۴

فأفرج عنه الحباب، و فارق الصميل سرقسطة فملكها الحباب، و ولّى يوسف الصميل على طليطلة إلى أن كان من عبد الرحمن الداخل ما كان. انتهى كلام وليّ الدين بن خلدون ببعض اختصار و قال بعض المؤرخين: إن عبد اللّه بن مروان أخا عبد الملك كان واليا على مصر و إفريقية، فبعث إليه ابن أخيه الوليد الخليفة يأمره بإرسال موسى بن نصير إلى إفريقية، و ذلك سنة سبع و ثمانين للهجرة، فامتثل أمره فى ذلك.

[رواية الحميدى للفتح]

و قال الحميديّ فى «جذوة المقتبس»: إن موسى بن نصير ولّى إفريقية و المغرب سنة سبع و سبعين فقدمها و معه جماعة من الجند، فبلغه أن بأطراف البلاد من هو خارج عن الطاعة، فوجّه ولده عبد اللّه، فأتاه بمائة ألف رأس من السبايا، ثم ولده مروان إلى جهة أخرى، فأتاه بمائة ألف رأس. و قال الليث بن سعد: بلغ الخمس ستين ألف رأس. و قال الصّدفى: لم يسمع فى الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير. و وجد أكثر مدن إفريقية خالية لاختلاف أيدى البربر عليها، و كانت البلاد فى قحط شديد، فأمر الناس بالصوم و الصلاة و إصلاح ذات البين، و خرج بهم إلى الصحراء و معه سائر الحيوانات، و فرّق بينها و بين أولادها، فوقع البكاء و الصّراخ و الضجيج، و أقام على ذلك إلى منتصف النهار، ثم صلّى و خطب الناس و لم يذكر الوليد بن عبد الملك، فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين؟ فقال: هذا مقام لا يدعى فيه لغير اللّه تعالى، فسقوا حتى رووا. ثم خرج موسى غازيا، و تتّبع البربر، و قتل فيهم قتلا ذريعا، و سبى سبيا عظيما، و سار حتى انتهى إلى السّوس الأدنى لا يدافعه أحد. فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا، و بذلوا له الطاعة، فقبل منهم، و ولّى عليهم واليا، و استعمل على طنجة و أعمالها مولاه طارق بن زياد البربرى، و يقال: إنه من الصّدف، و ترك عنده تسعة عشر ألفا من البربر بالأسلحة و العدّة الكاملة، و كانوا قد أسلموا و حسن إسلامهم، و ترك موسى عندهم خلقا يسيرا من العرب ليعلّموا البربر القرآن و فرائض الإسلام، و رجع إلى إفريقية، و لم يبق بالبلاد من ينازعه من البربر و لا من الروم. و لما استقرّت له القواعد كتب إلى طارق و هو بطنجة يأمره بغزو بلاد الأندلس فغزاها فى اثنى عشر ألفا من البربر خلا اثنى عشر رجلا، و صعد على الجبل المنسوب إليه يوم الاثنين خامس رجب سنة اثنتين و تسعين، و ذكر عن طارق أنه كان نائما فى المركب وقت التعدية، فرأى النبيّ، صلّى اللّه عليه و سلّم، و أمره بالرفق بالمسلمين و الوفاء بالعهد، هكذا ذكر ابن بشكوال. و قيل: إن موسى ندم على تأخّره، و علم أنّ طارقا إن فتح شيئا نسب الفتح إليه دونه، فأخذ فى جمع العساكر، و ولّى على القيروان ابنه عبد اللّه، و تبع طارقا فلم يدركه إلّا بعد الفتح، و قال بعض العلماء: إن موسى بن نصير كان عاقلا شجاعا كريما تقيّا للّه تعالى، و لم يهزم له قطّ جيش، و كان والده نصير على جيوش معاوية، و منزلته لديه مكينة، و لمّا خرج معاوية لصفّين لم يخرج معه، فقال له: ما منعك من الخروج معى ولى عندك يد لم تكافئنى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۹۵

عليها؟ فقال: لم يمكنّى أن أشكرك بكفرى من هو أولى بشكرى منك، فقال: من هو؟ فقال:

اللّه عزّ و جلّ، فأطرق مليّا ثم قال: أستغفر اللّه، و رضى عنه.

[رجع إلى حديث طارق بن زياد]

رجع إلى حديث طارق- قال بعض المؤرّخين: كان لذريق ملك الأندلس استخلف عليها شخصا يقال له تدمير، و إليه تنسب تدمير بالأندلس، فلما نزل طارق من الجبل كتب تدمير إلى لذريق: إنه قد نزل بأرضنا قوم لا ندرى أمن السماء هم أم من الأرض، فلما بلغ لذريق ذلك- و كان قصد بعض الجهات البعيدة لغزو له فى بعض أعدائه- رجع عن مقصده فى سبعين ألف فارس، و معه العجل تحمل الأموال و المتاع، و هو على سريره بين دابّتين، و عليه مظلّة مكلّلة بالدّرّ و الياقوت و الزبرجد. فلما بلغ طارقا دنوّه قام فى أصحابه، فحمد اللّه و أثنى عليه بما هو أهله، ثم حثّ المسلمين على الجهاد، و رغّبهم ثم قال: أيها الناس، أين المفرّ؟ البحر من ورائكم و العدوّ أمامكم، و ليس لكم و اللّه إلّا الصدق و الصبر، و اعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام، فى مأدبة اللئام، و قد استقبلكم عدوّكم بجيشه و أسلحته، و أقواته موفورة، و أنتم لا وزر لكم إلّا سيوفكم، و لا أقوات لكم إلّا ما تستخلصونه من أيدى عدوّكم، و إن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم، و لم تنجزوا لكم أمرا، ذهبت ريحكم، و تعوّضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، و إنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت. و إنى لم أحذّركم أمرا أنا عنه بنجوة، و لا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا و أنا أبدأ بنفسى، و اعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلا، استمعتم بالأرفه الألذّ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى، فما حظّكم فيه بأوفى من حظّى، و قد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات فى الدّرّ و المرجان، و الحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان، و قد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، و رضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا و أختانا، ثقة منه بارتياحكم للطّعان، و استماحكم بمجالدة الأبطال و الفرسان، ليكون حظّه منكم ثواب اللّه على إعلاء كلمته، و إظهار دينه بهذه الجزيرة، و ليكون مغنمها خالصة لكم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۱۹۶

من دونه و من دون المؤمنين سواكم، و اللّه تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين، و اعلموا أنى أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه، و إنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء اللّه تعالى، فاحملوا معى، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، و لم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، و إن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه، و احملوا بأنفسكم عليه، و اكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون».

«فلما فرغ من تحريض أصحابه على الصبر فى قتال لذريق و أصحابه و ما وعدهم من الخير الجزيل انبسطت نفوسهم، و تحقّقت آمالهم، و هبّت رياح النصر عليهم، و قالوا له: قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه، فاحضر إليه فإننا معك و بين يديك. فركب و أصحابه فباتوا ليلتهم فى حرس إلى الصبح. فلما أصبح الفريقان تكتّبوا و عبّوا جيوشهم، و حمل لذريق و هو على سريره؛ و قد حمل على رأسه رواق ديباج يظلّله، و هو مقبل فى غابة من البنود و الأعلام، و بين يديه المقاتلة و السلاح، و أقبل طارق فى أصحابه عليهم الزّرد، من فوق رؤوسهم العمائم البيض، و بأيديهم القسىّ العربية، و قد تقلّدوا السيوف، و اعتقلوا الرماح، فلما نظر إليهم لذريق حلف و قال: إن هذه الصور هى التى رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا، فداخله منهم الرّعب. فلما رأى طارق لذريق قال: هذا طاغية القوم، فحمل و حمل أصحابه معه، فتفرّقت المقاتلة من بيد يدى لذريق، فخلص إليه طارق، فضربه بالسيف على رأسه، فقتله على سريره، فلمّا رأى أصحابه مصرع صاحبهم اقتحم الجيشان، و كان النصر للمسلمين، و لم تقف هزيمة العدو على موضع، بل كانوا يسلمون بلدا بلدا و معقلا معقلا».

«و لمّا سمع موسى بن نصير بما حصل من النصرة لطارق عبر الجزيرة بمن معه، و لحق بمولاه طارق، فقال له: يا طارق، إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس، فاستبحه هنيئا مريئا، فقال له طارق: أيّها الأمير، و اللّه لا أرجع عن قصدى هذا، ما لم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسى، يعنى البحر الشمالىّ الذى تحت بنات نعش، و لم يزل طارق يفتح و موسى معه إلى أن بلغ إلى جلّيقيّة و هى ساحل البحر المحيط»، انتهى.

و قال الحافظ الحميدى فى كتابه «جذوة المقتبس»: «إن موسى بن نصير نقم على مولاه طارق إذ غزا بغير إذنه، و همّ بقتله، ثم ورد عليه كتاب الوليد بإطلاقه، فأطلقه و خرج معه إلى الشام»، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۹۷

[خبر بيت الحكمة الذى كان بالأندلس]

و قول لذريق: «إن هذه الصور هى التى رأيناها فى بيت الحكمة إلخ» أشار به إلى بيت حكمة اليونان، و كان من خبره- فيما حكى بعض علماء التاريخ- أن اليونان، و هم الطائفة المشهورة بالحكم، كانوا يسكنون بلاد الشرق قبل عهد الإسكندر، فلما ظهرت الفرس، و استولت على البلاد، و زاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك، انتقل اليونان إلى جزيرة الأندلس، لكونها طرفا فى آخر العمارة، و لم يكن لها ذكر إذ ذاك، و لا ملكها أحد من الملوك المعتبرة و لم تك عامرة، و كان أوّل من عمّر فيها و اختطّها أندلس بن يافث بن نوح عليه السلام، فسمّيت باسمه، و لما عمرت الأرض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة منها عندهم على شكر طائر رأسه المشرق، و الجنوب و الشمال رجلاه، و ما بينهما بطنه، و المغرب ذنبه، و كانوا يزدرون المغرب لنسبته إلى أخسّ أجزاء الطير. و كانت اليونان لا ترى فناء الأمم إلّا بالحروب لما فيها من الإضرار و الاشتغال عن العلوم التى كان الاشتغال بها عندهم من أهم الأمور، فلذلك انحازوا من بين يدى الفرس إلى الأندلس. فلما صاروا إليها أقبلوا على عمارتها، فشقّوا الأنهار، و بنوا المعاقل، و غرسوا الجنات و الكروم، و شيّدوا الأمصار. و ملؤوها حرثا و نسلا و بنيانا، فعظمت و طابت، حتى قال قائلهم لمّا رأى بهجتها: إن الطائر الذى صوّرت هذه العمارة على شكله، و كان المغرب ذنبه، كان طاووسا معظم جماله فى ذنبه.

و حكى أن الرشيد هارون- رحمه اللّه!- لمّا حضر بين يديه بعض أهل المغرب قال الرشيد: يقال: إن الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب، فقال الرجل: صدقوا يا أمير المؤمنين، و إنه طاووس، فضحك أمير المؤمنين الرشيد، و تعجّب من سرعة جواب الرجل و انتصاره لقطره.

رجع- قال: فاغتبط اليونان بالأندلس أتمّ اغتباط، و اتّخذوا دار الحكمة و الملك بها طليطلة؛ لأنها أوسط البلاد، و كان أهمّ الأمور عندهم تحصينها عمّن يتصل به خبرها من الأمم، فنظروا فإذا هو أنه لا يحسدهم على رغد العيش إلّا أرباب الشّظف و الشقاء و التعب، و هو يومئذ طائفتان: العرب، و البربر، فخافوهم على جزيرتهم العامرة، فعزموا على أن يتخذوا لهذين الجنسين من الناس طلّسما، فرصدوا لذلك أرصادا. و لما كان البربر بالقرب منهم، و ليس بينهم سوى تعدية البحر، و يرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع، خارجة عن الأوضاع، ازدادوا منهم نفورا، و أكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة، حتى ثبت ذلك فى طبائعهم، و صار بعضه مركّبا فى غرائزهم، فلمّا علم البربر عداوة أهل الأندلس و بعضهم لهم، أبغضوهم و حسدوهم، فلم تجد أندلسيّا إلّا مبغضا بربريّا، و بالعكس، إلّا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس؛ لوجود بعض الأشياء عندهم و فقدها ببلاد البربر.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۹۸

[حكاية ابنة ملك قادس و عمل الرحىّ و اتخاذ الطلسم]

و كان بنواحى غرب الأندلس ملك يونانى بجزيرة يقال لها «قادس» و كانت له ابنة فى غاية الجمال، فتسامع بها ملوك الأندلس، و كانت الأندلس، كثيرة الملوك، لكل بلدة أو بلدتين ملك، فخطبوها، و خشى أبوها إن زوّجها من واحد أسخط الباقين، فتحيّر، و أحضر ابنته، و كانت الحكمة مركّبة فى طباع القوم ذكورهم و إناثهم، و لذا قيل؛ إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض: أدمغة اليونان، و أيدى أهل الصين، و ألسنة العرب؛ فقال لها: يا بنيّة، إنى أصبحت على حيرة فى أمرك ممّن يخطبك من الملوك، و ما أرضيت واحدا إلّا أسخطت الباقين، فقالت له: اجعل الأمر إلىّ تخلص، فقال: و ما تقترحين؟ فقالت: أن يكون ملكا

حكيما، فقال؛ نعم ما اخترته لنفسك، فكتب فى أجوبة الملوك الخطّاب، أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم. فلما وقفوا على الجواب سكن من لم يكن حكيما. و كان فى الملوك الخاطبين حكيمان، فكتب كل واحد منهما: أنا الملك الحكيم. فلما وقف على كتابيهما قال لها: يا بنية، بقى الأمر على إشكال، و هذان ملكان حكيمان، أيّهما أرضيت أسخطت الآخر، فقالت: سأقترح على كل واحد منهما أمرا يأتى به، بأيّهما سبق إلى الفراغ مما التمست كنت زوجته، قال: و ما الذى تقترحين عليهما؟ قالت: إنّا ساكنون بهذه الجزيرة، و محتاجون إلى رحىّ تدور بها، و إنى مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجارى إليها من ذلك البرّ، و مقترحة على الآخر أن يتّخذ لى طلّسما نحصّن به جزيرة الأندلس من البربر، فاستظرف أبوها ذلك، و كتب إلى الملكين بما قالت ابنته، فأجاباه إلى ذلك، و تقاسماه على ما اختارا، و شرع كل واحد منهما فى عمل ما أسند إليه من ذلك.

فأما صاحب الرّحىّ، فإنه عمد إلى أشكال اتّخذها من الحجارة، نضد بعضها إلى بعض فى البحر المالح الذى بين جزيرة الأندلس و البرّ الكبير فى الموضع المعروف بزقاق سبتة، و سدّد الفرج التى بين الحجارة بما اقتضت حكمته، و أوصل تلك الحجارة من البرّ إلى الجزيرة، و آثاره باقية إلى اليوم فى الزّقاق الذى بين سبتة و الجزيرة الخضراء، و أكثر أهل الأندلس يزعمون أنّ هذا أثر قنطرة كان الإسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سبتة إلى الجزيرة، و اللّه أعلم أىّ القولين أصحّ. غير أن الشائع إلى الآن عند الناس هو الثانى. فلمّا تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم، جلب الماء العذب من جبل عال فى البر الكبير، و سلّطه من ساقية محكمة، و بنى بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۱۹۹

«و أما صاحب الطّلّسم، فإنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله، غير أنه عمل أمره، و أحكمه، و ابتنى بنيانا مربعا من حجر أبيض على ساحل البحر فى رمل عالج حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت، فلما انتهى البناء المربّع إلى حيث صوّر من النحاس الأحمر و الحديد المصفّى المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجل بربرى، و له لحية، و فى رأسه ذؤابة من شعر جعد قائمة فى رأسه لجعودتها، و هو متأبّط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بألطف تصوير و أحكمه، فى رجله نعل، و هو قائم من رأس البناء على مستهدف بمقدار رجليه فقط، و هو شاهق فى الهواء، طوله نيّف عن ستّين أو سبعين ذراعا، و هو محدودب الأعلى، إلى أن ينتهى ما سعته قدر ذراع، و قد مدّ يده اليمنى بمفتاح قفل قابضا عليه مشيرا إلى البحر كأنه يقول: لا عبور. و كان من تأثير هذا الطّلّسم فى البحر الذى تجاهه أنه لم ير قطّ ساكنا و لا كانت تجرى فيه قطّ سفينة بربر حتى سقط المفتاح من يده. و كان الملكان اللذان عملا الرّحىّ و الطّلّسم يتسابقان إلى فراغ العمل، إذ بالسّبق يستحق زواج المرأة، و كان صاحب الرّحىّ فرغ أولا- لكنه أخفى أمره من صاحب الطّلّسم لئلّا يترك عمله فيبطل الطّلّسم، لتحظى المرأة بالرحىّ و الطّلّسم. فلما علم باليوم الذى يفرغ صاحب الطلسم فى آخره أجرى الماء فى الجزيرة من أوله و أدار الرّحىّ، و اشتهر ذلك، فاتصل الخبر بصاحب الطّلسم و هو فى أعلى القبة يصقل وجهه، و كان الطّلسم مذهبا فلما تحقّق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتا، و حصل صاحب الرّحىّ على المرأة و الرحى و الطّلّسم. و كان من تقدّم من ملوك اليونان يخشى على الأندلس من البربر للسبب الذى قدّمنا ذكره، فاتفقوا و جعلوا الطّلّسمات فى أوقات اختاروا أرصادها، و أودعوا تلك الطّلّسمات تابوتا من الرخام، و تركوه فى بيت بطليطلة و ركّبوا على ذلك الباب قفلا، تأكيدا لحفظ ذلك البيت، فاستمرّ أمرهم على ذلك.

[فتح لذريق بيت الحكمة، و ما وجد فيه]

و لما حان وقت انقراض دولة من كان بالأندلس و دخول العرب و البربر إليها، و ذلك بعد مضىّ ستة و عشرين ملكا من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطليطلة، و كان لذريق المذكور آنفا هو تمام السابع و العشرين من ملوكهم، فلما اقتعد أريكة الملك قال لوزرائه و خواصّ دولته و أهل الرأى منهم: قد وقع فى نفسى من أمر هذا البيت الذى عليه ستة و عشرون قفلا شىء، و أريد أن أفتحه

لأنظر ما فيه؛ لأنه لم يعمل عبثا، فقالوا: أيها الملك، صدقت، إنه لم يصنع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۰۰

عبثا، و لم يقفل سدى، و الرأى و المصلحة أن تلقى أنت أيضا عليه قفلا أسوة بمن تقدّمك من الملوك، و كان آباؤك و أجدادك لم يهملوا هذا، فلا تهمله، و سر سيرهم، فقال لهم: إن نفسى تنازعنى إلى فتحه، و لا بدّ لى منه، فقالوا له: إن كنت تظن أن فيه مالا فقدّره و نحن نجمع لك من أموالنا نظيره، و لا تحدث علينا بفتحه حادثا لا نعرف عاقبته، فأصرّ على ذلك، و كان رجلا مهيبا، فلم يقدروا على مراجعته، و أمر بفتح الأقفال، و كان على كل قفل مفتاحه معلقا. فلما فتح الباب لم ير فى البيت شيئا إلّا مائدة عظيمة من ذهب و فضة مكلّلة بالجواهر، و عليها مكتوب: هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة و السلام، و رأى فى البيت ذلك التابوت، و عليه قفل، و مفتاحه معلّق، ففتحه، فلم يجد فيه سوى رقّ، و فى جوانب التابوت صور فرسان مصوّرة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب، و عليهم الفراء، و هم معمّمون على ذوائب جعد، و من تحتهم الخيل العربية، و هم متقلّدون السيوف المحلّاة، معتقلون الرماح، فأمر بنشر ذلك الرّقّ، فإذا فيه: متى فتح هذا البيت و هذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صورهم فى التابوت إلى جزيرة الأندلس، و ذهب ملك من فيها من أيديهم، و بطلت حكمتهم؛ فلما سمع لذريق ما فى الرّقّ ندم على ما فعل، و تحقّق انقراض دولتهم، فلم يلبث إلّا قليلا حتى سمع أن جيشا وصل من المشرق جهّزه ملك العرب ليفتح بلاد الأندلس، انتهى.

فهذا هو بيت الحكمة الذى أشار إليه لذريق، و اللّه أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك كله.

على أن فى هذا السياق مخالفة لما سنذكره عن بعض ثقات مؤرّخى الأندلس و غيرهم فى شأن المائدة و غيرها، و ما ذكر فى هذه القصة من جلب الماء من برّ العدوة إلخ فيه بعد عندى؛ لأن بلاد الأندلس أكثر بلاد اللّه مياها و أنهارا، فأنّى تحتاج إلى جلب الماء إليها من العدوة الأخرى؟ إلّا أن يقال: إن المرأة أرادت تعجيز الرجل بذلك، أو اختبار حكمته حتى يفعل هذا الأمر الغريب، و علم اللّه من وراء ذلك كله، و فوق كل ذى علم عليم، و منتهى العلم إلى اللّه الحكيم.

[ابن حيان يتحدث عن فتح الأندلس و يذكر أمراءها]

و قال ابن حيّان فى «المقتبس»: «ذكروا أن لذريق لم يكن من أبناء الملوك، و لا بصحيح النسب فى القوط، و أنه إنما نال الملك من طريق الغصب و التسوّر عندما مات غيطشة الملك الذى كان قبله، و كان أثيرا لديه، مكينا، فاستصغر أولاده لمكانه، و استمال طائفة من الرجال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۰۱

مالوا معه، فانتزع الملك من أولاد غيطشة و استبقاهم، فكانوا هم الذين دبّروا عليه- فيما ذكر- عندما لقى رجال العرب المقتحمين عليه بالأندلس من تلقاء بحر الزّقاق و عليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نصير طماعة منهم فى أن يودى و يخلص إليهم ملك أبيهم، فالتقوا بموضع يدعى وادى لكّة من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبلى مكان عبورهم، و ذلك لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين و تسعين من الهجرة، فانهزم القوط أعظم هزيمة، و قتل ملكهم لذريق، و غلبت العرب على الأندلس، فصارت أقصى فتوحهم من أرض المغرب، و مصداق موعد نبيّهم، صلّى اللّه عليه و سلّم، الكفيل بفتح ما بين المشرق و المغرب عليهم بوحى اللّه تعالى إليه أنجزه لهم بفتح الأندلس، و للّه القوّة».

قال: «و قام بأمر العرب بالأندلس منذ فتحت الأمراء المرسلون منهم عليها من قبل أئمة المسلمين بالمشرق طوال دولة بنى أميّة، رضى اللّه تعالى عنهم، إلى أن طرأ إليها فلّهم عند غلبة بنى العبّاس عليهم، و دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، فملكها و أعاد إليها الدولة الأموية التى أورثها عقبه حقبة. فكانت عدّة هؤلاء الأمراء من لدن أوّلهم طارق بن زياد إلى آخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى عشرين عاملا، و عدّة سنيهم بالشمسى خمس و أربعون سنة، و بالقمرى سبع و أربعون سنة غير أشهر»،

انتهى.

و قال فى موضع آخر، نقلا عن الرازى: «و افتتحت الأندلس فى أيام الوليد بن عبد الملك، فكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت فى ظهور الملّة الحنيفية، و كان عمر بن عبد العزيز- رضوان اللّه عليه!- متهمّما بها، معتنيا بشأنها، و قد حوّلها عن نظر والى إفريقية و جرّد إليها عاملا من قبله اختاره لها، دلالة على معنيته بها، و وقعت المقاسم فيها عن أمره و بفضل رأيه»، انتهى.

[ملخص خبر الفتح من الكتاب الخزائنى]

و فى الكتاب الخزائنى و غيره سياقة فتح الأندلس على أتمّ الوجوه، فلنذكر ملخّصه، قالوا: استعمل أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك- رحمه اللّه تعالى!- موسى بن نصير مولى عمّه عبد العزيز بن مروان، و يقال: بل هو بكرى، و ذلك أنّ أباه نصيرا أصله من علوج

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۰۲

أصابهم خالد بن الوليد- رضى اللّه عنه!- فى عين التّمر، فادّعوا أنهم رهن و أنهم من بكر بن وائل، فصار نصير و صيفا لعبد العزيز بن مروان، فأعتقه، فمن هذا يختلف فيه، و قيل: إنه لخمىّ، و عقد له على إفريقية و ما خلفها فى سنة ثمان و ثمانين، فخرج إلى ذلك الوجه فى نفر قليل من المطّوعة، فلمّا ورد مصر أخرج معه من جندها بعثا، و أتى إفريقية عمله، فأخرج من أهلها معه ذوى القوّة و الجلد، و صيّر على مقدّمته طارق بن زياد، فلم يزل يقاتل البربر و يفضّ جموعهم، و يفتح بلادهم و مدائنهم، حتى بلغ طنجة، و هى قصبة ملك البربر و أمّ مدائنهم، فحصرها حتى افتتحها، و قيل: إنها لم تكن افتتحت قبله، و قيل: افتتحت ثم ارتجعت، فأسلم أهلها، و خطّها قيروانا للمسلمين. ثم ساروا إلى مدائن على شطّ البحر فيها عمّال لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها و على ما حولها، و رأس تلك المدائن سبتة، و عليها علج يسمى يليان، قاتله موسى فألفاه فى نجدة و قوّة وعدة فلم يطقه، فرجع إلى مدينة طنجة فأقام بمن معه، و أخذ فى الغارات على ما حولهم و التضييق عليهم، و السفن تختلف إليهم بالميرة و الأمداد من الأندلس من قبل ملكها غيطشة، فهم يذبّون عن حريمهم ذبّا شديدا، و يحمون بلادهم حماية تامّة، إلى أن هلك غيطشة ملك الأندلس، و ترك أولادا لم يرضهم أهلها للملك، فاضطرب حبل أهل الأندلس، ثم تراضوا بعلج من كبارهم يقال له لذريق، مجرّب شجاع بطل، ليس من بيت أهل الملك، إلّا أنه من قوّادهم و فرسانهم، فولّوه أمرهم، و كانت طليطلة دار الملك بالأندلس حينئذ، و كان بها بيت مغلق متحامى الفتح على الأيام، عليه عدّة من الأقفال يلزمه قوم من ثقات القوط، قد وكّلوا به لئلّا يفتح، و قد عهد الأول فى ذلك إلى الآخر، فكلّما قعد منهم ملك أتاه أولئك الموكّلون بالبيت فأخذوا منه قفلا و صيّروه على ذلك الباب من غير أن يزيلوا قفل من تقدّمه، فلما قعد لذريق هذا، و كان متهمّما يقظا ذا فكر، أتاه الحرّاس يسألونه أن يقفل على الباب، فقال لهم: لا أفعل أو أعلم ما فيه، و لا بدّ لى من فتحه، فقالوا له: أيها الملك، إنه لم يفعل هذا أحد ممّن قبلك، و تناهوا عن فتحه، فلم يلتفت إليهم، و مشى إلى البيت، فأعظمت ذلك العجم و ضرع إليه أكابرهم فى الكفّ، فلم يفعل، و ظنّ أنه بيت مال، ففضّ الأقفال عنه، و دخل، فأصابه فارغا لا شىء فيه، إلّا تابوتا عليه قفل، فأمر بفتحه يحسب أن مضمونه يقنعه نفاسة، فألفاه أيضا فارغا ليس فيه إلّا شقّة مدرجة قد صوّرت فيها صور العرب عليهم العمائم و تحتهم الخيول العراب متقلّدى السيوف متنكبى القسىّ رافعى الرايات على الرماح، و فى أعلاها أسطر مكتوبة بالعجمية، فقرئت فإذا فيها: إذا كسرت الأقفال عن هذا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۰۳

البيت و فتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فإن هذه الأمة المصوّرة فى هذه الشّقّة تدخل الأندلس، فتغلب عليها و تملكها، فوجم لذريق و ندم على ما فعل، و عظم غمّه و غمّ العجم بذلك، و أمر بردّ الأقفال و إقرار الحرس على حالهم، و أخذ فى تدبير الملك، و ذهل عمّا أنذر به.

و كان من سير أكابر العجم بالأندلس و قوّادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم و التنويه بهم إلى بلاد الملك الأكبر بطليطلة ليصيروا فى خدمته، و يتأدّبوا بأدبه، و ينالوا من كرامته، حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضا استئلافا لآبائهم، و حمل صدقاتهم، و تولّى تجهيز إناثهم إلى أزواجهنّ. فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لذريق على سبتة، و كانت يومئذ فى يد صاحب الأندلس، و أهلها على النصرانية، ركب الطريقة بابنة له بارعة فى الجمال تكرم عليه، فلمّا صارت عند لذريق وقعت عينه عليها، فأعجبته، و أحبّها حبّا شديدا، و لم يملك نفسه حتى استكرهها و افتضّها، فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سرّا، بمكاتبة خفيّة، فأحفظه شأنها جدّا، و اشتدّت حميّته، و قال: و دين المسيح لأزيلنّ ملكه و سلطانه، و لأحفرنّ تحت قدميه، فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب فى فتح الأندلس بالذى سبق من قدر اللّه تعالى.

ثم إن يليان ركب بحر الزّقاق من سبتة فى أصعب الأوقات فى ينير قلب الشتاء، فصار بالأندلس، و أقبل إلى طليطلة نحو الملك لذريق، فأنكر عليه مجيئه فى مثل ذلك الوقت، و سأله عمّا لديه، و ما جاء فيه، و لم جاء فى مثل وقته؟ فذكر خيرا، و اعتلّ بذكر زوجته، و شدّة شوقها إلى رؤية بنتها التى عنده، و تمنّيها لقاءها قبل الموت، و إلحاحها عليه فى إحضارها، و أنه أحبّ إسعافها، و رجا بلوغها أمنيتها منه، و سأل الملك إخراجها إليه، و تعجيل إطلاقه للمبادرة بها، ففعل، و أجاز الجارية، و توثّق منها بالكتمان عليه، و أفضل على أبيها، فانقلب عنه، و ذكروا أنه لمّا ودّعه قال له لذريق: إذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشّذانقات التى لم تزل تطرفنا بها فإنها آثر جوارحنا لدينا، فقال له: أيها الملك، و حقّ المسيح لئن بقيت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۰۴

لأدخلنّ عليك شذانقات ما دخل عليك مثلها قطّ، عرّض له بالذى أضمره من السعى فى إدخال رجال العرب عليه، و هو لا يفطن، فلم يتنهنه يليان عندما استقرّ بسبتة عمله أن تهيّأ للمسير نحو موسى بن نصير الأمير، فمضى نحوه بإفريقية، و كلّمه فى غزو الأندلس، و وصف له حسنها و فضلها، و ما جمعت من أشتات المنافع، و أنواع المرافق، و طيب المزارع، و كثرة الثمار، و ثرارة المياه و عذوبتها، و هوّن عليه مع ذلك حال رجالها، و وصفهم بضعف البأس و قلّة الغناء، فشوّق موسى إلى ما هناك، و أخذ بالحزم فيما دعاه إليه يليان، فعاقده على الانحراف إلى المسلمين، و استظهر عليه بأن سامه مكاشفة أهل ملّته من الأندلس المشركين و الاستخراج إليهم بالدخول إليها و شنّ الغارة فيها، ففعل يليان ذلك، و جمع جمعا من أهل عمله، فدخل بهم فى مركبين و حلّ بساحل الجزيرة الخضراء، فأغار و قتل و سبى و غنم، و أقام بها أياما، ثم رجع بمن معه سالمين، و شاع الخبر عند المسلمين، فأنسوا بيليان و اطمأنّوا إليه، و كان ذلك عقب سنة تسعين، فكتب موسى بن نصير إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذى دعاه إليه يليان من أمر الأندلس، و يستأذنه فى اقتحامها، فكتب إليه الوليد: أن خضها بالسرايا حتى ترى و تختبر شأنها، و لا تغرّر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال، فراجعه أنه ليس ببحر زخّار، و إنما هو خليج منه يبيّن للناظر ما خلفه، فكتب إليه: و إن كان فلا بدّ من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه. فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البرابرة اسمه طريف يكنى أبا زرعة فى أربعمائة رجل معهم مائة فرس سار بهم فى أربعة مراكب، فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء التى هى اليوم معبر سفائنهم و دار صناعتهم، و يقال لها اليوم «جزيرة طريف» لنزوله بها، و أقام بها أياما حتى التأم إليه أصحابه، ثم مضى حتى أغار على الجزيرة فأصاب سبيا لم ير موسى و لا أصحابه مثله حسنا، و مالا جسيما، و أمتعة، و ذلك فى شهر رمضان سنة إحدى و تسعين. فلما رأى الناس ذلك تسرّعوا إلى الدخول، و قيل: دخل طريف فى ألف رجل، فأصاب غنائم و سبيا، و دخل بعده أبو زرعة من البرابرة، و ليس بطريف، فى ألف رجل منهم أيضا فأصابوا أهل الجزيرة قد تفرّقوا عنها، فضرّموا عامّتها بالنار، و حرّقوا كنيسة بها كانت عندهم معظّمة، و أصابوا سبيا يسيرا، و قتلوا و انصرفوا سالمين.

و قال الرازى: هو أبو زرعة طريف بن مالك المعافرى، الاسم طبق الكنية.

قالوا: ثم عاود يليان القدوم على موسى بن نصير محرّكا فى الاقتحام على أهل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۰۵

الأندلس، و خبّره بما كان منه و من طريف أبى زرعة، و ما نالوه من أهلها، و باشروه من طيبها، فحمد اللّه على ذلك، و استجدّ عزما فى إقحام المسلمين فيها، فدعا مولى له كان على مقدّمته يسمّى طارق بن زياد بن عبد اللّه فارسيّا همذانيّا، و قيل: إنه ليس بمولى لموسى، و إنما هو رجل من صدف، و قيل: مولى لهم، و قد كان بعض عقبه بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكارا شديدا، و قيل: إنه بربرى من نفزة، فعقد له موسى، و بعثه فى سبعة آلاف من المسلمين جلّهم البربر و الموالى، و ليس فيهم عرب إلّا قليل، و وجّه معه يليان، فهيأ له يليان المراكب، فركب فى أربعة سفن لا صناعة له غيرها، و حطّ بجبل طارق المنسوب إليه يوم سبت فى شعبان سنة اثنتين و تسعين، فى شهر أغسطس، ثم صرف المراكب إلى من خلفه من أصحابه، فركب من بقى من الناس، و لم تزل السفائن تختلف إليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل، و قيل: حلّ طارق بجبله يوم الاثنين لخمس خلون من رجب من السنة فى اثنى عشر ألفا غير ستة عشر رجلا من البرابرة، و لم يكن فيهم من العرب إلّا يسير، أجازهم يليان إلى ساحل الأندلس فى مراكب التجار من حيث لم يعلم بهم، أوّلا أوّلا، و ركب أميرهم طارق آخرهم.

قيل: و أصاب طارق عجوزا من أهل الجزيرة، فقالت له فى بعض قولها: إنه كان لها زوج عالم بالحدثان فكان يحدّثهم عن أمير يدخل إلى بلدهم هذا، و يغلب عليه، و يصف من نعته أنه ضخم الهامة، فأنت كذلك، و منها أن فى كتفه الأيسر شامة عليها شعر، فإن كانت بك هذه العلامة فأنت هو، فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة فى كتفه على ما ذكرته العجوز، فاستبشر بذلك هو و من معه.

و ذكر عن طارق أنه كان نائما فى المركب فرأى فى منامه النبىّ، صلّى اللّه عليه و سلّم، و الخلفاء الأربعة أصحابه عليهم الصلاة و السلام يمشون على الماء حتى مرّوا به، فبشّره النبىّ، صلّى اللّه عليه و سلّم، بالفتح، و أمره بالرفق بالمسلمين، و الوفاء بالعهد. و قيل: إنه لمّا ركب البحر غلبته عينه فكان يرى النبىّ، صلّى اللّه عليه و سلّم، و حوله المهاجرون و الأنصار قد تقلّدوا السيوف و تنكّبوا القسىّ، فيقول له رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلّم: يا طارق، تقدّم لشأنك، و نظر إليه و إلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدّامه، فهبّ من نومه مستبشرا، و بشّر أصحابه، و ثابت إليه نفسه ثقة ببشراه، فقويت نفسه، و لم يشكّ فى الظفر، فخرج من البلد، و اقتحم بسيط البلاد شانّا للغارة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۰۶

قالوا: و وقع على لذريق الملك خبر اقتحام العرب ساحل الأندلس، و توالى غاراتهم على بلد الجزيرة، و أنّ يليان السبب فيها، و كان يومئذ غائبا بأرض بنبلونة فى غزاة له إلى البشكنس لأمر كان استصعب عليه بناحيتهم، فعظم عليه، و فهم الأمر الذى منه أتى، و أقبل مبادرا الفتق فى جموعه، حتى احتلّ بمدينة قرطبة من المتوسطة و نزل القصر المدعوّ بها ببلاط لذريق المنسوب إليه، و ليس لأنه بناه أو اخترعه- و هو بناء من تقدّمه من الملوك اتّخذوه لمنزلهم فى قرطبة إذا أتوها- إلّا أن العرب لمّا غلبوا لذريق و هذا القصر من مواطنه نسبوه إليه، إذ لم يعرفوا من بناه، و يزعم العجم أنّ الذى بناه ملك منهم كان ساكنا بحصن المدور أسفل قرطبة، و خرج يوما يتصيّد حتى انتهى إلى مكان قرطبة، و هى يومئذ خراب، و كان فى موضع قصرها غيضة علّيق ملتفة أشبة، فأرسل الملك بازيا له يكرم عليه على حجلة عنّت له من ناحية الكدية المنسوبة بعد إلى أبى عبيدة، فتخبّت فى ذلك العلّيق، و لجّ البازى فى الانقضاض عليها، فركض الملك خلفه حتى وقف على مكانه ليخرجه، فأمر بقطعها لاستنقاذ بازيه ضنّا منه به، فقطعت، و بدا له تحتها أساس قصر عظيم راقه رصّه، و قد كان ذا همّة، فأمر بالكشف عنه، و تقصّى حدوده طولا و عرضا، و تتبّع أسّه و أصله، فوجده مبنيّا من وجه الماء بصمّ الحجارة فوق زرجون وضع بينها و بين الماء بأحكم صناعة، فقال: هذا أثر ملك كريم، و أنا أولى من جدّده، فأمر بإعادته إلى هيئته، و اتّخاذه منزلا من منازل راحاته، فكان إذا طاف بعمله أو مضى فى متصيّده نزل فيه، و صار السبب فى بناء قرطبة إلى جنبه، و نزل الناس فيها، و توارث الملوك قصرها من بعد، و نزله لذريق فى زحفه إلى العرب أياما، و الحشود من أعماله تتوافى إليه، ثم مضى نحو كورة شذونة يبغى لقاءهم فى حشوده الكثيرة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۰۷

و قيل: إن آخر ملوك الأندلس الذين تلتهم العرب غيطشة، و إنه هلك عن أولاد ثلاثة صغار لم يصلحوا للملك، فضبطت أمّهم عليهم ملك و الدهم بطليطلة، و انحرف لذريق قائد الخيل لوالدهم فيمن تبعه عنهم، فصار بقرطبة، فلما اقتحم طارق الأندلس نفر إليه لذريق و استنفر إليه أجناد أهل الأندلس، و كتب إلى أولاد غيطشة- و قد ترعرعوا، و ركبوا الخيل، و اتّخذوا الرجال- يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العرب، و يحذّرهم من القعود عنه، و يحضّهم على أن يكونوا على عدوّهم يدا واحدة، فلم يجدوا بدّا، و حشدوا، و قدموا عليه بقرطبة، فنزلوا أكناف قرية شقندة بعدوة نهرها قبالة القصر، و لم يطمئنّوا إلى الدخول على لذريق أخذا بالحزم، إلى أن استتبّ جهاز لذريق و خرج، فانضمّوا إليه، و مضوا معه و هم مرصدون لمكروهه. و الأصح- و اللّه أعلم- ما سبق أن ملك القوط اجتمع للذريق، و اختلف فى اسمه: فقيل رذريق- بالراء أوله- و قيل باللام لذريق و هو الأشهر، و قيل: إن أصله من أصبهان و يسمّى الأشبان، و اللّه أعلم.

قالوا: و عسكر لذريق فى نحو مائة ألف ذوى عدد و عدّة، فكتب طارق إلى موسى يستمدّه و يعرفه أنه فتح الجزيرة الخضراء فرضة الأندلس، و ملك المجاز إليها، و استولى على أعمالها إلى البحيرة، و أنّ لذريق زحف إليه بما لا قبل له به، إلّا أن يشاء اللّه، و كان موسى منذ وجّه طارقا لوجهه، قد أخذ فى عمل السفن حتى صار عنده منها عدّة كثيرة، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مددا كملت بهم عدّة من معه اثنى عشر ألفا أقوياء على المغانم، حراصا على اللقاء، و معهم يليان المستأمن إليهم فى رجاله و أهل عمله يدلّهم على العورات، و يتجسّس الأخبار، و أقبل نحوهم لذريق فى جموع العجم و ملوكها و فرسانها، فتلاقوا فيما بينهم، و قال بعضهم لبعض: إن هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا، و ليس من أهله، و إنما كان من أتباعنا، فلسنا نعدم من سيرته خبالا فى أمرنا، و هؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم فى استيطان بلدنا، و إنما مرادهم أن يملئوا أيديهم من الغنائم، ثم يخرجوا عنّا، فهلمّ فلننهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم لعلّهم يكفوننا إيّاه، فإذا انصرفوا عنّا أقعدنا فى ملكنا من يستحقّه، فأجمعوا على ذلك، و القضاء يبرم ما ارتئوه.

و كان لذريق ولّى ميمنته أحد ابنى غبطشة، و ميسرته الآخر، فكانا رأسى الذين أداروا عليه الهزيمة. و أدّاهما إلى ذلك طمع رجوع ملك والدهما إليهما.

و قيل: لمّا تقابل الجيشان أجمع أولاد غيطشة على الغدر بلذريق، و أرسلوا إلى طارق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۰۸

يعلمونه أنّ لذريق كان تابعا و خادما لأبيهم فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه و أنهم غير تاركى حقّهم لديه، و يسألونه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتبعهم، و أن يسلّم إليهم إذا ظفر ضياع و الدهم بالأندلس كلها، و كانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة، و هى التى سمّيت بعد ذلك صفايا الملوك، فأجابهم إلى ذلك، و عاقدهم عليه، فالتقى الفريقان من الغد، فانحاز الأولاد إلى طارق، فكان ذلك أقوى أسباب الفتح. و كان الالتقاء على وادى لكّة من كورة شذونة، فهزم اللّه الطاغية لذريق و جموعه، و نصر المسلمين نصرا لا كفاء له، و رمى لذريق نفسه فى وادى لكّة و قد أثقلته الجراح، فلم يعلم له خبر و لم يوجد.

و قيل: نزل طارق بالمسلمين قريبا من عسكر لذريق منسلخ شهر رمضان سنة ۹۲، فوجد لذريق علجا من أصحابه قد عرف نجدته و وثق ببأسه ليشرف على عسكر طارق فيحزر عددهم و يعاين هيئاتهم و مراكبهم، فأقبل ذلك العلج حتى طلع على العسكر، ثم شدّ فى وجوه من استشرفه من المسلمين، فوثبوا إليه، فولّى منصرفا راكضا، وفاتهم بسبق فرسه، فقال العلج للذريق أتتك الصور التى كشف لك عنها التابوت، فخذ على نفسك، فقد جاءك منهم من لا يريد إلّا الموت أو إصابة ما تحت قدميك، قد حرقوا مراكبهم إياسا لأنفسهم من التعلّق بها، و صفوا فى السهل موطّنين أنفسهم على الثبات، إذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب، فرعب و تضاعف جزعه، و التقى العسكران بالبحيرة، و اقتتلوا قتالا شديدا، إلى أن انهزمت ميمنة لذريق و ميسرته، انهزم بهما أبناء غيطشة، و ثبت القلب بعدهما

قليلا و فيه لذريق، فعذّر أهله بشيء من قتال، ثم انهزموا، و لذريق أمامهم، فاستمرّت هزيمتهم، و أذرع المسلمون القتل فيهم، و خفى أثر لذريق فلا يدرى أمره، إلّا أن المسلمين وجدوا فرسه الأشهب الذى فقد و هو راكبه، و عليه سرج له من ذهب مكلّل بالياقوت و الزّبرجد، و وجدوا أحد خفّيه و كان من ذهب مكلّل بالدّرّ و الياقوت و الزبرجد، و قد ساخ الفرس فى طين و حمأة، و غرق العلج، فثبت أحد خفّيه فى الطين فأخذ، و خفى الآخر، و غاب شخص العلج و لم يوجد حيّا و لا ميتا، و اللّه أعلم بشأنه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۰۹

[روايۀ الرازى فى شأن الفتح]

و قال الرازى: كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد خمس خلون من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام، ثم هزم اللّه المشركين، فقتل منهم خلق عظيم، أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض. قالوا: و حاز المسلمون من عسكرهم ما يجلّ قدره، فكانوا يعرفون كبار العجم و ملوكهم بخواتم الذهب يجدونها فى أصابعهم و يعرفون من دونهم بخواتم الفضّة، و يميزون عبيدهم بخواتم النحاس، فجمع طارق الفيء و خمّسة، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد و الأتباع، و تسامع الناس من أهل برّ العدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وجه، و خرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من و ركب و قشر، فلحقوا بطارق، و ارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون و القلاع، و تهاربوا من السهل، و لحقوا بالجبال، ثم أقبل طارق حتى نزل بأهل مدينة شذونة، فامتنعوا عليه، فشدّ الحصر عليهم حتى نهكهم و أضرّهم، فتهيّأ له فتحها عنوة، فحاز منها غنائم، ثم مضى منها إلى مدوّر، ثم عطف على قرمونة فمرّ بعينه المنسوبة إليه، ثم مال على إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية، ثم نازل أهل إستجة و هم فى قوّة و معهم فلّ عسكر لذريق، فقاتلوا قتالا شديدا حتى كثر القتل و الجراح بالمسلمين، ثم إن اللّه تعالى أظهر المسلمين عليهم، فانكسروا، و لم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حربا مثلها، و أقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها، و كان مغترّا سيىء التدبير، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده، فصادف طارقا هناك قد أتى لمثل ذلك، و طارق لا يعرفه، فوثب عليه طارق فى الماء، فأخذه و جاء به إلى العسكر، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة، فصالحه طارق على ما أحبّ، و ضرب عليه الجزية، و خلّى سبيله، فوفى بما عاهد عليه، و قذف اللّه الرّعب فى قلوب الكفرة لمّا رأوا طارقا يوغل فى البلاد. و كانوا يحسبونه راغبا فى المغنم عاملا على القفول، فسقط فى أيديهم، و تطايروا عن السهول إلى المعاقل، و صعد ذوو القوّة منهم إلى دار مملكتهم طليطلة، قيل: و كان من إرهاب طارق لنصارى الأندلس و حيله أن تقدّم إلى أصحابه فى تفصيل لحوم القتلى بحضرة أسراهم و طبخها فى القدور، يرونهم أنهم يأكلونها، فجعل من انطلق من الأسرى يحدّثون من وراءهم بذلك فتمتلىء منه قلوبهم رعبا و يجفلون فرارا، قالوا: و قال يليان لطارق: قد فضضت جيوش القوم،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۱۰

و رعبوا، فاصمد لبيضتهم، و هؤلاء أدلّاء من أصحابى مهرة، ففرّق جيوشك معهم فى جهات البلاد، و اعمد أنت إلى طليطلة حيث معظمهم، فاشغل القوم عن النظر فى أمرهم و الاجتماع إلى أولى رأيهم، ففرّق طارق جيوشه معهم من إستجة، فبعث مغيثا الرومىّ مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة، و كانت من أعظم مدائنهم، فى سبعمائة فارس؛ لأنّ المسلمين ركبوا جميعا خيل العجم، و لم يبق فيهم راجل، و فضلت عنهم الخيل، و بعث جيشا آخر إلى مالقة، و آخر إلى غرناطة مدينة إلبيرة، و سار هو فى معظم الناس إلى كورة جيّان يريد طليطلة، و قد قيل: إن الذى سار لقرطبة طارق بنفسه، لا مغيث، قالوا: فكمنوا بعدوة نهر شقندة فى غيضة أرز شامخة، و أرسلت الأدلاء فأمسكوا راعى غنم فسئل عن قرطبة فقال: رحل عنها عظماء أهلها إلى طليطلة، و بقى فيها أميرها فى أربعمائة فارس من حماتهم مع ضعفاء أهلها، و سئل عن سورها فأخبر أنه حصين عال فوق أرضها إلّا أنه فيه ثغرة و وصفها لهم، فلما أجنّهم الليل أقبلوا نحو المدينة و وطّأ اللّه لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برذاذ أخفى دقدقة حوافر الخيل، و أقبل المسلمون رويدا حتى عبروا

نهر قرطبة ليلا، و قد أغفل حرس المدينة احتراس السور، فلم يظهروا عليه ضيقا بالذى نالهم من المطر و البرد، فترجّل القوم حتى عبروا النهر، و ليس بين النهر و السور إلّا مقدار ثلاثين ذراعا أو أقلّ، و راموا التعلّق بالسور فلم يجدوا متعلّقا، و رجعوا إلى الراعى فى دلالتهم على الثّغرة التى ذكرها، فأراهم إياها. فإذا بها غير متسهلة التسنّم، إلّا أنه كانت فى أسفلها شجرة تين مكّنت أفنانها من التعلّق، بها. فصعد رجل من أشدّاء المسلمين فى أعلاها، و نزع مغيث عمامته فناوله طرفها، و أعان بعض الناس بعضا حتى كثروا على السور، و ركب مغيث و وقف من خارج، و أمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس، ففعلوا، و قتلوا نفرا منهم، و كسروا أقفال الباب، و فتحوه، فدخل مغيث و من معه و ملكوا المدينة عنوة، فصعد إلى البلاط منزل الملك و معه أدلّاؤه، و قد بلغ الملك دخولهم المدينة. فبادر بالفرار عن البلاد فى أصحابه، و هم زهاء أربعمائة، و خرج إلى كنيسة بغربىّ المدينة، و تحصّن بها، و كان الماء يأتيها تحت الأرض من عين فى سفح جبل، و دافعوا عن أنفسهم. و ملك مغيث المدينة و ما حولها، و قال من ذهب إلى أن طارقا لم يحضر فتح قرطبة و أنّ فاتحها مغيث: إنه كتب إلى طارق بالفتح، و أقام على محاصرة العلج بالكنيسة ثلاثة أشهر، حتى ضاق من ذلك و طال عليه، فتقدّم إلى أسود من عبيده اسمه رباح،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۱۱

و كان ذا بأس و نجدة، بالكمون فى جنان إلى جانب الكنيسة ملتفّة الأشجار، لعلّه أن يظفر له بعلج يقف به على خبر القوم، ففعل، و دعاه ضعف عقله إلى أن صعد فى بعض تلك الأشجار، و ذلك أيام الثمر، ليجنى ما يأكله، فبصر به أهل الكنيسة، و شدّوا عليه، فأخذوه فملكوه، و هم فى ذلك هائبون له منكرون لخلقه، إذ لم يكونوا عاينوا أسود قبله، فاجتمعوا عليه، و كثر لغطهم و تعجّبهم من خلقه، و حسبوا أنه مصبوغ أو مطلىّ ببعض الأشياء التى تسوّد، فجرّدوه وسط جماعتهم، و أدنوه إلى القناة التى منها كان يأتيهم الماء، و أخذوا فى غسله و تدليكه بالحبال الحرش، حتى أدموه و أعنتوه، فاستغاثهم، و أشار إلى أن الذى به خلقة من بارئهم، عزّ و جلّ، ففهموا إشارته، و كفّوا عنه و عن غسله و اشتدّ فزعهم منه، و مكث فى إسارهم سبعة أيام لا يتركون التجمّع عليه و النظر إليه إلى أن يسّر اللّه الخلاص ليلا، ففرّ و أتى الأمير مغيثا فخبّره بشأنه و عرّفه بالذى اطّلع عليه من شأنهم، و موضع الماء الذى ينتابونه، و من أىّ ناحية يأتيهم، فأمر أهل المعرفة بطلب تلك القناة فى الجهة التى أشار إليها الأسود حتى أصابوها، فقطعوها عن جريتها إلى الكنيسة، و سدّوا منافذها، فأيقنوا بالهلاك حينئذ، فدعاهم مغيث إلى الإسلام أو الجزية، فأبوا عليه، فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم فسمّيت كنيسة الحرقى، و النصارى تعظّمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدّة البلاء، غير أنّ العلج أميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عند إيقان الهلاك، ففرّ عنهم وحده، و قد استغفلهم و رام اللحاق بطليطلة، فبلغ خبره إلى مغيث، فبادر الركض خلفه وحده، فلحقه بقرب قرية تطيرة هاربا وحده، و تحته فرس أصفر ذريع الخطو، و حرّك مغيث خلفه، فالتفت العلج و دهش لمّا رأى مغيثا قد رهقه، و زاد فى حثّ فرسه فقصر به، فسقط عن الفرس و اندقّ عنقه، فقعد على ترسه مستأسرا قد هاضته السقطة، فقبض عليه مغيث، و سلبه سلاحه، و حبسه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد، و لم يؤسر من ملوك الأندلس غيره؛ لأنّ بعضهم استأمن و بعضهم هرب إلى جلّيقيّة، و فى رواية أنّ مغيثا استنزل أهل الكنيسة بعد أسره لملكهم، فضرب أعناقهم جميعا، فمن أجل ذلك عرفت بكنيسة الأسرى و أنّ مغيثا جمع يهود قرطبة فضمهم إلى مدينتها استنامة إليهم، دون النصارى، للعداوة بينهم، و أنه اختار القصر لنفسه، و المدينة لأصحابه.

و أما من وجّه إلى مالقة ففتحوها، و لجأ علوجها إلى جبال هنالك ممتنعة، ثم لحق ذلك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۱۲

الجيش بالجيش المتوجّه إلى إلبيرة، فحاصروا مدينتها غرناطة، فافتتحوها عنوة، و ضمّوا اليهود إلى قصبة غرناطة، و صار ذلك لهم سنّة فى كل بلد يفتحونه أن يضمّوا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها، و يمضى معظم الناس لغيرها، و إذا لم يجدوا يهودا و فّروا عدد المسلمين المخلّفين لحفظ ما فتح، ثم صنعوا عند فتح كورة ريّة التى منها مالقة مثل ذلك.

و مضى الجيش إلى تدمير، و تدمير: اسم العلج صاحبها، سمّيت به، و اسم قصبتها أريولة، و لها شأن فى المنعة، و كان ملكها علجا

داهية، و قاتلهم مضحيا، ثم استمرّت عليه الهزيمة فى فحصها، فبلغ السيف فى أهلها مبلغا عظيما أفنى أكثرهم و لجأ العلج إلى أريولة فى يسير من أصحابه لا يغنون شيئا، فأمر النساء بنشر الشعور و حمل القصب و الظهور على السور فى زىّ القتال متشبّهات بالرجال، و تصدّر قدّامهنّ فى بقية أصحابه يغالط المسلمين فى قوته على الدفاع عن نفسه، فكره المسلمون مراسه لكثرة من عاينوه على السور، و عرضوا عليه الصلح، فأظهر الميل إليه، و نكّر زيّه، فنزل إليهم بأمان على أنه رسول، فصالحهم على أهل بلده، ثم على نفسه، و توثق منهم، فلما تمّ له من ذلك ما أراد عرّفهم بنفسه، و اعتذر إليهم بالإبقاء على قومه، و أخذهم بالوفاء بعهده، و أدخلهم المدينة، فلم يجدوا فيها إلّا العيال و الذّرّيّة، فندموا على الذى أعطوه من الأمان، و استرجحوه فيما احتال به، و مضوا على الوفاء له، و كان الوفاء عادتهم، فسلمت كورة تدمير من معرّة المسلمين بتدبير تدمير، و صارت كلّها صلحا ليس فيها عنوة، و كتبوا إلى أميرهم طارق بالفتح، و خلّفوا بقصبة البلد رجالا منهم، و مضى معظمهم إلى أميرهم لفتح طليطلة.

[رواية ابن حيان فى فتح طليطلة]

قال ابن حيّان: و انتهى طارق إلى طليطلة دار مملكة القوط، فألفاها خالية قد فرّ عنها أهلها و لجؤوا إلى مدينة بها خلف الجبل، فضمّ اليهود إلى طليطلة، و خلّف بها رجالا من أصحابه، و مضى خلف من فرّ من أهل طليطلة فسلك وادى الحجارة، ثم استقبل الجبل فقطعه من فجّ سمّى به بعد، فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل، و هى المنسوبة لسليمان بن داود، عليهما الصلاة و السلام، و هى خضراء من زبرجد، حافاتها منها و أرجلها، و كان لها ثلاثمائة و خمسة و ستّون رجلا، فأحرزها عنده، ثم مضى إلى المدينة التى تحصّنوا بها خلف الجبل، فأصاب بها حليا و مالا، و رجع و لم يتجاوزها إلى طليطلة سنة ثلاث و تسعين. و قيل:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۱۳

إنه لم يرجع، بل اقتحم أرض جلّيقية و اخترقها حتى انتهى إلى مدينة أسترقة، فدوّخ الجهة، و انصرف إلى طليطلة، و اللّه أعلم. و قيل: إن طارقا دخل الأندلس بغير أمر مولاه موسى بن نصير، فاللّه أعلم. قال بعضهم: و كانت إقامته فى الفتوح و تدويخ البلاد إلى أن وصل سيّده موسى بن نصير سنة، و كان ما سيذكر.

و أنشد فى المسهب و ابن اليسع فى «المغرب» لطارق من قصيدة قالها فى الفتح: [الطويل]

ركبنا سفينا بالمجاز مقيّرا عسى أن يكون اللّه منّا قد اشترى

نفوسا و أموالا و أهلا بجنّة إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسّرا

و لسنا نبالى كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

قال ابن سعيد: و هذه الأبيات ممّا يكتب لمراعاة قائلها و مكانته، لا لعلوّ طبقتها، انتهى.

[شأن أولاد غيطشة، و خبر سارة بنت ألمند القوطية]

و أما أولاد غيطشة فإنهم لمّا صاروا إلى طارق بالأمان، و كانوا سبب الفتح حسبما تقدّم، قالوا لطارق: أنت أمير نفسك أم فوقك أمير؟ فقال: بل على رأسى أمير، و فوق ذلك الأمير أمير عظيم، فاستأذنوه فى اللّحاق بموسى بن نصير بإفريقية ليؤكّد سببهم به، و سألوه الكتاب إليه بشأنهم معه، و ما أعطاهم من عهده، ففعل. و ساروا نحو موسى فتلقّوه فى انحداره إلى الأندلس بالقرب من بلاد البربر و عرّفوه بشأنهم، و وقف على ما خاطبه به طارق فى ذمّتهم و سابقتهم، فأنفذهم إلى أمير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق، و كتب إليه بما عرّفه به طارق من جميل أثرهم، فلمّا وصلوا إلى الوليد أكرمهم و أنفذ لهم عهد طارق فى ضياع والدهم، و عقد لكلّ واحد منهم سجلّا، و جعل لهم أن لا يقوموا لداخل عليهم. فقدموا الأندلس، و حازوا ضياع والدهم أجمع، و اقتسموها على موافقة منهم، فصار منها لكبيرهم ألمند ألف ضيعة فى غرب الأندلس، فسكن من أجلها إشبيلية مقتربا منها، و صار لأرطباش ألف ضيعة، و هو تلوه

فى السنّ، و ضياعه فى موسّطة الأندلس، فسكن من أجلها قرطبة، و صار لثالثهم و قلة ألف ضيعة فى شرقىّ الأندلس وجهة الثغر، فسكن من أجلها مدينة طليطلة، فكانوا على هذه الحال صدر الدولة العربية، إلى أن هلك ألمند كبيرهم، و خلّف ابنته سارة المعروفة بالقوطية و ابنين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۱۴

صغيرين، فبسط يده أرطباش على ضياعهم، و ضمّها إلى ضياعه، و ذلك فى خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، فأنشأت سارة بنت ألمند مركبا بإشبيلية حصينا كامل العدّة، و ركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره بدمشق، فأنهت خبرها، و شكت ظلامتها من عمّها و تعدّيه عليها، و احتجّت بالعهد المنعقد لأبيها و أخويه على الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأوصلها إلى هشام نفسه، و أعجبه صورتها و حزمها. و كتب إلى حنظلة بن صفوان عامله بإفريقية بإنصافها من عمّها أرطباش و إمضائها و أخويها على سنّة الميراث فيما كان فى يد والدها ممّا قاسم فيه أخويه، فأنفذ لها الكتاب بذلك إلى عامله بالأندلس أبى الخطار ابن عمّه، فتمّ لها ذلك، و أنكحها الخليفة هشام من عيسى بن مزاحم، فابتنى بها بالشام، ثم قدم بها إلى الأندلس، و قام لها فى دفاع عمّها أرطباش عن ضياعها، فنال بها نعمة عظيمة، و ولد له منها ولداه إبراهيم و إسحاق فأدركا الشرف المؤثّل و الرياسة بإشبيلية، و شهرا و نسلهما بالنسبة إلى أمهما سارة القوطية. و كانت أيام وفادتها على الخليفة هشام رأت عنده حفيده عبد الرحمن بن معاوية الداخل بعد إلى الأندلس، و عرفها، فتوصّلت إليه لمّا ملك الأندلس و وفدت إليه، فاعترف بذمامها و أكرمها، و أذن لها فى الدخول إلى قصره متى جاءت إلى قرطبة فيجدّد تكرمتها و لا يحجب عياله منها. و توفى زوجها عيسى فى السنة التى ملك فيها عبد الرحمن الأندلس، فزوّجها عبد الرحمن من عمير بن سعيد.

[بعض أخبار القوطية سارة بنت ألمند]

و كان لها و لأبيها ألمند و عمّها أرطباش فى صدر الدولة العربية بالأندلس أخبار ملوكية:

فمنها ما حكاه الفقيه محمد بن عمر بن لبابة المالكى أنه قصد أرطباش يوما إلى منزله عشرة من رؤساء رجال الشاميين فيهم الصّميل و ابن الطّفيل و أبو عبدة و غيرهم، فأجلسهم على الكراسى، و بالغ فى تكريمهم، و دخل على أثرهم ميمون العابد جدّ بنى حزم، و كان فى عداد الشاميين، إلّا أنه كان شديد الانقباض عنهم لزهده و ورعه، فلما بصر به أرطباش قام إليه دونهم إعظاما، و رقاه إلى كرسيه الذى كان يجلس عليه، و كان ملبّسا صفائح الذهب، و جذبه ليجلسه مكانه، فامتنع عليه ميمون، و قعد على الأرض، فقعد أرطباش معه عليها، و أقبل عليه قبلهم، فقال له: يا سيدى، ما الذى جاء بك إلى مثلى؟ فقال له: ما تسمعه، إنّا قدمنا إلى هذا البلد غزاة نحسب أن مقامنا فيه لا يطول، فلم نستعدّ للمقام و لا كثّرنا من العدّة ثم حدثت بعدنا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۱۵

على موالينا و فى أجنادنا ما قد أيسنا معه من الرجوع إلى أوطاننا، و قد وسّع اللّه عليك، فأحبّ أن تدفع إلىّ ضياعا من ضياعك أعتمرها بيدى، و أؤدى إليك الحقّ منها، و آخذ الفضل لى طيبا أتعيّش منه، فقال: لا أرضى لك بالمساهمة، بل أهب لك هبة مسوّغة، ثم دعا بوكيل له فقال له: سلّم إليه المجشر الذى لنا على وادى شوش بما لنا فيه من العبيد و الدواب و البقر و غير ذلك، و ادفع إليه الضيعة التى بجيّان، فتسلّم ميمون الضيعتين و ورثهما ولده، و إليهم نسبت قلعة حزم، فشكره ميمون و أثنى عليه، و قام عنه. و قد أنف الصميل من قيامه إليه، فأقبل على أرطباش و قال له: كنت أظنّك أرجح وزنا، أدخل عليك و أنا سيد العرب بالأندلس فى أصحابى هؤلاء، و هم سادة الموالى، فلا تزيدنا من الكرامة على الإقعاد على أعوادك هذه، و يدخل هذا الصّعلوك فتصير من إكرامه إلى حيث صرت؟ فقال له: يا أبا جوشن، إنّ أهل دينك يخبروننا أن أدبهم لم يرهفك و لو كان لم تنكر علىّ ما فعلته، إنكم، أكرمكم اللّه، إنما تكرمون لدنياكم و سلطانكم، و هذا إنما أكرمته للّه تعالى: فقد روينا عن المسيح، عليه السلام، أنه قال:

من أكرمه اللّه تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه، فكأنما ألقمه حجرا. و كان الصميل أمّيّا، فلذلك عرّض به، فقال له القوم: دعنا من هذا، و انظر فيما قصدنا له، فحاجتنا حاجة الرجل الذى قصدك فأكرمته، فانظر فى شأننا، فقال له: أنتم ملوك الناس، و ليس يرضيكم إلّا الكثير، وها أنا أهب لكم مائة ضيعة تقتسمونها عشرا عشرا، و كتب لهم بها، و أمر و كلاءه بتسليمها إليهم، فكان القوم يرونها من أطيب أملاكهم، انتهى.

[حسد موسى بن نصير طارقا و اشتراكه فى فتح الأندلس]

قال ابن حيّان و غيره: و لمّا بلغ موسى بن نصير ما صنعه طارق بن زياد و ما أتيح له من الفتوح حسده، و تهيّأ للمسير إلى الأندلس فعسكر و أقبل نحوها و معه جماعة الناس و أعلامهم، و قيل: إنهم كانوا ثمانية عشر ألفا، و قيل: أكثر، فكان دخوله إلى الأندلس فى شهر رمضان سنة ثلاث و تسعين، و تنكّب الجبل الذى حلّه طارق، و دخل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى، فلما احتلّ الجزيرة الخضراء قال: ما كنت لأسلك طريق طارق، و لا أقفو أثره، فقال له العلوج الأدلّاء أصحاب يليان: نحن نسلكك طريقا هو أشرف من طريقه، و ندلّك على مدائن هى أعظم خطرا و أعظم خطبا و أوسع غنما من مدائنه، لم تفتح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۱۶

بعد، يفتحها اللّه عليك، إن شاء اللّه تعالى، فملىء سرورا. و كان شفوف طارق قد غمّه، فساروا به فى جانب ساحل شذونة، فافتتحها عنوة، و ألقوا بأيديهم إليه، ثم سار إلى مدينة قرمونة، و ليس بالأندلس أحصن منها، و لا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال، فدخلها بحيلة توجّهت بأصحاب يليان، دخلوا إليهم كأنهم فلّال و طرقهم موسى بخيله ليلا- ففتحوا لهم الباب، و أوقعوا بالأحراس، فملكت المدينة. و مضى موسى إلى إشبيلية جارتها فحاصرها، و هى أعظم مدائن الأندلس شأنا، و أعجبها بنيانا، و أكثرها آثارا، و كانت دار الملك قبل القوطيين، فلما غلب القوطيون على ملك الأندلس حوّلوا السلطان إلى طليطلة، و بقى رؤساء الدين فيها أعنى إشبيلية، فامتنعت أشهرا على موسى، ثم فتحها اللّه عليه، فهرب العلوج عنها إلى مدينة باجة، فضمّ موسى يهودها إلى القصبة، و خلّف بها رجالا، و مضى من إشبيلية إلى لقنت إلى مدينة ماردة، و كانت أيضا دار مملكة لبعض ملوك الأندلس فى سالف الدهر، و هى ذات عزّ و منعة، و فيها آثار و قصور و مصانع و كنائس جليلة القدر فائقة الوصف، فحاصرها أيضا، و كان فى أهلها منعة شديدة و بأس عظيم، فنالوا من المسلمين دفعات، و آذوهم، و عمل موسى دبّابة دبّ المسلمون تحتها إلى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه، فلمّا قلعوا الصخر أفضوا بعده إلى العمل المدعو بلسان العجم ألاشه ماشه، فنبت عنه معاولهم و عدّتهم، و ثار بهم العدوّ على غفلة، فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة، فسمّى ذلك الموضع برج الشهداء، ثم دعا القوم إلى السّلم، فترسل إليه فى تقريره قوم من أماثلهم أعطاهم الأمان و احتال فى توهيمهم فى نفسه، فدخلوا عليه أول يوم، فإذا هو أبيض الرأس و اللحية كما نصل خضابه، فلم يتّفق لهم معه أمر، و عاودوه قبل الفطر بيوم، فإذا هو قد قنأ لحيته بالحنّاء فجاءت كضرام عرفج، فعجبوا من ذلك، و عاودوه يوم الفطر، فإذا هو قد سوّد لحيته، فازداد تعجّبهم منه، و كانوا لا يعرفون الخضاب و لا استعماله، فقالوا لقومهم: إنّا نقاتل أنبياء يتخلّقون كيف شاؤوا، و يتصوّرون فى كل صورة أحبّوا؛ كان ملكهم شيخا فقد صار شابّا، و الرأى أن نقاربه و نعطيه ما يسأله، فما لنا به طاقة، فأذعنوا عند ذلك، و أكملوا صلحهم مع موسى على أنّ أموال القتلى يوم الكمين، و أموال الهاربين إلى جلّيقيّة، و أموال الكنائس و حليّها للمسلمين.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۱۷

ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر سنة أربع و تسعين فملكها. ثم إن عجم إشبيلية انتقضوا على المسلمين، و اجتمعوا من مدينتى باجة و لبلة إليهم، فأوقعوا بالمسلمين، و قتلوا منهم نحو ثمانين رجلا، و أتى فلّهم الأمير موسى و هو بماردة، فلمّا أن فتحها وجّه ابنه عبد العزيز بن موسى فى جيش إليهم ففتح إشبيلية و قتل أهلها، و نهض إلى لبلة ففتحها، و استقامت الأمور فيما هنالك، و علا الإسلام، و أقام عبد

العزيز بإشبيليـة، و توجّه الأـمير موسـى من ماردة فى عقب شوال من العام المؤرّخ يريـد طليطلـة، و بلغ طارقا خبره، فاسـتقبله فى وجوه الناس، فلقيه فى موضع من كورة طلبيرة، و قيل: إن موسـى تقـدّم من ماردة فـدخل جلّيقيـة من فجّ نسب إليه، فخرقها حتى وافى طارق بن زياد صاحب مقـدمته بمدينـة أسترقة، فغضّ منه علانية، و أظهر ما بنفسه عليه من حقد، و اللّه أعلم؛ و قيل: لمّا وقعت عينه عليه نزل إليه إعظاما له، فقنّعه موسـى بالسّوط، و وبّخه على اسـتبداده عليه و مخالفته لرأيه. و ساروا إلى طليطلة، فطالبه موسـى بأداء ما عنده من مال الفيء و ذخائر الملوك، و اسـتعجله بالمائدة، فأتاه بها و قد خلع من أرجلها رجلا و خبّأه عنده، فسأله موسـى عنه، فقال: لا علم لى به، و هكـذا أصبتها، فأمر موسـى فجعل لها رجل من ذهب جاء بعيـد الشـبه من أرجلها يظهر عليه التعمّل، و لم يقدر على أحسن منه، فأخلّ بها.

[فتح موسى للأندلس، ثم نكبته، و مائدة سليمان]

و قال ابن الفرضـى: موسـى بن نصـير صاحب فتح الأندلس لخمىّ يكنى أبا عبد الرحمن، يروى عن تميم الدارىّ، و روى عنه يزيد بن مسروق اليحصبى.

و قيل: غزا موسـى بن نصير فى المحرّم سنة ثلاث و تسعين، فأتى طنجة، ثم عبر على الأندلس، فأداخها، لا يأتى على مدينة إلّا فتحها و نزل أهلها على حكمه، و سار إلى قرطبة، ثم قفل على الأندلس سـنة أربع و تسعين، فأتى إفريقية، و سار عنها سنة خمس و تسعين إلى الشـام يؤمّ الوليـد بن عبـد الملـك يجرّ الـدنيا بمـا احتمله من غنائم الأنـدلس من الأموال و الأمتعـة يحملها على العجل و الظّهر، و معه ثلاثون ألف رأس من السبى، فلم يلبث أن هلك الوليد بن عبد الملك و ولى سـليمان، فنكب موسى نكبا أدّاه إلى المتربة، فهلك فى نكبته تلك بوادى القرى سنة سبع و تسعين.

[مائدة سليمان، ثم رجع إلى رواية ابن حيان فى الفتح]

قال ابن حيّان: و هذه المائدة المنوّه باسـمها المنسوبة إلى سليمان النبىّ، عليه الصلاة و السلام، لم تكن له فيما يزعم رواة العجم، و إنما أصلها أن العجم فى أيام ملكهم كان أهل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۱۸

الحسبة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد و الكراسى و أشـباهها من الـذهب و الفضّـة، تحمل الشّـمامسة و القسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت فى أيام المناسك، و يضـعونها على المذابح فى الأعياد للمباهاة بزينتها، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صـيغ فى هذه السبيل، و تأنّقت الأملاك فى تفخيمها، يزيد الآخر منهم على الأـوّل، حتى برزت على جميع مـا اتّخـذ من تلـك الآلات، و طار الـذكر مطاره عنها، و كانت مصوغـة من خالص الـذهب، مرصّـعة بفاخر الدّرّ و الياقوت و الزّمرّد، لم تر الأعين مثلها، و بولغ فى تفخيمها من أجل دار المملكة، و أنه لا ينبغى أن تكون بموضع آلة جمال أو متاع مباهاة إلّا دون ما يكون فيها، و كانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة، فأصابها المسـلمون هنالك، و طار النبأ الفخم عنها. و قـد كان طارق ظنّ بموسـى أميره مثل الـذى فعله من غيرته على ما تهيّأ له و مطالبته له بتسـليم ما فى يده إليه، فاسـتظهر بانتزاع رجل من أرجل هـذه المائـدة خبّأه عنده، فكان من فلجه به على موسـى عدوّه عند الخليفة إذ تنازعا عنده بعد الأثر فى جهادهما ما هو مشهور، انتهى.

و قـال بعض المؤرّخين: إن المائـدة كانت مصـنوعة من الـذهب و الفضـة، و كان عليها طوق لؤلؤ و طوق ياقوت و طوق زمرّد، و كلّها مكلّلة بالجواهر، انتهى.

و ما ذكره ابن حيّان من أن الذى نكب موسـى بن نصـير هو سليمان بن عبد الملك صواب، و أمّا ما حكاه ابن خلّكان من أن المنكب

له الوليد فليس بصحيح، و اللّه أعلم.

رجع إلى كلام ابن حيّان- قالوا: ثم إن موسى اصطلح مع طارق، و أظهر الرضا عنه، و أقرّه على مقدمته على رسمه، و أمره بالتقدّم أمامه فى أصحابه، و سار موسى خلفه فى جيوشه، فارتقى إلى الثغر الأعلى، و افتتح سرقسطة و أعمالها، و أوغل فى البلاد، و طارق أمامه، لا يمرّان بموضع إلّا فتح عليهما، و غنّمهما اللّه تعالى ما فيه. و قد ألقى اللّه الرعب فى قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلّا بطلب صلح، و موسى يجيء على أثر طارق فى ذلك كله، و يكمل ابتداءه، و يوثّق للناس ما عاهدوه عليه، فلما صفا القطر كلّه و طامن نفوس من أقام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۱۹

على سلمه، و وطّأ لأقدام المسلمين فى الحلول به، أقام لتمييز ذلك وقتا، و أمضى المسلمين إلى إفرنجة ففتحوا و غنموا و سلموا و علوا و أوغلوا، حتى انتهوا إلى وادى رودنة، فكان أقصى أثر العرب و منتهى موطئهم من أرض العجم. و قد دوّخت بعوث طارق و سراياه بلد إفرنجة فملكت مدينتى برشلونة و أربونة و صخرة أبنيون و حصن لوذون على وادى ردونة، فبعدوا عن الساحل الذى منه دخلوا جدّا، و ذكر أن مسافة ما بين قرطبة و أربونة من بلاد إفرنجة ثلاثمائة فرسخ و خمسة و ثلاثون فرسخا، و قيل: ثلاثمائة فرسخ و خمسون فرسخا، و لمّا أوغل المسلمون إلى أربونة ارتاع لهم قارله ملك الإفرنجة بالأرض الكبيرة، و انزعج لانبساطهم، فحشد لهم، و خرج عليهم فى جمع عظيم، فلما انتهى إلى حصن لوذون و علمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه، و أقبل حتى انتهى إلى صخرة أبنيون، فلم يجد بها أحدا، و قد عسكر المسلمون قدّامه فيما بين الأجبل المجاورة لمدينة أربونة، و هم بحال غرّة لا عيون لهم و لا طلائع، فما شعروا حتى أحاط بهم عدوّ اللّه قارله، فاقتطعهم عن اللجإ إلى مدينة أربونة، و واضعهم الحرب، فقاتلوا قتالا شديدا استشهد فيه جماعة منهم، و حمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها، و دخلوا المدينة، و لاذوا بحصانتها، فنازلهم بها أياما أصيب له فيها رجال، و تعذّر عليه المقام، و خامره ذعر و خوف مدد للمسلمين، فزال عنهم راحلا إلى بلده، و قد نصب فى وجوه المسلمين حصونا على وادى ردونة شكّها بالرجال فصيّرها ثغرا بين بلده و المسلمين، و ذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس.

[انتصارات موسى و ابنه عبد الأعلى]

و قال الحجارى فى المسهب: إنّ موسى بن نصير نصره اللّه نصرا ما عليه مزيد، و أجفلت ملوك النصارى بين يديه، حتى خرج على باب الأندلس الذى فى الجبل الحاجز بينها و بين الأرض الكبيرة، فاجتمعت الإفرنج إلى ملكها الأعظم قارله، و هذه سمة لملكهم، فقالت له:

ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب؟ كنّا نسمع بالعرب و نخافهم من جهة مطلع الشمس، حتى أتوا من مغربها، و استولوا على بلاد الأندلس و عظيم ما فيها من العدّة و العدد بجمعهم القليل، و قلّة عدّتهم، و كونهم لا دروع لهم، فقال لهم ما معناه: الرأى عندى أن لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه، فإنهم كالسّيل يحمل من يصادره، و هم فى إقبال أمرهم، و لهم نيّات تغنى عن كثرة العدد، و قلوب تغنى عن حصانة الدروع، و لكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم، و يتخذوا المساكن، و يتنافسوا فى الرياسة، و يستعين بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكّنون منهم بأيسر أمر، قال: فكان و اللّه كذلك بالفتنة التى طرأت بين الشاميين و البلديين و البربر و العرب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۲۰

و المضرية و اليمانية، و صار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء، انتهى.

و قيل: إن موسى بن نصير أخرج ابنه عبد الأعلى إلى تدمير ففتحها، و إلى غرناطة و مالقة و كورة ريّة ففتح الكلّ، و قيل: إنه لما حاصر مالقة- و كان ملكها ضعيف الرأى قليل التحفّظ- كان يخرج إلى جنان له بجانب المدينة طلبا للراحة من غمّة الحصار من غير نصب عين و تقديم طليعة، و عرف عبد الأعلى بأمره فأكمن له فى جنبات الجنة التى كان ينتابها، قوما من وجوه فرسانه ذوى رأى و

حزم، أرصدوا له ليلا فظفروا به، و ملكوه، فأخذ المسلمون البلد عنوة، و ملؤوا أيديهم غنيمة.

[انتصارات موسى، ثم عودته إلى المشرق]

و قيل: كانت نفس موسى بن نصير فى ذلك كله تنزعج إلى دخول دار الكفر جلّيقية، فبينما هو يعمل فى ذلك و يعدّ له إذ أتاه مغيث الرومىّ رسول الوليد بن عبد الملك و مولاه يأمره بالخروج عن الأندلس و الإضراب عن الوغول فيها، و يأخذه بالقفول إليه، فساءه ذلك، و قطع به عن إرادته؛ إذ لم يكن فى الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته ذلك غير جليقية، فكان شديد الحرص على اقتحامها، فلاطف موسى مغيثا رسول الخليفة، و سأله إنظاره إلى أن ينفذ عزمه فى الدخول إليها و المسير معه فى البلاد أياما، و يكون شريكه فى الأجر و الغنيمة، ففعل، و مشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو و حصن لكّ، فأقام هناك، و بثّ السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الأخضر، فلم تبق كنيسة إلّا هدمت، و لا ناقوس إلّا كسر، و طاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم و بذل الجزية، و سكنت العرب المفاوز، و كان العرب و البربر كلّما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حطّوا به و نزلوه قاطنين، فاتّسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس، و خذل الشّرك، و بينما موسى كذلك فى اشتداد الظهور و قوّة الأمل إذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليد مغيثا لمّا استبطأ موسى فى القفول، و كتب إليه يوبّخه، و يأمره بالخروج، و ألزم رسوله إزعاجه، فانقلع حينئذ من مدينة لكّ بجليقية، و خرج على الفج المعروف بفجّ موسى، و وافاه طارق فى الطريق منصرفا من الثغر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۲۱

الأعلى، فأقفله مع نفسه و مضيا جميعا و معهما من الناس من اختار القفول. و أقام من آثر السّكنى فى مواضعهم التى كانوا قد اختطّوها و استوطنوها، و قفل معهم الرسولان مغيث و أبو نصر حتى احتلّوا بإشبيلية، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على إمارة الأندلس، و أقرّه بمدينة إشبيلية لاتّصالها بالبحر نظرا لقربه من مكاره المجاز، و ركب موسى البحر إلى المشرق بذى الحجة سنة خمس و تسعين و طارق معه، و كان مقام طارق بالأندلس قبل دخول موسى سنة و بعد دخوله سنتين و أربعة أشهر، و حمل موسى الغنائم و السّبى، و هو ثلاثون ألف رأس و المائدة منوّها بها و معها من الذخائر و الجواهر و نفيس الأمتعة ما لا يقدر قدره، و هو مع ذلك متلهّف على الجهاد الذى فاته، أسف على ما لحقه من الإزعاج، و كان يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلاد إفرنجة، و يقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس إلى الشام مؤملا أن يتخذ مخترقه بتلك الأرض طريقا مهيعا يسلكه أهل الأندلس فى مسيرهم و مجيئهم من المشرق و إليه على البرّ لا- يركبون بحرا، و قيل: إنه أوغل فى أرض الفرنجة حتى انتهى إلى مفازة كبيرة و أرض سهلة ذات آثار، فأصاب فيها صنما عظيما قائما كالسارية مكتوبا فيه بالنقر كتابة عربية قرئت، فإذا هى: يا بنى إسماعيل، انتهيتم فارجعوا، فهاله ذلك، و قال: ما كتب هذا إلّا لمعنى كبير، فشاور أصحابه فى الإعراض عنه و جوازه إلى ما وراءه، فاختلفوا عليه، فأخذ برأى جمهورهم و انصرف بالناس، و قد أشرفوا على قطع البلاد و تقصّى الغاية.

و حكى الرازى: أن موسى خرج من إفريقية إلى الأندلس فى رجب سنة ثلاث و تسعين، و استخلف على إفريقية أسنّ ولده عبد اللّه بن موسى، و كان موسى فى عشرة آلاف، قال:

و كان عبد الملك بن مروان هو الذى أغزى موسى المغرب فى خلافته، ففتح له فى أهله البرابرة فتوح كبار، حتى لقد بعث إلى عبد الملك فى الخمس بعشرين ألف سبيّة، ثم أردفها بعشرين ألفا أخرى، كل ذلك من البربر، فعجب عبد الملك يومئذ من كثرة ذلك.

[اسماء من دخل الأندلس من الصحابة و التابعين]

و زعم ابن حبيب: أنه دخل الأندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة، و هو المنيذر، قال: و دخلها من التابعين ثلاثة: موسى الأمير، و على بن رباح اللخمى، و حيوة بن رجاء التميمى، و قيل: إن ثالثهم إنما هو حنش بن عبد اللّه الصنعانى، صنعاء الشام، و إنهم قفلوا عنها

بقفول موسى، و أهل سرقسطة يزعمون أنّ حنشا مات عندهم و لم يقفل للمشرق، و قبره لديهم مشهور يتبرّكون به و لا يختلفون فيه، فاللّه أعلم.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۲۲

و قيل: إن التابعين أربعة بأبى عبد الرحمن الحبلىّ الأنصارى، و اسمه عبد اللّه بن يزيد، و اللّه أعلم، و خمّسهم بعضهم بحبّان بن أبى جبلة مولى بنى عبد الدار و كان فى ديوان مصر، فبعث به عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية فى جماعة من الفقهاء ليفقّهوا أهلها، و كان روى عن عمرو بن العاص و ابن عباس و ابن عمر، و حدّث عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم و غيره، و غزا مع موسى حين افتتح الأندلس، و انتهى معه إلى حصن من حصون العدو يقال له قرقشونة، و قيل: بل قفل إلى إفريقية فتوفى بها بعد العشرين و مائة.

و قال بعضهم: إن بين قرقشونة هذه و بين برشلونة مسافة خمسة و عشرين يوما، و فيها الكنيسة المعظّمة عند الفرنج المسمّاة شنت مرية، و قد حكى ابن حيّان أن فيها سبع سوار من فضّة خالصة لم ير الراءون مثلها لا يحيط الإنسان بذراعيه على واحدة منها مع طول مفرط.

و حنش الصنعانى المذكور تابعى جليل، كان مع على، رضى اللّه عنه، بالكوفة، و قدم مصر بعد قتله، فصار عداده فى المصريين، و كان فيمن قام مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان فعفا عنه، و كفى الأندلس شرفا دخوله لها.

و على بن رباح بصرى تابعى، يكنّى أبا عبد اللّه، و هو لخمى، ولد عام اليرموك سنة خمس عشرة، قال ابن معين: أهل مصر يقولونه بفتح العين، و أهل العراق يقولونه بضمّها، و روى الليث عن ابنه موسى بن على، و كانت لعلىّ بن رباح عند عبد العزيز بن مروان مكانة، و هو الذى زفّ ابنته أمّ البنين لزوجها الوليد، ثم عتب عليه عبد العزيز فأغزاه إفريقية.

و أما المنيذر الصحابى فلم ينسبه ابن حبيب، و ذكره ابن عبد البرّ فى الصحابة و قال: إنه المنيذر الإفريقى، و روى عنه أبو عبد الرحمن الحبلى، قال: حدّثنا المنيذر الإفريقى، و كان سكن إفريقية، و كان صحب رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلّم، أنه سمعه، صلّى اللّه عليه و سلّم، يقول: «من قال: رضيت باللّه ربّا، و بالإسلام دينا، و بمحمد، صلّى اللّه عليه و سلّم، نبيّا، فأنا الزعيم له، فلآخذنّ بيده، فلأدخلنّه الجنة» و رواه عنه ابن عبد البرّ بسنده إليه، و سيأتى إن شاء اللّه تعالى فى حق المنيذر مزيد بيان.

[عودة موسى إلى الشام و تنكيل سليمان بن عبد الملك به و مقتل عبد العزيز بن موسى]

و لما قفل موسى بن نصير إلى المشرق و أصحابه سأل مغيثا أن يسلم إليه العلج صاحب قرطبة الذى كان فى إساره، فامتنع عليه، و قال: لا يؤدّيه للخليفة سواى، و كان يدلّ بولائه من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۲۳

الوليد، فهجم عليه موسى فانتزعه منه، فقيل له: إن سرت به حيّا معك ادّعاه مغيث، و العلج لا ينكر قوله، و لكن اضرب عنقه، ففعل، فاضطغنها عليه مغيث، و صار ألبا مع طارق الساعى عليه، و استخلف موسى على طنجة و ما يليها من المغرب ابنه الآخر عبد الملك، و قد كان- كما مرّ- استخلف بإفريقية أكبر أولاده عبد اللّه، فصار جميع الأندلس و المغرب بيد أولاده، و ابنه عبد اللّه الذى خلفه بإفريقية هو الفاتح لجزيرة ميورقة. و سار موسى فورد الشام، و اختلف الناس: هل كان وروده قبل موت الوليد أو بعده؟ فمن يقول بالثانى قال: قدم على سليمان حين استخلف، و كان منحرفا عليه، فسبق إليه طارق و مغيث بالشكيّة منه، و رمياه بالخيانة، و أخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة و العلج صاحب قرطبة، و قالا له: إنه قد غلّ جوهرا عظيم القدر أصابه و لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله، فلما وافى سليمان وجده ضغينا عليه، فأغلظ له، و استقبله بالتأنيب و التوبيخ، فاعتذر له ببعض العذر، و سأله عن المائدة، فأحضرها، فقال له: زعم طارق أنه الذى أصابها دونك، قال: لا، و ما رآها قطّ إلّا عندى، فقال طارق: فليسأله أمير المؤمنين عن الرّجل التى تنقصها، فسأله، فقال: هكذا أصبتها، و عوّضتها رجلا صنعتها لها، فحوّل طارق يده إلى قبائه فأخرج الرّجل، فعلم سليمان صدقه و كذب موسى، فحقّق جميع ما رمى به عنده، و عزله عن جميع أعماله، و أقصاه، و حبسه، و أمر بتقصّى حسابه، فأغرمه غرما عظيما

كشفه فيه، حتى اضطر إلى أن سأل العرب معونته، فيقال: إنّ لخما حملت عنه فى أعطيتها تسعين ألفا ذهبا، و قيل: حمله سليمان غرم مائتى ألف، فأدّى مائة ألف، و عجز، فاستجار بيزيد بن المهلب أسير سليمان، فاستوهبه من سليمان، فوهبه إيّاه، إلّا أنه عزل ابنه عبد اللّه عن إفريقية.

و قال الرازى: إن الذى أزعج موسى عن الأندلس أبو نصر رسول الوليد، فقبض على عنانه و ثناه قافلا، و قفل معه من أحبّ المشرق، و كان أكثر الناس قطنوا ببلاد الأندلس لطيبها، فأقاموا فيها.

و ذهب جماعة من أهل التاريخ إلى أن موسى إنما قدم على الوليد، و أن سليمان ولىّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۲۴

العهد لمّا سمع بقرب موسى بن نصير من دمشق- و كان الوليد مريضا- كتب- أى سليمان- إلى موسى يأمره بالتربّص، رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى فيقدم موسى على سليمان فى أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التى ما رئى و لا سمع مثلها، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس، فأبى موسى من ذلك، و منعه دينه منه، وجدّ فى السير حتى قدم و الوليد حىّ، فسلّم له الأخماس و المغانم و التحف و الذخائر، فلم يمكث الوليد إلّا يسيرا بعد قدوم موسى، و توفى، و استخلف سليمان، فحقد عليه، و أهانه، و أمر بإقامته فى الشمس حتى كاد يهلك، و أغرمه أموالا عظيمة، و دسّ إلى أهل الأندلس بقتل ابنه الذى استخلفه على الأندلس، و هو عبد العزيز بن موسى، و كان تولّى الأندلس بعد قفول أبيه عنها باستخلافه إيّاه كما سبق، فضبط سلطانها، و ضمّ نشرها، و سدّ ثغورها، و افتتح فى ولايته مدائن كثيرة ممّا كان قد بقى على أبيه موسى منها، و كان من خير الولاة، إلّا أن مدته لم تطل لوثوب الجند به و قتلهم إيّاه عقب سنة خمس و تسعين فى خلافة سليمان الموقع بأبيه موسى لأشياء نقموها عليه: منها زعموا تزوّجه لزوجة لذريق المكنّاة أمّ عاصم و كانت قد صالحت على نفسها و أموالها وقت الفتح، و باءت بالجزية، و أقامت على دينها فى ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير عبد العزيز، فحظيت عنده، و يقال: إنه سكن بها فى كنيسة بإشبيلية، و إنها قالت له: لم لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للذريق- زوجها الأول- أهل مملكته؟ فقال لها: إن هذا حرام فى ديننا، فلم تقنع منه بذلك، و فهم لكثرة شغفه بها أن عدم ذلك مما يزرى بقدره عندها، فاتّخذ بابا صغيرا قبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه، فينحنون، و أفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له، فرضيت بذلك، فنمى الخبر إلى الجند، مع ما انضمّ إلى ذلك من دسيسة سليمان لهم فى قتله، فقتلوه، سامحه اللّه تعالى!.

و ذكر بعض المؤرّخين أنهم وجدوا فى الحجر بعد ما تقدّم من الكتابة التى هى «ارجعوا يا بنى إسماعيل إلخ» ما معناه: و إن سألتم لم ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض، انتهى.

قال ابن حيّان: و ليحيى بن حكم الشاعر المعروف بالغزال فى فتح الأندلس، أرجوزة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۲۵

حسنة مطوّلة ذكر فيها السبب فى غزوها نظما، و تفصيل الوقائع بين المسلمين و أهلها، و عداد الأمراء عليها و أسماءهم، فأجاد و تقصّى، و هى بأيدى الناس موجودة انتهى.

و قد عرفت بما سبق تفصيل ما أجمله ابن خلدون، و الروايات فى فتح الأندلس مختلفة، و قد ذكرنا نحن بحسب ما اقتضاه الوقت ما فيه كفاية، و أشرنا إلى بعض الاختلاف فى ذلك، و لو بسطنا العبارة فى الفتح لكان وحده فى مجلد أو أكثر.

[لمحة عن عبد الرحمن الداخل، و عود إلى قصة التنكيل بموسى بن نصير و نهايته، و شىء من صفاته]

و علم مما ألمعنا به من كلام ابن خلدون السابق ذكر الولاة للأندلس من لدن الفتح، و هم من قبل بنى مروان بالمشرق المنفردين بإمامة المسلمين أجمعين قبل تفرّقهم، إلى أن انقرضت دولتهم العظيمة التى هى ألف شهر، فاقتطع الأندلس عن بنى العباس الدائلين على بنى مروان الناسخين لهم فلّ المروانيين عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، و اقتعدها دار مملكة مستقلّة

لنفسه و لأعقابه، و جمع بها شمل بنى أميّة و مواليهم، و أورثها بنيه حقبة من الدهر، بعد أن قاسى فى ذلك خطوبا، و اجتمع عليه ثم على ذرّيّته من بعده أهل الأندلس أجمعون رضا بهم دون بنى العباس، بعد أن حاول بنو العباس ملكها بأن ولّوا بعض رؤساء العرب، و أمروهم بالقيام على عبد الرحمن و الدعاء للعباسيين القاطعين جرثومة دولة بنى مروان، فلم يتيسّر ذلك، و ظفر عبد الرحمن بمن نصب له الحرب فى ذلك، و قتل منهم آلافا، و ذلك فى مدة المنصور كما سيأتى إن شاء اللّه تعالى عند ذكر عبد الرحمن الداخل فى موضع آخر، و سنذكر قريبا ولاة الأندلس من حين الفتح إلى إمارة الداخل، و إن سبق فى كلام ابن خلدون.

و قال بعضهم: كانت ولادة موسى بن نصير فى خلافة عمر بن الخطاب، رضى اللّه عنه، سنة تسع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة و أجلّ السلام، و على آله و صحبه أجمعين! انتهى.

و قال الحجارى فى «المسهب»: يحكى أنّ موسى بن نصير ألقى بنفسه على يزيد بن المهلب لمكانه من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، و طلب منه أن يكلّمه فى أن يخفّف عنه؛ فقال له يزيد: أريد أن أسألك فأصغ إلىّ؛ قال: سل عمّا بدا لك، فقال له: لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس، و أعرفهم بمكايد الحروب و مداراة الدنيا، فقل لى: كيف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۲۶

حصلت فى يد هذا الرجل بعدما ملكت الأندلس، و ألقيت بينك و بين هؤلاء القوم البحر الزّخّار، و تيقّنت بعد المرام و استصعابه، و استخلصت بلادا أنت افترعتها، و استملكت رجالا لا يعرفون غير خيرك و شرّك، و حصل فى يدك من الذخائر و الأموال و المعاقل و الرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك فى يد من لا يرحمك، ثم إنك علمت أن سليمان وليّ عهد، و أنه المولّى بعد أخيه، و قد أشرف على الهلاك لا محالة، و بعد ذلك خالفته، و ألقيت بيدك إلى التهلكة، و أحقدت مالكك و مملوكك، قال: يعنى سليمان و طارقا، و ما رضا هذا الرجل عنك إلّا بعيد، و لكن لا آلو جهدا، فقال موسى: يا ابن الكرام، ليس هذا وقت تعديد، أما سمعت «إذا جاء الحين، غطّى على العين» فقال: ما قصدت بما قلت لك تعديدا و لا تبكيتا، و إنما قصدت تلقيح العقل، و تنبيه الرأى، و أن أرى ما عندك؟ فقال موسى: أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الأرض عن بعد، و يقع فى الفخ و هو بمرأى عينه؟ ثم كلّم فيه سليمان، فكان من جوابه «إنه قد اشتمل رأسه بما تمكّن له من الظهور، و انقياد الجمهور، و التحكّم فى الأموال و الأبشار، على ما لا يمحوه إلّا السيف، و لكن قد وهبت لك دمه، و أنا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يردّ ما غلّ من مال اللّه». قال: و آلت حاله إلى أن كان يطاف به ليسأل من أحياء العرب ما يفتكّ به نفسه، و فى تلك الحال مات، و هو من أفقر الناس و أذلّهم، بوادى القرى، سائلا من كان نازلا به.

و قال أحد غلمانه ممّن وفى له فى حال الفقر و الخمول: لقد رأيتنا نطوف مع الأمير موسى بن نصير على أحياء العرب، فواحد يجيبنا، و آخر يحتجب عنّا، و لربما دفع إلينا على جهة الرحمة الدرهم و الدرهمين، فيفرح بذلك الأمير ليدفعه إلى الموكلين به، فيخفّفون عنه من العذاب، و لقد رأيتنا أيام الفتوح العظام بالأندلس نأخذ السّلوب من قصور النصارى، فنفصل منها ما يكون من الذهب و غير ذلك و نرمى به، و لا نأخذ إلّا الدّرّ الفاخر، فسبحان الذى بيده العزّ و الذلّ و الغنى و الفقر.

قال: و كان له مولى قد وفى له و صبر عليه إلى أن ضاق ذرعه بامتداد الحال، فعزم على أن يسلمه و هو بوادى القرى فى أسوإ حال، و شعر بذلك موسى، فخضع للمولى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۲۷

المذكور، و قال له: يا فلان، أ تسلّمنى فى هذه الحالة؟ فقال له المولى، من شدّة ما كان فيه من الضجر: قد أسلمك خالقك و مالكك الذى هو أرحم الراحمين، فدمعت عيناه، و جعل يرفعهما إلى السماء خاضعا مهينما بشفتيه، فما سفرت تلك الليلة إلّا عن قبض روحه، رحمة اللّه عليه! فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يترحّم عليه، و إنّ فعل سليمان به و بولده و كونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذى تركه نائبا عنه بالأندلس و قد جىء به من أقصى المغرب بين يديه من و صماته التى تعدّ عليه طول الدهر، لا جرم أنّ اللّه

تعالى لم يمتّعه بعده بملكه و شبابه.

و ذكر ابن حيّان أن موسى كان عربيّا فصيحا، و قد سبق من مراجعة يزيد بن المهلّب ما يدلّ على بلاغته، و يكفى منها ما ذكره ابن حيّان أنه كتب إلى الوليد بن عبد الملك فيما هاله من فتوح الأندلس و غنائمها «إنها ليست الفتوح، و لكنها الحشر».

و قال الحجارى: إن منازعة جرت بينه و بين عبد اللّه بن يزيد بن أسيد بمحضر عبد الملك بن مروان ألجأته إلى أن قال شعرا منه: [البسيط]

جاريت غير سؤوم فى مطاولة لو نازع الحقل لم ينزع إلى حصر

و تقدّم ما ذكره غير واحد كابن حيّان أن موسى مولى عبد العزيز بن مروان، و كذا ذكره الحجارى، ثم تجهّز مع أمّ البنين بنت عبد العزيز حين ابتنى بها الوليد بن عبد الملك، فكانت تنمى مكانته عند الوليد إلى أن بلغ ما بلغ. و أشهر من كان فى صحبة موسى بن نصير من مواليه طارق المشهور بالفتوح العظيمة، و طريف، و قد جرى ذكرهما فى كتابنا هذا بما اقتضاه الاختصار.

و قال ابن سعيد، بعد ذكره الخلاف فى أن موسى هل هو لخمى صريح أو بالولاء، أو بربرى، أو مولى لعبد العزيز بن مروان، ما صورته: و كان فى عقبه نباهة فى السلطة، ولّى ابنه عبد العزيز سلطنة الأندلس، و عبد الملك سلطنة المغرب الأقصى، و عبد اللّه سلطنة إفريقية.

و ذكر الحجارى أن أصله من وادى القرى بالحجاز، و أنه خدم بنى مروان بدمشق، و تنبّه شأنه، فصرّفوه فى ممالكهم إلى أن ولى إفريقية و ما وراءها من المغرب فى زمن الوليد بن عبد الملك، فدوّخ أقاصى المغرب، و دخل الأندلس من جبل موسى المنسوب إليه المجاور لسبتة، و دوّخ بلاد الأندلس، ثم أوفده الوليد إلى الشام، فوافق مرضه، ثم موته و خلافة أخيه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۲۸

سليمان فعذّبه و استصفى أمواله، و آل أمره إلى أن وجّهه إلى قومه بوادى القرى لعلّهم يعطفون عليه و يؤدّون عنه، فمات بها، و قد نصّ ابن بشكوال على أنه مات بوادى القرى.

أما معارفه السلطانية فيكفيه ولاية ما خلف مصر إلى البحر المحيط بين برىّ البربر و الأندلس.

و أما الأدبية فقد جاءت عنه بلاغة فى النثر و النظم تدخله- مع نزارتها- فى أصحاب درّ الكلام. و ذكر ابن بشكوال أنه من التابعين الذين رووا الحديث، و أن روايته عن تميم الدارىّ، و ذكره فى كتب الأئمة من المصنّفين أنبه و أوعب من أن يخصّ بذكره واحد منهم، و هو غرّة التواريخ الأندلسية، و ذكره إلى الآن جديد فى ألسن الخاصّة و العامّة من أهلها.

و من مسهب الحجارى: كان قد جمع- رحمه اللّه!- من خلال الخير ما أعانه اللّه سبحانه به على ما بنى له من المجد المشيّد، و الذكر الشهير المخلّد، الذى لا يبليه الليل و النهار، و لا يعفّى جديده بلى الأعصار، إلّا أنه كان يغلب عليه ما لا يكاد رئيس يسلم منه، و هو الحقد و الحسد، و المنافسة لا تخلو من ذلك، و أنشد بعض الرؤساء: [الطويل]

و ليس رئيس القوم من يحمل الحقدا فقلبه الرئيس و قال: «من يترك الحقدا»، ثم قال: إن السيد إذا ترك إضمار الخير و الشّرّ و المجازاة عليهما اجترئ عليه، و نسب للضعف و الغفلة، و هل رأيت صفقة أخسر من غفلة رئيس أحقده غيره فنسى ذلك أو تناساه، و عدوّه لا يغفل عنه، و حاسده لا ينفعه عنده إلّا الراحة منه، و هو فى واد آخر عنه، و للّه درّ القائل: [الطويل]

و وضع النّدى فى موضع السّيف بالعلا مضرّ، كوضع السيف فى موضع النّدى

و لكن الأصوب أن يكون الرأى ميزانا: لا يزن الوافى لناقص، و لا يزن الناقص لواف، و يدبّر أمره على ما يقتضيه الزمان، و يقدر فيه حسن العاقبة.

و نصّ ابن بشكوال على أن موسى بن نصير مات بوادى القرى سنة سبع و تسعين، و غزا الأندلس سنة إحدى و تسعين، و دخلها سنة ثلاث و تسعين، و قفل عنها إلى الوليد بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۲۹

عبد الملك بالغنائم سنة أربع و تسعين، و ذكر أن ولايته على الأندلس بالمباشرة- مذ دخلها إلى حين خروجه منها- سنة واحدة، و مكث فيها مولاه طارق سنة، انتهى.

و قد تقدّم شيء من ذلك.

و ذكر ابن بشكوال أيضا أن ابن حبيب قال عن ربيعة: غلّ الناس كلّهم يوم فتح الأندلس، إلّا أربعة نفر فقط كانوا من التابعين: حنش الصنعانى، و أبو عبد الرحمن الحبلىّ، و ابن شماسة، و عياض بن عقبة، انتهى.

[ذكر بعض من دخل الأندلس من التابعين]

قال ابن سعيد: و ممّن دخل الأندلس من غير هؤلاء الأربعة من التابعين على بن رباح اللخمى، و موسى بن نصير فاتح الأندلس، و حبّان بن أبى جبلة القرشى مولاهم، و عبد الرحمن بن عبد اللّه الغافقى صاحب الأندلس المذكور فى سلاطينها، و محمد بن أوس بن ثابت الأنصارى، و زيد بن قاصد السكسكى، و المغيرة بن أبى بردة الكنانى، و عبد اللّه بن المغيرة الكنانى، و حيوة بن رجاء التّميمى، و عبد الجبار بن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، و منصور بن خزامة، و على بن عثمان بن خطاب.

و ذكر ابن حبيب أن عدة من دخل الأندلس من التابعين سوى من لا يعرف نحو عشرين رجلا. و فى كتاب ابن بشكوال أنه دخل الأندلس من التابعين ثمانية و عشرون رجلا، و هم أسّسوا قبلة المسجد الجامع بقرطبة، و سمّى الحجارى فى المسهب هؤلاء المتقدمين.

و ذكر ابن سعيد أنه لم يتحقّق المواضع التى تختصّ بهؤلاء التابعين من بلاد الأندلس، مع جزمه بأنهم دخلوا الأندلس و سكنوا بها، و سيأتى ذكر التابعين الداخلين الأندلس بما هو أشمل من هذا، و قد تقدّم غلول من عدا التابعين من الغنائم.

و قال الليث بن سعد، بعد ذكره أن طارقا أصاب بالأندلس مغانم كثيرة من الذهب و الفضة: إن كانت الطّنفسة لتوجد منسوجة بقضبان الذهب، و تنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ و الياقوت و الزّبرجد، و كان البربر ربما و جدوها فلا يستطيعون حملها حتى يأتوا بالفأس فيضربون به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها و الآخر النصف الآخر لنفسه، و يسير معهم جماعة و الناس مشتغلون بغير ذلك.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۳۰

[غنائم الأندلس، و الحديث عن مائدة سليمان]

و عن يحيى بن سعيد: لمّا افتتحت الأندلس أصاب الناس فيها غنائم، فغلّوا منها غلولا كثيرا حملوه فى المراكب و ركبوا البحر، فسمعوا مناديا يقول: اللّه مغرّق بهم، و تقلّدوا المصاحف، فما نشبوا أن أصابتهم ريح عاصف، و ضربت المراكب بعضها بعضا حتى تكسّرت، و غرق بهم. و أهل مصر ينكرون ذلك، و يقولون: أهل الأندلس ليس هم الذين غرقوا، و إنما هم أهل سردانية، فاللّه أعلم بحقيقة الحال.

و رأيت فى بعض كتب التاريخ أنه وجد فى طليطلة حين فتحت من الذخائر و الأموال ما لا يحصى، فمن ذلك مائة و سبعون تاجا من الذهب الأحمر مرصّعة بالدّرّ و أصناف الحجارة الثمينة، و وجد فيها ألف سيف ملوكى، و وجد فيها من الدّرّ و الياقوت أكيال، و من أوانى الذهب و الفضة ما لا يحيط به وصف، و مائدة سليمان، و كانت- فيما يذكر- من زمرّدة خضراء، و زعم بعض العجم أنها لم تكن لسليمان، و إنّما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهل الحسنة فى دينهم إذا مات أحد منهم أوصى بمال للكنائس، فإذا اجتمع عندهم مال له قدر صاغوا منه الآلة من الموائد العجيبة، و الكراسىّ من الذهب و الفضة، تحمل الشمامسة و القسوس فوقها الأناجيل فى أيام المناسك، و يضعونها فى الأعياد للمباهاة، فكانت تلك المائدة بطليطلة ممّا صنع فى هذا السبيل، و تأنّق الملوك فى تحسينها،

يزيد الآخر منهم فيها على الأول، حتى برزت على جميع ما اتّخذ من تلك الآلات، و طار الذكر بها كلّ مطار، و كانت مصوغة من الذهب الخالص مرصّعة بفاخر الدّرّ و الياقوت و الزّبرجد، و قيل: إنها من زبرجدة خضراء حافاتها و أرجلها منها، و كان لها ثلاثمائة و خمس و ستّون رجلا، و كانت توضع فى كنيسة طليطلة، فأصابها طارق، انتهى.

و قد ذكرنا فيما مرّ عن ابن حيّان ما فيه نظير هذا، و ذكرنا فيما مضى من أمر المائدة و غيرها ما فيه بعض تخالف، و ما ذلك إلّا لأنّا ننقل كلام المؤرّخين، و إن خالف بعضهم بعضا، و مرادنا تكثير الفائدة، و بالجملة فالمائدة جليلة المقدار، و إن حصل الخلاف فى صفتها و جنسها و عدد أرجلها، و هى من أجلّ ما غنم بالأندلس، على كثرة ما حصل فيها من الغنائم المتنوعة الأجناس التى ذكرها إلى الآن شائع بين الناس.

[القبائل العربية التى نزحت إلى الأندلس و استوطنتها]

فاعلم أنه لمّا استقرّ قدم أهل الإسلام بالأندلس و تتامّ فتحها صرف أهل الشام و غيرهم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۳۱

من العرب هممهم إلى الحلول بها، فنزل بها من جراثيم العرب و ساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم إلى أن كان من أمرهم ما كان. فأما العدنانيون فمنهم خندف، و منهم قريش، و أما بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب فى «فرحة الأنفس»: بالأندلس منهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب، و من هؤلاء بنو حمّود ملوك الأندلس بعد انتثار سلك بنى أميّة، و أما بنو أميّة فمنهم خلفاء الأندلس، قال ابن سعيد:

و يعرفون هنالك إلى الآن بالقرشيين، و إنما عمّوا نسبهم إلى أميّة فى الآخر لمّا انحرف الناس عنهم، و ذكروا أفعالهم فى الحسين رضى اللّه عنه، و أما بنو زهرة فمنهم بإشبيلية أعيان متميزون، و أما المخزوميون فمنهم أبو بكر المخزومى الأعمى الشاعر المشهور من أهل حصن المدوّر، و منهم الوزير الفاضل فى النظم و النثر و أبو بكر بن زيدون و والده الذى هو أعظم منه أبو الوليد بن زيدون وزير معتضد بنى عباد.

و قال ابن غالب: و فى الأندلس من ينسب إلى جمح، و إلى بنى عبد الدار، و كثير من قريش المعروفون بالفهريين من بنى محارب بن فهر، و هم من قريش الظواهر، و منهم عبد الملك بن قطن سلطان الأندلس، و من ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء، و بنو الجدّ الأعيان العلماء، و من بنى الحارث بن فهر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى سلطان الأندلس الذى غلبه عليها عبد الرحمن الأموى الداخل، و جدّ يوسف عقبة بن نافع الفهرى صاحب الفتوح بإفريقية، قال ابن حزم: و لهم بالأندلس عدد و ثروة. و أما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير، و جلّهم فى طليطلة و أعمالها، و لهم ينسب الوقّشيّون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضى أبو الوليد و الوزير أبو جعفر، و منهم أبو الحسين بن جبير العالم صاحب الرحلة، و قد ذكرناه فى محله. و أما هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر، فذكر ابن غالب أن منزلهم بجهة أريولة من كورة تدمير. و أما تميم بن مرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر، فذكر ابن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۳۲

غالب أيضا أنهم خلق كثير بالأندلس، و منهم أبو الطاهر صاحب المقامات اللزومية. و أما ضبّة بن أدّ بن طابخة، فذكر أنهم قليلون بالأندلس، فهؤلاء خندف من العدنانية.

و أما قيس عيلان بن إلياس بن مضر من العدنانية، ففى الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم، و منهم من ينتسب إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس، كعبد الملك بن حبيب السّلمى الفقيه صاحب الإمام مالك رضى اللّه عنه، و كالقاضى أبى حفص بن عمر قاضى قرطبة. و من قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة، قال ابن غالب: و هم بإشبيلية خلق كثير، و منهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن، قال ابن غالب: و لهم منزل بجوفىّ بلنسية على ثلاثة أميال منها، و بإشبيلية و غيرها منهم خلق كثير، و

منهم بنو حزم، و هم بيت غير البيت الذى منه أبو محمد بن حزم الحافظ الظاهرى، و هو فارسى الأصل.

و منهم من ينتسب إلى سعد بن بكر بن هوازن، و ذكر ابن غالب أن منهم بغرناطة كثيرا، كبنى جودىّ، و قد رأس بعض بنى جودى. و منهم من ينتسب إلى سلول امرأة نسب إليها بنوها، و أبوهم مرّة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن. و منهم من ينتسب إلى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن. و منهم من ينتسب إلى نمير بن عامر بن صعصعة، قال ابن غالب: و هم بغرناطة كثير. و منهم من ينتسب إلى قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، و منهم بلج بن بشر صاحب الأندلس و آله، و بنو رشيق. و منهم من ينتسب إلى فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان. و منهم من ينتسب إلى أشجع بن ريث بن غطفان، و من هؤلاء محمد بن عبد اللّه الأشجعى سلطان الأندلس. و فى ثقيف اختلاف؛ فمنهم من قال: إنها قيسية، و إن ثقيفا هو قسىّ بن منبّه بن بكر بن هوازن، و منهم بالأندلس جماعة، و إليهم ينتسب الحرّ بن عبد الرحمن الثقفى صاحب الأندلس، و قيل: إنها من بقايا ثمود، انتهى قيس بن عيلان و جميع مضر.

و أما ربيعة بن نزار، فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار، قال فى «فرحة الأنفس»: إن إقليم هؤلاء مشهور باسمهم بجوفىّ مدينة وادى آش، انتهى، و الأشهر بالنسبة إلى أسد أبدا بنو أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. و منهم من ينتسب إلى محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة، قال ابن غالب فى «فرحة الأنفس»: و منهم بنو عطية أعيان غرناطة. و منهم من ينتسب إلى النّمر بن قاسط بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۳۳

هنب بن أقصى بن دعمى بن جديلة بن أسد، كبنى عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ. و منهم من ينتسب إلى تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب، كبنى حمديس أعيان قرطبة، و منهم من ينتسب إلى بكر بن وائل، كالبكريين أصحاب أونبة و شلطيش الذين منهم أبو عبيد البكرى صاحب التصانيف؛ انتهت ربيعة.

و أما إياد بن نزار، و قد يقال: إنه ابن معدّ، و الصحيح الأول، فينتسب إليهم بنو زهر المشهورون بإشبيلية؛ انتهت العدنانية، و هم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام.

و اختلف فى القحطانية: هل هم من ولد إسماعيل أو من ولد هود، على ما هو معروف، و ظاهر صنيع البخارى الأول، و الأكثر على خلافه، و القحطانية هم المعروفون باليمانية، و كثيرا ما يقع بينهم و بين المضرية و سائر العدنانية الحروب بالأندلس، كما كان يقع بالمشرق، و هم بالأكثر بالأندلس، و الملك فيهم أرسخ، إلّا ما كان من خلفاء بنى أميّة، فإن القرشية قدّمتهم على الفرقتين، و اسم الخلافة لهم بالمشرق، و كان عرب الأندلس يتميّزون بالعمائر و القبائل و البطون و الأفخاذ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبى عامر الداهية الذى ملك سلطنة الأندلس، و قصد بذلك تشتيتهم و قطع التحامهم و تعصّبهم فى الاعتزاء، و قدّم القوّاد على الأجناد، فيكون فى جند القائد الواحد فرق من كل قبيل، فانحسمت مادة الفتن و الاعتزاء بالأندلس، إلّا ما جاءت على غير هذه الجهة.

قال ابن حزم: جماع أنساب اليمن من جذمين: كهلان و حمير ابنى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، و قيل: قحطان بن الهميسع بن تيهان بن نابت بن إسماعيل، و قيل: قحطان بن هود بن عبد اللّه بن رباح بن حارف بن عاد بن عوص بن إرم بن سام، و الخلف فى ذلك مشهور. فمنهم كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و منهم الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان، و إليهم ينتسب محمد بن هانىء الشاعر المشهور الإلبيرى، و هو من بنى المهلّب، و من الأزد من ينتسب إلى غسّان، و هم بنو مازن بن الأزد، و غسان: ماء شربوا منه،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۳۴

و ذكر ابن غالب أن منهم بنى القليعى من أعيان غرناطة، و كثير منهم بصالحة، قرية على طريق مالقة، و من الأزد من ينتسب إلى الأنصار على العموم، و هم الجمّ الغفير بالأندلس.

قال ابن سعيد: و العجب أنك تعدم هذا النسب بالمدينة و تجد منه بالأندلس فى أكثر بلدانها ما يشذّ عن العدد كثرة، و لقد أخبرنى من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلّا شيخا من الخزرج و عجوزا من الأوس.

قال ابن غالب: و كان جزء الأنصار بناحية طليطلة، و هم أكثر القبائل بالأندلس فى شرقها و مغربها، انتهى.

و من الخزرج بالأندلس أبو بكر عبادة بن عبد اللّه بن ماء السماء من ولد سعد بن عبادة صاحب رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو المشهور بالموشّحات، و إلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطين غرناطة الذين كان لسان الدين بن الخطيب أحد وزرائهم، و عليهم انقرض ملك الأندلس من المسلمين، و استولى العدوّ على الجزيرة جميعا كما يذكر.

و من أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخى الخزرج، و منهم من ينتسب إلى غافق بن عكّ بن عدثان بن أزان بن الأزد، و قد يقال عكّ بن عدنان- بالنون- فيكون أخا معدّ بن عدنان، و ليس بصحيح؛ قال ابن غالب: من غافق أبو عبد اللّه بن أبى الخصال الكاتب، و أكثر جهات شقورة ينتسبون إلى غافق. و من كهلان من ينتسب إلى همدان، و هو أوسلة بن مالك بن زيد بن أوسلة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان، و منزل همدان مشهور على ستّة أميال من غرناطة، و منهم أصحاب غرناطة بنو أضحى. و من كهلان من ينتسب إلى مذحج، و مذحج: اسم أكمة حمراء باليمن، و قيل: اسم أمّ مالك وطيئ بن أدد بن زيد بن كهلان، قال ابن غالب: بنو سراج الأعيان من أهل قرطبة ينتسبون إلى مذحج. و منزل طيىء بقبلى مرسية. و منهم من ينتسب إلى مراد بن مالك بن أدد، و حصن مراد بين إشبيلية و قرطبة مشهور، قال ابن غالب: و أعرف بمراد منهم خلقا كثيرا. و منهم من ينتسب إلى عنس بن مالك بن أدد، و منهم بنو سعيد مصنفو كتاب «المغرب» و قلعة بنى سعيد مشهورة فى مملكة غرناطة. و من مذحج من ينتسب إلى زبيد، قال ابن غالب: و هو منبّه بن سعد العشيرة بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۳۵

مالك بن أدد. و من كهلان من ينتسب إلى مرّة بن أدد بن زيد بن كهلان، قال ابن غالب:

منهم بنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة. و منهم من ينتسب إلى عاملة، و هى امرأة من قضاعة ولدت للحارث بن عدى بن الحارث بن مرّة بن أدد، فنسب ولدها منه إليها، قال ابن غالب:

منهم بنو سماك القضاة من أهل غرناطة، و قوم زعموا أن عاملة هو ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و قيل: هم من قضاعة. و من كهلان خولان بن عمرو بن الحارث بن مرة، و قلعة خولان مشهورة بين الجزيرة الخضراء و إشبيلية، و منهم بنو عبد السلام أعيان غرناطة.

و منهم من ينتسب إلى المعافر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرّة، و منهم المنصور بن أبى عامر صاحب الأندلس. و منهم من ينتسب إلى لخم بن عدى بن الحارث بن مرّة، و منهم بنو عبّاد أصحاب إشبيلية و غيرها، و هم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة، و منهم بنو الباجى أعيان إشبيلية، و بنو وافد الأعيان. و منهم من ينتسب إلى جذام مثل ثوابة بن سلامة صاحب الأندلس، و بنى هود ملوك شرقىّ الأندلس، و منهم المتوكّل بن هود الذى صحّت له سلطنة الأندلس بعد الموحّدين، و منهم بنو مردنيش أصحاب شرقى الأندلس، قال ابن غالب:

و كان لجذام جزء من قلعة رباح، و اسم جذام عامر، و اسم لخم مالك، و هما ابنا عدىّ.

و من كهلان من ينتسب إلى كندة، و هو ثور بن عفير بن عدى بن الحارث بن مرّة بن أدد، و منهم يوسف بن هارون الرمادى الشاعر. و منهم من ينتسب إلى تجيب و هى امرأة أشرس بن السّكون بن أشرس بن كندة. و من كهلان من ينتسب إلى خثعم بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان، و منهم عثمان بن أبى نسعة سلطان الأندلس، و قد قيل: أنمار بن نزار بن معدّ بن عدنان، انتهت كهلان.

و أمّا حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فمنهم من ينتسب إلى ذى رعين، قال ابن غالب: و ذو رعين هم ولد عمرو بن

حمير فى بعض الأقوال، و قيل: هو من ولد سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير، قال: و منهم أبو عبد اللّه الحنّاط الأعمى الشاعر، قال الحازمى فى «كتاب النسب»: و اسم ذى رعين عريم بن زيد بن سهل، و وصل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۳۶

النسب، و منهم من ينتسب إلى ذى أصبح، قال ابن حزم: هو ذو أصبح بن مالك بن زيد من ولد سبأ الأصغر بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس، و وصل النّسب. و ذكر الحازمى أنّ ذا أصبح من كهلان، و أخبر أنّ منهم مالك بن أنس الإمام، و المشهور أنهم من حمير، و الأصبحيون من أعيان قرطبة، و منهم من ينتسب إلى يحصب. قال ابن حزم: إنه أخو ذى أصبح، و هم كثير بقلعة بنى سعيد، و قد تعرف من أجلهم فى التواريخ الأندلسية بقلعة يحصب، و منهم من ينتسب إلى هوازن بن عوف بن عبد شمس بن وائل بن الغوث، قال ابن غالب: و منزلهم بشرقىّ إشبيلية، و الهوازنيون من أعيان إشبيلية. و منهم من ينتسب إلى قضاعة بن مالك بن حمير، و قد قيل: إنه قضاعة بن معدّ بن عدنان، و ليس بمرضىّ، و من قضاعة من ينتسب إلى مهرة كالوزير أبى بكر بن عمّار الذى وثب على ملك مرسية، و هو مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، و منهم من ينتسب إلى خشين بن نمر بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، و منهم من ينتسب إلى تنوخ، قال ابن غالب: و هو ابن مالك بن فهم بن نمر بن وبرة بن تغلب، قال الحازمى: تنوخ هو مالك بن فهر بن فهم بن تيم اللّه بن أسد بن وبرة. و منهم من ينتسب إلى بلىّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، و منهم البلويّون بإشبيلية. و منهم من ينتسب إلى جهينة بن أسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، قال ابن غالب: و بقرطبة منهم جماعة. و منهم من ينتسب إلى كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان كبنى أبى عبدة الذين منهم بنو جهور ملوك قرطبة و وزراؤها. و منهم من ينتسب إلى عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن أسود بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، و منهم أعيان الجزيرة الخضراء بنو عذرة.

و من أهل الأندلس من ينتسب إلى حضرموت، منهم الحضرميون بمرسية و غرناطة و إشبيلية و بطليوس و قرطبة؛ قال ابن غالب: و هم كثير بالأندلس، و فيه خلاف، قيل: إن حضرموت هو ابن قحطان، و قيل: هو حضرموت بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان- بالجيم- بن قطن بن العريب بن الغرز بن نبت بن أيمن بن الهميسع بن حمير، كذا نسق النّسب الحازمىّ.

و من أهل الأندلس من ينتسب إلى سلامان، و منهم الوزير لسان الدين بن الخطيب حسبما ذكر فى محلّه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۳۷

[أسماء من حكم الأندلس من العرب]

و قد رأيت أن أسرد هنا أسماء ملوك الأندلس من لدن الفتح إلى آخر ملوك بنى أميّة، و إن تقدّم و يأتى ذكر جملة منهم بما هو أتمّ ممّا هنا: فنقول: طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، ثم الأمير موسى بن نصير، و كلاهما لم يتخذ سريرا للسلطنة. ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير، و سريره إشبيلية. ثم أيوب بن حبيب اللخمى، و سريره قرطبة، و كلّ من يأتى بعده فسريره قرطبة و الزهراء و الزاهرة بجانبيها إلى أن انقضت دولة بنى مروان على ما ينبّه عليه. ثم الحرّ بن عبد الرحمن الثقفى. ثم السّمح بن مالك الخولانى. ثم عبد الرحمن بن عبد اللّه الغافقى. ثم عنبسة بن سحيم الكلبى. ثم عذرة بن عبد اللّه الفهرى. ثم يحيى بن سلمة الكلبى. ثم عثمان بن أبى نسعة الخثعمى. ثم حذيفة بن الأحوص القيسى. ثم الهيثم بن عبيد الكلابى. ثم محمد بن عبد اللّه الأشجعى. ثم عبد الملك بن قطن الفهرى. ثم بلج بن بشر بن عياض القشيرى. ثم ثعلبة بن سلامة العاملى. ثم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى. ثم ثوابة بن سلامة الجذامى. ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى. و ههنا انتهى الولاة الذين ملكوا الأندلس من غير موارثة، أفرادا، عددهم عشرون فيما ذكر ابن سعيد، و لم يتعدّوا فى السّمة لفظ الأمير.

قال ابن حيّان: مدّتهم منذ تاريخ الفتح من لذريق سلطان الأندلس النصرانى- و هو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة اثنتين و

تسعين- إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهرى، و تغلّب عبد الرحمن بن معاوية المروانى على سرير الملك قرطبة- و هو يوم الأضحى لعشر خلون من ذى الحجة سنة ثمان و ثلاثين و مائة- ست و أربعون سنة و خمسة أيام، انتهى.

ثم كانت دولة بنى أمية، أولهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك. ثم ابنه هشام الرضى. ثم ابنه الحكم بن هشام. ثم ابنه عبد الرحمن الأوسط. ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن. ثم ابنه المنذر بن محمد. ثم أخوه عبد اللّه بن محمد. ثم ابن ابنه عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد اللّه. ثم ابنه الحكم المستنصر، و كرسيهما الزهراء. ثم هشام بن الحكم، و فى أيامه بنى حاجبه المنصور بن أبى عامر الزاهرة. ثم المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، و هو أول خلفاء الفتنة، و هدمت فى أيامه الزهراء و الزاهرة، و عاد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۳۸

السرير إلى قرطبة. ثم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر.

ثم تخلّلت دولة بنى حمّود العلويين، و أولهم الناصر على بن حمّود العلوى الإدريسى. ثم أخوه المأمون القاسم بن حمّود.

ثم كانت دولة بنى أمية الثانية، و أولها المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر. ثم المستكفى محمد بن عبد الرحمن بن عبد اللّه. ثم المعتمد هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر، و هو آخر خلفاء الجماعة بالأندلس، و حين خلع أسقط ملوك الأندلس الدعوة للخلافة المروانية.

و استبدّت ملوك الطوائف كابن جهور فى قرطبة، و ابن عباد بإشبيلية، و غيرهما، و لم يعد نظام الأندلس إلى شخص واحد، إلى أن ملكها يوسف بن تاشفين الملثّم من برّ العدوة، و فتك فى ملوك الطوائف، و بعد ذلك ما خلصت له و لا لولده على بن يوسف؛ لأن بنى هود نازعوه فى شرقها بالثغر، إلى أن جاءت دولة عبد المؤمن و بنيه، فما صفت لعبد المؤمن بمحمد بن مردنيش الذى كان ينازعه فى شرق الأندلس، ثم صفت ليوسف بن عبد المؤمن بموت ابن مردنيش، ثم لمن بعده من بنيه، و حضرتهم مرّاكش، و كانت ولايتهم تتردّد على الأندلس و ممالكها، و لم يولّوا على جميعها شخصا واحدا لعظم ممالكها، إلى أن انقرضت منها دولتهم بالمتوكل محمد بن هود من بنى هود ملوك سرقسطة و جهاتها، فملك معظم الأندلس بحيث يطلق عليه اسم السلطان، و لم ينازعه فيها إلّا زيّاد بن مردنيش فى بلنسية من شرق الأندلس، و ابن هلالة فى طبيرة من غرب الأندلس، ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته، و لمّا قتله وزيره ابن الرّميمى بالمريّة زاد الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر. و كانت غرب أهل الأندلس فى المائة السابعة يخطبون لصاحب إفريقية السلطان أبى زكرياء يحيى بن أبى محمد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۳۹

عبد الواحد بن أبى حفص، ثم تقلّصت تلك الظلال، و دخل الجزيرة الانحلال، إلى أن استولى عليها حزب الضلال، و اللّه وارث الأرض و من عليها و هو خير الوارثين.

و قد ذكرت فى هذا الكتاب جملة من أخبار ملوك الأندلس ممّا يصلح للمذاكرة، و ربما سرّحت طرف القلم فى بعضهم.

و بنو جهور المشار إليهم قريبا كانوا وزراء الأمويين، ثم إنه لمّا انتثر سلك الخلافة استبدّ بقرطبة الوزير أبو الحزم بن جهور من غير أن يتعدّى اسم الوزارة.

[الوزير أبو الحزم بن جهور]

قال فى «المطمح»: الوزير الأجلّ جهور بن محمد بن جهور، أهل بيت وزارة، اشتهروا كاشتهار ابن هبيرة فى فزارة، و أبو الحزم أمجدهم فى المكرمات، و أنجدهم فى الملمّات، ركب متون الفنون فراضها، و وقع فى بحور المحن فخاضها، منبسط غير منكمش، لا طائش اللسان و لا رعش، و قد كان وزر فى الدولة العامرية فشرفت بجلاله، و اعترفت باستقلاله، فلمّا انقرضت و عافت الفتن و

اعترضت، تحيّز عن التدبير مدّتها، و خلّى لخلافه أعباء الخلافة و شدّتها، و جعل يقبل مع أولئك الوزراء و يدبر، و يدير الأمر معهم و يدبّر، غير مظهر للانفراد، و لا متصرّف فى ميدان ذلك الطّراد، إلى أن بلغت الفتنة مداها، و سوّغت ما شاءت رداها، ذهب من كان يخد فى الرياسة و يخبّ، و يسعى فى الفتنة و يدبّ، و لمّا ارتفع الوبال، و أدبر ذلك الإقبال، راسل أهل التقوى مستمدّا بهم، و معتمدا على بعضهم تخيّلا منه و تمويها، و تداهيا، على أهل الخلافة و ذويها، و عرض عليهم تقديم المعتمد هشام، و أومض منه لأهل قرطبة برق خلّب يشام، بعد سرعة التياثها، و تعجيل انتكاثها، فأنابوا إلى الإجابة، و أجابوا إلى استرعائه الوزارة و الحجابة، و توجّهوا مع ذلك الإمام، و ألمّوا بقرطبة أحسن إلمام، فدخلوها بعد فتن كثيرة، و اضطرابات مستثيرة، و البلد مقفر، و الجلد مسفر، فلم يبق غير يسير حتى جبذ و اضطرب أمره فخلع، و اختطف من الملك و انتزع، و انقرضت الدولة الأموية، و ارتفعت الدولة العلوية، و استولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم، و دبّر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۴۰

أمرها بالجدّ و العزم، و ضبطها ضبطا أمّن خائفها، و رفع طارق تلك الفتنة و طائفها، و خلا له الجو فطار، و قضى اللّبانات و الأوطار، فعادت له قرطبة إلى أكمل حالتها، و انجلى به نور جلالتها، و لم تزل به مشرقة، و غصون الآمال فيها مورقة، إلى أن توفى سنة ۴۳۵ فانتقل الأمر إلى ابنه أبى الوليد، و اشتمل منه على طارف و تليد. و كان لأبى الحزم أدب و وقار و حلم سارت به الأمثال، و عدم فيها المثال، و قد أثبتّ من شعره ما هو لائق، و فى سماء الحسن رائق، و ذلك قوله فى تفضيل الورد: [الكامل]

الورد أحسن ما رأت عينى و أز كى ما سقى ماء السّحاب الجائد

خضعت نواوير الرّياض لحسنه فتذلّلت تنقاد و هى شوارد

و إذا تبدّى الورد فى أغصانه يزهو، فذا ميت و هذا حاسد

و إذا أتى وفد الرّبيع مبشّرا بطلوع وفدته فنعم الوافد

ليس المبشّر كالمبشّر باسمه خبر عليه من النّبوّة شاهد

و إذا تعرّى الورد من أوراقه بقيت عوارفه فهنّ خوالد

انتهى المقصود منه.

و كأنه عارض بهذه الأبيات فى تفضيل الورد قول ابن الرومى فى تفضيل النرجس عليه من قصيدة: [الكامل]

للنرجس الفضل المبين و إن أبى آب و حاد عن الحقيقة حائد

و هى مشهورة.

و ردّ على ابن الرومى بعضهم بقوله: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۱؛ ص۲۴۰

يا من يشبّه نرجسا بنواظر دعج تنبّه إنّ فهمك فاسد

إلخ، و هى أيضا مشهورة.

[كتاب أبى مطرف بن عميرة لأبى جعفر بن أمية]

رجع إلى ما كنّا فيه: و كانت لأهل الأندلس بين زمان الفتح و ما بعده وقائع فى الكفّار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۴۱

شفت الصدور من أمراضها، و وفت النفوس بأغراضها، و استولت على ما كان لملّة الكفر من جواهرها و أعراضها، ثم وقع الاختلاف، بعد ذلك الائتلاف، فعصفت ريح العدوّ و الحروب سجال، و أعيا العلاج حكماء الرجال، فصار أهل الأندلس يتذكّرون موسى بن

نصير و طارق، و من بعدهما من ملوك الأندلس الذين راعت العدوّ الكافر منهم طوارق.

و ما أحسن ما أعرب الإمام الكاتب القاضى أبو المطرف بن عميرة، عمّا يشمل هذا المعنى و غيره، فى كتاب بعث به إلى الشيخ أبى جعفر بن أميّة، حين حلّ الرّزء ببلنسية، و هو: [الطويل]

ألا أيها القلب المصرّح بالوجد أما لك من بادى الصّبابة من بدّ

و هل من سلوّ يرتجى لمتيّم له لوعة الصادى و روعة ذى الصّدّ

يحنّ إلى نجد، و هيهات! حرّمت صروف الليالى أن يعود إلى نجد

فيا جبل الريّان، لا ريّ بعدما عدت غير الأيام عن ذلك الورد

و يا أهل ودّى و الحوادث تقتضى خلوّى عن أهل يضاف إلى الودّ

ألا متعة يوما بعارية المنى فإنّا نراها كلّ حين إلى الردّ

أمن بعد رزء فى بلنسية ثوى بأحنائنا كالنّار مضمرة الوقد

يرجّى أناس جنّة من مصائب تطاعن فيهم بالمثقّفة الملد

ألا ليت شعرى هل لها من مطالع معاد إلى ما كان فيها من السّعد

و هل أذنب الأبناء ذنب أبيهم فصاروا إلى الإخراج من جنّة الخلد

مرحبا بالسّحاءة، و ما أعارت أفقى من الإضاءة، وردت تسحر النّهى، و تسحب ذيلا على السّها، و تهزّ من المسرّة أعطافا، و تردّ من نجوم المجرّة نطافا، عامت من الظلمة فى موجها، ثم غلبت الشهب على أوجها، فقلب العقرب يجب، و سهيل بداره يحتجب، و الطّرف غضيض، و جناح الطائر مهيض، و صاحب الأخبية يقرض، و الذابح عن ذبيحته يعرض، و رامح السماكين تخونه السلاح، و واقع النّسرين يودّ لو أنه يخفيه الصباح، بلاغة تفتن كلّ لبيب،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۴۲

و ترعى روض كلّ أديب، و تغضّ على رغم العدوّ من حبيب، إنّ من البيان لسحرا، و يا أيها الجواد وجدناك بحرا، أدريت، أىّ برى بريت، و بأىّ قمر اهتديت، ليلة سريت، افتتحت بأبياتك الحسان، و نظمتها نظم الجمان، فعوذت سبعتها بالسّبع، و عرفت منها براعة ذلك الطبع، ثم نثرت على القرطاس شذور النثور، بل من جواهر النحور، ما استوقف النّظّار، و بهرج اللّجين و النّضار، و رأيتك استمددت و لك الباع الأمدّ، و أعرت محاسنك و العارية تردّ، و جئت باللألاءة تروق أربعتها، و تخرس بها قعقعة الأشعار و جعجعتها، فأدّت من حسنها ما يسرّ، و اجتمع لمن روى القطعتين ما نظم فيها و هو الدّرّ. و أجريت خبر الحادثة التى محقت بدر التمام، و ذهبت بنضارة الأيام، فيا من حضر يوم البطشة، و عزّى فى أنسه بعد تلك الوحشة، أ حقّا أنه دكّت الأرض، و نزف المعين و البرض، و صوّح روض المنى، و صرّح الخطب و ما كنى؟ أبن لى كيف فقدت رجاحة الأحلام، و عقدت مناحة الإسلام، و جاء اليوم العسر، و أوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر؟ حلم ما نرى؟ بل ما رأى ذا حالم، طوفان يقال عنده لا عاصم، من ينصفنا من الزمان الظالم؟ اللّه بما يلقى الفؤاد عالم. بالله أىّ نحو تنحو، و مسطور تثبت و تمحو، و قد حذف الأصلى و الزائد، و ذهبت الصّلة و العائد، و باب التعجب طال، و حال البائس لا تخشى الانتقال، و ذهبت علامة الرفع، و فقدت سلامة الجمع، و المعتلّ أعدى الصحيح، و المثلّث أردى الفصيح، و امتنعت العجمة من الصّرف، و أمنت زيادتها من الحذف. و مالت قواعد الملّة، و صرنا إلى جمع القلّة، و للشّرك صيال و تخمّط، و لقرنه فى شركه تخبّط، و قد عاد الدين إلى غربته، و شرق الإسلام بكربته، كأن لم يسمع بنصر بن نصير، و طرق طارق بكل خير، و نهشات حنش و كيف أعيت الرّقى، و أذالت بليل السّليم يوم الملتقى، و لم تخبر عن المروانية و صوائفها، و فتى معافر و تعفيره للأوثان و طوائفها، للّه ذلك السلف، لقد طال الأسى عليهم و الأسف. و بقى الحكم العدل، و الربّ الذى قوله الفصل، و بيده الفضل، ربّنا أمرت فعصينا، و نهيت فما انتهينا، و ما كان ذلك جزاء إحسانك إلينا، أنت العليم بما أعلنّا و ما أخفينا، و المحيط بما لم نأت و ما

أتينا، لو أننا فيك أحببنا و قلينا، لم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۴۳

ترنا من الفرقة ما رأينا، و لم تسلّط عدوّك و عدونا علينا، لكن أنت أرحم من أن تؤاخذنا بما جنينا، و أكرم من أن لا تهب حقوقك إلينا.

و أشرت أيها الأخ الكريم إلى استراحة إليّ، و تنسّم بما لديّ، لتبرّد- كما زعمت- حرّ نفس، و تقدح زناد قبس، و هيهات صلد الزند، و ذوى العرار و الرّند، و أقشع الشؤبوب، و ركد ما كان يظنّ به الهبوب، فالقلم دفين لا يحشر، و ميّت لا ينشر، و الطبع قد نكص القهقرى، و قلّ منزله أن يدعى له النّقرى، فها هو لا يملك مبيتا، و لا يجد لقلمه تثبيتا، و أنت- أبقاك اللّه عزّ و جلّ!- بمقتبل الآداب، طائر هيعة الشباب، و أين سنّ السّموّ من سنّ الانحطاط، و وقت الكسل من وقت النشاط، و قد راجعتك لا داخلا فى حلبتك، بل قاضيا حقّ رغبتك، و اللّه تعالى يجعلك بوسيلة العلم مترقيا، و بجنّة الطاعة متوقّيا، و لهناء الأنفس مستقبلا و متلقيا! بمنّه، و السلام، انتهى.

[كتاب أبى المطرف إلى سلطان أفريقية]

و كتب، رحمه اللّه، إلى سلطان إفريقية الوارث ملك بنى عبد المؤمن بتلك النواحى، المستولى على البلدان و الضواحى، و قد كان لأهل الأندلس أمل فى أخذه بثأرهم، و ضمّ انتثارهم، ما صورته: [الرمل]

شاقة غبّ الخيال الوارد بارق هاج غرام الهاجد

صدق وعد للتلاقى ثم ما طرقا إلّا بخلف الواعد

و كلا الزّورين من طيف و من وافد تحت الدياجى وارد

لم يكن بعد السّرى مستمتع فيه للرّائى و لا للرائد

و شديد بثّ قلب هائم يشتكيه عند ربع هامد

بالأمير المرتضى عزّ الهدى و ثنى عطف الملىّ الواجد

و به أصحب ما كان يرى حاملا أنف الأبىّ الشارد

إنّما الفخر لمولانا أبى زكريّاء بن عبد الواحد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۴۴

ملك لو لا حلاه الغرّ لم يجر بالحمد لسان الحامد

و لو انّ العذب أبدى رغبة عنه لم يشف غليل الوارد

فضله مثل سنى الشمس، و هل لسنى الشمس يرى من جاحد

قهر البغى بجدّ صادع ما تعدّاه وجدّ صاعد

إنّما آل أبى حفص هدى للورى من غائب أو شاهد

قعدوا فوق النجوم الزّهر عن همم نبهن عزم القاعد

و عن الإسلام ذادوا عندما فلّ طول العهد غرب الذائد

أىّ فخر عمرىّ المنتمى ورثوه ماجدا عن ماجد

ما الفتوح الغرّ إلّا لهم بين ماض بادئ أو عائد

فى محيّا لاحق من سابق و على المولود سيما الوالد

و ليحيى راجح الحلم الذى ترك الطّود بعطفى مائد

عقد أحسابهم تمّ به مثل ما تمّ حساب العاقد

أيّها الجامع ما قد أحرزوا جمع من همّته فى الزائد

هذه الأمة قد أوسعتها نظرا يكلأ ليل الراقد

لم تزل منك بخير طارف ريشه تال قدامى تالد

و لهم منك ليوم حاضر و غد رأى البصير الناقد

أرشد اللّه لأولى نظر بالورى رأى الإمام الراشد

و تولّاه بتوفيق الألى سعدوا من عاقد أو عاهد

و له فى اللّه أوفى كافل بالذى يبقى و أكفى عاضد

نصر اللّه تعالى مولانا و أيّده، و شدّ ملكه و شيّده، و أبقى للفضل أيّامه، و للفصل أحكامه! و أظفر بأعناق الأشقياء حسامه! و وفّر من اتّساق النعم و الآلاء حظوظه و أقسامه! و الحمد للّه ثم الحمد للّه على أن جعل به حرم الأمة آمنا، و وهج الفتنة ساكنا، و أبواب الصلة و المعروف لا- تعرف إلّا واصلا أو آذنا، و تلافى فلّ الإسلام منه بفيئاته التى منها ينتظرون الكرّ، و بها يوعدون الفتح الأعزّ و النصر الأغرّ! فهم بين جدة قبضوها، و عدة رضوها، و ارتقاب للفتح أكبر هممهم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۴۵

منه درك الثار، و انتصاف لأهل الجنّة من أهل النار، فأمّا الأوطان فقد أسلتهم عنها جهة تنبت العزّ فيما تنبته، و تنفى من الضيم ما تلك تثبته، و ما ذكر الساخط، على المحل الساقط، منازل عادت على مبانيها أطلالا، و مغانيها أمحالا، و للعبد حال يستقبل بها من النظر الكريم- أدامه اللّه تعالى!- ما أعين الآمال إليه صور، و رجاء الجميع عليه مقصور، انتهى.

[من خطاب لأبى المطرف إلى بعض ذوى الألباب]

و الغاية فى هذا الباب ما كتب به- رحمه اللّه!- من جملة كتاب لبعض ذوى الألباب، و نصّ محل الحاجة منه: نخصّ الجهة البعيدة الصّيت و الاسم، الشهيرة العمل و العلم، درّة تاجنا، و ضوء سراجنا، و نكتة احتجاجنا، أبقاها اللّه تعالى فى أعيننا منارا، و لأندلسنا فخارا، على أنه و إن بقيت المفاخر، فقد أودى المفاخر، و إن أضاء الطالع، فقد درجت المطالع، و غلب عليها عداة زووا عنها وجوهنا، و أروا فيها مكروهنا، حتى أنى أتيت بشعر فيه استسقاء للديار، على عادة الأشعار، فقلت: [الكامل]

زدنا على النائين عن أوطانهم و إن اشتركنا فى الصّبابة و الجوى

إنّا وجدناهم قد استسقوا لها من بعد أن شطّت بهم عنها النّوى

و يصدّنا عن ذاك فى أوطاننا مع حبّها الشّرك الذى فيها ثوى

حسناء طاعتها استقامت بعدنا لعدوّنا، أفيستقيم لها الهوى

قلت: ما رأيت و لا سمعت مثل هذه الأبيات فى معناها، العالية فى مبناها، فإنّ فيها الإشارة إلى استيلاء النصارى- دمّرهم اللّه!- على تلك الديار، و ثبوت قدمهم فيها على طبق ما حصل لهم فيه اختيار، مع إدماج حبّه لها الذى لا يشكّ فيه و لا يرتاب، و اشتمالها على المحاسن التى هى بغية الرائد و نجعة المنتاب، و لكل أجل كتاب، و إذا نفذ سهم المقدور فلا عتاب.

و مما يستولى على الخواطر، و يروى رياض الأفكار بسحب بلاغته المواطر، قوله- رحمه اللّه تعالى!- يخاطب أبا الحسن الرّعينى سنة (۶۳۴): [الكامل]

يا صاحبى و الدهر- لو لا كرّة منه على حفظ الذّمام- ذميم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۴۶

أ منازعى أنت الحديث؟ فإنه ما فيه لا لغو و لا تأثيم

و مروّض مرعى منای فنبته من طول إخلاف الغيوم هشيم

طال اعتبارى بالزمان، و إنما داء الزمان كما علمت قديم

مجفوّ حظّ لا ينادى ثم لا ينفكّ عنه الحذف و الترخيم

و أرى إمالته تدوم و قصره فعلام يلغى المدّ و التفخيم

و علام أدعو و الجواب كأنما فيه بنصّ قد أتى التحريم

لم ألق إلّا مقعدا، غير الأسى فلدىّ منه مقعد و مقيم

و شرابى الهمّ المعتّق خالصا فمتى يساعدنى عليه نديم

غارات أيام علىّ جوارح قعديّها فى طبعه التحكيم

و لواعج يحتاج صالى حرّها أمرا به قد خصّ إبراهيم

و لقد أقول لصاحب هو بالذى أدركت من علم الزمان عليم

لا يأس من روح الإله و إن قست يوما قلوب الخلق فهو رحيم

[رسالة من أبى المطرف إلى أبى الحسن الرعينى]

و يهزّنى، و يستفزّنى، ما كتبه- رحمه اللّه تعالى!- من رسالة: كتبته إلى سيدى و هو السيد حقيقة، و أخى و قد كتب الدهر بذلك وثيقة، أبقى اللّه تعالى جلاله محروسا، و ربع وفائه لا يخشى دروسا، من رباط الفتح و أنا بحقه عليم، و على عهده مقيم، و شأنى توقير له و تعظيم، و حبّ فيه خالص كريم، و وصلنى خطابه الخطير المبرور، فكنت به كالصائم رأى الهلال، و الهائم عاين ماء الزّلال، علق ليس يوازيه علق، و سحر لكنه حلال طلق، و نظم لذكر الطائى طاو، و صنعة و لم يروها راء و لا راو، رمت ابن الرومى بالخمول، و بشرت اسم بشار من الفحول، و حكمت بأن النّمرىّ فى نمرة الهوان مدرج، و السّرىّ عن سراوة الإحسان مخرج. فأمّا النثر فصهيل لا يجاوبه الرّغاء، و طراز لا يحسنه البلغاء، و نقد تزيف معه النقود، و مدى تنقطع دونه الضّمّر القود، و غادر الصابئ و صباه غير ذات هبوب، و الصاحب و هو من العجز مع شر مصحوب، و الميكالىّ و ميكاله مرفوض، و الحريرىّ و حريرة فى سوق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۴۷

الكساد معروض، فأما بحر رئيس أرّجان، فقد استخرج منه اللؤلؤ و المرجان، و أبقاه فى ضحضاح، بل تركه يمشى بأذرح ضاح، فمن ذا يجارى فارس الصّفّين و إمام الصنفين؟ أبلغ من خطّ بقلم، و أشهر من نار على علم، و ما ذا يقال فى أنامل تطرز بها الصحف، و خمائل تفخر بها الروضة الأنف، و اسم فى شرق البلاد و غربها ظاهر، و وسم بالكتابة و النجابة لم يكن لبنى وهب و آل طاهر، فالزمان يأثر، ما ينثر، و يعظّم، ما ينظم، و لو أن الأزمنة قبله غمرت المحاضر بكل ناجم، و نشرت المقابر عن الصّنوبرى و كشاجم، و جاءت بالكتّاب من كل جيل، و الشعراء رعيلا بعد رعيل، لطال هذا العصر بواحده آلافها، و أنسى بخلفه أسلافها، انتهى.

[رسالة أبى المطرف إلى صاحبين له]

و كتب- رحمه اللّه تعالى!- إلى صاحبين له فى معنى ما ألمعنا به آنفا، ما صورته: [مخلع البسيط]

تحيّة منكما أتتنى طابت كما طاب مرسلاها

و يا لها أذكرت عهودا قلبى و اللّه ما سلاها

حللتما فى البلاد أرضا ريح صباها عنى سلاها

لم يصب قلبى إلى سواها يوما و لم يسل عن سلاها

كتابى أيها الأخوان اللذان بودّهما أقول، و عن عهدهما لا أحول، أنزلكما اللّه تعالى خير منزل! و جعلكما من النوائب و الشوائب بمعزل! من رباط الفتح و لبّى قديما ملكتما رقّه، و قلبى تعلّما و تعليما عرفتما صدقه، كيف حالكما من سفر طويتما خبره، حين تجشّمتما غرره؟ و كيف سمحت نفوسكما بأمّ الحصون، و ذات الظلال و العيون؟ تربة الآباء، و منزلة الجمحيّين النّجباء، حتى صرمتما حبلها، و هجرتما حزنها و سهلها، و خضتما غبر الفجاج، و خضر الأمواج؟ و ما ذاك إلّا لتغلّب الحادث النّكر، و تألّب المعشر الغدر، و من أجل الداهية النكاد، و الحادثة الشنيعة على البلاد، أزعجتكم حين أزعجتنا، و أخرجتكم كما أخرجتنا، و طوّحت بنا طوائحها، و اجتاحت ثمرنا و شجرنا جوائحها، فشكرا للّه تعالى على قضائه، و تضرّعا فيما نرفعه من دعائه، و هنيئا لنا و لكم معشر الشّرداء، المنطوين من الشجن على شرّ داء، ذلك الطّود

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۴۸

الذى إليه أويتما، و فى ظلّه ثويتما، و عن رأيه تريان، و بسعيه تسعيان، فوجهه المبارك لا يعدم رأيه نجحا، و لا يعدو لصبحه إذا دجا ليل الهمّ صبحا، انتهى.

[ترجمة أبى المطرف بن عميرة]

و كان أبو المطرّف بن عميرة المذكور كما قال فيه بعض علماء المغرب: قدوة البلغاء، و عمدة العلماء، و صدر الجلّة الفضلاء، و هو أحمد بن عبد اللّه بن عميرة المخزومى؛ و نكتة البلاغة التى قد أحرزها و أودعها، و شمسها التى أخفت ثواقب كواكبها حين أبدعها، مبدع البدائع التى لم يحظ بها قبله إنسان، و لا ينطق عن تلاوتها لسان؛ إذ كان ينطق عن قريحة صحيحة، و رويّة بدرر العلم فصيحة، ذلّلت له صعب الكلام، و صدّقت رؤياه حين وضع سيد المرسلين، صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو الذى أوتى جوامع الكلم فى يديه الأقلام، و أصل سلفه من جزيرة شقر، و ولد بمدينة بلنسية، و روى عن أبى الخطاب بن واجب و أبى الربيع بن سالم و ابن نوح و الشلوبينى النحوى و ابن عات و ابن حوط اللّه، و غيرهم من الحفّاظ، و أجازه من أهل المشرق جماعة، و كان شديد العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث، و أخذه عن مشايخ أهله، ثم تفنّن فى العلوم، و نظر فى المعقولات و أصول الفقه، و مال إلى الأدب، فبرع براعة عدّ فيها من مجيدى النظم، فأمّا الكتابة فهو فارسها الذى لا يجارى، و صاحب عينها الذى لا يبارى، و له وعظ على طريقة ابن الجوزى، و رسائل خاطب بها الملوك و غيرهم من الموحّدين و الحفصيين، و له تأليف فى كائنة ميورقة و تغلّب الروم عليها، نحا فى الخبر عنها منحى الإمام الأصبهانى فى «الفتح القدسى» و له كتاب تعقّب فيه على الفخر الرازى فى كتاب «المعالم» و له كتاب ردّ به على كمال الدين الأنصارى فى كتابه المسمّى «بالتبيان»، فى علم البيان، المطّلع على «إعجاز القرآن» و سمّاه «بالتنبيهات، على ما فى البيان من التمويهات»، و له اختصار نبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة، و غير ذلك.

ورد- رحمه اللّه!- حضرة الإمامة مرّاكش صحبة أمير المؤمنين الرشيد حين قفوله من مدينة سلا، و استكتبه مدّة يسيرة، ثم صرفه عن الكتابة، و قلّده قضاء هيلانة، ثم نقله إلى قضاء سلا، ثم نقله السعيد إلى قضاء مكناسة الزيتون، ثم قصد سبتة، و أخذ ماله فى قافلة بنى مرين، ثم توجّه إلى بلاد إفريقية، و وصف حاله فى رسالة خاطب بها ابن السلطان أبا زكريا الحفصى، و هو أبو زكريا ابن السلطان أبى زكريا، و كان صاحب بجاية لأبيه، و لم يزل- رحمه اللّه تعالى- مذ فارق الأندلس متطلّعا لسكنى إفريقية، معمور القلب بسكناها، و لمّا قدم تونس مال إلى صحبة الصالحين و الزّهّاد و أهل الخير برهة من الزمان، ثم استقضى بالأربس من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۴۹

إفريقية، ثم بقابس مدّة طويلة، ثم استدعاه أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفصى، و أحضره مجالس أنسه، و داخله مداخلة شديدة،

حتى تغلّب على أكثر أمره.

و مولده بجزائر شقر فى شهر رمضان المعظم سنة ۵۸۰، و توفى ليلة الجمعة الموفية عشرين من ذى الحجة سنة ۶۵۸، ألحفه اللّه رضوانه، و جدّد عليه غفرانه!.

قال ابن الأبار فى «تحفة القادم» فى حق أبى المطرف المذكور: فائدة هذه المائة، و الواحد يفى بالفئة، الذى اعترف باتحاده الجميع، و اتصف بالإبداع فماذا يتّصف به البديع، و معاذ اللّه أن أحابيه بالتقديم، لما له من حقّ التعليم، كيف و سبقه الأشهر، و نطقه الياقوت و الجوهر، تحلّت به الصحائف و المهارق، و ما تخلّت عنه المغارب و المشارق، فحسبى أن أجهد فى أوصافه، ثم أشهد بعدم إنصافه، هذا على تناول الخصوص و العموم لذكره، و تناوب المنثور و المنظوم على شكره، ثم أورد له جملة منها قوله: [الكامل]

و أجلت فكرى فى و شاحك فانثنى شوقا إليك يجول فى جوّال

أنصفت غصن البان إذ لم تدعه لتأوّد مع عطفك الميّال

و رحمت درّ العقد حين وضعته متواريا عن ثغرك المتلالى

كيف اللقاء و فعل وعدك سينه أبدا تخلصه للاستقبال

و كماة قومك نارهم و وقيدها للطارقين أسنّة و عوالى

و له مما يكتب على قوس قوله: [الكامل]

ما انآد معتقل القنا إلّا لأن يحكى تأطّر قامتى العوجاء

تحنو الضلوع على القلوب و إنّنى ضلع ثوى فيها بأعضل داء

و له و قد أهدى وردا: [البسيط]

خذها إليك أبا عبد الإله فقد جاءتك مثل خدود زانها الخفر

أتتك تحكى سجايا منك قد عذبت لكن تغيّر هذا دونه الغير

إن شمت منها بروق الغيث لامعة فسوف يأتيك من ماء لها مطر

قال: و كتب إلىّ مع تحفة أهداها مكافئا عن مثلها: [الكامل]

يا واحد الأدب الذى قد زانه بمناقب جعلته فارس منصبه

بالفضل فى الهبة ابتدأت فإن تعر طرف القبول لما وهبت ختمت به

قال: و له ارتجالا بقصر الإمارة من بلنسية و أنا حاضر فى صبيحة بعض الجمع، و قد حجم صاحب لنا من أهل النظم و النثر، و أحسن إلى الحجّام بالمخصوص: [الوافر]

أرى من جاء بالموسى مواسى و راحة ذى القريض تعود صفرا

فهذا مخفق إن قصّ شعرا و هذا منجح إن قصّ صفرا

و له أيضا: [الكامل]

هو ما علمت من الأمير، فما الّذى تزداد منه و فيه لا يرتاب

لا تتقى الأجناد فى أيامه فقرا، و لا يرجوا الغنى الكتّاب

و له بعد انفصاله من بلنسية عن وحشة فى ذى القعدة سنة (۶۲۸): [الطويل]

أسير بأرجاء الرّجاء، و إنّما حديث طريقى طارق الحدثان

و أحضر نفسى إن تقدّمت خيفة لغضّ عنان أو لعضّ زمان

أ يترك حظى للحضيض و قد سرى لإمكانه فوق الذرا جبلان

و أخبط فى ليل الحوادث بعد ما أضاء لعينى منهما القمران

فيحيى لآمالى حياة معادة و إنّ عزيزا عزة لمكانى

و قالوا: اقترح إنّ الأمانىّ منهما و إن كنّ فوق النجم تحت ضمان

فقلت: إذا ناجاهما بقضيّتى ضميرى لم أحفل بشرح لسانى

و له أيضا: [الكامل]

سلب الكرى من مقلتىّ فلم يجىء منه على نأى خيال يطرق

أهفو ارتياحا للنسيم إذا سرى إنّ الغريق بما يرى يتعلّق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۵۱

انتهى ما تلخص من «تحفة القادم» فى ذكر ابن عميرة أبى المطرف.

[رسالة لأبى المطرف]

و مما كتب أبو المطرف- رحمه اللّه!- و فى أثنائه إشارة إلى الكفّار الغالبين على بلاد الأندلس، ما نصّه: [الطويل]

ألا إنّ شخصينا على القطع واحد و جاحد هذا للضرورة جاحد

فإن لم تصدّق ما نطقت بصدقه فإنك لى لاح و للودّ لاحد

و معاذ اللّه، عزّ و جلّ، أن تلحانى، أو تمنع أنفك ريح ريحانى، و كيف تصدّ عنّى بوجهك، أو تشحذ لى غرب نجهك، و أنا على غيبك أمين، و لشمالك يمين، و لكم دعوت بى فأجبت، و استغنيت عنى فحجبت، و أردت الاستبداد فما استطعت، و نعتّ الوداد فما أحسنت النعت، و إنما تحمد فراهة الأعوجىّ إن جرى، و تذكر فضيلة ابن السّرى إذا سرى، فأما الاقتصار على عظم باد، و الانتظار لعين عدمت السواد، فخطأ من القائل، و خطل عند العاقل، و للّه درّ أخيك من مغمض طرف التطرّف، قارىء أدب الصحبة على السبعة الأحرف، كرع فى أعزّ مورد، و تواضع فى شرف مولد، و سما بنفسه عن أن يستخفّه نسب يرفعه، و حسب ما منّا أحد يدفعه، و كذلك الكرام يرون عليهم حقّا، و يتوقّون من لم يكن من الكبر موقّى، و لعهدى به و ظلّ الثروة بارد، و شيطان الشيبة مارد، و بشره فى الملمّات يرفّ، و قدمه إلى الحاجات تخفّ، يصون عرضه بماله، و يخفى صدقة يمينه عن شماله، و يقسّم جسمه فى جسوم، و يقوم بالحقوق غير ملول و لا ملوم، تلك المكارم لا قعبان، و ما تستوى البدنة المهيضة مع غيرها فى القربان، و عرضت بذكر العصر الخالى، و القصر العالى، و ظل من فنن وريق، و عيش مع أكرم فريق، و ما تذكر من زمن تولّى؟ و عهد على أن لا يعود تألّى، فارقناه أحسن ما كان، و ودّعنا به الأطيبين الزمان و المكان، فعفت الرسوم، و أفلت تلك النجوم، و رمتنا عن قوسها الروم، ثم خلفتنا فى المغانى، و قسمتنا بين الأسير و العانى، فأودى القلّ و الكثر، و اشتفى من الإسلام الكفر، فكم كأس أنس أرقناه، و منزل فرقة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۵۲

الأبد فارقناه، و ذكرت اجتيازك بين العلمين، و قطعك متن اليمّ فى يومين، و أنّك انتقلت من ذوات الألواح، إلى عذبات الأدواح، و من متهافت الشّراع، إلى منابت اليراع، و من سكنى بيت السكان، إلى منزل به الفلاح و الملاح يشتركان، حيث اجتمع الضّبّ و النون، و أينع التين و الزيتون، و ظلّت الساحات، و ذلّت الثمار المباحات، فلا تشرقنا يا أصيل، و لأمّ تلك الأرض الويل، انتهى.

و وصل هذا الكلام بالأبيات التى تقدّمت قريبا، و هى قوله «زدنا على النائين عن أوطانهم إلخ».

[رسالة أبى المطرف إلى ابن هود]

و كتب رحمه اللّه عن أهل شاطبة أيام كان قاضيا بها، مهنّئا أمير المسلمين ابن هود المستولى على الأندلس آخر دولة الموحّدين بوصول الكتاب العباسى الكريم إليه من بغداد بولاية الأندلس، إذ كان ابن هود حين ثار على الموحدين يدعو إلى الخليفة العباسى الذى كان أكثر الملوك فى ذلك الزمان يدينون بطاعته، بما نصّه بعد الصدر:

أمّا بعد، فكتب العبيد- كتب اللّه تعالى إلى المقام العلى المجاهدى المتوكلى سعادة لا تبلغ أمدا إلّا تخطّته! و يدا علوّها أثبتته أيدى الأقدار و خطّته- من شاطبة و بركات الأمر المجاهديّ المتوكلى، و العهد الواثقى المعتصمى، تنسكب كالمطر، و تنسحب على البشر، و تقضى بعادة النصر و الظفر، و سعادة الورد و الصّدر، و الحمد للّه، و عند العبيد من أداء فروض الخدم، و القيام بحقوق النّعم، ما عقدت عليه ضمائرهم، و سمت إليه نواظرهم، و اشترك فيه بادبهم و حاضرهم، فجناب أملهم فسيح، و متجر خدمتهم ربيح، و حديث طاعتهم حسن صحيح، و بسنى النظر العلىّ اهتداؤهم، و فى الباب الكريم رجاؤهم، و بصدق العبودية اعتزازهم و إليها اعتزاؤهم، و اللّه تعالى ينهضهم بوظائف المثابة العلية، و يحملهم على المناهج السّويّة، و وصل الكتاب الكريم متحلّيا برواء الحق، ناطقا بلسان الصدق، واصفا من التشريف و الفخار المنيف، ما صدر عن إمام الخلق، فلا بيان أعجب من ذلك البيان، و لا يوم كذلك اليوم تبدّى نظره للعيان، أو تأدّى خبره فى أخبار الزمان، نثرت فيه الخلع العباسية فى أعلى الصور، و برز منها للعيون ما يعثر البليغ عند وصفه فى ذيل الحصر، و يهدى سواده سواد القلب و البصر، فيا لمشهدها ما أعجب ما كان، و مرآها الذى راع الكفر و راق الإيمان، و أشبه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۵۳

يومه بالأندلس يوم خرجت الرايات السود من خراسان، و كفى بهذا فخارا لا يحتاج ثابته مثبتا، أن باشرت بردا باشر البدن الذى طاب حيّا و ميتا، فهو على فى الإسناد و لا نظير له فى العوالى، و فخار ضلّت عن مثله العصور الخوالى، و جلّت بهجته أن تخلق جدّتها الأيام و الليالى، و دلّ الكتاب العزيز على التسمية المشتقة من الجهاد، و السمة من سيف أمير المؤمنين بما لا يدخل فى جنس ذوات الأغماد، و خير الأوصاف ما صدقه الموصوف، و الكريم النسب نسبته يباهى بها الدين و تزهى السيوف: [الطويل]

فإن نحن سمّيناك خلنا سيوفنا من التّيه فى أغمادها تتبسّم

و ممّا أفاده الكتاب المبهج بطيب أنبائه، نصّ علامة سيدنا، صلوات اللّه عليه و على آبائه، فإنّها تضمّنت صفة للّه، عزّ و جلّ، من صفات الكمال، و دلّت على مذهب أهل السّنّة فى خلق اللّه، عزّ و جلّ، الأعمال، و أشعرتنا معشر العبيد بعناية سبقت بالمقام المجاهدى المتوكلى- أحسن اللّه تعالى إليه!- حين تولّى خلافة أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه، فإنه لمّا شايعه بعزيمة مساعدة، و نيّة فى مشارع الصفاء و الإخلاص واردة، ألهم زيادة فى العلامة شاركت الإمامة فى صفة واحدة، فهذه كرامة فى العلامة، هى علامة الكرامة، و هبة من مواهب الكشف يجدها من امتثل قوله: فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ [هود: ۱۱۲] فكان من أهل الاستقامة، و تضمّن الكتاب الكريم بيعة أهل جيّان و ما معها، و إن هذه البشائر و ما تبعها، لفروع عن هذا الأصل الصحيح، و أقيسة من هذا النصّ الصريح، بأدلة الخلاف قد استقلّت، و شبهة الخلاف قد بطلت و اضمحلّت، و الحمد للّه على أن منح جزيل النعماء، و شرح باليقين صدور الأولياء، و شرّف هذه الأمة بإمامة نجل الأئمة الخلفاء، و ابن عمّ سيّد الرسل و خاتم الأنبياء، و العبيد يهنئون بهذه النّعم، التى لا يستقلّ بذكرها قلم، و لا يقطع علم من وصفها إلّا بدا علم، و بهم من الأشواق إلى مشاهدة المعالم السنيّة، و لثم اليمين الطاهرة العليّة، ما أكّده دنو الدار، و جدّده ما تجدّد للمقام العالى المتوكلى من نعم اللّه تعالى الجليلة المقدار، و الشاهدة له بإسعاد الأيام و إسعاف الأقدار، فلو أمكنهم الإقدام لأقدموا، و لو وجدوا رخصة فى المسير لعزموا،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۵۴

و هم يستلمون البساط الأشرفى توهّما و من أملهم أنهم فى الحقيقة قد استلموا، انتهى.

و به تعلم أن الدولة العباسية خطب لها ببلاد الأندلس- أعادها اللّه للإسلام!- و لا يخفاك أنّ ما جلبناه من ذلك و غيره مناسب للمقام، فلا انتقاد و لا ملام.

[رسالة صاحب الأندلس إلى أحمد بن قلاوون بقلم لسان الدين بن الخطيب]

و قد رأيت أن أذكر هنا مخاطبة صدرت من الغنى بالله صاحب الأندلس إلى السلطان المنصور أحمد ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، من إنشاء الوزير الكبير لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه، لما اشتملت عليه من أحوال الأندلس، و نصّ ها: الأبواب التى تفتح لنصرها أبواب السماء، و تستدرّ من آفاقها سحائب النعماء، و تجلى بأنوار سعدها دياجى الظلماء، و تعرّف نكرة البلاد، و العباد بالانتساب إلى محبّتها و الانتماء، على اختلاف العروض و تباين الحدود و تعدّد الأسماء، و يجتزأ من صلات صلاتها عند الموانع من كمال حالات صفاتها بالإيماء، و تحمل لها التحيّة ذوات الدّسر و الألواح طاعنة نحر الصباح على كتد الماء، أبواب السلطان الكبير، الجليل الشهير، الطاهر الظاهر، الأوحد الأسعد، الأصعد الأمجد، الأعلى العادل، العالم الفاضل الكامل، سلطان الإسلام و المسلمين، عماد الدنيا و الدين، رافع ظلال العدل على العالمين، جمال الإسلام، علم الأعلام، فخر الليالى و الأيام، ملك البرّين و البحرين، إمام الحرمين، مؤمّن الأمصار و الأقطار، عاصب تاج الفخار، هازم الفرنج و الترك و التتار، الملك المنصور ابن الأمير الرفيع الجادة، الكريم الولادة، الطاهر الظاهر، الكبير الشهير، المعظّم الممجّد الأسمى، الموقّر الأعلى، فخر الجلّة، سيف الملّة، تاج الإمارة، عزّ الإسلام، مستظلّ الأنام، قمر الميدان، أسد الحرب العوان، المقدّس المطهّر، الأمير أحمد ابن والد السلاطين، و مالك المسلمين، و سيف خلافة اللّه على العالمين، و وليّ المؤمنين، سلطان الجهاد و الحجّ، و مقيم رأس العجّ و الثجّ، محيى معالم الدين، قامع المعتدين، قاهر الخوارج و المتمرّدين، ناصر السّنّة، محيى الملّة، ملك البرّين و البحرين، سلطان الحرمين، الملك العادل، العالم العامل، المنصور المؤيّد المعان المرفّع المعظّم المبجّل المؤمّل، المجاهد المرابط المغازى الممجّد المكمّل، المطهّر الكبير الشهير، المقدّس الملك الناصر أبى عبد اللّه محمد بن قلاوون الصالحى، جعل اللّه فسطاط دعوته معمودا بعمود الصبح، و حركات عزمه مبنية على الفتح، و مجمل سعادته غنيّا عن الشّرح،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۵۵

و جياد أوصافه متبارية فى ميدان المدح، و زناد رأيه وارية على القدح، من موجب حقه وجوب الشعائر الخمس، المرحب لأجل أفقه الشرقىّ بوفادة الشمس، المجدّد فى اليوم حكم ما تقرر بين السلف رحمهم اللّه بالأمس، أمير المسلمين بالأندلس عبد اللّه الغنى بالله الغالب به محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر. سلام كريم كما زحفت راية الصبح تقدمها طلائع مبشرات الرياح، يفاوح أرجه أزاهير الأدواح، و يحاسن طرر الوجوه الملاح، يخصّ أبوّتكم التى رتب العزّ فصولها، و عضدت نصوص النصر نصولها، و رحمة اللّه تعالى و بركاته.

أما بعد حمد اللّه الذى جعله فاتحة القرآن، و خاتمة دعاء أهل الجنان، و شكره على ما أولى من مواهب الإحسان، حمدا و شكرا يستخدمان من الإنسان، ملكتى القلب و اللسان. و الصلاة و السلام على سيّدنا و مولانا محمد رسوله زهرة كمامة الأكوان، و سيّد ولد آدم على اختلاف اللغات و الألوان، الذى أذلّ بعزّة اللّه نفوس أهل الطغيان، و غطى بدينه الحق على الأديان، و زويت له الأرض فرأى ملك أمّته يبلغ ما زوى له فكان الخبر وفق العيان، و الرضا عمّن له من الأصحاب و الأحباب و الأعمام و الأخوال و الإخوان، صلاة يجدّدها الجديدان، و يمليها الملوان و تتزاحم على تربته المقدّسة مع الأحيان، ما سجعت طيور البراعة من أعواد اليراعة على الأفنان، و التفتت عيون المعانى ما بين أجفان البيان، و الدعاء لأبوابكم الشريفة جعل اللّه تعالى عصمته تقيم بها وظيفتى الحجابة و الاستئذان، و ضرب بدعوتها التى هى لذّة الإقامة و الأذان على الآذان، و استخدم بروج الفلك الدوار فى أمرها العزيز استخدام الأنصار و الأعوان، حتى يعلم ما فى المدافعة عن حماها مخالب السّرحان، و فى الإشادة بعدلها كفّتى الميزان، و يهدى لها من الزهرة كرة الميدان، و من الهلال عوض الصولجان، و أبقى فى عواملها ضمير الأمر و الشان، إلى يوم تعنو وجوه الملوك إلى الملك الديّان، فإنّا كتبناه إلى تلك الأبواب، كتب اللّه لعتبتها النصرة الداخلة، كما أخجل بمكارمها السحب الباخلة، و جعل مفارق مناصلها المختضبة من نجيع

عداها غير ناصلة، و قرن بكل سبب عن أضدادها فاصلة، من دار ملك الإسلام بالأندلس حمراء غرناطة- وصل اللّه سبحانه عادة الدفاع عن أرجائها! و شدّ بأيدى اليقين عرى أملها فى اللّه و رجائها!- حيث المصافّ المعقود، و ثمن النفوس المنقود، و نار الحرب ذات الوقود، حيث الأفق قد تردّى بالقتام و تعمّم، و السيف قد تجرّد و تيمّم، و غبار الجهاد يقول: أنا الأمان من دخان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۵۶

جهنّم، حيث الإسلام من عدوّه كالشامة من جلد البعير، و التمرة من أوسق العير، حيث المصارع تتزاحم الحور على شهدائها، و الأبطال يعلو بالتكبير مسمع ندائها، حيث الوجوه الضاحكة المستبشرة قد زيّنتها الكلوم بدمائها، و إنّ هذا القطر الذى مهدت لسياستنا أكوار مطاياه، و جعلت بيدنا- و المنّة للّه- عياب عطاياه، قطر مستقلّ بنفسه، مرب يومه فى البرّ على أمسه، زكىّ المنابت عذب المشارب، متمّم المآمل مكمّل المآرب، فاره الحيوان، معتدل السّحن و الألوان، وسيطة فى الأقاليم السبعة، شاهدة للّه بإحكام الصنعة، أما خيله ففارهة، و إلى الرّكض شارهة، و أما سيوفه فلمواطن الغمود كارهة، و أمّا أسله فمتداركة الخطف، و أما عوامله فبيّنة الحذف، و أمّا نباله فمحذورة القذف، إلّا أنّ الإسلام به فى سفط مع الحيّات، و ذريعة للمنيّات الوحيّات، و هدف للنبال، و أكلة للشّبال، تطؤهم الغارات المتعاقبة، و تخيفهم الحدود المصاقبة، و تجوس خلالهم العيون المراقبة، و تريب من أشكال مختطّهم إلّا أن يتفضل اللّه بحسن العاقبة، فليس إلّا الصبر، و الضّرب الهبر، و الهمز و النبر، و المقابلة و الجبر، و قد حال البحر بينهم و بين إخوان ملّتهم، و أساة علّتهم، يقومون بهذا الفرض، عن أهل الأرض، و يقرضون ملك يوم العرض، أحسن القرض، فلو لا بعد المدى، و غول الرّدى، و لغط العدا، و ما عدا ممّا بدا، لسمعتم تكبير الحملات، و زئير تلك القلّات، و دوىّ الحوافر، و صليل السيوف من فوق المغافر، و صراخ الثّكالى، و ارتفاع الأدعية إلى اللّه تعالى، و لو ارتفع هذا المكان، و هو للأولياء مثلكم من حيّز الإمكان، لمقلتم مقل الأسنّة الزّرق، حالّة من أطراف قصب الرماح محالّ الورق، و أبصرتم القنا الخطّار قد عاد أخلّة، و السيوف قد صارت فوق بدور الخوذ أهلّة، و عقود الشهادة عند قاضى السعادة مستقلّة، و كان كما تحصره علومكم الشريفة حدق سور الفتح، و آخر ولاء ذلك المنح، عرض على الفاروق فاحتاط، و أغرى به من بعده فاشتاط، و سرحت خيال ابن أبى سرح، فى خبر يدعو إلى شرح، حتى إذا ولد مروان تقلّدوا كرتها التى هوت، و قضموا ما أنضجت ورثة الحق و شوت، و يدهم على الأمر احتوت، و فازت منه بما نوت، نفل ولائده الوليد، و جلب له الطريف و التليد، و طرقت خيل طارق، و ضاقت عن أخباره المهارق، و جلّت الفائدة، و ظهر على الذخيرة التى منها المائدة، ثم استرسل المهبّ، و نصر الربّ، و يكثر الطير

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۵۷

حين ينتثر الحبّ، و صرفت أشراف الشام أعنّتها إلى التماس خيره، و طارت بأجنحة العزائم تيمّنا بطيره، و قصدته الطلائع صحبة بلج بن بشر و غيره، ففتحت الأقفال، و نفلت الأنفال، و نجح الفال، و وسمت الأغفال، و افتتحت البلاد الشهيرة، و انتقيت العذارى الخيرة، و اقتنيت الذخيرة، و تجاوز الإسلام الدروب و تخطّى، و خضد الأرطى، و أركب و أمطى، و استوثق و استوطا، و تثاءب و تمطّى، حتى تعدّدت مراحل البريد، و سخنت عين الشيطان المريد، و استوسق للإسلام ملك ضخم السّرادق، مرهوب البوارق، رفيع العمد، بعيد الأمد، تشهد بذلك الآثار و الأخبار، و الوقائع الكبار، و الأوداق و الأمطار، و هل يخفى النهار؟ و لكل هبوب ركود، و الدهر حسود لمن يسود، فراجعت الفرنج كرّتها، و استدركت معرّتها، فدوّمت جوارحها و حلّقت، و أومضت بوارقها و تألّقت، و تشبّثت و تعلّقت، و أرسلت الأعنّة و أطلقت، و راجعت العقائل التى طلّقت، حتى لم يبق من الكتاب إلّا الحاشية، و لا من الليل إلّا الناشية، و سقطت الغاشية، و أخلدت الفئة المتلاشية، و تقلّصت الظلال الفاشية، إلّا أنّ اللّه تدارك بقوم رجّح من سلفنا أثبتوا فى مستنقع الموت أقدامهم، و أخلصوا للّه بأسهم و إقدامهم، و وصلوا سيوفهم البارقة بخطاهم، و أعطاهم منشور العز من أعطاهم، حين تعيّن الدين و تحيّز، و اشتدّ بالمدافعة و تميّز، و عادت الحروب سجالا، و علم الروم أنّ للّه رجالا، و قد أوفد جدّنا- رضى اللّه عنه!- على أبواب سلفكم من وقائعه فى العدوّ كلّ مبشّرة، و وجوه به مستبشرة، ضحكت لها ثغور الثغور، و سرت بها فى الأعطاف حميّا السرور، و كانت

المراجعة عنها شفاء للصدور، و تمائم فى درر النحور، و خفرا فى وجوه البدور، فإن ذمام الإسلام موصول، و فروعه تجمعها فى اللّه أصول، و ما أقرب الحزن ممّن داره صول، و الملّة- و المنّة للّه- واحدة، و النفوس لا منكرة للحقّ و لا جاحدة، و الأقدار معروفة، و الآمال إلى ما يوصل إلى اللّه مصروفة، فإذا لم يكن الاستدعاء، أمكن الدعاء، و الخواطر فعّالة، و الكلّ على اللّه عالة، و الدين غريب و الغريب يحنّ إلى أهله، و المرء كثير بأخيه على بعد محلّه.

انتهى المقصود من المخاطبة مما يتعلّق بهذا الباب، و اللّه سبحانه و تعالى الموفّق للصواب.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۵۸

الباب الثالث الدولة الإسلامية فى الأندلس

اشارة

فى سرد بعض ما كان للدّين بالأندلس من العزّ السامى العماد، و القهر للعدوّ فى الرواح و الغدوّ و التحرّك و الهدوّ و الارتياح البالغ غاية الآماد، و إعمال أهلها للجهاد، بالجدّ و الاجتهاد، فى الجبال و الوهاد، بالأسنّة المشرعة و السيوف المستلّة من الأغماد.

أقول: قدّمنا فى الباب قبل هذا ما كان من نصر المسلمين، و فتحهم الأندلس، و ما حصل لهم من سلطان بها إلى مجىء الداخل، فتقرّرت القواعد السلطانية، و علت الكلمة الإيمانية، كما نسرده هنا إن شاء اللّه تعالى.

[عبد الرحمن الداخل]

و ذكر غير واحد- منهم ابن حزم- أن دولة بنى أميّة بالأندلس كانت أنبل دول الإسلام، و أنكاها فى العدو، و قد بلغت من العزّ و النصر ما لا مزيد عليه، كما سترى بعضه.

و أصل هذه الدولة- كما قال ابن خلدون و غير واحد- أنّ بنى أمية لمّا نزل بهم بالمشرق ما نزل، و غلبهم بنو العباس على الخلافة، و أزالوهم عن كرسيّها، و قتل عبد اللّه بن على مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفائهم سنة ثنتين و ثلاثين و مائة، و تتبع بنى مروان بالقتل، فطلبوا بطن الأرض من بعد ظهرها. و كان ممّن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، و كان قومه يتحيّنون له ملكا بالمغرب، و يرون فيه علامات لذلك يأثرونها عن مسلمة بن عبد الملك، و كان هو قد سمعها منه مشافهة، فكان يحدّث نفسه بذلك، فخلص إلى المغرب، و نزل على أخواله نفزة من برابرة طرابلس. و شعر به عبد الرحمن بن حبيب، و كان قد قتل ابنى الوليد بن يزيد بن عبد الملك لمّا دخلا إفريقية، فلحق بمغيلة، و قيل بمكناسة، و قيل: بقوم من زناتة، فأحسنوا قبوله، و اطمأنّ فيهم. ثم لحق بمليلة، و بعث بدرا مولاه إلى من بالأندلس من موالى المروانيين و أشياعهم، فاجتمع بهم، و بثّوا له فى الأندلس دعوة، و نشروا له ذكرا. و وافق قدومه ما كان من الإحن بين اليمنية

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۵۹

و المضريّة، فأصفقت اليمنية على أمره؛ لكون الأمر كان ليوسف بن عبد الرحمن الفهرى و صاحبه الصّميل، و رجع بدر مولاه إليه بالخبر، فأجاز البحر سنة ثمان و ثلاثين و مائة فى خلافة أبى جعفر المنصور، و نزل بساحل المنكّب، و أتاه قوم من أهل إشبيلية فبايعوه. ثم انتقل إلى كورة ريّة فبايعه عاملها عيسى بن مساور، ثم إلى شذونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمىّ. ثم إلى مورور فبايعه ابن الصباح، و نهد إلى قرطبة فاجتمعت إليه اليمنية. و نمى خبره إلى و الى الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهرى، و كان غازيا بجلّيقية، فانفضّ عسكره، و رجع إلى قرطبة، و أشار عليه وزيره الصّميل بن حاتم بالتلطّف له، و المكر به، لكونه صغير السّنّ، حديث عهد بنعمة، فلم يتمّ ما أراده. و ارتحل عبد الرحمن من المنكّب، فاحتلّ بمالقة فبايعه جندها، ثم برندة، ثم بشريش كذلك، ثم بإشبيلية،

فتوافت إليه جنود الأمصار، و تسايلت المضرية إليه، حتى إذا لم يبق مع يوسف بن عبد الرحمن غير الفهريّة و القيسية لمكان الصّميل منه زحف حينئذ عبد الرحمن الداخل، و ناجزهم الحرب بظاهر قرطبة، فانكشف يوسف، و لجأ إلى غرناطة فتحصّن بها، و أتبعه الأمير عبد الرحمن فنازله. ثم رغب إليه يوسف فى الصلح، فعقد له على أن يسكن قرطبة، ثم أقفله معه، ثم نقض يوسف عهده، و خرج سنة إحدى و أربعين و مائة، و لحق بطليطلة، و اجتمع إليه زهاء عشرين ألفا من البربر، و قدّم الأمير عبد الرحمن للقائه عبد الملك بن عمر المروانى، و كان وفد عليه من المشرق، و كان أبوه عمر بن مروان بن الحكم فى كفالة أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر، فلمّا دخلت المسوّدة أرض مصر خرج عبد الملك يؤمّ الأندلس فى عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس و النجدة، حتى نزل على عبد الرحمن سنة أربعين، فعقد له على إشبيلية، و لابنه عمر بن عبد الملك على مورور. و سار يوسف إليهما، و خرجا إليه و لقياه، و تناجز الفريقان، فكانت الدائرة على يوسف، و أبعد المفرّ، و اغتاله بعض أصحابه بناحية طليطلة، و احتزّ رأسه، و تقدّم به إلى الأمير عبد الرحمن، فاستقام أمره، و استقرّ بقرطبة، و ثبت قدمه فى الملك، و بنى المسجد الجامع و القصر بقرطبة، و أنفق فيه ثمانين ألف دينار، و مات قبل تمامه. و بنى مساجد، و وفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق، و كان يدعو للمنصور، ثم قطع دعوته، و مهّد الدولة بالأندلس، و أثّل بها الملك العظيم لبنى مروان و السلطان العزيز، و جدّد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة و آثارها، و استلحم الثّوّار عليه على كثرتهم فى النّواحى، و قطع دعوة آل العباس من منابر الأندلس، و سدّ المذاهب منهم دونها، و هلك سنة ثنتين و سبعين و مائة، و كان يعرف بعبد الرحمن الداخل؛ لأنه أول داخل من ملوك بنى مروان إلى الأندلس، و كان أبو

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۶۰

جعفر المنصور يسميه «صقر قريش» لمّا رأى أنه فعل بالأندلس ما فعل، و ما ركب إليها من الأخطار، و أنه نهد إليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابة و لا أنصار، فغلب أهلها على أمرهم، و تناول الملك من أيديهم بقوّة شكيمة، و مضاء عزم حتى انقاد له الأمر، و جرى على اختياره، و أورثه عقبه، و كان يسمّى بالأمير، و عليه جرى بنوه من بعده، فلم يدع أحد منهم بأمير المؤمنين تأدّبا مع الخلافة بمقرّ الإسلام و منتدى العرب، حتى كان من عقبه عبد الرحمن الناصر، و هو ثامن بنى أمية بالأندلس، فتسمّى بأمير المؤمنين على ما سنذكره، لمّا رأى من ضعف خلفاء بنى العباس بعد الثلاثمائة، و غلبة الأعاجم عليهم، و كونهم لم يتركوا لهم غير الاسم، و توارث التلقيب بأمير المؤمنين بنو عبد الرحمن الناصر واحدا بعد واحد.

قال ابن حيان: و كان لبنى عبد الرحمن الداخل بالعدوة الأندلسية ملك ضخم و دولة متّسعة اتصلت إلى ما بعد المائة الرابعة، و عند ما شغل المسلمون بعبد الرحمن و تمهيد أمره قوى أمر الجلالقة، و استفحل سلطانهم، و عمد فرويلة بن أذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها، و ملكها من أيديهم، فملك مدينة لكّ و برتقال و سمّورة و قشتالة و شقوبية، و صارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور ابن أبى عامر آخر الدولة، ثم استعادوها بعده فيما استعادوه من بلاد الأندلس، و استولوا على جميعها حسبما يذكر، و للّه سبحانه الأمر، انتهى.

و خاطب عبد الرحمن قارله ملك الإفرنج، و كان من طغاة الإفرنج، بعد أن تمرّس به مدّة، فأصابه صلب المكسر، تامّ الرجولية، فمال معه إلى المداراة، و دعاه إلى المصاهرة و السّلم، فأجابه للسلم، و لم تتمّ المصاهرة.

قال ابن حيّان: و لما ألفى الداخل الأندلس ثغرا قاصيا غفلا من حلية الملك عاطلا أرهف أهلها بالطاعة السلطانية، و حنّكهم بالسّيرة الملوكية، و أخذهم بالآداب فأكسبهم عمّا قليل المروءة، و أقامهم على الطريقة، و بدأ فدوّن الدواوين، و رفع الأواوين، و فرض الأعطية، و عقد الألوية، و جنّد الأجناد، و رفع العماد، و أوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، و أخذ للسلطان عدّته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك و حذروا جانبه، و تحاموا حوزته، و لم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس، و استقلّ له الأمر فيها.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۶۱

[وصف أبى جعفر المنصور لعبد الرحمن الداخل]

فلذلك ما ظلّ عدوّه أبو جعفر المنصور- بصدق حسّه، و بعد غوره، وسعة إحاطته- يسترجح عبد الرحمن كثيرا، و يعدله بنفسه، و يكثر ذكره، و يقول: لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه و قوة أسبابه، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذىّ الفذّ فى جميع شؤونه، و عدمه لأهله و نشبه، و تسلّيه عن جميع ذلك ببعد مرقى همّته، و مضاء عزيمته، حتى قذف نفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، و قمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، و استمال قلوب رعيّتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيّهم، و ذلّ له أبيّهم، فاستولى فيها على أريكته، ملكا على قطيعته، قاهرا لأعدائه، حاميا لذماره، مانعا لحوزته، خالطا الرغبة إليه بالرهبة منه، إنّ ذلك لهو الفتى كلّ الفتى لا يكذب مادحه.

و جعل ابن حيّان من النوادر العجيبة موافقة عبد الرحمن هذا لأبى جعفر المنصور فى الرجولية و الاستيلاء و الصّرامة، و الاجتراء على الكبائر و القساوة، فإن أمّ كلّ واحد منهما بربرية. و كان الداخل يقعد للعامّة، و يسمع منهم، و ينظر بنفسه فيما بينهم، و يتوصّل إليه من أراده من الناس، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقّة، و كان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه، و من وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه.

و فى كتاب ابن زيدون أنه كان أصهب، خفيف العارضين، بوجهه خال، طويل القامة، نحيف الجسم، له ضفيرتان، أعور، أخشم؛ و الأخشم: الذى لا يشمّ، و كان يلقّب «بصقر قريش» لكونه تغرّب و قطع البرّ و البحر، و أقام ملكا قد أدبر وحده.

و لمّا ذكر الحجارى أنه أعور قال: ما أنشد فيه إلّا قول امرئ القيس: [المنسرح]

لكن عوير وفى بذمّته لا عور شانه و لا قصر

[المنصور يبعث العلاء بن مغيث اليحصبى ليدعو للمنصور فينتصر عليه عبد الرحمن و يقتله]

و قال ابن خلدون: و فى سنة ست و أربعين سار العلاء بن مغيث اليحصبى من إفريقية إلى

الأندلس، و نزل بباجة الأندلس داعيا لأبى جعفر المنصور، و اجتمع إليه خلق، فسار عبد الرحمن إليه و لقيه بنواحى إشبيلية، فقاتله أياما. ثم انهزم العلاء، و قتل فى سبعة آلاف من أصحابه، و بعث عبد الرحمن برءوس كثير منهم إلى القيروان و مكّة، فألقيت فى أسواقها سرّا، و معها اللواء الأسود، و كتاب المنصور للعلاء، فارتاع المنصور لذلك و قال: ما هذا إلّا شيطان، و الحمد للّه الذى جعل بيننا و بينه البحر، أو كلاما هذا معناه، و قد مرّ ذكر ذلك.

و كثرت ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل، و نافسوه ملكه، و لقى منهم خطوبا عظيمة، و كانت العاقبة له، و استراب فى آخر أمره بالعرب، لكثرة من قام عليه منهم، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم، و اتخاذ الموالى، ثم غزا بلاد الإفرنج و البشكنس و من وراءهم، و رجع بالظّفر، و كان فى نيّته أن يجدّد دولة بنى مروان بالمشرق، فمات دون ذلك الأمل، و كانت مدة ملكه ثلاثا و ثلاثين سنة و أربعة أشهر، إذ دخل الأندلس سنة ثمان و ثلاثين و مائة، و مات سنة اثنتين و سبعين، و قيل: إحدى و سبعين و مائة، فى خلافة الرشيد، و أمّه أمّ ولد بربرية اسمها راح، و مولده سنة ثلاث عشرة و مائة، بدير حنّا من أرض دمشق، و قيل: بالعليا من تدمر، و مات أبوه فى أيام أبيه هشام سنة ثمانى عشرة عن إحدى و عشرين سنة، و كفله و إخوته جدّهم هشام، و وهب لعبد الرحمن هذا جميع الأخماس التى اجتمعت للخلفاء بالأندلس، و أقطعه إيّاها، و وجّه لحيازتها من الشام سعيد بن أبى ليلى، و قيل: إنه لمّا قصد المغرب من فلسطين خرج معه أربعة: بدر مولى أبيه، و أبو شجاع، و زياد، و عمرو، و قيل:

إنّ بدرا لحقه و لم يخرج معه، فاللّه أعلم، و خلف من الولد عشرين، منهم أحد عشر رجلا و تسع إناث.

[هرب عبد الرحمن من الشام و وصوله إلى الأندلس]

و حكى غير واحد أنه لمّا هرب من الشام إلى إفريقية قاصدا الأندلس نزل بمغيلة، فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى و انسوس، و يكنى أبا قرّة، فاستتر عنده وقتا، و لحق به بدر مولى أبيه بجوهر و ذهب أنفذته أخته إليه، فلمّا دخل الأندلس و استتبّ أمره به سار إليه أبو قرة و انسوس البربرى، فأحسن إليه، و حظى عنده، و أكرم زوجته تكفات البربرية التى خبأته تحت ثيابها عندما فتّشت رسل ابن حبيب بيتها عنه، فقال لها عبد الرحمن مداعبا حين استظلّت بظله فى الأندلس: لقد عذّبتنى بريح إبطيك يا تكفات على ما كان بى من الخوف، و سطعتنى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۶۳

بأنتن من ريح الجيف، فكان جوابها له مسرعة: بل ذلك كان و اللّه يا سيدى منك، خرج و لم تشعر به من فرط فزعك، فاستظرف جوابها، و أغضى عن مواجهتها بمثل ذلك، و هذا من آفات المزاح.

و من محاسنه أنه أدار السور بقرطبة، رحمه اللّه!.

[هشام بن عبد الرحمن الداخل]

و تولّى الملك بعده ابنه هشام بعهد منه إليه، و أمّه أمّ ولد اسمها حلل، و أفضى إليه الملك و هو بماردة وال عليها، و كان أبوه يوليه فى صباه و يرشّحه للأمر، و كان الداخل كثيرا ما يسأل عن ابنيه سليمان و هشام، فيذكر له أن هشاما إذا حضر مجلسا امتلأ أدبا و تاريخا و ذكرا لأمور الحرب و مواقف الأبطال، و ما أشبه ذلك، و إذا حضر سليمان مجلسا امتلأ سخفا و هذيانا، فيكبر هشام فى عينه بمقدار ما يصغر سليمان، و قال يوما لهشام: لمن هذا الشعر: [الطويل]

و تعرف فيه من أبيه شمائلا و من خاله أو من يزيد و من حجر

سماحة ذا، مع برّ ذا، و وفاء ذا، و نائل ذا، إذا صحا و إذا سكر

فقال له: يا سيدى، لامرىء القيس ملك كندة، و كأنه قاله فى الأمير أعزّه اللّه! فضمّه إليه استحسانا بما سمع منه، و أمر له بإحسان كثير، و زاد فى عينيه. ثم قال لسليمان على انفراد:

لمن هذا الشعر؟ و أنشده البيتين، فقال: لعلّهما لأحد أجلاف العرب، أما لى شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب؟ فأطرق عبد الرحمن، و علم قدر ما بين الاثنين من المزية.

و لمّا ولى هشام أشخص المنجم المعروف بالضّبّى من وطنه الجزيرة الخضراء إلى قرطبة، و كان فى علم النجوم و المعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه حذقا و إصابة، فلمّا أتاه خلا به و قال له: يا ضبّى، لست أشكّ أنه قد عناك من أمرنا إذ بلغك ما لم ندع تحديد النظر فيه، فأنشدك اللّه إلّا ما نبّأتنا بما ظهر لك فيه، فلجلج و قال: أعفنى أيها الأمير، فإنى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۶۴

ألممت به، و لم أحقّق النظر فيه لجلالته فى نفسى، فقال له: قد أجّلتك لذلك، فتفرّغ للنظر فيما بقى عليك منه، ثم أحضره بعد أيام، فقال: إن الذى سألتك عنه جدّ منى، مع أنى و اللّه ما أثق بحقيقته، إذ كان من غيب اللّه الذى استأثر به، و لكنى أحبّ أن أسمع ما عندك فيه، فالنفس طلعة، و ألزمه الصّلة أو العقوبة، فقال: اعلم أيها الأمير أنه سوف يستقرّ ملكك، سعيدا جدّك، قاهرا لمن عاداك، إلّا أنّ مدّتك فيه فيما دلّ عليه النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه و قال: يا ضبّى، ما أخوفنى أن يكون النذير كلّمنى بلسانك، و اللّه لو أنّ هذه المدّة كانت فى سجدة للّه تعالى لقلّت طاعة له، و وصله و خلع عليه، و زهد فى الدنيا، و لزم أفعال الخير و البرّ.

و من حكاياته فى الجود أنه كان قاعدا لراحته فى علّية على النهر فى حياة والده، فنظر إلى رجل من قدماء صنائعه من أهل جيّان قد أقبل يوضع السير فى الهاجرة، فأنكر ذلك، و قدّر شرّا وقع به من قبل أخيه سليمان، و كان واليا على جيّان، فأمر بإدخاله عليه، فقال له:

مهيم يا كنانى، فلأمر ما، و ما أحسبك إلّا مزعجا لشىء دهمك، فقال: نعم يا سيدى، قتل رجل من قومى رجلا خطأ، فحملت الدّية على العاقلة، فأخذ بها من كنانة عامّة، و حمل علىّ من بينهم خاصّة، و قصدنى أخوك بالاعتداء إذ عرف مكانى منك، فمدّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر، و قطع قلادة عقد نفيس كان فى نحرها، و قال له: دونك هذا العقد يا كنانى، و شراؤه علىّ ثلاثة آلاف دينار، فلا تخدعنّ عنه، و بعه، و أدّ عن نفسك و عن قومك، و لا تمكّن الرّجل من اهتضامك، فقال: يا سيدى، لم آتك مستجديا و لا لضيق المال عمّا حملته، و لكنى لما اعتمدت بظلم صراح أحببت أن يظهر على عزّ نصرك، و أثر ذبّك و امتعاضك، فأتمجّد بذلك عند من يحسدنى على الانتماء إليك، فقال هشام: فما وجه ذلك؟ فقال: أن تكتب إلى أخيك فى الإمساك عنّى، و القيام بذمّتك لى، فقال: أمسك العقد، و ركب من حينه إلى والده الداخل، و استأذن عليه فى وقت أنكره، فانزعج، و قال: ما أتى بأبى الوليد فى هذا الوقت إلّا أمر مقلق، ائذنوا له، فلمّا دخل سلّم عليه، و مثل قائما بين يديه، فقال له: اجلس يا هشام، فقال: أصلح اللّه الأمير سيدى، و كيف جلوسى بهمّ و ذلّ مزعج، و حقّ لمن قام مقامى أن لا يجلس إلّا مطمئنا، و لن يقعدنى إلّا طيب نفسى بإسعاف الأمير لحاجتى، و إلّا رجعت على عقبى، فقال له: حاش لك من انقلابك خائبا، فاقعد مجابا مشفّعا، فجلس، فقال له

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۶۵

أبوه: فما الحدث المقلق؟ فأعلمه، فأمر بحمل الدّية عنه و عن عشيرته من بيت المال، فسرّ هشام و أطنب فى الشكر، و كتب الأمير إلى ولده سليمان فى ترك التعرّض لهذا الكنانى لما لم يدر فى خلده. و لمّا دخل الكنانى لوداع هشام قال له: يا سيدى، قد تجاوزت بك حدّ الأمنية، و بلغت غاية النصر، و قد أغنى اللّه عن العقد المبذول بين يدى العناية الكريمة، فتعيده إلى صاحبته، فأبى من ذلك، و قال: لا سبيل إلى رجوعه إلينا.

و كان هشام يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز، و كان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور فيسألون الناس عن سير عمّاله، و يخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به و أسقطه و أنصف منه، و لم يستعمله بعد.

و لمّا وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال: نسأل اللّه تعالى أن يزيّن موسمنا بمثل هذا.

و فى أيامه فتحت أربونة الشهيرة، و اشترط على المعاهدين من أهل جلّيقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة، و بنى منه المسجد الذى قدّام باب الجنان، و فضلت منه فضلة بقيت مكوّمة.

و قاسى مع المخالفين له من أهل بيته و غيرهم حروبا، ثم كانت الدائرة له.

و قصد إلى بلاد الحرب غازيا، و قصد ألبة و القلاع، فلقى العدوّ و ظفر بهم، و فتح اللّه عليه سنة خمس و سبعين. و بعث العساكر إلى جلّيقية مع يوسف بن نجية، فلقى ملكها ابن منده، و هزمه، و أثخن فى العدوّ.

و فى سنة ست و سبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدوّ، فبلغ ألبة و القلاع، فأثخن فى نواحيها، ثم بعثه فى العساكر سنة سبع و سبعين إلى أربونة و جريدة فأثخن فيها، و وطئ أرض برطانية، و توغّل عبد الملك فى بلاد الكفّار و هزمهم، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبة و القلاع سنة ثمان و سبعين، و مع أخيه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۶۶

عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جلّيقية، فانتهى إلى أسترقة، فجمع له ملك الجلالقة و استمدّ بملك البشكنس، ثم خام عن اللقاء. و رجع أدراجه، و اتّبعه عبد الملك، و كان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى، فالتقوا بعبد الملك، و أثخنوا فى البلاد، و اعترضهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشىء، ثم خرجوا سالمين ظافرين.

و من محاسنه أنه جدّد القنطرة التى يضرب بها المثل بقرطبة كما سبق، و كان بناها السّمح الخولانى عامل عمر بن عبد العزيز، رضى اللّه عنه، فأحكم هشام بناءها إلى الغاية، و قال يوما لأحد وزرائه: ما يقول أهل قرطبة؟ فقال: يقولون: ما بناها الأمير إلّا ليمضى عليها إلى صيده و قنصه، فآلى هشام على نفسه أن لا يسلك عليها، فلم يمرّ عليها بعد، و وفى بما حلف عليه.

و من محاسنه أيضا إكمال بناء الجامع بقرطبة، و كان أبوه قد شرع فيه؛ و من محاسنه أنه أخرج المصدّق لأخذ الزكاة على الكتاب و السّنّة، رحمه اللّه.

[الحكم بن هشام و حروبه و فتوحه و صفاته و اثاره فى الدولة]

ثم توفى سنة ثمانين و مائة، لسبع سنين و تسعة أشهر من إمارته، و قيل: لثمان- و كان من أهل الخير و الصلاح، كثير الغزو و الجهاد- و عمره أربعون سنة و أربعون أشهر، و ولد فى شوّال سنة ۱۳۷. و ولى بعده ابنه الحكم بعهد منه إليه، فاستكثر من المماليك، و ارتبط الخيل، و استفحل ملكه، و باشر الأمور بنفسه. و فى خلال فتنة كانت بينه و بين عمّيه اغتنم العدوّ الكافر الفرصة فى بلاد المسلمين، و قصدوا برشلونة فملكوها سنة خمس و ثمانين، و تأخّرت عساكر المسلمين إلى ما دونها، و بعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الجلالقة، فأثخنوا فيها، و خالفهم العدوّ إلى المضايق، فرجع على التعبية، و ظفر بهم، و خرج إلى بلاد الإسلام ظافرا. و كانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الرّبض من قرطبة لأنه فى صدر ولايته كان قد انهمك فى لذّاته، فاجتمع أهل العلم و الورع بقرطبة، مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك و أحد رواة الموطّإ عنه و طالوت الفقيه و غيرهما، فثاروا به، و خلعوه، و بايعوا بعض قرابته، و كانوا بالرّبض الغربىّ من قرطبة، و كان محلّة متّصلا بقصره، فقاتلهم الحكم، فغلبهم، و افترقوا، و هدم دورهم و مساجدهم، و لحقوا بفاس من أرض العدوة،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۶۷

و بالإسكندرية من أرض المشرق، و نزل بها جمع منهم، ثم ثاروا بها، فزحف إليهم عبد اللّه بن طاهر صاحب مصر للمأمون بن الرشيد، و غلبهم، و أجازهم إلى جزيرة أقريطش، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدّة.

و كانت فى أيام الحكم حروب و فتن مع الثوّار المخالفين له من أهل طليطلة و غيرهم.

و فى سنة ثنتين و تسعين جمع لذريق بن قارله ملك الفرنج جموعه، و سار إلى حصار طرسونة، فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن فى العساكر، فهزمه، ففتح اللّه على المسلمين، و عاد ظافرا.

و لمّا كثر عيث الفرنج فى الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست و تسعين، فافتتح الثغور و الحصون، و خرّب النواحى، و أثخن فى القتل و السبى و النهب، و عاد إلى قرطبة ظافرا.

و فى سنة مائتين بعث العساكر مع ابن مغيث إلى بلاد الفرنج فخرّب و هدم عدّة حصون، و أقبل عليه أليط ملك الجلالقة فى جموع عظيمة، و تنازلوا على نهر، و اقتتلوا عليه أياما، و نال المسلمون منهم أعظم النّيل، و أقاموا كذلك ثلاث عشرة ليلة، ثم كثرت الأمطار، و مدّ النهر، و قفل المسلمون ظافرين ظاهرين.

و هو أول من جنّد الأجناد، و اتّخذ العدّة، و كان أفحل بنى أمية بالأندلس، و أشدّهم إقداما و نجدة، و كان يشبّه بأبى جعفر المنصور من خلفاء بنى العباس فى شدّة الملك و توطيد الدولة و قمع الأعداء. و كان يؤثر الفقيه زياد بن عبد الرحمن. و حضر يوما عنده، و قد غضب فيه على خادم له لإيصاله إليه كتابا كره وصوله، فأمر بقطع يده، فقال له زياد: أصلح اللّه الأمير! فإن مالك بن أنس حدّثنى فى خبر رفعه أن «من كظم غيظا يقدر على إنفاذه ملأه اللّه تعالى أمنا و إيمانا يوم القيامة» فأمر أن يمسك عن الخادم، و يعفى عنه، فسكن غضبه، و قال:

اللّه إنّ مالكا حدّثك بهذا؟ فقال زياد: اللّه إنّ مالكا حدّثنى بهذا.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۶۸

و كانت المجاعة الشديدة سنة سبع و تسعين و مائة، فأكثر فيها مواساة أهل الحاجات، و فى ذلك يقول عباس بن ناصح الجزيرى فيه: [الكامل]

نكد الزمان فآمنت أيّامه من أن يكون بعصره عسر

ظلع الزمان بأزمة فجلا له تلك الكريهة جوده الغمر

و كان نقش خاتمه «بالله يثق الحكم و يعتصم».

و ذكور ولده عشرون، و إناثهم عشرون، و أمّه جارية اسمها زخرف.

و كان أسمر، طوالا، أشمّ، نحيفا.

و مدّة ملكه ستّ و عشرون سنة، سامحه اللّه!.

و قال غير واحد: إنه أول من جعل للملك بأرض الأندلس أبّهة، و استعدّ بالمماليك حتى بلغوا خمسة آلاف: منهم ثلاثة آلاف فارس، و ألفا راجل.

ثم توفى الحكم بن هشام آخر سنة ست و مائتين لسبع و عشرين سنة من ولايته، و مولده سنة ۱۵۴.

و قال ابن خلدون و غير واحد: إنه أول من جنّد بالأندلس الأجناد و المرتزقة، و جمع الأسلحة و العدد، و استكثر من الخدم و الحواشى و الحشم، و ارتبط الخيول على بابه، و اتّخذ المماليك، و كان يسمّيهم الخرس لعجمتهم، و حكى فى عدّتهم ما تقدّم. ثم قال: و كانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس، و كان يباشر الأمور بنفسه، و يقرّب الفقهاء و العلماء و الصالحين، و هو الذى وطّأ الملك لعقبه بالأندلس، انتهى.

و كان له- فيما حكى غير واحد- ألفا فرس مرتبطة على شاطىء النهر بقبلىّ قصره يجمعها داران. و هو القائل لما قتل أهل الرّبض و هدم ديارهم و حرثها: [الطويل]

رأبت صدوع الأرض بالسّيف راقعا و قدما لأمت الشّعب مذ كنت يافعا

فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة أبادرها مستنضى السّيف دارعا

تنبّيك أنى لم أكن فى قراعهم بوان، و قدما كنت بالسّيف قارعا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۶۹

و هل زدت إذ وفّيتهم صاع قرضهم فوافوا منايا قدّرت و مصارعا

فهذى بلادى، إننى قد تركتها مهادا، و لم أترك عليها منازعا

و قال ابن حزم فى حقه: إنه كان من المجاهرين بالمعاصى، السافكين للدماء، و لذلك قام عليه الفقهاء و الصلحاء.

و قال غير واحد: إنه تنصّل أخيرا، و تاب، سامحه اللّه!.

و من نظمه قوله متغزّلا: [البسيط]

قضب من البان ماست فوق كثبان و لّين عنّى و قد أزمعن هجرانى

و منها:

من لى بمقتضبات الروح من بدنى يغصبننى فى الهوى عزّى و سلطانى

و قيل: إنه كان يمسك أولاد الناس و يخصيهم، و نقلت عنه أمور، و لعلّه تاب منها كما قدّمنا، و اللّه أعلم بحقيقة أمره.

و من بديع أخبار الحكم أن العباس الشاعر توجّه إلى الثّغر، فلمّا نزل بوادى الحجارة سمع امرأة تقول: وا غوثاه بك يا حكم، لقد أهملتنا حتى كلب العدوّ علينا، فأيّمنا و أيتمنا، فسألها عن شأنها، فقالت: كنت مقبلة من البادية فى رفقة، فخرجت علينا خيل عدوّ، فقتلت و أسرت، فصنع قصيدته التى أوّلها: [الطويل]

تململت فى وادى الحجارة مسئدا أراعى نجوما ما يرون تغيّرا

إليك أبا العاصى نضيت مطيّتى تسير بهمّ ساريا و مهجّرا

تدارک نساء العالمين بنصرة فإنک أحرى أن تغيث و تنصرا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة، و وصف له خوف الثغر، و استصراخ المرأة باسمه، فأنف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۷۰

و نادى فى الحين بالجهاد و الاستعداد، فخرج بعد ثلاث إلى وادى الحجارة و معه الشاعر، و سأل عن الخيل التى أغارت من أىّ أرض العدوّ كانت، فأعلم بذلک، فغزا تلک الناحية و أثخن فيها، و فتح الحصون، و خرّب الديار، و قتل عددا كثيرا، و جاء إلى وادى الحجارة فأمر بإحضار المرأة و جميع من أسر له أحد فى تلك البلاد، فأحضر، فأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتها، و قال للعباس: سلها: هل أغاثها الحكم؟ فقالت المرأة، و كانت نبيلة: و اللّه لقد شفى الصدور، و أنكى العدوّ، و أغاث الملهوف، فأغاثه اللّه، و أعزّ نصره! فارتاح لقولها، و بدا السرور فى وجهه و قال: [الطويل]

أ لم تر يا عباس، أنّى أجبتها على البعد أقتاد الخميس المظفّرا

فأدركت أوطارا و برّدت غلّة و نفّست مكروبا و أغنيت معسرا

فقال عباس: نعم، جزاک اللّه خيرا عن المسلمين! و قبّل يده.

و ممّا عيب به أنه قتل الفقيه أبا زكريا يحيى بن مضر القيسى، و كان قدوة فى الدين و الورع، سمع من سفيان و مالک بن أنس، و روى عنه مالک و قال: حدّثنا يحيى بن مضر عن سفيان الثّورى أن الطّلح المنضود هو الموز، و كان قتل المذكور مع جماعة من العلماء و غيرهم.

[عبد الرحمن بن الحكم]

و قال بأمره من بعده ابنه عبد الرحمن، بعهد منه إليه، ثم لأخيه المغيرة بعده، فغزا عبد الرحمن لأول ولايته إلى جلّيقيّة و أبعد، و أطال المغيب، و أثخن فى أمم النصرانية هنالک، و رجع.

و قدم عليه سنة ست و مائتين زرياب المغنى من العراق، و هو مولى المهدى و متعلّم إبراهيم الموصلى، و اسمه على بن نافع، فركب بنفسه لتلقّيه، على ما حكاه ابن خلدون، و بالغ فى إكرامه، و أقام عنده بخير حال، و أورث صناعة الغناء بالأندلس و خلّف أولادا فخلفه كبيرهم عبد الرحمن فى صناعته و حظوته.

و فى سنة ثمان أغزى حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبة و القلاع، فخرّب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۷۱

كثيرا من البلاد و انتسفها، و فتح كثيرا من حصونهم، و صالح بعضها على الجزية و إطلاق أسرى المسلمين، و انصرف ظافرا.

و فى سنة أربع و عشرين بعث قريبه عبيد اللّه بن البلنسى فى العساكر لغزو ألبة و القلاع، فسار و لقى العدوّ فهزمهم و أكثر القتل و السّبى، ثم خرج لذريق ملک الجلالقة، و أغار على مدينة سالم بالثغر، فسار إليه فرتون بن موسى، و قاتله، فهزمه و أكثر القتل و السبى فى العدوّ و الأسر، ثم سار إلى الحصن الذى بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين، فافتتحه و هدمه، ثم سار عبد الرحمن فى الجيوش إلى بلاد جلّيقية، فدوّخها و افتتح عدّة حصون منها، و جال فى أرضهم، و رجع بعد طول المقام بالسبى و الغنائم.

و فى سنة ستّ و عشرين بعث عبد الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة، و انتهوا إلى أرض برطانية، و كان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة، و لقيهم العدوّ، فصبر حتى هزم اللّه عدوّهم، و كان لموسى فى هذه الغزاة مقام محمود.

و فى سنة تسع و عشرين بعث ابنه محمدا بالعساكر، و تقدّم إلى ينبلونة، فأوقع بالمشركين عندها، و قتل غرسية صاحبها، و هو من أكبر ملوک النصارى.

و فى أيامه ظهر المجوس، و دخلوا إشبيلية، فأرسل إليهم عبد الرحمن العساكر مع القوّاد من قرطبة، فنزل المجوس من مراكبهم، و

قاتلهم المسلمون، فهزموهم بعد مقام صعب، ثم جاءت العساكر مددا من قرطبة فقاتلهم المجوس، فهزمهم المسلمون و غنموا بعض مراكبهم و أحرقوها، و رحل المجوس إلى شذونة فأقاموا عليها يومين، و غنموا بعض الشيء، و وصلت مراكب عبد الرحمن إلى إشبيلية فأقلع المجوس إلى لبلة، و أغاروا و سبوا، ثم إلى باجة ثم أشبونة، ثم انقطع خبرهم حين أقلعوا من أشبونة، و سكنت البلاد، و ذلك سنة ثلاثين، و تقدّم عبد الرحمن بإصلاح ما خرّبوه من البلاد، و أكثف حاميتها.

و فى سنة إحدى و ثلاثين بعث العساكر إلى جليقية فدوّخوها، و حاصروا مدينة ليون و رموها بالمجانيق، و هرب أهلها عنها و تركوها، فغنم المسلمون ما فيها و أحرقوها، و أرادوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۷۲

هدم سورها فلم يقدروا عليه؛ لأنّ عرضه كان سبعة عشر ذراعا، فثلموا فيه ثلمة و رجعوا.

ثم أغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الكريم فى العساكر إلى بلاد برشلونة، فعاث فى نواحيها و أجاز الدروب التى تسمّى البرت إلى بلاد الفرنجة فدوّخها قتلا و أسرا و سبيا، و حاصر مدينتها العظمى جرندة، و عاث فى نواحيها، و قفل. و قد كان ملك القسطنطينية من ورائهم نوفلس بعث إلى الأمير عبد الرحمن سنة خمس و عشرين بهدية يطلب مواصلته و يرغّبه فى ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق به المأمون و المعتصم حتى إنه ذكرهما له فى كتابه له و عبّر عنهما بابنى مراجل و ماردة، فكافأه الأمير عبد الرحمن عن الهدية، و بعث إليه يحيى الغزال من كبار أهل الدولة، و كان مشهورا فى الشعر و الحكمة، فأحكم بينهما الوصلة، و ارتفع لعبد الرحمن ذكر عند منازعيه من بنى العباس.

و يعرف الأمير عبد الرحمن بالأوسط؛ لأنّ الأول عبد الرحمن الداخل، و الثالث عبد الرحمن الناصر.

ثم توفى عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان و ثلاثين و مائتين، بربيع الآخر، لإحدى و ثلاثين سنة من إمارته.

و مولده بطليطلة فى شعبان سنة ست و سبعين و مائة.

و كان عالما بعلوم الشريعة و الفلسفة، و كانت أيامه أيام هدوء و سكون، و كثرت الأموال عنده، و اتّخذ القصور و المتنزهات، و جلب إليها المياه من الجبال، و جعل لقصره مصنعا اتخذه الناس شريعة، و أقام الجسور، و بنيت فى أيامه الجوامع بكور الأندلس، و زاد فى جامع قرطبة رواقين، و مات قبل أن يستتمّه، فأتمّه ابنه محمد بعده، و بنى بالأندلس جوامع كثيرة، و رتّب رسوم المملكة، و احتجب عن العامّة.

و عدد ولده مائة و خمسون من الذكور، و خمسون من الإناث، و نقش خاتمه «عابد الرحمن بقضاء اللّه راض» و فى ذلك قيل: [مجزوء الكامل]

خاتم للملك أضحى حكمه فى الناس ماضى

عابد الرحمن فيه بقضاء اللّه راضى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۷۳

و هو أول من أحدث هذا النقش، و بقى وراثة لمن بعده من ولده.

قال ابن سعيد: و فى أيامه انتهى مال الجباية إلى ألف ألف دينار فى السنة، و كان قبل لا يزيد على ستمائة ألف، و قد ذكرنا فى غير هذا الموضع ما يخالف هذا فليراجع، و اللّه أعلم.

و من توقيعاته: من لم يعرف وجه طلبه، فالحرمان أولى به.

و من شعر عبد الرحمن المذكور قوله: [الكامل]

و لقد تعارض أوجه لأوامر فيقودها التوفيق نحو صوابها

و الشيخ إن يحو النّهى بتجارب فشباب رأى القوم عند شبابها

و فى زيادته فى جامع قرطبة يقول ابن المثنى رحمه اللّه تعالى: [البسيط المخلع]

بنيت للّه خير بيت يخرس عن وصفه الأنام

حج إليه بكل أوب كأنه المسجد الحرام

كأنّ محرابه إذا ما خفّ به الركن و المقام

و قال آخر: [الطويل]

بنى مسجدا للّه لم يك مثله و لا مثله للّه فى الأرض مسجد

سوى ما ابتنى الرحمن و المسجد الذى بناه نبيّ المسلمين محمّد

له عمد حمر و خضر كأنما تلوح يواقيت بها و زبرجد

ألا يا أمين اللّه، لا زلت سالما و لا زلت فى كل الأمور تسدّد

فيا ليتنا نفديك من كلّ حادث و أنك للدنيا و للدين تخلد

و كان كثير الميل للنساء، و ولع بجاريته طروب، و كلف بها كلفا شديدا، و هى التى بنى عليها الباب ببدر المال حين تجنّت عليه، و أعطاها حليّا قيمته مائة ألف دينار، فقيل له: إن مثل هذا لا ينبغى أن يخرج من خزانة الملك، فقال: إن لابسه أنفس منه خطرا، و أرفع قدرا، و أكرم جوهرا، و أشرف عنصرا، و فيها يقول: [المتقارب]

إذا ما بدت لى شمس النّها ر طالعة ذكّرتنى طروبا

أنا ابن الميامين من غالب أشبّ حروبا و أطفى حروبا

و خرج غازيا إلى جلّيقية فطالت غيبته فكتب إليها: [المتقارب]

عدانى عنك مزار العدا و قودى إليهم سهاما مصيبا

فكم قد تخطّيت من سبسب و لاقيت بعد دروب دروبا

ألاقى بوجهى سموم الهجى ر إذ كاد منه الحصى أن يذوبا

تدارك بى اللّه دين الهدى فأحييته و أمتّ الصليبا

و سرت إلى الشّرك فى جحفل ملأت الحزون به و السّهوبا

و ساق بعض المؤرخين قضية طروب هذه بقوله: إنّ السلطان المذكور أغضبها فهجرته، و صدّت عنه، و أبت أن تأتيه، و لزمت مقصورتها، فاشتدّ قلقه لهجرها، و ضاق ذرعه من شوقها، و جهد أن يترضّاها بكل وجه فأعياه ذلك، فأرسل من خصيانه من يكرهها على الوصول إليه، فأغلقت باب مجلسها فى وجوههم، و آلت أن لا تخرج إليهم طائعة، و لو انتهى الأمر إلى القتل، فانصرفوا إليه و أعلموه بقولها، و استأذنوه فى كسر الباب عليها، فنهاهم و أمرهم بسدّ الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم، ففعلوا، و بنوا عليها بالبدر، و أقبل حتى وقف بالباب و كلّمها مسترضيا راغبا فى المراجعة على أنّ لها جميع ما سدّ به الباب، فأجابت و فتحت الباب، فانهالت البدر فى بيتها، فأكبّت على رجله تقبّلها، و حازت المال، و كانت تبرم الأمور مع مضر الخصىّ فلا يردّ شيئا ممّا تبرمه.

و أحبّ أخرى اسمها مدثرة فأعتقها و تزوّجها، و أخرى كذلك اسمها الشفاء، و أمّا جاريته قلم فكانت أديبة، حسنة الخط، راوية للشعر، حافظة للأخبار، عالمة بضروب الأدب. و كان مولعا بالسّماع، مؤثرا له على جميع لذّاته، و له أخبار كثيرة، رحمه اللّه!.

[محمد عبد الرحمن]

و لمّا مات ولى ابنه محمد، فبعث لأول ولايته عساكر مع موسى بن موسى صاحب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۷۵

طليطلة، فعاث فى نواحى ألبة و القلاع، و فتح بعض حصونها، و رجع. و بعث عساكر أخرى إلى نواحى برشلونة و ما وراءها، فعاثوا فيها و فتحوا حصونا من برشلونة و رجعوا.

و لما استمدّ أهل طليطلة المخالفون من أهل بلاد الأمير محمد عليه بملكى جلّيقية و البشكنس لقيهم الأمير محمد على وادى سليطة، و قد أكمن لهم، فأوقع بهم، و بلغت عدّة القتلى من أهل طليطلة و المشركين عشرين ألفا.

و فى سنة خمس و أربعين ظهرت مراكب المجوس، و عاثوا فى الأندلس، فلقيهم مراكب الأمير محمد، فقاتلوهم و غنموا منهم مركبين، و استشهد جماعة من المسلمين.

و فى سنة سبع و أربعين أغزى محمد إلى نواحى ينبلونة، و صاحبها حينئذ غرسية بن وبقة، و كان يظاهر أردن بن أذفنش، فعاث فى نواحى ينبلونة، و رجع و قد دوّخها و فتح كثيرا من حصونها، و أسر فرتون ابن صاحبها، فبقى أسيرا بقرطبة عشرين سنة.

ثم بعث سنة إحدى و خمسين أخاه المنذر فى العساكر إلى نواحى ألبة و القلاع فعاثوا فيها، و جمع لذريق للقائهم، فلقيهم و انهزم، و أثخن المسلمون فى المشركين بالقتل و الأسر، فكان فتحا لا كفاء له.

ثم غزا الأمير محمد بنفسه سنة إحدى و خمسين بلاد الجلالقة، فأثخن و خرّب.

و فى سنة ثلاث و ستّين أغزى الأمير محمد ابنه المنذر إلى دار الحرب، و فى السنة التى بعدها إلى بلاد ينبلونة فدوّخها و رجع.

و فى سنة ثمان و ستّين أغزاه أيضا إلى دار الحرب، فعاث فى نواحيها و فتح حصونا.

و فى أيام الأمير محمد خربت ماردة و هدمت و لم يبق لها أثر.

و ذكر بعضهم أنه رأى بالمشرق هذه الأبيات قبل أن تخرب ماردة بأعوام، و لم يعلم قائلها، و ذلك سنة ۲۵۴: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۷۶

و يل لماردة التى مردت و تكبّرت عن عدوة النهر

كانت ترى لهم بها زهر فخلت من الزّهرات كالقفر

فالويل ثم الويح حين غزا بجميعهم من صاحب الأمر

ثم توفى الأمير محمد فى شهر صفر سنة ثلاث و سبعين و مائتين، لخمس و ثلاثين سنة من إمارته، و مولده سنة سبع و مائتين.

[ولاية المنذر بن محمد، ثم عبد اللّه بن محمد]

و ولى بعده ابنه المنذر، و لم تطل مدّته، و أقام فى الملك سنتين إلّا نصف شهر، و توفى منتصف صفر سنة خمس و سبعين و مائتين، و فيه قيل: [مجزوء الكامل]

بالمنذر بن محمد صلجت بلاد الأندلس

ثم ولى أخوه عبد اللّه، قال ابن خلدون: كان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار:

مائة ألف للجيوش، و مائة ألف للنفقة فى النوائب و ما يعرض، و مائة ألف ذخيرة و وفرا، فأنفق الوفر حين اضطربت عليه نواحى الأندلس بالثّوار و المتغلّبين فى تلك السنين، و قلّ الخراج، انتهى.

و من نظم الأمير عبد اللّه قوله: [السريع]

يا مهجة المشتاق ما أوجعك و يا أسير الحبّ ما أخشعك

و يا رسول العين من لحظها بالردّ و التبليغ ما أسرعك

تذهب بالسّرّ فتأتى به فى مجلس يخفى على من معك

كم حاجة أنجزت إبرازها تبارك الرحمن ما أطوعك

و هذه الأبيات عنوان فضله، و براعة استهلال نبله.

و كان الوزراء يطالعون بآرائهم، الخليفة فى بطاقة، فطالعه و زيره النّضر بن سلمة برأيه فى أمر فى ورقة، فلمّا وقف عليها لم يعجبه ذلك الرأى، فكتب: [مجزوء الخفيف]

أنت يا نضر آبدة ليس ترجى لفائدة

إنما أنت عدّة لكنيف و مائدة

و توفى الأمير عبد اللّه سنة ثلاثمائة، و مدة ملكة نحو من خمس و عشرين سنة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۷۷

[عبد الرحمن الناصر]

و ولى حافده عبد الرحمن الناصر ابن ابنه محمد قتيل أخيه المطرّف، و كانت ولايته من الغريب؛ لأنه كان شابّا، و أعمامه و أعمام أبيه حاضرون، فتصدّى إليها و احتازها دونهم، و وجد الأندلس مضطربة بالمخالفين، مضطرمة بنيران المتغلّبين، فأطفأ تلك النيران، و استنزل أهل العصيان، و استقامت له الأندلس فى سائر جهاتها بعد نيّف و عشرين سنة من أيامه، و دامت أيامه نحو خمسين سنة استفحل فيها ملك بنى أميّة بتلك الناحية، و هو أول من تسمّى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين، عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق، و استبدّ موالى الترك على بنى العباس، و بلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة و ثلاثمائة فتلقّب بألقاب الخلافة، و كان كثير الجهاد بنفسه و الغزو إلى دار الحرب، إلى أن هزم عام الخندق سنة ثلاث و عشرين، و محّص اللّه فيها المسلمين، فقعد عن الغزو بنفسه و صار يردّد الصّوائف فى كل سنة، فأوطأ عساكر المسلمين، من بلاد الإفرنج ما لم يطؤوه قبل فى أيام سلفه، و مدّت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان، و أوفدوا عليه رسلهم و هداياهم من رومة و القسطنطينية فى سبيل المهادنة و السلم و الاعتمال فيما يعنّ فى مرضاته، و وصل إلى سدّته الملوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة و ينبلونة و ما ينسب إليها من الثغور الجوفية، فقبّلوا يده، و التمسوا رضاه، و احتقبوا جوائزه، و امتطوا مراكبه، ثم سما إلى ملك العدوة فتناول سبتة و نقل الفرضة من أيدى أهلها سنة سبع عشرة و ثلاثمائة، و أطاعه بنو إدريس أمراء العدوة و ملوك زناتة و البربر، و أجاز إليه الكثير منهم كما يعلم من أخباره، و بدأ أمره أول ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا، انتهى كلام ابن خلدون.

و فيه يقول ابن عبد ربه صاحب «العقد» يوم تولّى الملك: [المجتث]

بدا الهلال جديدا و الملك غضّ جديد

يا نعمة اللّه زيدى إن كان فيك مزيد

إن كان للصّوم فطر فأنت للدهر عيد

و أراد بأول الأبيات أنه ولى مستهلّ ربيع الأول كما علم.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۷۸

و ما أشار إليه ابن خلدون فى غزوة الخندق فصّله المسعودى فقال، بعد أن أجرى ذكر مخالفة أميّة بن إسحاق على الناصر و دخوله أرض النصارى و دلالته إياهم على عورات المسلمين، ما ملخّصه: و غزا عبد الرحمن صاحب الأندلس سمّورة دار الجلالقة، و كان عبد الرحمن فى مائة ألف أو يزيدون، و كانت الوقعة بينه و بين ردمير ملك الجلالقة فى شوّال سنة ۳۲۷ بعد الكسوف الذى كان فى هذا الشهر بثلاثة أيام، فكانت للمسلمين عليهم، ثم ثابوا بعد أن حوصروا و ألجئوا إلى المدينة، فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق خمسين ألفا. و قيل: إن الذى منع ردمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن إسحاق، و خوّفه الكمين، و رغّبه فيما كان فى

عسكر المسلمين من الأموال و العدّة و الخزائن، و لو لا ذلك لأتى على جميع المسلمين، ثم إن أميّة استأمن بعد ذلك إلى عبد الرحمن و تخلّص من ردمير، و قبله عبد الرحمن أحسن قبول. و قد كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جهّز عساكر مع عدّة من قوّاده إلى الجلالقة، فكانت لهم بهم عدّة حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين فى الوقعة الأولى، و كانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية، وردمير ملك الجلالقة إلى هذا الوقت و هو سنة ۳۳۲، انتهى.

و قال فى موضع آخر ما ملخّصه: إن عبد الرحمن غزا فى أزيد من مائة ألف فارس من الناس، فنزل على دار مملكة الجلالقة، و هى مدينة سمّورة، و عليها سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السالفة، و بين الأسوار فصلان و خنادق و مياه واسعة، و افتتح منها سورين، ثم إن أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم- ممّن أدركه الإحصاء و ممّن عرف- أربعين ألفا، و قيل: خمسين ألفا، و كانت للجلالقة و البشكنس على المسلمين، انتهى كلام المسعودى.

رجع إلى أخبار الناصر- فنقول: إن الناصر- رحمه اللّه!- كان له نظم، و ممّا نسب إليه بعضهم قوله: [الخفيف]

لا يضرّ الصغير حدثان سنّ إنما الشأن فى سعود الصغير

كم مقيم فازت يداه بغنم لم تنله بالرّكض كفّ مغير

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۷۹

هكذا ألفيت البيتين منسوبين إليه بخط بعض الأكابر، ثم كتب بأثره ما نصّه: الصحيح أنهما لغيره، و اللّه أعلم، انتهى.

[هدية ابن شهيد للناصر]

و كان الناصر- رحمه اللّه- قد استحجب موسى بن محمد بن حدير، و استوزر عبد الملك بن جهور. و أحمد بن عبد الملك بن شهيد، و أهدى له ابن شهيد هديته المشهورة المتعدّدة الأصناف، و قد ذكرها ابن حيّان و ابن خلدون و غيرهما من المؤرّخين. قال ابن خلدون: و هى مما يدلّ على ضخامة الدولة الأموية، و اتّساع أحوالها، و كان ذلك سنة سبع و عشرين و ثلاثمائة، لثمان خلون من شهر جمادى الأولى، و هى هدية عظيمة الشأن، اشتهر ذكرها إلى الآن، و اتّفق على أنه لم يهاد أحد من ملوك الأندلس بمثلها، و قد أعجبت الناصر و أهل مملكته جميعا، و أقرّوا أنّ نفسا لم تسمح بإخراج مثلها ضربة عن يدها، و كتب معها رسالة حسنة بالاعتراف للناصر بالنعمة و الشكر عليها، فاستحسنها الناس و كتبوها، و زاد الناصر وزيره هذا حظوة و اختصاصا، و أسمى منزلته على سائر الوزراء جميعا و أضعف له رزق الوزارة، و بلّغه ثمانين ألف دينار أندلسية، و بلغ معروفه إلى ألف دينار، و ثنى له العظمة لتثنيته له الرزق، فسمّاه «ذا الوزارتين» لذلك، و كان أول من تسمّى بذلك بالأندلس امتثالا لاسم صاعد بن مخلد وزير بنى العباس ببغداد، و أمر بتصدير فراشه فى البيت، و تقديم اسمه فى دفتر الارتزاق أول التسمية، فعظم مقداره فى الدولة جدّا.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ۱؛ ص ۲۷۹

تفسير هديته المذكورة على ما ثبت فى كتاب ابن خلدون على ما يفسّر: خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين، و أربعمائة رطل من التّبر، و مصارفة خمسة و أربعون ألف دينار، و من سبائك الفضّة مائتا بدرة. و اقتصر ابن الفرضى على خمسمائة ألف دينار فقط، و اثنا عشر رطلا- من العود الهندى الذى يختم عليه كالشمع، و مائة و ثمانون رطلا- من العود المتخيّر، و مائة رطل من العود الشبه المنتقى، هكذا ذكره ابن خلدون.

و قال ابن الفرضى مستندا إلى الكتاب الذى وجّهه ابن شهيد مع الهدية: إن العود العالى من ذلك أربعمائة رطل، منها قطعة واحدة مائة و ثمانون رطلا.

و قال ابن خلدون: و مائة أوقية من المسك الذكى المفضّل فى جنسه، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۸۰

و قال ابن الفرضى، نقلا عن الكتاب المصحوب مع الهدية: إن المسك مائتا أوقية، و اثنتا عشرة أوقية، و من العنبر الأشهب الباقى على خلقته بغير صناعة خمسمائة أوقية، منها قطعة عجيبة ململمة الشلّ وزن مائة أوقية، هكذا فى تاريخ ابن خلدون.

و فى ابن الفرضى أن الكلّ مائة أوقية، و أن هذه القطعة أربعون أوقية.

و من الكافور المرتفع النقى الذكىّ ثلاثمائة أوقية.

قال ابن خلدون: و من اللباس ثلاثون شقّة من الحرير المختّم المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء المختلف الألوان و الصنائع، و عشرة أفرية من عالى جلود الفنك الخراسانية.

و خالفه ابن الفرضىّ، إذ قال: و من أنواع الثياب ثلاثون شقّة خلج خاصية للباسه بيضاء و ملوّنة، و خمس ظهائر شعيبية خاصية له، و عشر فراء من عالى الفنك منها سبعة بيض خراسانية و ثلاث ملوّنة، و ستة مطارف عراقية خاصية له، و ثمان و أربعون ملحفة زهرية لكسوته، و مائة ملحفة زهرية لرقاده.

و لم يذكر ابن خلدون ذلك، و ابن الفرضى أعرف، لا سيما و قد استند إلى كتاب المهدى و صاحب البيت أدرى.

قال ابن خلدون: و عشرة قناطير شدّ فيها مائة جلد سمّور، و قاله ابن الفرضى أيضا. و زاد ابن خلدون: و ستة من السرادقات العراقية، و ثمانية و أربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير و الذهب، ثم قالا معا: و أربعة آلاف رطل من الحرير المغزول، و ألف رطل من لون الحرير المنتقى للاستغزال، و زاد ابن خلدون: و ثلاثون شقّة من الفربون لسروج الهبات، و زاد ابن الفرضى فى الحرير المذكور: قيل: إنه قبضه منه صاحب الطراز و لم يأت به مع الهدية، و إنما دفعه لصاحب الطراز، و أثبته فى الدفتر. قالا: و ثلاثون بساطا من الصوف مختلفة الصناعات طول كل بساط منها عشرون ذراعا، و قال ابن خلدون: منتقاة مختلفة الألوان، قالا:

و مائة قطعة مصلّيات من وجوه الفرش المختلفة، زاد ابن الفرضى: الصناعات من جنى البسط، قالا: و خمسة عشر نوخا من عمل الخزّ المقطوع شطرها، قال ابن الفرضى: و سائرها من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۸۱

جنس البسط، قال ابن خلدون: و من السلاح و العدّة ثمانمائة من التجافيف المزيّنة أيام البروز و المواكب، و قال ابن الفرضى: مائة تجفاف بأبدع الصناعات و أغربها و أكملها، قالا: و ألف ترس سلطانية، و مائة ألف سهم، زاد ابن خلدون: من النّبال البارعة الصنعة، قال ابن خلدون:

و من الظهر خمسة عشر فرسا من الخيل العراب المتخيّرة لركاب السلطان فائقة النّعوت، و قال ابن الفرضى: و من الخيل مائة فرس منها من الخيل العراب المتخيّرة لركابه خمسة عشر فرسا، و خمس من عرض هذه الخيل مسرجة ملجمة لمراكب الخلافة مجالس سروجها خزّ عراقى، و ثمانون فرسا ممّا يصلح للوصفاء و الحشم، و قال ابن خلدون: مائة فرس من الخيل التى تصلح للركوب فى التصرّف و الغزوات، و قال ابن الفرضى: و خمسة أبغل عالية الركاب، و قال ابن خلدون: و عشرون من بغال الركاب مسرجة ملجمة لمراكب الخلافة مجالس سروجها خزّ جعفرى عراقى، قالا: و من الرقيق أربعون وصيفا و عشرون جارية من متخيّر الرقيق بكسوتهم و جميع آلاتهم. و قال ابن خلدون فى الجوارى: متخيّرات بكسوتهنّ و زينتهنّ، و قال ابن خلدون: و من سائر الاصناف قرية تغلّ آلافا من أمداد الزرع، و من الصخر للبنيان ما أنفق عليه فى عام واحد ثمانون ألف دينار، و عشرون ألف عود من الخشب من أجمل الخشب و أصلبه و أقومه قيمتها خمسون ألف دينار، انتهى.

و قال ابن الفرضى نقلا عن كتاب ابن شهيد المصحوب مع الهدية عندما ذكر الرقيق ما صورته: و كان قد أربى- أيّده اللّه!- بابتياعهم من مال الأخماس، فابتعتهم من نعمته عندى، و صيّرتهم من بعثى، و مع ذلك عشر قناطير سكر طبرزذ لا سحاق فيه.

و فى آخر الكتاب: و لمّا علمت تطلّع مولاى- أيّده اللّه تعالى!- إلى قرية كذا بالقنبانية المنقطعة الغرس شرفها، و ترداده- أيّده اللّه تعالى!- لذكرها لم أهنأ بعيش حتى أعملت الحيلة فى ابتياعها بأحوازها، و أكتبت وكيله ابن بقية الوثيقة فيها باسمه، و ضمّها إلى

ضياعه، و كذلك صنعت فى قرية شيرة من نظر جيّان عندما اتّصل بى من وصفه لها و تطلّعه إليها، فما زلت أتصدّى لمسرّته بها حتى ابتعتها الآن بأحوازها و جميع منازلها و ربوعها، و احتاز ذلك كله الوكيل ابن بقيّة، و صار فى يده له أبقاه اللّه سبحانه، و أرجو أنه سيرفع فيها فى هذه السنة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۸۲

آلاف أمداد من الأطعمة إن شاء اللّه تعالى. و لمّا علمت نافذ عزمه- أبقاه اللّه تعالى!- فى البنيان، و كلفه به، و فكّرت فى عدد الأماكن التى تطلع نفسه الكريمة إلى تخليد آثاره فى بنيانها- مدّ اللّه تعالى فى عمره، و أوفى بها على أقصى أمله!- علمت أنّ أسّه و قوامه الصخر و الاستكثار منه، فأثارت لى همّتى و نصيحتى حكمة حيلة أحكمها سعدك و جدّك اللذان يبعثان ما لا يتوهّم عليه، حيلة أقيم لك فيها بعام واحد عدد ما كان يقوم على يدى عبدك ابن عاصم فى عشرين عاما، و ينتهى تحصيل النفقة فيه إلى نحو الثمانين ألفا أعجل شأنه فى عام، سوى التوفير العظيم الذى يبديه العيان قبلا إن شاء اللّه تعالى، و كذلك ما ثاب إلىّ فى أمر الخشب لهذه المنية المكرّمة، فإنّ ابن خليل عبدك المجتهد الدؤوب انتهى فى تحصيل عدد ما تحتاج إليه إلى ثلاثمائة ألف عود و نيّف على عشرين ألف عود، على أنه لا يدخل منه فى السنة إلّا نحو الألفى عود، ففتح لى سعدك رأيا أقيم له بتمامه جميع هذا الخشب العام على كماله بورود الجليبة لوقتها، و قيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفا و الستّين ألفا، انتهى.

و من غريب ما يحكى عن أمير المؤمنين الناصر المذكور أنه أراد الفصد، فقعد بالبهو فى المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهراء، و استدعى الطبيب لذلك، و أخذ الطبيب الآلة و جسّ يد الناصر، فبينما هو إذ أطلّ زرزور فصعد على إناء ذهب بالمجلس، و أنشد:

[مجزوء الكامل]

أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنينا

إنّما تفصد عرقا فيه محيا العالمينا

و جعل يكرّر ذلك المرة بعد المرة، فاستظرف أمير المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف، و سرّ به غاية السرور، و سأل عمّن اهتدى إلى ذلك و علّم الزّرزور، فذكر له أن السيدة الكبرى مرجانة أمّ ولده وليّ عهده الحكم المستنصر باللّه صنعت ذلك، و أعدّته لذلك الأمر، فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار.

و ذكر ابن بسّام أن أبا عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك الوزير أهدى له غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه، فلمحه الناصر فقال لابن شهيد: أنّى لك هذا؟ قال: هو من عند اللّه، فقال له الناصر: تتحفوننا بالنجوم و تستأثرون بالقمر، فاستعذر و احتفل فى هدية

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۸۳

بعثها مع الغلام، و قال: يا بنى، كن مع جملة ما بعثت به، و لو لا الضرورة ما سمحت بك نفسى، و كتب معه هذين البيتين: [الطويل]

أمولاى هذا البدر سار لأفقكم و للأفق أولى بالبدور من الأرض

أرضيكم بالنّفس و هى نفيسة و لم أر قبلى من بمهجته يرضى

فحسن ذلك عند الناصر، و أتحفه بمال جزيل، و تمكّنت عنده مكانته، ثم إنه بعد ذلك أهديت إليه جارية من أجمل نساء الدنيا، فخاف أن ينتهى ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام، فاحتفل فى هدية أعظم من الأولى، و بعثها معها، و كتب له: [الطويل]

أمولاى، هذى الشمس و البدر أوّلا تقدّم كيما يلتقى القمران

قران لعمرى بالسعادة قد أتى فدم منهما فى كوثر و جنان

فما لهما و اللّه فى الحسن ثالث و ما لك فى ملك البريّة ثانى

فتضاعفت مكانته عنده.

ثم إن أحد الوشاة رفع للملك أنه بقى فى نفسه من الغلام حرارة، و أنه لا يزال يذكره حين تحرّكه الشّمول، و يقرع السّنّ على تعذّر الوصول، فقال للواشى: لا- تحرّك به لسانك، و إلّا طار رأسك، و أعمل الناصر حيلة فى أن كتب على لسان الغلام رقعة منها: «يا مولاى، تعلم أنك كنت لى على انفرادى، و لم أزل معك فى نعيم، و إنّى و إن كنت عند الخليفة مشارك فى المنزلة، محاذر ما يبدو من سطوة الملك، فتحيّل فى استدعائى منه»، و بعثها مع غلام صغير السنّ، و أوصاه أن يقول: من عند فلان، و إنّ الملك لم يكلّمه قطّ، إن سأله عن ذلك، فلمّا وقف أبو عامر على تلك الرسالة و استخبر الخادم علم من سؤاله ما كان فى نفسه من الغلام، و ما تكلّم به فى مجالس المدام، فكتب على ظهر الرقعة و لم يزد حرفا:

[الطويل]

أمن بعد إحكام التجارب ينبغى لدىّ سقوط الطّير فى غابة الأسد

و ما أنا ممّن يغلب الحبّ قلبه و لا جاهل ما يدّعيه أولو الحسد

فإن كنت روحى قد وهبتك طائعا و كيف يردّ الرّوح إن فارق الجسد؟

فلما وقف الناصر على الجواب تعجّب من فطنته، و لم يعد إلى استماع واش به.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۸۴

و دخل عليه بعد ذلك فقال له: كيف خلصت من الشّرك؟ فقال: لأنّ عقلى بالهوى غير مشترك، فأنعم عليه، و زادت محبّته عنده، و ممّن ذكر هذه الحكاية صاحب «مطالع البدور، فى منازل السرور».

[غزوات الناصر و وفود دول النصرانية عليه]

و أخبار الناصر طويلة جدّا، و قد منح الظفر على الثوّار، و استنزلهم من معاقلهم، حتى صفا له الوقت، و كانت له فى جهاد العدوّ اليد البيضاء، فمن غزواته أنه غزا سنة ثمان و ثلاثمائة إلى جلّيقية و ملكها أردون بن أذفونش، فاستنجد بالبشكنس و الإفرنجة و ظاهر شانجه بن فريلة صاحب ينبلونة أمير البشكنس، فهزمهم، و وطئ بلادهم، و دوّخ أرضهم، و فتح معاقلهم، و خرّب حصونهم، ثم غزا ينبلونة سنة ثنتى عشرة، و دخل دار الحرب، و دوّخ البسائط، و فتح المعاقل، و خرّب الحصون، و أفسد العمائر، و جال فيها، و توغّل فى قاصيتها، و العدوّ يحاذيه فى الجبال و الأوعار، و لم يظفر منه بشىء، ثم بعد مدّة ظفر ببعض الثوّار عليه، و كان استمدّ بالنصارى فقتل الناصر من كان مع الثائر من النصارى أهل ألبة، و فتح ثلاثين من حصونهم، و بلغه انتقاض طوطة ملكة البشكنس فغزاها فى ينبلونة و دوّخ أرضها و استباحها، و رجع إلى قرطبة، ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع و عشرين إلى جلّيقية فانهزم و أصيب فيها المسلمون، و قعد بعدها عن الغزو بنفسه، و صار يردّد البعوث و الصوائف إلى الجهاد، و بعث جيوشه إلى المغرب فملك سبتة و فاسا و غيرهما من بلاد المغرب، و طار صيته و انتشر ذكره كما سبق. و لمّا هلك شانجه بن فرويلة ملك البشكنس قام بأمرهم بعده أمه طوطة، و كفلت ولده، ثم انتقضت على الناصر سنة خمس و عشرين، فغزا الناصر بلادها، و خرّب نواحى ينبلونة و ردّد عليها، كما مرّ، الغزوات. و كان قبل ذلك سنة ثنتين و عشرين غزا إلى وخشمة، ثم رحل إلى ينبلونة، فجاءته طوطة بطاعتها و عقد لابنها غرسيه على ينبلونة، ثم عدل إلى ألبة و بسائطها فدوّخها و خرّب حصونها، ثم اقتحم جلّيقيّة و ملكها يومئذ ردمير بن أردون، فخام عن لقائه، و دخل و خشمة، فنازله الناصر فيها، و هدم برغش و كثيرا من معاقلهم، و هزمهم مرارا، و رجع، ثم كانت بعدها غزوة الخندق السابقة، و هابته أمم النصرانية. ثم وفدت عليه سنة ست و ثلاثين رسل صاحب قسطنطينية و هديته، و هو يومئذ قسطنطين، و احتفل الناصر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۸۵

لقدومهم فى يوم مشهود، و قال ابن خلدون: ركبت فى ذلك اليوم العساكر بالسلاح فى أكمل شكّة، و زيّن القصر الخلافىّ بأنواع الزينة و أصناف الستور، و حمّل السرير الخلافىّ بمقاعد الأبناء و الإخوة و الأعمام و القرابة، و رتّب الوزراء و الخدمة فى مواقفهم، و

دخل الرّسل فهالهم ما رأوه، و قرّبوا حتى أدّوا رسالتهم. و أمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا فى ذلك المحفل، و يعظّموا من أمر الإسلام و الخلافة، و يشكروا نعمة اللّه على ظهور دينه و إعزازه، و ذلّة عدوّه، فاستعدّوا لذلك. ثم بهرهم هول المجلس فوجموا، و شرعوا فى القول فأرتج عليهم، و كان فيهم أبو على القالى وافد العراق، كان فى جملة الحكم وليّ العهد و ندبه لذلك استئثارا، فعجز، فلمّا و جموا كلّهم قام منذر بن سعيد البلّوطى من غير استعداد و لا رويّة و لا تقدّم له أحد بشىء من ذلك، فخطب و استحضر و جلّى فى ذلك القصد، و أنشد شعرا طويلا ارتجله فى ذلك الغرض، ففاز بفخر ذلك المجلس، و عجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع، و أعجب به الناصر، و ولّاه القضاء بعدها، و أصبح من رجالات المعالم، و أخباره مشهورة، و خطبته فى ذلك اليوم منقولة فى كتب ابن حيّان و غيره. ثم انصرف هؤلاء الرّسل، و بعث الناصر معهم هشام بن هذيل بهديّة حافلة ليؤكّد المودّة و يحسن الإجابة، و رجع بعد سنتين و قد أحكم من ذلك ما شاء و جاءت معه رسل قسطنطين. ثم جاء رسول من ملك الصقالبة- و هو يومئذ دوقوه- و رسول آخر من ملك الألمان، و رسول آخر من ملك الإفرنجة وراء البرت- و هو يومئذ أوفة- و رسول آخر من ملك الإفرنجة بقاصية المشرق- و هو يومئذ كلدة- و احتفل الناصر لقدومهم، و بعث مع رسول الصقالبة ربيعا الأسقفّ إلى ملكهم دوقوه و رجع بعد سنتين.

و فى سنة أربع و أربعين جاء رسول أردون يطلب السلم، فعقد له، ثم بعث فى سنة خمس و أربعين يطلب إدخال فردلند قومس قشتيلة فى عهده فأذن له فى ذلك، و أدخل فى عهده، و كان غرسيه بن شانجه قد استولى على جلّيقيّة بعد أبيه شانجه بن فرويله ثم انتقض

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۸۶

عليه أهل جليقية، و تولّى كبرهم قومس قشتيلة فردلند المذكور، و مال إلى أردون بن ردمير، و كان غرسيه بن شانجه حافدا لطوطة ملكة البشكنس، فامتعضت لحافدها غرسيه، و وفدت على الناصر سنة سبع و أربعين ملقية بنفسها فى عقد السلم لها و لولدها شانجه بن ردمير الملك، و إعانة حافدها غرسيه بن شانجه على ملكه، و نصره من عدوّه، و جاء الملكان معها، فاحتفل الناصر لقدومهم، و عقد الصلح لشانجه و أمّه، و بعث العساكر مع غرسيه ملك جلّيقية فردّ عليه ملكه، و خلع الجلالقة طاعة أردون إليه، و بعث إلى الناصر يشكره على فعلته، و كتب إلى الأمم فى النواحى بذلك، و بما ارتكبه فردلند قومس قشتيلة فى نكثه و وثوبه، و يعيّره بذلك عند الأمم، و لم يزل الناصر على موالاته و إعانته إلى أن هلك، و لمّا وصل رسول كلدة ملك الإفرنجة بالشرق، كما تقدّم، وصل معه رسول ملك برشلونة و طرّكونة راغبا فى الصلح، فأجابه الناصر، و وصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودّة فأجيب؛ انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار.

و لنفصّل بعض ما أجمله فنقول: ذكر ابن حيّان و غير واحد أنّ ملك الناصر بالأندلس كان فى غاية الضخامة و رفعة الشأن، و هادته الروم، و ازدلفت إليه تطلب مهادنته و متاحفته بعظيم الذخائر، و لم تبق أمّة سمعت به من ملوك الروم و الإفرنجة و المجوس و سائر الأمم إلّا وفدت عليه خاضعة راغبة، و انصرفت عنه راضية، و من جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى، فإنه هاداه، و رغب فى موادعته، و كان وصول أرساله فى صفر سنة ثمان و ثلاثين و ثلاثمائة، و تقدّم فى كلام ابن خلدون أنها ستّ و ثلاثون، فاللّه أعلم أيّهما أصحّ، و تأهّب الناصر لورودهم و أمر أن يتلقّوا أعظم تلقّ و أفخمه، و أحسن قبول و أكرمه، و أخرج إلى لقائهم ببجاية يحيى بن محمد بن الليث و غيره لخدمة أسباب الطريق، فلمّا صاروا بأقرب المحلّات من قرطبة خرج إلى لقائهم القوّاد فى العدد و العدّة و التعبية، فتلقّوهم قائدا بعد قائد، و كمل اختصاصهم بعد ذلك، بأن أخرج إليهم الفتيين الكبيرين الخصيين ياسرا و تمّاما، إبلاغا فى الاحتفال بهم، فلقياهم بعد القواد، فاستبان لهم بخروج الفتيين إليهم بسط الناصر و إكرامه؛ لأنّ الفتيان حينئذ هم عظماء الدولة، لأنهم أصحاب الخلوة مع الناصر و حرمه و بيدهم القصر السلطانىّ، و أنزلوا بمنية وليّ العهد الحكم المنسوبة إلى نصير بعدوة قرطبة فى الرّبض، و منعوا من لقاء الخاصّة و العامّة جملة، و من ملابسة الناس طرّا، و رتّب لحجابتهم رجال تخيّروا من الموالى و وجوه الحشم فصيّروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا لأربع دول، لكل دولة أربع منهم،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۲۸۷

و رحل الناصر لدين اللّه من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه، فقعد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة فى بهو المجلس الزاهر قعودا حسنا نبيلا، و قعد عن يمينه وليّ العهد من بنيه الحكم ثم عبد اللّه ثم عبد العزيز ثم الأصبغ ثم مروان، و قعد عن يساره المنذر ثم عبد الجبّار ثم سليمان، و تخلّف عبد الملك؛ لأنه كان عليلا لم يطق الحضور، و حضر الوزراء على مراتبهم يمينا و شمالا، و وقف الحجّاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء و الموالى و الوكلاء و غيرهم، و قد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط و كرائم الدرانك، و ظلّلت أبواب الدار و حناياها بظلل الديباج و رفيع الستور، فوصل رسل ملك الروم حائرين ممّا رأوه من بهجة الملك و فخامة السلطان، و دفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون، و هو فى رقّ مصبوغ لونا سماويا مكتوب بالذهب بالخط الإغريقى، و داخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضا مكتوبة بفضة بخط إغريقى أيضا فيها وصف هديته التى أرسل بها و عددها، و على الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح، و على الآخر صورة قسطنطين الملك و صورة ولده، و كان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملوّن البديع، و كان الدّرج داخل جعبة ملبسة بالديباج، و كان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه: قسطنطين و رومانين المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم، و فى سطر آخر: إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس، أطال اللّه بقاءه. و لمّا احتفل الناصر لدين اللّه هذا الاحتفال أحبّ أن يقوم الخطباء و الشعراء بين يديه، لتذكر جلالة مقعده و عظيم سلطانه، و تصف ما تهيّأ من توطيد الخلافة فى دولته. و تقدّم إلى الأمير الحكم ابنه وليّ عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، و يقدّمه أمام نشيد الشعراء، فأمر الحكم صنيعه الفقيه محمد بن عبد البرّ الكسنيانىّ بالتأهّب لذلك، و إعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدى الخليفة، و كان يدّعى من القدرة على تأليف الكلام ما ليس فى وسع غيره، و حضر المجلس السلطانى، فلمّا قام يحاول التكلّم بما رأى هاله و بهره هول المقام و أبّهة الخلافة، فلم يهتد إلى لفظة، بل غشى عليه و سقط إلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۸۸

الأرض، فقيل لأبى على البغدادى إسماعيل بن القاسم القالى صاحب الأمالى و النوادر، و هو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق و أمير الكلام و بحر اللغة: قم فارفع هذا الوهى، فقام فحمد اللّه و أثنى عليه بما هو أهله، و صلّى على نبيّه صلّى اللّه عليه و سلّم، هكذا ذكر ابن حيّان و غيره، و كلام ابن خلدون السابق يقتضى أنّ القالى هو المأمور بالكلام أوّلا و المعدّ لذلك، و نحوه فى المطمح، و الخطب سهل، ثم انقطع القول بالقالى، فوقف ساكتا مفكّرا فى كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه، و قال فى المطمح: إن أبا على القالى انقطع و بهت، و ما وصل إلّا قطع، و وقف ساكتا متفكّرا، لا ناسيا و لا متذكّرا، فلمّا رأى ذلك منذر بن سعيد- و كان ممّن حضر فى زمرة الفقهاء- قام من ذاته، بدرجة من مرقاته، فوصل افتتاح أبى على لأوّل خطبته بكلام عجيب، و نادى من الإحسان فى ذلك المقام كلّ مجيب، يسحّه سحّا كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدّة، و بدأ من المكان الذى انتهى إليه أبو على البغدادى، فقال: أمّا بعد حمد اللّه و الثناء عليه، و التعداد لآلائه، و الشكر لنعمائه، و الصلاة و السلام على محمد صفيّه و خاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقاما، و لكلّ مقام مقال، و ليس بعد الحق إلّا الضلال. و إنّى قد قمت فى مقام كريم، بين يدى ملك عظيم؛ فأصغوا إلىّ معشر الملإ بأسماعكم، و أتقنوا عنى بأفئدتكم، إنّ من الحقّ أن يقال للمحقّ صدقت، و للمبطل كذبت، و إنّ الجليل تعالى فى سمائه، و تقدّس بصفاته و أسمائه، أمر كليمه موسى صلّى اللّه على نبيّنا و عليه و على جميع أنبيائه، أن يذكّر قومه بأيام اللّه، عزّ و جلّ، عندهم، و فيه و فى رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلّم، أسوة حسنة، و إنّى أذكّركم بأيام اللّه عندكم، و تلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لمّت شعثكم، و أمّنت سربكم، و رفعت قوّتكم، بعد أن كنتم قليلا فكثركم، و مستضعفين فقوّاكم، و مستذلّين فنصركم، ولّاه اللّه رعايتكم، و أسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، و أحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم فى مثل حدقة البعير، من ضيق الحال و نكد العيش و التغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدّة بالرخاء، و انتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد

استيطان البلاء، أنشدكم بالله معاشر الملإ أ لم تكن الدماء مسفوكة فحقنها، و السّبل مخوفة فأمّنها، و الأموال منتهبة فأحرزها و حصّنها؟ أ لم تكن البلاد خرابا فعمرها، و ثغور المسلمين مهتضمة فحماها و نصرها؟ فاذكروا آلاء اللّه عليكم بخلافته، و تلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب اللّه عنكم غيظكم، و شفى صدوركم، و صرتم يدا على

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۸۹

عدوّكم، بعد أن كان بأسكم بينكم، فأنشدكم اللّه أ لم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها؟

أ لم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها و لم يكل ذلك إلى القوّاد و الأجناد، حتى باشره بالقوّة و المهجة و الأولاد، و اعتزل النّسوان، و هجر الأوطان، و رفض الدّعة و هى محبوبة، و ترك الركون إلى الراحة و هى مطلوبة، بطويّة صحيحة، و عزيمة صريحة، و بصيرة ثابتة نافذة ثاقبة، و ريح هابّة غالبة، و نصرة من اللّه واقعة واجبة، و سلطان قاهر، وجدّ ظاهر، و سيف منصور، تحت عدل مشهور، متحمّلا للنّصب، مستقلّا لما ناله فى جانب اللّه من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدّتها، و انكسرت شوكة الفتنة عند حدّتها، و لم يبق لها غارب إلّا جبّه، و لا نجم لأهلها قرن إلّا جدّه فأصبحتم بنعمة اللّه إخوانا، و بلمّ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعوانا، حتى تواترت لديكم الفتوحات، و فتح اللّه عليكم بخلافته أبواب الخيرات و البركات، و صارت وفود الروم وافدة عليه و عليكم، و آمال الأقصين و الأدنين مستخدمة إليه و إليكم، يأتون من كل فجّ عميق، و بلد سحيق، لأخذ حبل بينه و بينكم جملة و تفصيلا، ليقضى اللّه أمرا كان مفعولا، و لن يخلف اللّه وعده، و لهذا الأمر ما بعده، و تلك أسباب ظاهرة باديه، تدلّ على أمور باطنة خافية، دليلها قائم، و جفنها غير نائم وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ [النور: ۵۵] الآية، و ليس فى تصديق ما وعد اللّه ارتياب، و لكلّ نبإ مستقرّ و لكلّ أجل كتاب، فاحمدوا اللّه أيّها الناس على آلائه، و اسألوه المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم بخلافة أمير المؤمنين أيّده اللّه بالعصمة و السّداد، و ألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد، أحسن الناس حالا، و أنعمهم بالا، و أعزّهم قرارا، و أمنعهم دارا، و أكثفهم جمعا، و أجملهم صنعا، لا تهاجون و لا تذادون، و أنتم بحمد اللّه على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم، بالمناصحة لإمامكم، و التزام الطاعة لخليفتكم و ابن عمّ نبيّكم، صلّى اللّه عليه و سلّم، فإنّ من نزع يدا من الطاعة، و سعى فى تفريق الجماعة، و مرق من الدين، فقد خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ [الحج: ۱۱] و قد علمتم أنّ فى التعلّق بعصمتها، و التمسّك بعروتها، حفظ الأموال و حقن الدماء، و صلاح الخاصّة و الدّهماء، و أنّ بقوام الطاعة تقام الحدود، و توفى العهود، و بها وصلت الأرحام، و وضحت الأحكام، و بها سدّ اللّه الخلل، و أمّن السّبل، و وطّأ الأكناف، و رفع الاختلاف، و بها طاب لكم القرار، و اطمأنّت بكم الدار، فاعتصموا بما أمركم اللّه بالاعتصام به، فإنه تبارك و تعالى يقول: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ [النساء: ۵۹]، و قد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين، و صنوف الملحدين، الساعين فى شقّ عصاكم، و تفريق ملاكم، الآخذين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۹۰

فى مخاذلة دينكم، و هتك حريمكم، و توهين دعوة نبيّكم، صلوات اللّه و سلامه عليه و على جميع النبيّين و المرسلين، أقول قولى هذا و أختم بالحمد للّه ربّ العالمين. مستغفرا اللّه الغفور الرحيم فهو خير الغافرين.

[ترجمة منذر بن سعيد البلوطى (عن المغرب)]

و ساق ابن سعيد فى «المغرب» هذه الحكاية فقال ما صورته: منذر بن سعيد البلّوطى، قاضى الجماعة بقرطبة، خطيب مصقع، و له كتب مؤلفة فى القرآن و السّنّة و الورع، و الردّ على أهل الأهواء و البدع، شاعر بليغ، ولد سنة خمس و ستّين و مائتين، و أوّل سببه فى التعلّق بعبد الرحمن الناصر لمّا احتفل لدخول رسول ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قرطبة الاحتفال الذى اشتهر ذكره، أحبّ أن يقوم الخطباء و الشعراء بين يديه، لذكر جلالة مقعده، و وصف ما تهيّأ له من توطيد الخلافة، و رمى ملوك الأمم بسهام بأسه و نجدته، و

تقدّم إلى الأمير الحكم ابنه و وليّ عهده بإعداد من يقوم لذلك من الخطباء، و يقدّمه أمام إنشاد الشعراء، فتقدّم الحكم إلى أبى علىّ البغدادى ضيف الخليفة، و أمير الكلام و بحر اللغة، أن يقوم، فقام و حمد اللّه و أثنى عليه و صلّى على نبيّه محمد، صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم انقطع، و بهت فما وصل و لا قطع، و وقف ساكتا مفكّرا، فلمّا رأى ذلك منذر بن سعيد قام قائما بدرجة من مرقاة أبى على، و وصل افتتاحه بكلام عجيب بهر العقول جزالة، و ملأ الأسماع جلالة، ثم ذكر الخطبة كما سبق، و قال بعد إيرادها ما صورته: فصلب العلج و غلب على قلبه، و قال: هذا كبير القوم، أو كبش القوم، و خرج الناس يتحدّثون عن حسن مقامه، و ثبات جنانه، و بلاغة لسانه، و كان الناصر أشدّهم تعجّبا منه، و أقبل على ابنه الحكم- و لم يكن يثبت معرفته- فسأله عنه، فقال له: هذا منذر بن سعيد البلّوطى، فقال: و اللّه لقد أحسن ما شاء، و لئن أخّرنى اللّه بعد لأرفعنّ من ذكره، فضع يدك يا حكم عليه، و استخلصه، و ذكّرنى بشأنه، فما للصنيعة مذهب عنه، ثم ولّاه الصلاة و الخطابة فى المسجد الجامع بالزهراء، ثم توفى محمد بن عيسى القاضى فولّاه قضاء الجماعة بقرطبة، و أقرّه على الصلاة بالزهراء.

و من شعره فى هذه الواقعة قوله: [الطويل]

مقالى كحدّ السّيف وسط المحافل فرقت به ما بين حقّ و باطل

بقلب ذكىّ ترتمى جمراته كبارق رعد عند رعش الأنامل

فما دحضت رجلى و لا زلّ مقولى و لا طاش عقلى يوم تلك الزلازل

و قد حدّقت حولى عيون إخالها كمثل سهام أثبتت فى المقاتل

لخير إمام كان أو هو كائن لمقتبل أو فى العصور الأوائل

ترى الناس أفواجا يؤمّون بابه و كلّهم ما بين راج و آمل

وفود ملوك الروم وسط فنائه مخافة بأس أو رجاء لنائل

فعش سالما أقصى حياة مؤمّلا فأنت رجاء الكلّ حاف و ناعل

ستملكها ما بين شرق و مغرب إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

انتهى كلام ابن سعيد، و هو يؤيد كلام ابن خلدون أن المأمور بالخطبة هو القالى.

و ذكر أن الناصر قال لابنه الحكم بعد أن سأله عنه: لقد حسن ما شاء، فلئن كان حبّر خطبته هذه و أعدّها مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الوهى فإنه لبديع من قدرته و احتياطه، و لئن كان أتى بها على البديهة لوقته فإنه لأعجب و أغرب.

قال ابن سعيد: و لمّا فرغ منذر من خطبته أنشد: [البسيط]

هذا المقام الذى ما عابه فند لكنّ قائله أزرى به البلد

لو كنت فيهم غريبا كنت مطّرفا لكننى منهم فاغتالنى النّكد

و يروى بدل هذا الشطر]:

و لا دهانى لهم بغى و لا حسد

لو لا الخلافة أبقى اللّه حرمتها ما كنت أرضى بأرض ما بها أحد

قلت: كأنه عرّض بأبى على القالى، و تقديمهم إياه فى هذا المقام، و اللّه أعلم.

و من نظم منذر بن سعيد قوله: [المنسرح]

الموت حوض و كلّنا نرد لم ينج مما يخافه أحد

فلا تكن مغرما برزق غد فلست تدرى بما يجيء غد

و خذ من الدهر ما أتاك به و يسلم الروح منك و الجسد

و الخير و الشّرّ لا تذعه فما فى الناس إلّا التشنيع و الحسد

و له و قد آذاه شخص فخاطبه بالكنية، فقيل له: أ يؤذيك و أنت تخاطبه بالكنية؟ فقال:

[الكامل]

لا تعجبوا من أنّنى كنّيته من بعد ما قد سبّنا و أذانا

فاللّه قد كنّى أبا لهب و ما كنّاه إلّا خزية و هوانا

[ترجمة منذر بن سعيد (فى المطمح)]

و قال فى المطمح: منذر بن سعيد البلوطى، آية حركة و سكون، و بركة لم تكن معدّة و لا تكون، و آية سفاهة فى تحلّم، و جهامة و ورع فى طى تبسّم، إذا جدّ وجد، و إذا هزل نزل، و فى كلتا الحالتين لم ينزل للورع من مرقب، و لا اكتسب إثما و لا احتقب، ولى قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن، و ناهيك من عدل أظهر، و من فضل أشهر، و من جور قبض، و من حقّ رفع و من باطل خفض، و كان مهيبا صليبا صارما غير جبان و لا عاجز و لا مراقب لأحد من خلق اللّه فى استخراج حقّ و رفع ظلم، و استمرّ فى القضاء إلى أن مات الناصر لدين اللّه ثم ولى ابنه الحكم فأقرّه، و فى خلافته استعفى مرارا فما أعفى، و توفى بعد ذلك لم يحفظ عنه مدّة ولايته قضية جور، و لا عدّت عليه فى حكومته زلّة، و كان غزير العلم، كثير الأدب، متكلّما بالحق، متبيّنا بالصدق، له كتب مؤلفة فى السّنّة و القرآن و الورع، و الردّ على أهل الأهواء و البدع، و كان خطيبا بليغا و شاعرا محسنا، ولد عند ولاية المنذر بن محمد، و توفى سنة ۳۵۵، و من شعره فى الزهد قوله: [الخفيف]

كم تصابى و قد علاك المشيب و تعامى عمدا و أنت اللبيب؟

كيف تلهو و قد أتاك نذير أن سيأتى الحمام منك قريب

يا سفيها قد حان منه رحيل بعد ذاك الرحيل يوم عصيب

إنّ للموت سكرة فارتقبها لا يداوى، إذا أتتك، طبيب

كم توانى حتى تصير رهينا ثم تأتيك دعوة فتجيب

بأمور المعاد أنت عليم فاعملن جاهدا له يا ربيب

و تذكّر يوما تحاسب فيه إنّ من يدّكر فسوف ينيب

ليس من ساعة من الدهر إلّا للمنايا بها عليك رقيب

و لعلّنا نذكر شيئا من أحوال منذر فى غير هذا الموضع.

[رجع لأخبار الناصر لدين اللّه]

رجع لأخبار الناصر لدين اللّه- حكى أنه لمّا أعذر لأولاد ابنه أبى مروان عبيد اللّه اتّخذ لذلك صنيعا عظيما بقصر الزهراء لم يتخلّف أحد عنه من أهل مملكته و أمر أن ينذر لشهوده الفقهاء المشاورون و من يليهم من العلماء و العدول و وجوه الناس، فتخلّف من بينهم المشاور أبو إبراهيم، و افتقد مكانه لارتفاع منزلته، فسأل فى ذلك الخليفة الناصر، إذ أبو إبراهيم من أكابر علماء المالكية الذين عليهم المدار، و وجد الناصر بسبب ذلك على أبى إبراهيم، و أمر ابنه وليّ العهد الحكم بالكتاب إليه، و التفنيد له، فكتب إليه الحكم رقعة

نسختها: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، حفظك اللّه و تولّاك! و سدّدك و رعاك! لمّا امتحن أمير المؤمنين مولاى و سيدى- أبقاه اللّه!- الأولياء الذين يستعدّ بهم وجدك متقدّما فى الولايۀ، متأخّرا عن الصّلۀ، على أنه قد أنذرك- أبقاه اللّه!- خصوصا للمشاركۀ فى السرور الذى كان عنده، لا أعدمه اللّه توالى المسرّۀ، ثم أنذرت من قبل إبلاغا فى التكرمۀ، فكان منك على ذلك كله من التخلّف ما ضاقت عليك فى المعذرۀ، و استبلغ أمير المؤمنين فى إنكاره و معاتبتك عليه، فأعيت عليك عنك الحجّۀ، فعرّفنى- أكرمك اللّه!- ما العذر الذى أوجب توقفك عن إجابۀ دعوته، و مشاهدۀ السرور الذى سرّ به و رغب المشاركۀ فيه، لنعرّفه- أبقاه اللّه!- بذلك، فتسكن نفسه العزيزۀ إليه إن شاء اللّه تعالى». فأجابه أبو إبراهيم: «سلام على الأمير سيدى و رحمۀ اللّه، قرأت- أبقى اللّه الأمير سيدى!- هذا الكتاب و فهمته، و لم يكن توقفى لنفسى، إنّما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقى اللّه سلطانه، لعلمى بمذهبه، و سكونى إلى تقواه، و اقتفائه لأثر سلفه الطّيّب رضوان اللّه عليهم، فإنهم يستبقون من هذه الطبقۀ بقيۀ لا يمتهنونها بما يشينها، و لا بما يغضّ منها و يطرق إلى تنقيصها، يستعدّون بها لدينهم، و يتزيّنون بها عند رعاياهم و من يفد عليهم من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۹۴

قصّادهم، فلهذا تخلّفت، و لعلمى بمذهبه توقّفت، إن شاء اللّه تعالى». فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين اللّه جواب أبى إبراهيم إسحاق أعجبه، و استحسن اعتذاره، و زال ما بنفسه عليه.

و كان الفقيه أبو إبراهيم المذكور معظّما عند الناصر و ابنه الحكم، و حقّ لهما أن يعظّماه، و قد حكى الفقيه أبو القاسم بن مفرّج قال: كنت أختلف إلى الفقيه أبى إبراهيم- رحمه اللّه تعالى!- فيمن يختلف إليه للتفقّه و الروايۀ، فإنى لعنده فى بعض الأيام فى مجلسه بالمسجد المنسوب لأبى عثمان الذى كان يصلّى به قرب داره بجوفىّ قصر قرطبۀ، و مجلسه حافل بجماعۀ الطلبۀ، و ذلك بين الصلاتين، إذ دخل عليه خصىّ من أصحاب الرسائل، جاء من عند الخليفۀ الحكم، فوقف و سلّم، و قال له: يا فقيه، أجب أمير المؤمنين أبقاه اللّه، فإنّ الأمر خرج فيك، وها هو قاعد ينتظرك، و قد أمرت بإعجالك، فاللّه اللّه، فقال له: سمعا و طاعۀ لأمير المؤمنين، و لا عجلۀ، فارجع إليه و عرّفه وفّقه اللّه عنى أنك وجدتنى فى بيت من بيوت اللّه تعالى معى طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمّه رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلّم، فهم يقيّدونه عنى، و ليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتمّ المجلس المعهود لهم فى رضا اللّه و طاعته، فذلك أوكد من مسيرى إليه الساعۀ، فإذا انقضى أمر من اجتمع إلىّ من هؤلاء المحتسبين فى ذات اللّه الساعين لمرضاته مشيت إليه إن شاء اللّه تعالى. ثم أقبل على شأنه، و مضى الخصىّ يهينم متضاجرا من توقّفه، فلم يك إلّا ريثما أدّى جوابه، و انصرف سريعا ساكن الطيش، فقال له: يا فقيه، أنهيت قولك على نصّه إلى أمير المؤمنين أبقاه اللّه، فأصغى إليه، و هو يقول لك:

جزاك اللّه خيرا عن الدين و عن أمير المؤمنين و جماعۀ المسلمين! و أمتعهم بك! و إذا أنت أوعيت فامض إليه راشدا إن شاء اللّه تعالى، و قد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضى شغلك و تمضى معى، فقال له: حسن جميل، و لكنى أضعف عن المشى إلى باب السّدّۀ، و يصعب علىّ ركوب دابّۀ لشيخوختى و ضعف أعضائى، و باب الصناعۀ الذى يقرب إلىّ من أبواب القصر المكرّم أحوط لى و أقرب، و أرفق بى، فإن رأى أمير المؤمنين- أيّده اللّه تعالى!- أن يأمر بفتحه لأدخل إليه منه هوّن علىّ المشى، و ودع جسمى، و أحبّ أن تعود و تنهى إليه ذلك عنّى حتى تعرف رأيه فيه، و كذلك تعود إلىّ فإنى أراك فتى سديدا، فكن على الخير معينا. و مضى عنه الفتى، ثم رجع بعد حين و قال: يا فقيه، قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت، و أمر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۹۵

بفتح باب الصناعۀ و انتظارك من قبله، و منه خرجت إليك، و أمرت بملازمتك مذكّرا بالنهوض عند فراغك، و قال: افعل راشدا. و جلس الخصىّ جانبا حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه بأكمل و أفسح ما جرت به عادته غير منزعج و لا قلق، فلمّا انفضضنا عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه ثم مضى إلى الخليفۀ الحكم فوصل إليه من ذلك الباب، و قضى حاجته من لقائه، ثم صرفه على ذلك الباب، فأعيد إغلاقه على إثر خروجه. قال ابن مفرّج: و لقد تعمّدنا فى تلك العشيّۀ إثر قيامنا عن الشيخ أبى إبراهيم المرور بهذا الباب

المعهود إغلاقه بدبر القصر لنرى تجشّم الخليفة له، فوجدناه مفتوحا كما وصف الخصيّ، و قد حفّه الخدم و الأعوان منزعجين ما بين كنّاس و فرّاش متأهّبين لانتظار أبى إبراهيم، فاشتدّ عجبنا لذلك، و طال تحدّثنا عنه، انتهى. فهكذا تكون العلماء مع الملوك و الملوك مع العلماء، قدّس اللّه تلك الأرواح!.

ثم توفى الناصر لدين اللّه ثانى- أو ثالث- شهر رمضان، من عام خمسين و ثلاثمائة، أعظم ما كان سلطانه، و أعزّ ما كان الإسلام بملكه.

قال ابن خلدون: خلّف الناصر فى بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات، انتهى.

و قال غير واحد: إنه كان يقسم الجباية أثلاثا: ثلث للجند، و ثلث للبناء، و ثلث مدّخر، و كانت جباية الأندلس يومئذ من الكور و القرى خمسة آلاف ألف و أربعمائة ألف و ثمانين ألف دينار، و من السوق و المستخلص سبعمائة ألف و خمسة و ستّين ألف دينار، و أمّا أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان.

و حكى أنه وجد بخطّ الناصر- رحمه اللّه!- أيام السرور التى صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا و يوم كذا من كذا، و عدّت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوما، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا و عدم صفائها، و بخلها بكمال الأحوال لأوليائها، هذا الخليفة الناصر حلف السعود، المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا و الصعود، ملكها خمسين سنة و ستة- أو سبعة- أشهر و ثلاثة أيام، و لم تصف له إلّا أربعة عشر يوما، فسبحان ذى العزّة القائمة، و المملكة الدائمة لا إله إلّا هو.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۹۶

و ممّا ينسب للناصر من الشعر، و قيل: لابنه الحكم، قوله

: [مخلع البسيط]

ما كلّ شىء فقدت إلّا عوّضنى اللّه عنه شيّا

إنى إذا ما منعت خيرى تباعد الخير من يديّا

من كان لى نعمة عليه فإنّها نعمة عليّا

و ممّا زيّن اللّه به دولة الناصر و زراؤه الذين من جملتهم ابن شهيد، قال فى المطمح:

أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد، مفخر الإمامة، و زهر تلك الكمامة، و صاحب الناصر عبد الرحمن، و حامل الوزارتين على سموّها فى ذلك الزمان، استقلّ بالوزارة على ثقلها، و تصرّف فيها كيف شاء على حدّ نظرها و التفات مقلها، فظهر على أولئك الوزراء، و اشتهر مع كثرة النظراء، و كانت إمارة عبد الرحمن أسعد إمارة، بعد عنها كلّ نفس بالسّوء أمّارة، فلم يطرقها صرف، و لم يرمقها محذور بطرف، فقرع الناس فيها هضاب الأمانىّ و رباها، و رتعت ظباؤها فى ظلال ظباها، و هو أسد على براثنه رابض، و بطل أبدا على قائم سيفه قابض، يروع الروم طيفه، و يجوس خلال تلك الديار خوفه، و يروى بل يحسم كلّ آونة سيفه، و ابن شهيد ينتج الآراء و يلقحها، و ينقد تلك الأنحاء و ينقحها، و الدولة مشتملة بغنائه، متجمّلة بسنائه، و كرمه منتشر على الآمال، و يكسو الأولياء بذلك الإجمال، و كان له أدب تزخر لججه، و تبهر حججه، و شعره رقيق لا ينقد، و يكاد من اللطافة يعقد، فمن ذلك قوله:

[الطويل]

ترى البدر منها طالعا فكأنّما يجول و شاحاها على لؤلؤ رطب

بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشا و مفعمة الخلخال مفعمة القلب

من اللّاء لم يرحلن فوق رواحل و لا سرن يوما فى ركاب و لا ركب

و لا أبرزتهنّ المدام لنشوة و شدو كما تشدو القيان على الشّرب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۹۷

و كـان بينه و بين الوزير عبـد الملك بن جهور متولّى الأمر معه، و مشاركه فى التـدبير إذا حضـر مجتمعه، منافسـة، لم تنفصل لهما بها مداخلـة و لا ملابسة، و كلاهما يتربّص بصاحبه دائرة السّوء، و يغصّ به غصـص الأفق بالنّوء، فاجتاز يوما على ربضه، و مال إلى زيارته و لم تكن من غرضه، فلمّا اسـتأمر عليه، تأخّر خروج الإذن إليه، فثنى عنانه حنقا من حجابه، و ضجرا من حجّابه، و كتب إليه معرّضا، و كان يلقّب بالحمار: [الطويل]

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا إليك و لا قلب إليك مشوق

و لكنّنا زرنا بفضل حلومنا فكيف تلاقى برّنا بعقوق

فراجعه ابن جهور يغضّ منه، بما كان يشيع عنه، بأنّ جدّه أبا هشام، كان بيطارا بالشام، بقوله: [الطويل]

حجبناك لمّا زرتنا غير تائق بقلب عدوّ فى ثياب صديق

و ما كان بيطار الشّآم بموضع يباشر فيه برّنا بخليق

و من شعره قوله يتغزل: [الوافر]

حلفت بمن رمى فأصاب قلبى و قلّبه على جمر الصّدود

لقد أودى تذكّره بقلبى و لست أشكّ أنّ النّفس تودى

فقيد و هو موجود بقلبى فوا عجبا لموجود فقيد

و قد تقدّم الكلام على هدية ابن شهيد و بعض أخباره، رحمة اللّه عليه!.

[الحكم المستنصر باللّه]

و لمّا توفى الناصـر لدين اللّه تولّى الخلافة بعده ولىّ عهده الحكم المستنصر باللّه فجرى على رسمه، و لم يفقد من ترتيبه إلّا شخصه، و ولى حجابته جعفر المصحفى.

و أهدى له يوم ولايته هديّة كان فيها من الأصناف ما ذكره ابن حيّان فى «المقتبس» و هى:

مائة مملوك من الإفرنج ناشـبة على خيول صافنة كاملو الشّـكة و الأسلحة من السيوف و الرماح و الدّرق و التّراس و القلانس الهندية، و ثلاثمائة و نيّف و عشرون درعا مختلفة الأجناس، و ثلاثمائة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۹۸

خوذة كذلك، و مائة بيضة هندية، و خمسون خشبية من بيضات الفرنجة من غير الخشب يسـمّونها الطاشانية، و ثلاثمائة حربة إفرنجية، و مائة ترس سلطانية، و عشرة جواشن فضة مذهبة، و خمسة و عشرون قرنا مذهبة من قرون الجاموس، انتهى.

قال ابن خلدون: و لأوّل وفاة الناصر طمع الجلالقة فى الثغور، فغزا الحكم المستنصر بنفسه، و اقتحم بلد فرلند بن غندشلب، فنازل شنت إشـتبين و فتحها عنوة و اسـتباحها، و قفل، فبادروا إلى عقد السـلم معه و انقبضوا عمّا كانوا فيه. ثم أغزى غالبا مولاه بلاد جلّيقية و سار إلى مدينـة سـالم لـدخول دار الحرب، فجمع له الجلالقـة، و لقيهم، فهزمهم و اسـتباحهم و أوطأ العساكر بلـد فرذلنـد و دوّخها، و كان شـانجه بن رذمير ملـك البشـكنس قـد انتقض، فـأغزاه الحكم التجيبىّ صـاحب سرقسـطة فى العسـاكر. و جـاء ملك الجلالقـة لنصـره، فهزمهم، و امتنعوا بقوريـة، و عاثوا فى نواحيها، و قفل، ثم أغزى الحكم أحمـد بن يعلى و يحيى بن محمـد التجيبى إلى بلاد برشـلونة، فعـاثت العسـاكر فى نواحيهـا، و أغزى هـذيل بن هاشم و مولاه غالبا إلى بلاد القومس، فعاثا فيها، و قفلا، و عظمت فتوحات الحكم و قوّاد الثغور فى كل ناحية، و كان من أعظمها فتح قلمرية من بلاد البشكنس على يد غالب، فعمرها الحكم، و اعتنى بها، ثم فتح قطوبية على يد قائد و شـقة و غنم فيها من الأموال و السلاح و الأقوات و الأثاث و فى بسيطها من الغنم و البقر و الرّمك و الأطعمة و السّبى ما

لا يحصى.

و فى سنة أربع و خمسين سار غالب إلى بلد ألبة، و معه يحيى بن محمد التجيبى و قاسم بن مطرف بن ذى النون، فابتنى حصن غرماج و دوّخ بلادهم، و انصرف. و ظهرت فى هذه السنة مراكب المجوس فى البحر الكبير، و أفسدوا بسائط أشبونة و ناشبهم الناس القتال، فرجعوا إلى مراكبهم، و أخرج الحكم القوّاد لاحتراس السواحل، و أمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بتعجيل حركة الأسطول. ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم فى كل جهة من السواحل.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۲۹۹

ثم كانت وفاة أردون بن أذفونش ملك الجلالقة، و ذلك أن الناصر لمّا أعان عليه شانجه بن ردمير - و هو ابن عمّه، و هو الملك من قبل أردون- و حمل النصرانية على طاعته. و استظهر أردون بصهره فردلند قومس قشتيلة، توقّع مظاهرة الحكم لشانجه كما ظاهره أبوه الناصر، فبادر إلى الوفادة على الحكم مستجيرا به، فاحتفل لقدومه، و عبّى العساكر ليوم وفادته، و كان يوما مشهودا وصفه ابن حيّان كما وصف أيام الوفادات قبله. و وصل إلى الحكم، و أجلسه، و وعده بالنصر من عدوّه، و خلع عليه، و كتب بوصوله ملقيا بنفسه، و عاقده على موالاة الإسلام، و مقاطعة فردلند القومس و أعطى على ذلك صفقة يمينه، و رهن ولده غرسية، و دفعت الصّلات و الحملان له و لأصحابه. و انصرف معه وجوه نصارى الذمّة ليوطّدوا له الطاعة عند رعيّته، و يقبضوا رهنه.

و عند ذلك بعث ابن عمّه شانجه بن ردمير ببيعته و طاعته مع قواميس أهل جلّيقية و سمّورة و أساقفتهم، يرغب فى قبوله، و يمتّ بما فعل أبوه الناصر معه، فتقبّل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون و الأبراج القريبة من ثغور المسلمين.

ثم بعث ملكا برشلونة و طرّكونة و غيرهما يسألان تجديد الصلح و إقرارهما على ما كانا عليه، و بعثا بهدية، و هى: عشرون صبيّا من الخصيان الصقالبة، و عشرون قنطارا من صوف السمّور، و خمسة قناطير من القصدير، و عشرة أدراع صقلبيّة، و مائتا سيف فرنجيّة، فتقبّل الهدية و عقد على أن يهدموا الحصون التى تضرّ بالثغور، و أن لا يظاهروا عليه أهل ملّتهم، و أن ينذروا بما يكون من النصارى فى الإجلاب على المسلمين.

ثم وصلت رسل غرسيه بن شانجه ملك البشكنس فى جماعة من الأساقفة و القواميس يسألون الصلح، بعد أن كان توقّف و أظهر المكر، فقعد لهم الحكم، فاغتبطوا و رجعوا.

ثم وفدت على الحكم أمّ لذريق بن بلاشك القومس بالقرب من جلّيقية، و هو القومس الأكبر، فأخرج الحكم لتلقّيها أهل دولته، و احتفل لقدومها فى يوم مشهود مشهور، فوصلت و أسعفت، و عقد السلم لابنها كما رغبت، و دفع لها مالا تقسّمه بين وفدها، دون ما وصلت به هى، و حملت على بغلة فارهة بسرج و لجام مثقلين بالذهب و ملحفة ديباج. ثم عاودت مجلس الحكم للوداع، فعاودها بالصّلات لسفرها، و انطلقت.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۰۰

ثم أوطأ عساكره أرض العدوة من المغرب الأقصى و الأوسط، و تلقّى دعوته ملوك زناتة من مغراوة و مكناسة، فبثّوها فى أعمالهم، و خطبوا بها على منابرهم، و زاحموا بها دعوة الشّيعة فيما بينهم. و وفد عليه من بنى خزر و بنى أبى العافية، فأجزل صلتهم، و أكرم وفادتهم، و أحسن منصرفهم، و استنزل بنى إدريس من ملكهم بالعدوة فى ناحية الرّيف. و أجازهم البحر إلى قرطبة، ثم أجلاهم إلى الإسكندرية.

و كان محبّا للعلوم، مكرّما لأهلها، جمّاعا للكتب فى أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله، قال أبو محمد بن حزم: أخبرنى تليد الخصىّ- و كان على خزانة العلوم و الكتب بدار بنى مروان- أنّ عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع و أربعون فهرسة، و فى كل فهرسة عشرون ورقة، ليس فيها إلّا ذكر أسماء الدواوين لا غير، و أقام للعلم و العلماء سوقا نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر.

قال أبو محمد بن خلدون: و لما وفد على أبيه أبو على القالى صاحب كتاب «الأمالى» من بغداد أكرم مثواه، و حسنت منزلته عنده، و

أورث أهل الأندلس علمه، و اختصّ بالحكم المستنصر، و استفاد علمه.

و كان يبعث فى الكتب إلى الأقطار رجالا من التجّار، و يرسل إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه. و بعث فى كتاب «الأغانى» إلى مصنّفه أبى الفرج الأصفهانى، و كان نسبه فى بنى أميهٔ، و أرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخهٔ منه قبل أن يخرجه إلى العراق. و كذلك فعل مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم، و أمثال ذلك. و جمع بداره الحذّاق فى صناعهٔ النّسخ و المهرهٔ فى الضبط و الإجادهٔ فى التجليد، فأوعى من ذلك كلّه، و اجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله و لا من بعده، إلّا ما يذكر عن الناصر العباسى بن المستضىء.

و لم تزل هذه الكتب بقصر قرطبهٔ إلى أن بيع أكثرها فى حصار البربر، و أمر بإخراجها و بيعها الحاجب واضح من موالى المنصور بن أبى عامر. و نهب ما بقى منها عند دخول البربر قرطبهٔ و اقتحامهم إيّاها عنوهٔ، انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۰۱

و لنبسط الكلام على الحكم فنقول: إن الحكم المستنصر اعتلى سرير الملك ثانى يوم وفاهٔ أبيه يوم الخميس، و قام بأعباء الملك أتمّ قيام، و أنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له، و دعا الناس إلى بيعته، و استقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه، و تثقيف مملكته، و ضبط قصوره، و ترتيب أجناده، و أوّل ما أخذ البيعهٔ على صقالبهٔ قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر، كجعفر صاحب الخيل و الطراز و غيره من عظمائهم، و تكفّلوا بأخذها على من وراءهم و تحت أيديهم من طبقتهم و غيرهم، و أوصل إلى نفسه فى الليل دون هؤلاء الأكابر من الكتّاب و الوصفاء و المقدمين و العرفاء، فبايعوه، فلمّا كملت بيعهٔ أهل القصر تقدّم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض إلى أخيه شقيقه أبى مروان عبيد اللّه المتخلّف بأن يلزمه الحضور للبيعهٔ دون معذرهٔ، و تقدّم إلى موسى بن أحمد بن حدير بالنهوض أيضا إلى أبى الأصبغ عبد العزيز شقيقه الثانى، فمضى إليهما كلّ واحد منهما فى قطيع من الجند، و أتيا بهما إلى قصر مدينهٔ الزهراء، و نفذ غيرهما من وجوه الرجال فى الخيل لإتيان غيرهما من الإخوهٔ، و كانوا يومئذ ثمانيهٔ، فوافى جميعهم الزهراء فى الليل، فنزلوا فى مراتبهم بفصلان دار الملك، و قعدوا فى المجلسين الشرقى و الغربى، و قعد المستنصر باللّه على سرير الملك فى البهو الأوسط من الأبهاء المذهبهٔ القبليهٔ التى فى السطح الممرّد، فأوّل من وصل إليه الإخوهٔ فبايعوه، و أنصتوا لصحيفهٔ البيعهٔ، و التزموا الأيمان المنصوصهٔ بكل ما انعقد فيها، ثم بايع بعدهم الوزراء و أولادهم و إخوتهم، ثم أصحاب الشرطهٔ و طبقات أهل الخدمهٔ، و قعد الإخوهٔ و الوزراء و الوجوه عن يمينه و شماله، إلّا عيسى بن فطيس فإنه كان قائما يأخذ البيعهٔ على الناس، و قام الترتيب على الرسم فى مجالس الاحتفال المعروفهٔ، فاصطفّ فى المجلس الذى قعد فيه أكابر الفتيان يمينا و شمالا إلى آخر البهو كلّ منهم على قدره فى المنزلهٔ، عليهم الظهائر البيض شعار الحزن، قد تقلّدوا فوقها السيوف، ثم تلاهم الفتيان الوصفاء، عليهم الدروع السابغهٔ و السيوف الحاليهٔ صفّين منتظمين فى السطح، و فى الفصلان المتّصلهٔ به ذوو الأسنان من الفتيان الصقالبهٔ الخصيان لابسين البياض، بأيديهم السيوف، يتّصل بهم من دونهم من طبقات الخصيان الصقالبهٔ، ثم تلاهم الرماهٔ متنكّبين قسيّهم و جعابهم، ثم وصلت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۰۲

صفوف هؤلاء الخصيان الصقالبهٔ صفوف العبيد الفحول شاكين فى الأسلحهٔ الرائقهٔ و العدّهٔ الكاملهٔ، و قامت التعبيهٔ فى دار الجند و الترتيب من رجّالهٔ العبيد عليهم الجواشن و الأقبيهٔ البيض، و على رؤوسهم البيضات الصّقلبيهٔ، و بأيديهم التّراس الملوّنهٔ و الأسلحهٔ المزيّنهٔ، انتظموا صفّين إلى آخر الفصل، و على باب السّدّهٔ الأعظم البوّابون و أعوانهم، و من خارج باب السّدّهٔ فرسان العبيد إلى باب الأقباء، و اتّصل بهم فرسان الحشم و طبقات الجند و العبيد و الرماهٔ، موكبا إثر موكب، إلى باب المدينهٔ الشارع إلى الصحراء، فلمّا تمّت البيعهٔ أذن للناس بالانفضاض، إلّا الإخوهٔ و الوزراء و أهل الخدمهٔ فإنهم مكثوا بقصر الزهراء إلى أن احتمل جسد الناصر- رحمه اللّه!- إلى قصر قرطبهٔ للدفن هنالك فى تربهٔ الخلفاء.

و فى ذى الحجهٔ من سنهٔ خمسين تكاثرت الوفود بباب الخليفهٔ الحكم من البلاد للبيعهٔ و التماس المطالب، من أهل طليطلهٔ و غيرها من

قواعد الأندلس و أصقاعها، فتوصلوا إلى مجلس الخليفة بمحضر جميع الوزراء و القاضى منذر بن سعيد و الملأ، فأخذت عليهم البيعة، و وقّعت الشهادات فى نسخها.

و فى آخر صفر من سنة إحدى و خمسين أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله موليه محمدا و زيادا ابنى أفلح الناصرى بكتيبة من الحشم لتلقّى غالب الناصر يالذى خرجوا إليه صاحب مدينة سالم المورد للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث فى الدولة المتملّك على طوائف من أمم الجلالقة و المنازع لابن عمّه المملّك قبله شانجه بن ردمير، و تبرّع هذا اللعين أردون بالمسير إلى باب المستنصر بالله من ذاته، غير طالب إذن و لا مستظهر بعهد، و ذلك عندما بلغه اعتزام الحكم المستنصر بالله فى عامه ذلك على الغزو إليه، و أخذه فى التأهّب له، فاحتال فى تأميل المستنصر بالله و الارتماء عليه، و خرج قبل أمان يفقد له أو ذمّة تعصمه فى عشرين رجلا من وجوه أصحابه، تكنّفهم غالب الناصرى الذى خرجوا إليه، فجاء به نحو مولاه الحكم، و تلقّاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم، ثم تحرّكا بهم ثانى يوم نزولهم إلى قرطبة، فأخرج المستنصر بالله إليهم هشاما المصحفىّ فى جيش عظيم كامل التعبية، و تقدّموا إلى باب قرطبة، فمرّوا بباب قصرها، فلمّا انتهى أردون إلى ما بين باب السّدة و باب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين اللّه فأشير إلى ما يوازى موضعه من داخل القصر فى الروضة، فخلع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۰۳

قلنسوته، و خضع نحو مكان القبر، و دعا، ثم ردّ قلنسوته إلى رأسه. و أمر المستنصر بإنزال أردون فى دار الناعورة، و قد كان تقدّم فى فرشها بضروب الغطاء و الوطاء، و انتهى من ذلك إلى الغاية، و توسّع له فى الكرامة و لأصحابه، فأقام بها الخميس و الجمعة، فلمّا كان يوم السبت تقدّم المستنصر بالله باستدعاء أردون و من معه بعد إقامة الترتيب و تعبية الجيوش و الاحتفال فى ذلك من العدد و الأسلحة و الزينة، و قعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح، و قعد الإخوة و بنوهم و الوزراء و نظراؤهم صفّا فى المجلس، فيهم القاضى منذر بن سعيد و الحكّام و الفقهاء، فأتى محمد بن القاسم بن طملس بالملك أردون و أصحابه و عالى لبوسه ثوب ديباجى رومىّ أبيض و يلبوال من جنسه و فى لونه، و على رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر، و قد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمّة بالأندلس يؤنسونه و يبصرونه، فيهم وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة و عبيد اللّه بن قاسم مطران طليطلة و غيرهما، فدخل بين صفّى الترتيب يقلّب الطّرف فى نظم الصفوف، و يجيل الفكر فى كثرتها و تظاهر أسلحتها و رائق حليتها، فراعهم ما أبصروه، و صلّبوا على وجوههم، و تأمّلوا ناكسى رؤوسهم غاضّين من أجفانهم قد سكّرت أبصارهم حتى وصلوا إلى باب الأقباء أوّل باب قصر الزهراء، فترجّل جميع من كان خرج إلى لقائه، و تقدّم الملك أردون و خاصّة قوامسه على دوابّهم، حتى انتهوا إلى باب السّدّة، فأمر القوامس بالترجّل هنالك و المشى على الأقدام، فترجّلوا.

و دخل الملك أردون وحده راكبا مع محمد بن طملس، فأنزل فى برطل البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التى بدار الجند على كرسى مرتفع مكسوّ الأوصال بالفضة، و فى هذا المكان بعينه نزل قبله عدوّه و مناوئه شانجه بن ردمير الوافد على الناصر لدين اللّه- رحمه اللّه تعالى!- فقعد أردون على الكرسى، و قعد أصحابه بين يديه، و خرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه، فتقدّم يمشى و أصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح، فلمّا قابل المجلس الشرقى الذى فيه المستنصر بالله وقف و كشف رأسه و خلع برنسه، و بقى حاسرا إعظاما لما بان له من الدنو إلى السرير، و استنهض، فمضى بين الصّفّين المرتبين فى ساحة السطح،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۰۴

إلى أن قطع السطح و انتهى إلى باب البهو، فلمّا قابل السرير خرّ ساجدا سويعة، ثم استوى قائما، ثم نهض خطوات، و عاد إلى السجود، و والى ذلك مرارا إلى أن قدم بين يدى الخليفة و أهوى إلى يده فناوله إياها و كرّ راكعا مقهقرا على عقبه إلى و ساد ديباج مثقل بالذهب، جعل له هنالك، و وضع على قدر عشرة أذرع من السرير، فجلس عليه، و البهر قد علاه، و أنهض خلفه من استدنى من قوامسه و أتباعه، فدنوا ممتثلين فى تكرير الخنوع، و ناولهم الخليفة يده فقبّلوها و انصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم، و وصل

بوصولهم وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم، فأطرق الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده أمامه وقتا كيما يفرخ روعه. فلمّا رأى أن قد خفّض عليه افتتح تكليمه فقال: ليسرّك إقبالك و يغبطك تأميلك، فلدينا لك من حسن رأينا و رحب قبولنا فوق ما قد طلبته، فلمّا ترجم له كلامه إيّاه تطلّق وجه أردون، و انحطّ عن مرتبته، فقبّل البساط، و قال: أنا عبد أمير المؤمنين، مولاى، المتورّك على فضله، القاصد إلى مجده، المحكم فى نفسه و رجاله، فحيث وضعنى من فضله و عوّضنى من خدمته رجوت أن أتقدّم فيه بنيّة صادقة، و نصيحة خالصة، فقال له الخليفة: أنت عندنا بمحلّ من يستحقّ حسن رأينا، و سينالك من تقديمنا لك و تفضيلنا إياك على أهل ملّتك ما يغبطك، و تتعرّف به فضل جنوحك إلينا، و استظلالك بظل سلطاننا، فعاد أردون إلى السجود عند فهمه مقالة الخليفة، و ابتهل داعيا، و قال: إن شانجه ابن عمّى تقدّم إلى الخليفة الماضى مستجيرا به منّى، فكان من إعزازه إيّاه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك و أكارم الخلفاء لمن قصدهم و أمّلهم، و كان قصده قصد مضطرّ قد شنأته رعيّته، و أنكرت سيرته، و اختارتنى لمكانه من غير سعى منى علم اللّه ذلك، و لا دعاء إليه، فخلعته و أخرجته عن ملكه مضطرّا مضطهدا، فتطوّل عليه - رحمه اللّه!- بأن صرفه إلى ملكه، و قوّى سلطانه، و أعزّ نصره، و مع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التى أسديت إليه، و قصّر فى أداء المفروض عليه و حقّه و حقّ مولاى أمير المؤمنين من بعده، و أنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة من قرارة سلطانى و موضع أحكامى، محكّما له فى نفسى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۰۵

و رجالى و معاقلى و من تحويه من رعيتى، فشتّان ما بيننا بقوة الثقة و مطرح الهمّة، فقال الخليفة: قد سمعنا قولك، و فهمنا مغزاك، و سوف يظهر من إقراضنا إيّاك على الخصوصيّة شأنه، و يترادف من إحساننا إليك أضعاف ما كان من أبينا- رضى اللّه تعالى عنه!- إلى ندّك، و إن كان له فضل التقدّم بالجنوح إلينا و القصد إلى سلطاننا، فليس ذلك ممّا يؤخّرك عنه، و لا ينقصك ممّا أنلناك، و سنصرفك مغبوطا إلى بلدك، و نشدّ أواخىّ ملكك و نملّكك جميع من انحاش إليك من أمتك و نعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك نقرّر به حدّ ما بينك و بين ابن عمّك، و نقبضه عن كل ما بتصرّفه من البلاد إلى يدك، و سيترادف عليك من إفضالنا فوق ما احتسبته، و اللّه على ما نقول وكيل. فكرّر أردون الخضوع، و أسهب فى الشكر، و قام للانصراف مقهقرا لا يولّى الخليفة ظهره، و قد تكنّفه الفتيان [من جملة الفتيان]، فأخرجوه إلى المجلس الغربى فى السطح، و قد علاه البهر و أذهله الرّوع، من هول ما باشره، و جلالة ما عاينه من فخامة الخليفة و بهاء العزّة، فلمّا أن دخل المجلس و وقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليا منه انحطّ ساجدا إعظاما له، ثم تقدّم الفتيان به إلى البهو الذى بجوفى هذا المجلس، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب، و أقبل نحوه الحاجب جعفر، فلمّا بصر به قام إليه و خضع له، و أومأ إلى تقبيل يده، فقبضها الحاجب عنه، و انحنى إليه فعانقه، و جلس معه، فغبّطه، و وعده من إنجاز عدات الخليفة له بما ضاعف سروره، ثم أمر الحاجب جعفر فصبّت عليه الخلع التى أمر له بها الخليفة، و كانت درّاعة منسوجة بالذهب، و برنسا مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجوهر و الياقوت ملأت عين العلج تجلّة، فخرّ ساجدا، و أعلن بالدعاء، ثم دعا الحاجب أصحابه رجلا- رجلا- فخلع عليهم على قدر استحقاقهم، فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم، و خرّ جميعهم خاضعين شاكرين، ثم انطلق الملك أردون و أصحابه، و قدّم لركابه فى أوّل البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب عليه سرج حلى و لجام حلى مفرغ، و انصرف مع ابن طملس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۰۶

و قد أعدّ له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة و الفرش و الماعون، و استقرّ أصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف و إرغاد المعاش. و استشعر الناس من مسرّة هذا اليوم و عزّة الإسلام فيه ما أفاضوا فى التبجّح به و التحدّث عنه أياما، و كانت للخطباء و الشعراء بمجلس الخليفة فى هذا اليوم مقامات حسان، و إنشادات لأشعار محكمة متان، يطول القول فى اختيارها، فمن ذلك قول عبد الملك بن سعيد المرادى من قصيدة حيث يقول: [الكامل]

ملك الخليفة آية الإقبال و سعوده موصولة بنوال

و المسلمون بعزّة و برفعة و المشركون بذلّة و سفال

ألقت بأيديها الأعاجم نحوه متوقّعين لصولة الرّئبال

هذا أميرهم أتاه آخذا منه أواصر ذمّة و حبال

متواضعا لجلاله متخشّعا متبرّعا لمّا يرع بقتال

سينال بالتأميل للملك الرّضا عزّا يعمّ عداه بالإذلال

لا يوم أعظم للولاة مسرّة و أشدّه غيظا على الأقبال

من يوم أردون الذى إقباله أمل المدى و نهاية الإقبال

ملك الأعاجم كلّها ابن ملوكها والى الرّعاة إلى الأعاجم والى

إن كان جاء ضرورة فلقد أتى عن عزّ مملكة وطوع رجال

فالحمد للّه المنيل إمامنا حظّ الملوك بقدره المتعالى

هو يوم حشر الناس إلّا أنهم لم يسألوا فيه عن الأعمال

أضحى الفضاء مفعّما بجيوشه و الأفق أقتم أغبر السّربال

لا يهتدى السارى لليل قتامه إلّا بضوء صوارم و عوالى

و كأن أجسام الكماة تسربلت مذ عرّيت عنه جسوم صلال

و كأنما العقبان عقبان الفلا منقضّة لتخطّف الضّلّال

و كأن مقتضب القنا مهتزّة أشطان نازحة بعيدة جال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۰۷

و كأنما قبل التجافيف اكتست نارا تؤجّجها بلا إشعال

[صفات المستنصر، و غايته بالكتب و وفاته]

و قال بعض المؤرخين فى حق الحكم المستنصر عن فتاه تليد صاحب خزانته العلمية فيما حدّث عنه الحافظ أبو محمد بن حزم: إنّ عدة الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع و أربعون فهرسة فى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلّا ذكر الدواوين فقط، انتهى. و قد قدّمناه عن ابن خلدون، و نقله ابن الأبار فى التكملة.

و قال بعض المؤرّخين فى حق الحكم: إنه كان حسن السيرة، مكرّما للقادمين عليه، جمع من الكتب ما لا يحدّ و لا يوصف كثرة و نفاسة، حتى قيل: إنها كانت أربعمائة ألف مجلد، و إنّهم لمّا نقلوها أقاموا ستة أشهر فى نقلها، و كان عالما نبيها، صافى السريرة، و سمع من قاسم بن أصبغ و أحمد بن دحيم و محمد بن عبد السلام الخشنى و زكريا بن خطاب و أكثر عنه، و أجاز له ثابت بن قاسم، و كتب عن خلق كثير سوى هؤلاء. و كان يستجلب المصنّفات من الأقاليم و النواحى باذلا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه، و كان ذا غرام بها، قد آثر ذلك على لذّات الملوك، فاستوسع علمه، و دقّ نظره، و جمت استفادته، و كان فى المعرفة بالرجال و الأخبار و الأنساب أحوذيّا نسيج وحده، و كان ثقة فيما ينقله، بهذا وصفه ابن الأبار و بأضعافه، و قال: عجبا لابن الفرضى و ابن بشكوال كيف لم يذكراه و قلّما يوجد كتاب من خزائنه إلّا و له فيه قراءة أو نظر فى أى فنّ كان و يكتب فيه نسب المؤلف و مولده و وفاته و يأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلّا عنده لعنايته بهذا الشأن.

و مما ينسب إليه من النظم قوله: [الطويل]

إلى اللّه أشكو من شمائل مسرف علىّ ظلوم لا يدين بما دنت

نأت عنه دارى فاستزاد صدوده و إنّى على وجدى القديم كما كنت

و لو كنت أدرى أنّ شوقى بالغ من الوجد ما بلّغته لم أكن بنت

و قوله: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۰۸

عجبت، و قد ودّعتها، كيف لم أمت و كيف انثنت بعد الوداع يدى معى

فيا مقلتى العبرى، عليها اسكبى دما و يا كبدى الحرّى، عليها تقطّعى

و توفى- رحمه اللّه تعالى!- بقصر قرطبة ثانى صفر سنة ست و ستّين و ثلاثمائة، لستّ عشرة سنة من خلافته، و كان أصابه الفالج، فلزم الفراش إلى أن هلك- رحمه اللّه تعالى!- و كان قد شدّد فى إبطال الخمر فى مملكته تشديدا عظيما.

و ولى بعده ابنه هشام صغيرا سنّه تسع سنين، و لا ينافيه قول ابن خلدون: «قد ناهز الحلم» و كان الحكم قد استوزر له محمد بن أبى عامر، و نقله من خطة القضاء إلى وزارته، و فوّض إليه أموره، فاستقلّ.

[ولاية هشام بن الحكم و تسلط ابن أبى عام]

قال ابن خلدون: و ترقّت حال ابن أبى عامر عند الحكم، فلما توفى الحكم و بويع هشام و لقّب المؤيّد بعد أن قتل ليلتئذ المغيرة أخو الحكم المرشّح لأمره تناول الفتك به محمد بن أبى عامر هذا بممالأة من جعفر بن عثمان المصحفىّ حاجب أبيه، و غالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم، و من خصيان القصر يومئذ و رؤسائهم فاتن و جؤذر، فقتل ابن أبى عامر المغيرة بممالأة من ذكر، و تمّت البيعة لهشام. ثم سما لابن أبى عامر أمل فى التغلّب على هشام لمكانه فى السنّ، و ثاب له رأى فى الاستبداد، فمكر بأهل الدولة، و ضرب بين رجالها، و قتل بعضا ببعض. و كان من رجال اليمنية من معافر، دخل جدّه عبد الملك على طارق، و كان عظيما فى قومه، و كان له فى الفتح أثر، و عظم ابن أبى عامر هذا، و غلب على المؤيد، و منع الوزراء من الوصول إليه إلّا فى النادر من الأيام يسلّمون و ينصرفون. و أرضخ للجند فى العطاء، و أعلى مراتب العلماء، و قمع أهل البدع، و كان ذا عقل و رأى و شجاعة و بصر بالحروب و دين متين. ثم تجرّد لرؤساء الدولة ممّن عانده و زاحمه، فمال عليهم، و حطّهم عن مراتبهم، و قتل بعضا ببعض، كلّ ذلك عن هشام و خطّه و توقيعه حتى استأصلهم و فرّق جموعهم. و أول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدّام بالقصر، فحمل الحاجب المصحفىّ على نكبتهم، فنكبهم و أخرجهم من القصر، و كانوا ثمانمائة أو يزيدون، ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم، و بالغ فى خدمته و التنصّح له، و استعان به على المصحفىّ فنكبه و محا أثره من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۰۹

الدولة، ثم استعان على غالب بجعفر بن أحمد بن على بن حمدون صاحب المسيلة و قائد الشيعة ممدوح بن هانىء بالفائية المشهورة و غيرها، و هو النازع إلى الحكم أوّل الدولة بمن كان معه من زناتة و البربر. ثم قتل جعفرا بممالأة ابن عبد الودود و ابن جهور و ابن ذى النون و أمثالهم من أولياء الدولة من العرب و غيرهم. ثم لمّا خلا الجوّ من أولياء الخلافة و المرشّحين للرياسة رجع إلى الجند، فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة و البرابرة فرتّب منهم جندا، و اصطنع أولياء، و عرّف عرفاء من صنهاجة و مغراوة و بنى يفرن و بنى برزال و مكناسة و غيرهم، فتغلّب على هشام و حجره، و استولى على الدولة، و ملأ الدنيا و هو فى جوف بيته؛ من تعظيم الخلافة، و الخضوع لها، و ردّ الأمور إليها، و ترديد الغزو و الجهاد، و قدّم رجال البرابرة و زناتة، و أخّر رجال العرب و أسقطهم عن مراتبهم، فتمّ له ما أراد من الاستقلال بالملك و الاستبداد بالأمر، و بنى لنفسه مدينة لنزله سمّاها الزاهرة. و نقل إليها خزائن الأموال و الأسلحة، و قعد على سرير الملك، و أمر أن يحيّا بتحية الملوك، و تسمّى بالحاجب المنصور، و نفذت الكتب و المخاطبات و الأوامر باسمه، و

أمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقد الدعاء للخليفة، و محا رسم الخلافة بالجملة، و لم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر و كتب اسمه فى السّكة و الطرز، و أغفل ديوانه ممّا سوى ذلك. و جنّد البرابرة و المماليك، و استكثر من العبيد و العلوج للاستيلاء على تلك الرتبة، و قهر من تطاول إليها من العلية، فظفر من ذلك بما أراد، و ردّد الغزو بنفسه إلى دار الحرب، فغزا ستّيا و خمسين غزوة فى سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية، و لا فلّ له جيش، و ما أصيب له بعث، و ما هلكت له سريّة، و أجاز عساكره إلى العدوة، و ضرب بين ملوك البرابرة، و ضرب بعضهم.

ببعض، فاستوثق له ملك المغرب، و أخبتت له ملوك زناتة، و انقادوا لحكمه، و أطاعوا سلطانه، و أجاز ابنه عبد الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر، و لمّا سخط زيرى بن عطيّة ملكهم لمّا بلغه ما بلغه من إعلانه بالنّيل منه و الغضّ من منصبه و التأفّف لحجر الخليفة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۱۰

هشام أوقع به عبد الملك سنة ستّ و ثمانين، و نزل بفاس و ملكها، و عقد لملوك زناتة على ممالك المغرب و أعماله من سجلماسة و غيرها، و شرّد زيرى بن عطية إلى تاهرت، فأبعد المفرّ، و هلك فى مفرّه ذلك. ثم قفل عبد الملك إلى قرطبة، و استعمل واضحا على المغرب. و هلك المنصور أعظم ما كان ملكا، و أشدّ استيلاء، سنة أربع و تسعين و ثلاثمائة، بمدينة سالم منصرفه من بعض غزواته، و دفن هنالك، و ذلك لسبع و عشرين سنة من ملكه، انتهى كلام ابن خلدون، و بعضه بالمعنى و زيادة يسيرة.

و لا بأس أن نزيد عليه فنقول: ممّا حكى أنه مكتوب على قبر المنصور رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

آثاره تنبيك عن أخباره حتّى كأنّك بالعيان تراه

تاللّه لا يأتى الزمان بمثله أبدا، و لا يحمى الثغور سواه

و عن شجاع مولى المستعين بن هود: لمّا توجّهت إلى أذفونش وجدته فى مدينة سالم، و قد نصب على قبر المنصور بن أبى عامر سريره، و امرأته متّكئة إلى جانبه، فقال لى: يا شجاع، أما ترانى قد ملكت بلاد المسلمين، و جلست على قبر ملكهم؟ قال: فحملتنى الغيرة أن قلت له: لو تنفّس صاحب هذا القبر و أنت عليه ما سمع منك ما يكره سماعه، و لا استقرّ بك قرار، فهمّ بى، فحالت امرأته بينى و بينه، و قالت: صدقك فيما قال، أ يفخر مثلك بمثل هذا؟.

[ترجمة المنصور بن أبى عامر من كلام ابن سعيد]

و هذا تلخيص ترجمة المنصور من كلام ابن سعيد: قال رحمه اللّه: ترجمة الملك الأعظم المنصور أبى عامر محمد بن عبد اللّه بن عامر بن أبى عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، المعافرى، من قرية تركش، و عبد الملك جدّه هو الوافد على الأندلس مع طارق فى أوّل الداخلين من العرب، و أمّا المنصور فقد ذكره ابن حيّان فى كتابه المخصوص

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۱۱

بالدولة العامرية، و الفتح فى المطمح، و الحجارى فى المسهب، و الشّقندى فى الطرف، و ذكر الجميع أن أصله من قريش تركش، و أنه رحل إلى قرطبة، و تأدّب بها، ثم اقتعد دكانا عند باب القصر يكتب فيه لمن يعنّ له كتب من الخدم و المرافقين للسلطان، إلى أن طلبت السيدة صبح أم المؤيّد من يكتب عنها، فعرّفها به من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر، فترقّى إلى أن كتب عنها، فاستحسنته، و نبّهت عليه الحكم، و رغّبت فى تشريفه بالخدمة، فولّاه قضاء بعض المواضع، فظهرت منه نجابة، فترقّى إلى الزكاة و المواريث بإشبيلية و تمكّن فى قلب السيدة بما استمالها به من التّحف و الخدمة ما لم يتمكّن لغيره، و لم يقصّر- مع ذلك- فى خدمة المصحفى الحاجب، إلى أن توفى الحكم و ولى ابنه هشام المؤيد، و هو ابن اثنتى عشرة سنة، فجاشت الروم، فجهّز المصحفىّ ابن أبى عامر لدفاعهم، فنصره اللّه عليهم، و تمكّن حبّه من قلوب الناس.

و كان جوادا عاقلا ذكيا، استعان بالمصحفى على الصّقالبة، ثم بغالب على المصحفىّ، و كان غالب صاحب مدينة سالم- و تزوّج ابن أبى عامر ابنته أسماء، و كان أعظم عرس بالأندلس- ثم بجعفر بن على الأندلسى ممدوح ابن هانىء على غالب، ثم بعبد الرحمن بن محمد بن هشام التّجيبى على جعفر، و له فى الحزم و الكيد و الجلد ما أفرد له ابن حيّان تأليفا، و عدد غزواته المنشأة من قرطبة نيّف و خمسون غزوة، و لم تهزم له راية، و قبره بمدينة سالم فى أقصى شرق الأندلس.

و من شعره: [الطويل]

رميت بنفسى هول كلّ عظيمة و خاطرتة و الحرّ الكريم يخاطر

و ما صاحبى إلّا جنان مشيّع و أسمر خطّىّ و أبيض باتر

فسدت بنفسى أهل كلّ سيادة و فاخرت حتى لم أجد من أفاخر

و ما شدت بنيانا و لكن زيادة على ما بنى عبد المليك و عامر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۱۲

رفعنا العوالى بالعوالى مثلها و أورثناها فى القديم معافر

وجوده مع صاعد البغدادى اللغوى مشهور.

و صدر عن بعض غزواته فكتب إليه عبد الملك ابن شهيد، و كان قد تخلّف عنه:

[الخفيف]

أنا شيخ و الشّيخ يهوى الصّبايا يا بنفسى أقيك كلّ الرّزايا

و رسول الإله أسهم فى الفى ء لمن لم يخبّ فيه المطايا

فبعث إليه بثلاث جوار من أجمل السّبى، و كتب معهنّ، و كانت واحدة أجملهنّ، قوله:

[الخفيف]

قد بعثنا بها كشمس النهار فى ثلاث من المها أبكار

و امتحنّا بعذرة البكر إن كن ت ترجّى بوادر الإعذار

فاجتهد و ابتدر فإنّك شيخ قد جلا ليله بياض النهار

صانك اللّه من كلالك فيها فمن العار كلّة المسمار

فافتضّهنّ من ليلته، و كتب له بكرة: [الخفيف]

قد فضضنا ختام ذاك السّوار و اصطبغنا من النّجيع الجارى

و صبرنا على دفاع و حرب فلعبنا بالدّرّ أو بالدرارى

و قضى الشيخ ما قضى بحسام ذى مضاء عضب الظّبا بتّار

فاصطنعه فليس يجزيك كفرا و اتّخذه فحلا على الكفّار

و قدم بعض التجّار و معه كيس فيه ياقوت نفيس، فتجرّد ليسبح فى النهر، و ترك الكيس، و كان أحمر، على ثيابه، فرفعته حدأة فى مخالبها، فجرى تابعا لها و قد ذهل، فتغلغلت فى البساتين، و انقطعت عن عينه، فرجع متحيّرا، فشكا ذلك إلى بعض من يأنس به، فقال له:

صف حالك لابن أبى عامر، فتلطّف فى وصف ذلك بين يديه، فقال: ننظر إن شاء اللّه تعالى فى شأنك، و جعل يستدعى أصحاب تلك البساتين، و يسأل خدّامها عمّن ظهر عليه تبديل حال، فأخبروه أن شخصا ينقل الزبل اشترى حمارا، و ظهر من حاله ما لم يكن قبل ذلك، فأمر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۱۳

بمجيئه، فلمّا وقعت عينه عليه قال له: أحضر الكيس الأحمر، فتملّك الرعب قلبه و ارتعش، و قال: دعنى آتى به من منزلى، فوكل به من حمله إلى منزله. و جاء بالكيس، و قد نقص منه ما لا يقدح فى مسرّة صاحبه، فجبره، و دفعه إلى صاحبه، فقال: و اللّه لأحدّثنّ فى مشارق الأرض و مغاربها أن ابن أبى عامر يحكم على الطيور و ينصف منها، و التفت ابن أبى عامر إلى الزبّال فقال له: لو أتيت به أغنيناك، لكن تخرج كفافا لا عقابا و لا ثوابا.

و توفى، رحمه اللّه، فى غزاته للإفرنج بصفر سنة اثنتين و تسعين و ثلاثمائة، و حمل فى سريره على أعناق الرجال، و عسكره يحفّ به، و بين يديه، إلى أن وصل إلى مدينة سالم.

و دامت دولته ستّا و عشرين سنة، غزا فيها اثنتين و خمسين غزوة واحدة فى الشتاء و أخرى فى الصيف، انتهى كلام ابن سعيد، و فى بعضه مخالفة لبعض كلام ابن خلدون.

[ترجمة الحاجب المصحفى (عن المطمح)]

و قال الفتح فى «المطمح» فى حق المصحفى الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى، ما صورته: تجرد للعليا، و تمرّد فى طلب الدنيا، حتى بلغ المنى، و تسوّغ ذلك الجنى، و وصل إلى المنتهى، و حصل على ما اشتهى، دون مجد تفرّع من دوحته، و لا فخر نشأ بين مغداه و روحته، فسما دون سابقة، ورمى إلى رتبة لم تكن لنفسه مطابقة، فبلغ نفسه، و نزع عن جنسه، و لم يزل يستقلّ و يضطلع، و ينتقل من مطلع إلى مطلع، حتى التاح فى أفق الخلافة، و ارتاح إليها بعطفه كنشوان السّلافة، و استوزره المستنصر، و عنه كان يسمع و به يبصر، و حجب الإمام، و أسكب برأيه ذلك الغمام، فأدرك لذلك ما أدرك، و نصب لأمانيه الحبائل و الشرك، فاقتنى اقتناء مدّخر، و أزرى بمن سواه و سخر، و استعطفه ابن أبى عامر و نجمه غائر لم يلح، و سرّه مكتوم لم يبح، فما عطف، و لا جنى من روضة دنياه و لا قطف، و أقام فى تدبير الأندلس ما أقام و برهانه مستقيم، و من الفتن عقيم، و هو يجرى من السعد فى ميدان رحب، و يكرع من العزّ فى مشرب عذب، و يفضّ ختام السرور، و ينهض بملك على لبّته مزرور، و كان له أدب بارع، و خاطر إلى نظم القريض مسارع، فمن محاسنه التى بعثها إيناس دهره و إسعاده، و قاله حين ألهته سلماه و سعاده، قوله: [الطويل]

لعينيك فى قلبى علىّ عيون و بين ضلوعى للشجون فنون

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۱۴

نصيبى من الدنيا هواك، و إنه غذائى، و لكنّى عليه ضنين

و ستأتى هذه الترجمة من المطمح الصغير إن شاء اللّه تعالى بما فيه بعض زيادة و نقصان فى الباب الرابع.

[ترجمة ابن أبى عامر المنصور (عن المطمح)]

و قال فى المطمح فى حق ابن أبى عامر: إنه تمرّس ببلاد الشّرك أعظم تمرّس، و محا من طواغيتها كلّ تعجرف و تغطرس، و غادرهم صرعى البقاع، و تركهم أذلّ من وتد بقاع، و والى على بلادهم الوقائع، و سدّد إلى أكبادهم سهام الفجائع، و أغصّ بالحمام أرواحهم، و نغّص بتلك الآلام بكورهم و رواحهم، و من أوضح الأمور هنالك؛ و أفصح الأخبار فى ذلك، أنّ أحد رسله كان كثير الانتياب، لذلك الجناب؛ فسار فى بعض مسيراته إلى غرسيه صاحب البشكنس فوالى فى إكرامه، و تناهى فى برّه و احترامه، فطالت مدّته فلا متنزّه إلّا مرّ عليه متفرّجا، و لا منزل إلّا سار عليه معرّجا، فحلّ فى ذلك، أكثر الكنائس هنالك، فبينا هو يجول فى ساحتها، و يجيل العين فى مساحتها، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر، قويمة على طول الكسر، فكلّمته و عرّفته بنفسها و أعلمته، و قالت له: أ يرضى المنصور أن ينسى بتنعّمه بوسها، و يتمتّع بلبوس العافية و قد نضت لبوسها، و زعمت أنّ لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسة، و بكل

ذلّ و صغار ملبسة، و ناشدته اللّه فى إنهاء قصتها، و إبراء غصّتها، و استحلفته بأغلظ الأيمان، و أخذت عليه فى ذلك أوكد مواثيق الرحمن، فلمّا وصل إلى المنصور عرّفه بما يجب تعريفه به و إعلامه، و هو مصغ إليه حتى تمّ كلامه، فلما فرغ قال له المنصور: هل وقفت هناك على أمر أنكرته، أم لم تقف على غير ما ذكرته؟ فأعلمه بقصة المرأة و ما خرجت عنه إليه، و بالمواثيق التى أخذت عليه، فعتبه و لامه، على أن لم يبدأ بها كلامه، ثم أخذ للجهاد من فوره و عرض من من الأجناد فى نجده و غوره، و أصبح غازيا على سرجه، مباهيا مروان بن الحكم يوم مرجه، حتى وافى ابن شانجه فى جمعه، فأخذت مهابته ببصره و سمعه، فبادر بالكتاب إليه يتعرّف ما الجليّة، و يحلف له بأعظم ألّيّة، أنه ما جنى ذنبا، و لا جفا عن مضجع الطاعة جنبا، فعنف أرساله و قال لهم: كان قد عاقدنى أن لا يبقى ببلاده مأسورة و لا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۱۵

مأسور، و لو حملته فى حواصلها النّسور، و قد بلغنى بعد بقاء المسلمة فى تلك الكنيسة، و و اللّه لا أنتهى عن أرضه حتى أكتسحها، فأرسل إليه المرأة فى اثنتين معها، و أقسم أنه ما أبصرهنّ و لا سمع بهنّ و أعلمه أن الكنيسة التى أشار بعلمها، قد بالغ فى هدمها، تحقيقا لقوله، و تضرّع إليه فى الأخذ فيه بطوله، فاستحيا منه، و صرف الجيش عنه، و أوصل المرأة إلى نفسه، و ألحف توحّشها بأنسه، و غيّر من حالها، و عاد بسواكب نعماه على جدبها و إمحالها، و حملها إلى قومها، و كحلها بما كان شرد من نومها، انتهى.

و قال فى المطمح أيضا فى حقه ما نصه: فرد نابه على من تقدّمه، و صوّبه و استحزمه، فإنه كان أمضاهم سنانا، و أذكاهم جنانا، و أتمّهم جلالا، و أعظمهم استقلالا، فآل أمره إلى ما آل، و أوهم العقول بذلك المآل، فإنه كان آية اللّه فى اتفاق سعده، و قربه من الملك بعد بعده، بهر برفعة القدر، و استظهر بالأناة و سعة الصّدر، و تحرّك فلاح نجم الهدوّ، و تملّك فما خفق بأرضه لواء عدوّ، بعد خمول كابد منه غصصا و شرقا، و تعذّر مأمول طارد فيه سهرا و أرقا، حتى أنجز له الموعود، و فرّ نحسه أمام تلك السعود، فقام بتدبير الخلافة، و أقعد من كان له فيها إنافة، و ساس الأمور أحسن سياسة، و داس الخطوب بأخشن دياسة، فانتظمت له الممالك، و اتّضحت به المسالك، و انتشر الأمن فى كل طريق، و استشعر اليمن كلّ فريق، و ملك الأندلس بضعا و عشرين حجّة، لم تدحض لسعادتها حجّة، و لم تزخر لمكروه بها لجّة، لبست فيه البهاء و الإشراق، و تنفّست عن مثل أنفاس العراق، و كانت أيامه أحمد أيام، و سهام بأسه أسدّ سهام، غزا الروم شاتيا و صائفا، و مضى فيما يروم زاجرا و عائفا، فما مرّ له غير سنيح، و لا فاز إلّا بالمعلّى لا بالمنيح، فأوغل فى تلك الشّعاب، و تغلغل حتى راع ليث الغاب، و مشى تحت ألويته صيد القبائل، و استجرّت فى ظلّها بيض الظّبا و سمر الذوابل، و هو يقتضى الأرواح بغير سوم، و ينتضى الصفاح على كل روم، و يتلف من لا ينساق للخلافة و ينقاد، و يخطف منهم كلّ كوكب وقّاد، حتى استبدّ و انفرد، و أنس إليه من الطاعة ما نفر و شرد، و انتظمت له الأندلس بالغدوة، و اجتمعت فى ملكه اجتماع قريش بدار النّدوة، و مع هذا لم يخلع اسم الحجابة، و لم يدع السمع لخليفته و الإجابة، ظاهر يخالفه الباطن، و اسم تنافره مواقع الحكم و المواطن، و أذلّ قبائل الأندلس بإجازة البرابر، و أخمل بهم أولئك الأعلام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۱۶

الأكابر، فإنه قاومهم بأضدادهم، و استكثر من أعدادهم، حتى تغلّبوا على الجمهور، و سلبوا عنهم الظهور، و وثبوا عليهم الوثوب المشهور، الذى أعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا، و ملأها وحشا و ذئابا، و أعراها عن الأمان، برهة من الزمان، و على هذه الهيئة فهو و ابنه المظفر كانا آخر سعد الأندلس، و حدّ السرور بها و التأنّس، و غزواته فيها شائعة الأثر، رائعة كالسيف ذى الأثر، و حسبه وافر، و نسبه معافر، و لذا قال يفتخر:

رميت بنفسى...

الأبيات، و زاد هنا بعد قوله «أبيض باتر» بيتا، و هو: [الطويل]

و إنى لزجّاء الجيوش إلى الوغى أسود تلاقيها أسود خوادر

و كانت أمّه تميميۀ، فحاز الشرف بطرفيه، و التفّ بمطرفيه، و لذا قال القسطلّى فيه:

[الطويل]

تلاقت عليه من تميم و يعرب شموس تلالا فى العلا و بدور

من الحميريّين الذين أكفّهم سحائب تهمى بالنّدى و بحور

و تصرّف قبل ولايته فى شتى الولايات، و جاء من التحدّث بمنتهى أمره بآيات، حتى صحّ زجره، و جاء بصبحه فجره، تؤثر عنه فى ذلك أخبار، فيها عجب و اعتبار، و كان أديبا محسنا، و عالما متفنّنا، فمن ذلك قوله يمنّى نفسه بملك مصر و الحجاز، و يستدعى صدور تلك الأعجاز: [الخفيف]

منع العين أن تذوق المناما حبّها أن ترى الصّفا و المقاما

لى ديون بالشّرق عند أناس قد أحلّوا بالمشعرين الحراما

إن قضوها نالوا الأمانى، و إلّا جعلوا دونها رقابا وهاما

عن قريب ترى خيول هشام يبلغ النّيل خطوها و الشآما

انتهى ما نقله من المطمح.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۱۷

[أخبار فى سيرۀ المنصور]

و فى المنصور المذكور أيضا قال بعض مؤرّخى المغرب، مازجا كلامه ببعض كلام الفتح، بعد ذكر استعانته ببعض الناس على بعض، و ذكر قتله لجعفر بن على، فقال بعده ما صورته: ثم انفرد بنفسه و صار ينادى صروف الدهر هل من مبارز، فلمّا لم يجده حمل الدهر على حكمه، فانقاد له و ساعده، فاستقام أمره منفردا بمملكۀ لا سلف له فيها، و من أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينكب قطّ فى حرب شهدها، و ما توجّهت عليه هزيمۀ، و ما انصرف عن موطن إلّا قاهرا غالبا، على كثرۀ ما زاول من الحروب و مارس من الأعداء و واجه من الأمم، و إنها لخاصّيۀ ما أحسب أحدا من الملوك الإسلامية شاركه فيها، و من أعظم ما أعين به مع قوۀ سعده و تمكّن جدّه سعۀ جوده، و كثرۀ بذله، فقد كان فى ذلك أعجوبۀ الزمان، و أول ما اتكأ على أرائك الملوك و ارتفق، و انتشر عليه لواء السعد و خفق، حط صاحبه المصحفىّ، و أثار له كامن حقده الخفىّ، حتى أصاره للهموم لبيسا، و فى غيابات السجن حبيسا، فكتب إليه يستعطفه بقوله: [البسيط]

هبنى أسأت فأين العفو و الكرم إذ قادنى نحوك الإذعان و النّدم

يا خير من مدّت الأيدى إليه أما ترثى لشيخ رماه عندك القلم

بالغت فى السّخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

فما زاده ذلك إلّا حنقا و حقدا، و ما أفادته الأبيات إلّا تضرّما و وقدا، فراجعه بما أيأسه، و أراه مرمسه، و أطبق عليه محبسه، و ضيّق تروّحه من المحنۀ و تنفّسه: [البسيط]

الآن يا جاهلا زلّت بك القدم تبغى التّكرّم لمّا فاتك الكرم

أعريت بى ملكا لولا تثبّته تبغى التّكرّم لمّا فاتك الكرم

أغريت بى ملكا لو لا تثبّته ما جاز لى عنده نطق و لا كلم

فايأس من العيش إذ قد صرت فى طبق إنّ الملوك إذا ما استنقموا نقموا

نفسى إذا سخطت ليست براضيۀ و لو تشفّع فيك العرب و العجم

و كان من أخباره الداخلة فى أبواب البرّ و القربة بنيان المسجد الجامع، إلى أن قال:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۱۸

[أمثلة من عدل المنصور بن أبى عامر]

و من ذلك بناؤه قنطرة على نهر قرطبة الأعظم، ابتدأ بناءها المنصور سنة ثمان و سبعين و ثلاثمائة، و فرغ منها فى النصف من سنة تسع و سبعين، و انتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار و أربعين ألف دينار، فعظمت بها المنفعة، و صارت صدرا فى مناقبه الجليلة. و كانت هنالك قطعة أرض لشيخ من العامّة، و لم يكن للقنطرة عدول عنها؛ فأمر المنصور أمناءه بإرضائه فيها، فحضر الشيخ عندهم، فساوموه بالقطعة، و عرّفوه وجه الحاجة إليها و أنّ المنصور لا يريد إلّا إنصافه فيها، فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظنّه أنها لا تخرج عنه بأقلّ من عشرة دنانير ذهبا، كانت عنده أقصى الأمنيّة، و شرطها صحاحا. فاغتنم الأمناء غفلته، و نقدوه الثّمن، و أشهدوا عليه، ثم أخبروا المنصور بخبره، فضحك من جهالته، و أنف من غبنه، و أمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل، و تدفع له صحاحا كما قال، فقبض الشيخ مائة دينار ذهبا؛ فكاد أن يخرج من عقله، و أن يجنّ عند قبضها من الفرح، و جاء محتفلا فى شكر المنصور، و صارت قصّته خبرا سائرا.

و من ذلك أيضا بناء قنطرة على نهر إستجة، و هو نهر شنيل، و تجشم لها أعظم مؤنة، و سهّل الطريق الوعرة و الشّعاب الصعبة.

و من ذلك أيضا أنه خطّ بيده مصحفا كان يحمله معه فى أسفاره و غزواته.

يدرس فيه، و يتبرّك به.

و من قوة رجائه أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته و مواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل فى كل منزل من منازله، حتى اجتمع له منه صرّة ضخمة، عهد بتصييره فى حنوطه، و كان يحملها حيث سار مع أكفانه، توقّعا لحلول منيّته، و قد كان اتّخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضّيعة الموروثة عن أبيه، و غزل بناته. و كان يسأل اللّه تعالى أن يتوفّاه فى طريق الجهاد؛ فكان كذلك.

و كان متّسما بصحّة باطنه، و اعترافه بذنبه، و خوفه من ربّه، و كثرة جهاده. و إذا ذكّر بالله ذكر، و إذا خوّف من عقابه ازدجر، و لم يزل متنزّها عن كل ما يفتتن به الملوك سوى الخمر، لكنه أقلع عنها قبل موته بسنتين. و كان عدله فى الخاصّة و العامّة و بسط الحقّ على الأقرب فالأقرب من خاصّته و حاشيته أمرا مضروبا به المثل.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۱۹

و من عدله أنه وقف عليه رجل من العامّة بمجلسه، فنادى: «يا ناصر الحق، إنّ لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك»، و أشار إلى الفتى صاحب الدّرقة، و كان له فضل محلّ عنده، ثم قال: و قد دعوته إلى الحاكم، فلم يأت، فقال له المنصور: «أو عبد الرحمن بن فطيس بهذا العجز و المهانة، و كنّا نظنّه أمضى من ذلك؟ اذكر مظلمتك يا هذا»، فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير نصف، فقال المنصور: «ما أعظم بليّتنا بهذه الحاشية»! ثم نظر إلى الصّقلبى و قد ذهل عقله، فقال له: «ادفع الدّرقة إلى فلان، و انزل صاغرا، و ساو خصمك فى مقامه حتى يرفعك الحقّ أو يضعك»، ففعل، و مثل بين يديه، ثم قال لصاحب شرطته الخاصّ به: «خذ بيد هذا الفاسق الظالم و قدّمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفّذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحقّ من سجن أو غيره»، ففعل ذلك، و عاد الرجل إليه شاكرا، فقال له المنصور: «قد انتصفت أنت»، اذهب لسبيلك. و بقى انتصافى أنا ممّن تهاون بمنزلتى». فتناول الصّقلبىّ بأنواع من المذلّة، و أبعده عن الخدمة.

و من ذلك قصة فتاه الكبير المعروف بالبورقى مع التاجر المغربى؛ فإنهما تنازعا فى خصومة توجّهت فيها اليمين على الفتى المذكور، و هو يومئذ أكبر خدم المنصور، و إليه أمر داره و حرمه، فدافع الحاكم، و ظنّ أنّ جاهه يمنع من إحلافه. فصرخ التاجر بالمنصور فى

طريقه إلى الجامع متظلّما من الفتى، فوكّل به فى الوقت من حمله إلى الحاكم، فأنصفه منه، و سخط عليه المنصور، و قبض نعمته منه، و نفاه. و من ذلك قصة محمد فصّاد المنصور و خادمه و أمينه على نفسه، فإنّ المنصور احتاجه يوما إلى الفصد، و كان كثير التّعهد له، فأنفذ رسوله إلى محمد، فألفاه الرسول محبوسا فى سجن القاضى محمد بن زرب لحيف ظهر منه على امرأته قدّر أنّ سبيله من الخدمة يحميه من العقوبة. فلمّا عاد الرسول إلى المنصور بقصّته، أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن يلزمه إلى أن يفرغ من عمله عنده، ثم يردّه إلى محبسه. ففعل ذلك على ما رسمه، و ذهب الفاصد إلى شكوى ما ناله، فقطع عليه المنصور، و قال له: «يا محمد، إنّه القاضى، و هو فى عدله، و لو أخذنى الحقّ ما أطقت الامتناع منه، عد إلى محبسك أو اعترف بالحقّ فهو الذى يطلقك». فانكسر الحاجم، و زالت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۲۰

عنه ريح العناية. و بلغت قصته للقاضى، فصالحه مع زوجته، و زاد القاضى شدّة فى أحكامه.

[دهاء المنصور بن أبى عامر]

و قال ابن حيّان: إنه كان جالسا فى بعض الليالى، و كانت ليلة شديدة البرد و الريح و المطر، فدعا بأحد الفرسان و قال له: «انهض الآن إلى فج طليارش، و أقم فيه، فأول خاطر يخطر عليك سقه إلىّ». قال: فنهض الفارس و بقى فى الفجّ فى البرد و الريح و المطر واقفا على فرسه، إذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له، و معه آلة الحطب، فقال له الفارس:

«إلى أين تريد يا شيخ»؟ فقال: «وراء حطب»، فقال الفارس فى نفسه: «هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطبا، فما عسى أن يريد المنصور منه»؟ قال: فتركته، فسار عنّى قليلا، ثم فكّرت فى قول المنصور، و خفت سطوته، فنهضت إلى الشيخ و قلت له: «ارجع إلى مولانا المنصور». فقال له: و ما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى؟ سألتك بالله أن تتركنى أذهب لطلب معيشتى، فقال له الفارس: لا أفعل، ثم قدم به على المنصور، و مثّله بين يديه و هو جالس لم ينم ليلته تلك، فقال المنصور للصقالبة: فتّشوه، ففتّشوه فلم يجدوا معه شيئا، فقال: فتّشوا برذعة حماره، فوجدوا داخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور، و يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليقبلوا و يضربوا فى إحدى النّواحى المرطومة.

فلما انبلج الصبح أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة، فضربت أعناقهم، و ضربت رقبة الشيخ معهم.

ثم ذكر هذا المؤرّخ قصة الجوهرى التى قدّمنا نقلها من مغرب ابن سعيد، و لكنّا رأينا إعادتها بلفظ هذا المؤرّخ؛ لأنه أتمّ مساقا إذ قال عطفا على دهائه: و من ذلك قصة الجوهرى التاجر، و ذلك أن رجلا جوهريا من تجّار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير و أحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه، و دفع إلى التاجر الجوهرى صرّته، و كانت قطعة يمانية، فأخذ التاجر فى انصرافه طريق الرّملة على شطّ النهر، فلمّا توسّطها و اليوم قائظ، و عرقه منصبّ دعته نفسه إلى التبرّد فى النهر، فوضع ثيابه و تلك الصّرّة على الشّطّ، فمرّت حدأة فاختطفت الصّرّة، تحسبها لحما، و صارت فى الأفق بها ذاهبة، فقطعت الأفق الذى تنظر إليه عين التاجر، فقامت قيامته، و علم أنّه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة، فأسرّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۲۱

الحزن فى نفسه، و لحقه لأجل ذلك علّة اضطرب فيها. و حضر الدفع إلى التجّار، فحضر الرجل لذلك بنفسه، فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة و الكآبة، و فقد ما كان عنده من النشاط و شدّة العارضة، فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصّته، فقال له: هلّا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر؟ فكنّا نستظهر على الحيلة، فهل هديت إلى الناحية التى أخذ الطائر إليها؟

قال: مرّ مشرفا على سمت هذا الجبل الذى يلى قصرك، يعنى الرملة، فدعا المنصور شرطيّه الخاصّ به، فقال له: جئنى بمشيخة أهل الرملة الساعة، فمضى و جاء بهم سريعا، فأمرهم بالبحث عمّن غيّر حال الإقلال منهم سريعا، و انتقل عن الإضافة دون تدريج، فتناظروا

فى ذلك ثم قالوا: يا مولانا، ما نعلم إلّا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو و أولاده بأيديهم و يتناولون السّبق بأقدامهم عجزا عن شراء دابّة، فابتاع اليوم دابّة، و اكتسى هو و ولده كسوة متوسّطة، فأمر بإحضاره من الغد، و أمر التاجر بالغدوّ إلى الباب، فحضر الرجل بعينه بين يدى المنصور، فاستدناه و التاجر حاضر، و قال له: سبب ضاع منّا و سقط إليك، ما فعلت به؟ قال: هو ذا يا مولاى، و ضرب بيده إلى حجزة سراويله فأخرج الصّرّة بعينها، فصاح التاجر طربا، و كاد يطير فرحا، فقال له المنصور: صف لى حديثها، فقال: بينا أنا أعمل فى جنانى تحت نخلة إذ سقطت أمامى، فأخذتها و راقنى منظرها، فقلت: إنّ الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار، فاحترزت بها، و دعتنى فاقتى إلى أخذ عشرة مثاقيل عيونا كانت معها مصرورة، و قلت: أقلّ ما يكون فى كرم مولاى أن يسمح لى بها، فأعجب المنصور ما كان منه، و قال للتاجر: خذ صرّتك و انظرها، و اصدقنى عن عددها، ففعل و قال و حقّ رأسك يا مولاى، ما ضاع منها شىء سوى الدنانير التى ذكرها، و قد وهبتها له، فقال له المنصور: نحن أولى بذلك منك و لا ننغص عليك فرحك. و لو لا جمعه بين الإصرار و الإقرار لكان ثوابه موفورا عليه، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضا من دنانيره، و للجنّان بعشرة دنانير ثوابا لتأنّيه عن فساد ما وقع بيده، و قال: لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء، قال: فأخذ التاجر فى الثناء على المنصور، و قد عاوده نشاطه و قال: و اللّه لأبثّنّ فى الأقطار عظيم ملكك، و لأبيّننّ أنّك تملك طير أعمالك كما تملك إنسها، فلا تعتصم منك و لا تمتنع، و لا تؤذى جارك، فضحك المنصور و قال: اقصد فى قولك يغفر اللّه لك، فعجب الناس من تلطّف المنصور فى أمره و حيلته فى تفريج كربته.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۲۲

[غزو المنصور لمدينة شنت ياقب]

و من ذلك غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب قاصية غليسية، و أعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس، و ما يتّصل بها من الأرض الكبيرة. و كانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا، و للكعبة المثل الأعلى، فبها يحلفون، و إليها يحجّون من أقصى بلاد رومة و ما وراءها، و يزعمون أنّ القبر المزور فيها قبر ياقب الحوارىّ أحد الاثنى عشر، و كان أخصّهم بعيسى، على نبيّنا و عليه الصلاة و السلام! و هم يسمّونه أخاه للزومه إيّاه. و ياقب بلسانهم يعقوب، و كان أسقفا ببيت المقدس، فجعل يستقرى الأرضين داعيا لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام فمات بها، و له مائة و عشرون سنة شمسية، فاحتمل أصحابه رمّته، فدفنوها بهذه الكنيسة التى كانت أقصى أثره. و لم يطمع أحد من ملوك الإسلام فى قصدها و لا الوصول إليها، لصعوبة مدخلها، و خشونة مكانها. و بعد شقّتها. فخرج المنصور إليها من قرطبة غازيا بالصائفة يوم السبت لستّ بقين من جمادى الآخرة سنة سبع و ثمانين و ثلاثمائة، و هى غزوته الثامنة و الأربعون. و دخل على مدينة قورية، فلمّا وصل إلى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتمسّكين بالطاعة فى رجالهم، و على أتمّ احتفالهم، فصاروا فى عسكر المسلمين، و ركبوا فى المغاورة سبيلهم. و كان المنصور تقدّم فى إنشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الأندلس، و جهّزه برجاله البحريّين و صنوف المترجّلين، و حمل الأقوات و الأطعمة و العدد و الأسلحة، استظهارا على نفوذ العزيمة إلى أن خرج بموضع برتقال على نهر دويرة، فدخل فى النهر إلى المكان الذى عمل المنصور على العبور منه، فعقد هنالك من هذا الأسطول جسرا بقرب الحصن الذى هنالك، و وجّه المنصور ما كان فيه من الميرة إلى الجند، فتوسّعوا فى التزوّد منه إلى أرض العدو. ثم نهض منه يريد شنت ياقب، فقطع أرضين متباعدة الأقطار، و قطع بالعبور عدة أنهار كبار و خلجان يمدّها البحر الأخضر. ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فرطارش و ما يتّصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه و لا طريق، لم يهتد الأدلّاء إلى سواه. فقدّم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه و تسهيل مسالكه، فقطعه العسكر، و عبروا بعده وادى منية، و انبسط المسلمون بعد ذلك فى بسائط عريضة و أرضين أريضة، و انتهت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۲۳

مغيرتهم إلى دير قسطان و بسيط بلنبو على البحر المحيط، و فتحوا حصن شنت بلايه، و غنموه، و عبروا سباحة إلى جزيرة من البحر

المحيط لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحى، فسبوا من فيها ممّن لجأ إليها. و انتهى العسكر إلى جبل مراسية المتّصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط. فتخلّلوا أقطاره، و استخرجوا من كان فيه، و حازوا غنائمه. ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجا فى معبرين أرشد الأدلّاء إليهما، ثم نهر أيلة، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى فى الفضل، يقصد نسّاكهم له من أقاصى بلادهم و من بلاد القبط و النّوبة و غيرهما، فغادره المسلمون قاعا. و كان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة، و ذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان، فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها، و هدموا مصانعها و أسوارها و كنيستها، و عفّوا آثارها. و وكّل المنصور بقبر ياقب من يحفظه و يدفع الأذى عنه، و كانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما كأن لم تغن بالأمس، و انتسفت بعوثه بعد ذلك سائر البسائط، و انتهت الجيوش إلى مدينة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط، و هى غاية لم يبلغها قبلهم مسلم، و لا وطئها لغير أهلها قدم، فلم يكن بعدها للخيل مجال، و لا وراءها انتقال. و انكفأ المنصور عن باب شنت ياقب و قد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله، فجعل فى طريقه القصد على عمل برمند بن أردون ليستقرّ به عائثا و مفسدا، حتى وقع فى عمل القوامس المعاهدين الذين فى عسكره، فأمر بالكفّ عنها، و مرّ مجتازا حتى خرج إلى حصن بليقية من افتتاحه، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم، و كساهم و كسا رجالهم، و صرفهم إلى بلادهم، و كتب بالفتح من بليقية. و كان مبلغ ما كساه فى غزاته هذه لملوك الروم و لمن حسن غناؤه من المسلمين ألفين و مائتين و خمسا و ثمانين شقّة من صنوف الخزّ الطّرازى، و أحدا و عشرين كساء من صوف البحر، و كساءين عنبريّين، و أحد عشر سقلاطونا، و خمس عشرة مريّشات، و سبعة أنماط ديباج، و ثوبى ديباج رومىّ، و فروى فنك، و وافى جميع العسكر قرطبة غانما، و عظمت النعمة و المنّة على المسلمين. و لم يجد المنصور بشنت ياقب إلّا شيخا من الرّهبان جالسا على القبر، فسأله عن مقامه، فقال: «أونس يعقوب»، فأمر بالكفّ عنه.

قال: و حدّث شعلة، قال: قلت للمنصور ليلة طال سهره فيها: «قد أفرط مولانا فى

السهر، و بدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم، و هو أعلم بما يحرّكه عدم النوم من علّة العصب، فقال: يا شعلة، الملك لا ينام إذا نامت الرعيّة، و لو استوفيت نومى لما كان فى دور هذا البلد العظيم عين نائمة». انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور.

[أخبار المنصور (من كتاب الأزهار المنثورة)]

و قد رأيت أن أذكر هنا أخبارا، نقلتها من كتاب «الأزهار المنثورة، فى الأخبار المأثورة»:

قال فى الزهرة التاسعة و العشرين: تقدّم إلى المنصور و انزمار بن أبى بكر البرزالى أحد جنود المغاربة، و قد جلس للعرض و التمييز، و الميدان غاصّ بالناس، فقال له بكلام يضحك الثّكلى: يا مولاى، ما لى ولك، أسكنّى فإنى فى الفحص، فقال: و ما ذاك يا و انزمار؟ و أين دارك الواسعة الأقطار؟ فقال: أخرجتنى عنها و اللّه نعمتك، أعطيتنى من الضياع ما انصبّ علىّ منها من الأطعمة ما ملأ بيوتى و أخرجنى عنها، و أنا بربرى مجوّع حديث عهد بالبؤس، أ ترانى أبعد القمح عنى؟ ليس ذلك من رأيى. فتطلّق المنصور و قال: للّه درّك من فذّ عيىّ، لعيّك فى شكر النعمة أبلغ عندنا، و آخذ بقلوبنا من كلام كل أشدق متزيد و بليغ متفنّن، و أقبل المنصور على من حوله من أهل الأندلس فقال: يا أصحابنا، هكذا فلتشكر الأيادى و تستدام النعم، لا ما أنتم عليه من الجحد اللازم، و التشكّى المبرّح، و أمر له بأفضل المنازل الخالية.

و فى الموفية ثلاثين ما نصّه: أصبح المنصور صبيحة أحد، و كان يوم راحة للخدمة الذى أعفوا فيه من قصد الخدمة، فى مطر وابل غبّ أيام مثله، فقال: هذا يوم لا عهد بمثله، و لا حيلة للمواظبين لقصدنا فى مكابدته، فليت شعرى هل شذّ أحد منهم عن التقرير فأغرب فى البكور؟ اخرج و تأمّل، يقوله لحاجبه، فخرج و عاد إليه ضاحكا، و قال: يا مولاى، على الباب ثلاثة من البرابرة: أبو الناس

بن صالح و اثنان معه، و هم بحال من البلل إنّما توصف بالمشاهدة، فقال: أوصلهم إليّ و عجّل. فدخلوا عليه فى حال الملّاح بللا و نداوة، فضحك إليهم و أدنى مجلسهم، و قال خبّرونى كيف جئتم؟ و على أىّ حال وصلتم؟ و قد استكان كل ذى روح فى كنّه، و لاذ كل طائر بوكره، فقال له أبو الناس بكلامه: يا مولانا، ليس كل التّجّار قعد عن سوقه، و إذا عذر التجار على طلب الربح بالفلوس فنحن أعذر بإدراكها بالبدر و من غير رؤوس الأموال، و هم يتناوبون الأسواق على أقدامهم و يذيلون فى قصدها ثيابهم، و نحن نأتيك على خيلك، و نذيل على صهواتها ملابسك، و نجعل الفضل فى قصدك مضمونا إذا جعله

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۳۲۵

أولئك طمعا و رجاء، فترى لنا أن نجلس عن سوقنا هذا؟ فضحك المنصور و دعا بالكسا و الصّلات، فدفعت لهم، و انصرفوا مسرورين بغدوتهم.

و فى الزهرة الرابعة و الأربعين ما نصّه: كان بقرطبة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبى عامر فتى من أهل الأدب قد رقّت حاله فى الطلب، فتعلّق بكتاب العمل، و اختلف إلى الخزانة مدّة، حتى قلّد بعض الأعمال، فاستهلك كثيرا من المال، فلمّا ضمّ إلى الحساب أبرز عليه ثلاثة آلاف دينار، فرفع خبره إلى المنصور، فأمر بإحضاره، فلمّا مثل بين يديه و لزم الإقرار بما برز عليه قال له: يا فاسق، ما الذى جرّأك على مال السلطان تنتهبه؟ فقال: قضاء غلب الرأى، و فقر أفسد الأمانة، فقال المنصور: و اللّه لأجعلنّك نكالا لغيرك، ليحضر كبل و حدّاد، فأحضرا، فكبل الفتى و قال: احملوه إلى السجن، و أمر الضابط بامتحانه و الشدّة عليه، فلما قام أنشأ يقول: [السريع]

أوّاه أوّاه و كم ذا أرى أكثر من تكرار أوّاه

ما لامرىء حول و لا قوّة الحول و القوة للّه

فقال المنصور: ردّوه، فلما ردّ قال: أ تمثلت أم قلت؟ قال: بل قلت، فقال: حلّوا عنه كبله، فلمّا حلّ عنه أنشأ يقول: [السريع]

أما ترى عفو أبى عامر لا بدّ أن تتبعه منّه

كذلك اللّه إذا ما عفا عن عبده أدخله الجنّه

فأمر بإطلاقه، و سوّغه ذلك المال، و أبرأه من التبعة فيه.

و فى الخامسة و الأربعين: عرض على المنصور بن أبى عامر اسم أحد خدمه فى جملة من طال سجنه، و كان شديد الحقد عليه، فوقّع على اسمه بأن لا سبيل إلى إطلاقه حتى يلحق بأمّه الهاوية، و عرّف الرجل بتوقيعه، فاهتمّ و اغتمّ و أجهد نفسه فى الدعاء و المناجاة، فأرق المنصور إثر ذلك، و استدعى النوم فلم يقدر عليه، و كان يأتيه عند تنويمه آت كريه الشخص عنيف الأخذ يأمره بإطلاق الرجل، و يتوعّده على حبسه، فاستدفع شأنه مرارا إلى أن علم أنّه نذير من ربّه، فانقاد لأمره، و دعا بالدواة فى مرقده فكتب بإطلاقه، و قال فى كتابه: هذا طليق اللّه على رغم أنف ابن أبى عامر، و تحدّث الناس زمانا بما كان منه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ۱؛ ص۳۲۵

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۳۲۶

و فى السادسة و الأربعين ما نصّه: انتهت هيبة المنصور بن أبى عامر و ضبطه للجند و استخدام ذكور الرجال و قوّام الملك إلى غاية لم يصلها ملك قبله، فكانت مواقفهم فى الميدان على احتفاله مثلا فى الإطراق، حتى إنّ الخيل لتتمثّل إطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل و الحمحمة، و لقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سلّه بعض الجند بأقصى الميدان لهزل أو جدّ بحيث ظنّ أنّ لحظ المنصور لا يناله، فقال: علىّ بشاهر السيف، فمثل بين يديه لوقته، فقال: ما حملك على أن شهرت سيفك فى مكان لا يشهر فيه إلّا عن إذن؟ فقال: إنّى أشرت به إلى صاحبى مغمدا فذلق من غمده، فقال: إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى، و أمر به فضربت عنقه بسيفه، و طيف برأسه، و نودى عليه بذنبه انتهى.

و فى السابعة و الأربعين: أن المنصور كان به داء فى رجله، و احتاج إلى الكىّ فأمر الذى يكويه بذلك و هو قاعد فى موضع مشرف على أهل مملكته، فجعل يأمر و ينهى و يفرى الفرىّ فى أموره، و رجله تكوى و الناس لا يشعرون، حتى شمّوا رائحة الجلد و اللحم، فتعجّبوا من ذلك و هو غير مكترث.

و أخباره- رحمه اللّه تعالى!- تحتمل مجلّدات، فلنمسك العنان، على أنّا ذكرنا فى الباب الرابع و السادس من هذا الكتاب جملة من أخباره، رحمه اللّه تعالى! فلتراجع إلى آخره.

[عود إلى أخبار المنصور (من المطمح)]

و قال الفتح فى المطمح: و كان ممّا أعين به المنصور على المصحفىّ ميل الوزراء إليه، و إيثارهم له عليه، و سعيهم فى ترقّيه، و أخذهم بالعصبيّة فيه، فإنها و إن لم تكن حميّة أعرابية، فقد كانت سلفيّة سلطانية، يقتفى القوم فيها سبيل سلفهم، و يمنعون بها ابتذال شرفهم، غادروها سيرة، و خلّفوها عادة أثيرة، تشاحّ الخلف فيها تشاحّ سلفهم أهل الديانة، و صانوا بها مراتبهم أعظم صيانة، و رأوا أنّ أحدا لا يلحق فيها غاية، و لا يتعاقد لها راية. فلمّا اصطفى الحكم المستنصر بالله جعفر بن عثمان و اصطنعه، و وضعه من أثرته حيث وضعه، و هو نزيع بينهم و نابغ فيهم، حسدوه و ذمّوه، و خصّوه بالمطالبة و عمّوه. و كان أسرع صنف الطائفة من أعالى الوزراء و أعاظم الدولة إلى مهاودة المنصور عليه، و الانحراف عنه إليه، آل أبى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۲۷

عبيدة و آل شهيد و آل فطيس من الخلفاء و أصحاب الرّدافة، من أولى الشرف و الإنافة و كانوا فى الوقت أزمّة الملك و قوّام الخدمة، و مصابيح الأمّة، و أغير الخلق على جاه و حرمة، فأحظوا محمد بن أبى عامر مشايعة، و لبعض أسبابه الجامعة متابعة، و شادوا بناءه، و قادوا إلى عنصره سناءه، حتى بلغ الأمل، و التحف بمناه و اكتحل، و عند التئام هذه الأمور لابن أبى عامر استكان، جعفر بن عثمان، للحادثة، و أيقن بالنكبة، و زوال الحال و انتقال الرتبة، و كفّ عن اعتراض محمد و شركته فى التدبير، و انقبض الناس من الرواح إليه و التبكير. و انثالوا على ابن أبى عامر فخفّ موكبه، و غار من سماء العزّ كوكبه، و توالى عليه سعى ابن أبى عامر و طلبه، إلى أن صار يغدو إلى قرطبة و يروح و ليس بيده من الحجابة إلّا اسمها، و ابن أبى عامر مشتمل على رسمها، حتى محاه، و هتك ظلّه و أضحاه. قال محمد بن إسماعيل: رأيته يساق إلى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلا فأقبل يدرم، و جوارحه باللواعج تضطرم، و واثق الضاغط ينهره، و الزّمع يقهره، و البهر و السّنّ قد هاضاه، و قصّرا خطاه، فسمعته يقول: رفقا بى فستدرك ما تحبّه و تشتهيه، و ترى ما كنت ترتجيه، و يا ليت أنّ الموت يباع فأغلى سومه، حتى يرده من أطال عليه حومه، ثم قال: [الكامل]

لا تأمننّ من الزمان تقلّبا إنّ الزمان بأهله يتقلّب

و لقد أرانى و الليوث تخافنى فأخافنى من بعد ذاك الثعلب

حسب الكريم مذلّة و مهانة أن لا يزال إلى لئيم يطلب

فلمّا بلغ المجلس جلس فى آخره دون أن يسلّم على أحد، أو يومئ إليه بعين أو يد، فلمّا أخذ مجلسه تسرّع إليه الوزير محمد بن حفص بن جابر فعنّفه و استجفاه، و أنكر عليه ترك السلام و جفاه، و جعفر معرض عنه، إلى أن كثر القول منه، فقال له: يا هذا، جهلت المبرّة فاستجهلت معلّمها، و كفرت النعم فقصدت بالأذى و لم ترهب مقدّمها، و لو أتيت نكرا، لكان غيرك أدرى، و قد وقعت فى أمر ما أظنّك تخلص منه، و لا يسعك السكوت عنه، و نسيت الأيادى الجميلة، و المبرّات الجليلة، فلمّا سمع محمد بن حفص ذلك من قوله قال: هذا البهت بعينه، و أىّ أياديك الغرّ التى مننت بها و عيّنت أداء واجبها؟ أيد كذا أم يد كذا؟ و عدّد أشياء أنكرها منه أيام إمارته، و تصرّف الدهر طوع إشارته، فقال جعفر: هذا ما لا يعرف، و الحق الذى لا يردّ و لا يصرف، دفعى القطع عن يمناك، و تبليغى لك إلى مناك، فأصرّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۲۸

محمد بن حفص على الجحد، فقال جعفر: أنشد اللّه من له علم بما أذكره، إلّا اعترف به فلا ينكره، و أنا أحوج إلى السكوت، و لا تحجب دعوتى فيه عن الملكوت، فقال الوزير أحمد بن عباس: قد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسن، و غير هذا أولى بك، و أنت فيما أنت فيه من محنتك و طلبك، فقال: أحرجنى الرجل، فتكلّمت، و أحوجنى إلى ما به أعلمت، فأقبل الوزير ابن جهور على محمد بن حفص و قال: أسأت إلى الحاجب، و أوجبت عليه غير الواجب، أو ما علمت أنّ منكوب السلطان لا يسلّم على أوليائه لأنه إن فعل ألزمهم الردّ لقوله تعالى: وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها [النساء: ۸۶] فإن فعلوا طاف بهم من إنكار السلطان ما يخشى و يخاف؛ لأنه تأنيس لمن أوحش و تأمين لمن أخاف، و إن تركوا الردّ أسخطوا اللّه، فصار الإمساك أحسن، و مثل هذا لا يخفى على أبى الحسن، فانكسر ابن حفص، و خجل ممّا أتى به من النقص. و بلغه أن قوما توجّعوا له، و تفجّعوا ممّا وصله، فكتب إليهم: [الطويل]

أحنّ إلى أنفاسكم فأظنّها بواعث أنفاس الحياة إلى نفسى

و إنّ زمانا صرت فيه مقيّدا لأثقل من رضوى و أضيق من رمس

انتهى ما ترجم به المنصور بن أبى عامر.

[ولاية عبد الملك المظفر بن المنصور، ثم ولاية عبد الرحمن الناصر لدين اللّه]

و لنرجع فنقول: و لمّا توفى المنصور قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفّر أبو مروان فجرى على سنن أبيه فى السياسة و الغزو، و كانت أيامه أعيادا دامت مدّة سبع سنين و كانت تسمى بالسابع، تشبيها بسابع العروس، و لم يزل مثل اسمه مظفرا إلى أن مات سنة تسع و تسعين و ثلاثمائة فى المحرم، و قيل: سنة ثمان و تسعين.

و كاتبه المعزّ بن زيرى ملك مغراوة بعد أن استرجع فاسا و المغرب إثر موت أبيه، فكتب له العهد على المغرب، و ثارت الطوائف فى ممالكهم، و تحرّكت الجلالقة لاسترجاع معاقلهم و حصونهم.

قال ابن خلدون: ثم قام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن، و تلقّب بالناصر لدين اللّه، و قيل: بالمأمون، و جرى على سنن أبيه و أخيه فى الحجر على الخليفة هشام، و الاستبداد عليه، و الاستقلال بالملك دونه. ثم ثاب له رأى فى الاستئثار بما بقى من رسوم الخلافة، فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده، فأجابه، و أحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى و أهل الحلّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۲۹

و العقد، فكان يوما مشهودا، فكتب عهده من إنشاء أبى حفص بن برد بما نصّه: «هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامّة، و عاهد اللّه عليه من نفسه خاصّة، و أعطى به صفقة يمينه بيعة تامّة، بعد أن أمعن النظر و أطال الاستخارة، و أهمّه ما جعل اللّه إليه من الإمامة، و عصب به من أمر المؤمنين، و اتقى حلول القدر بما لا يؤمن، و خاف نزول القضاء بما لا يصرف، و خشى إن هجم محتوم ذلك عليه و نزل مقدوره به و لم يرفع لهذه الأمة علما تأوى إليه، و ملجأ تنعطف عليه، أن يكون يلقى ربّه تبارك و تعالى مفرّطا ساهيا عن أداء الحق إليها، و نقص عند ذلك من إحياء قريش و غيرها من يستحقّ أن يسند هذا الأمر إليه، و يعوّل فى القيام به عليه، ممّن يستوجبه بدينه و أمانته، و هديه و صيانته، بعد اطّراح الهوى، و التحرّى للحق، و الزّلفى إلى اللّه جلّ جلاله بما يرضيه. و بعد أن قطع الأواصر، و أسخط الأرقاب، فلم يجد أحدا أجدر أن يوليه عهده، و يفوّض إليه الخلافة بعده، لفضل نفسه و كرم خيمه و شرف مرتبته و علوّ منصبه، مع تقاه و عفافه و معرفته و حزمه، من المأمون الغيب، الناصح الجيب، أبى المطرّف عبد الرحمن بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر، وفّقه اللّه! إذ كان أمير المؤمنين- أيّده اللّه تعالى!- قد ابتلاه و اختبره، و نظر فى شأنه و اعتبره، فرآه مسارعا فى الخيرات، سابقا فى الحلبات، مستوليا على الغايات، جامعا للمأثرات. و من كان المنصور أباه، و المظفّر أخاه، فلا غرو أن يبلغ من سبل البرّ مداه، و يحوى من خلال الخير ما حواه، مع أن أمير المؤمنين- أيّده اللّه!- بما طالع من مكنون

العلم، و وعاه من مخزون الأثر، يرى أن يكون وليّ عهده القحطانى الذى حدّث عنه عبد اللّه بن عمرو بن العاص و أبو هريرة أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «لا تقوم السّاعة حتّى يخرج رجل من قحطان يسوق النّاس بعصاه». فلما استوى له الاختبار، و تقابلت عنده فيه الآثار، و لم يجد عنه مذهبا، و لا إلى غيره معدلا، خرج إليه من تدبير الأمور فى حياته، و فوّض إليه الخلافة بعد وفاته، طائعا راضيا مجتهدا، و أمضى أمير المؤمنين هذا و أجازه، و أنجزه و أنفذه، و لم يشرط فيه مثنوية

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۳۰

و لا خيارا، و أعطى على الوفاء به فى سرّه و جهره و قوله و فعله عهد اللّه و ميثاقه، و ذمّة نبيّه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و ذمم الخلفاء الراشدين من آبائه، و ذمّة نفسه، أن لا يبدّل و لا يغيّر و لا يحوّل و لا يزول. و أشهد اللّه على ذلك و الملائكة، و كفى باللّه شهيدا، و أشهد من أوقع اسمه فى هذا و هو جائز الأمر ماضى القول و الفعل بمحضر من ولى عهده المأمون أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور وفّقه اللّه تعالى، و قبوله ما قلّده، و إلزامه نفسه ما ألزمه، و ذلك فى شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و تسعين و ثلاثمائة. و كتب الوزراء و القضاة و سائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم، و تسمّى بعدها بوليّ العهد.

[خلع هشام المؤيد و بيعة محمد بن هشام المهدى باللّه]

و نقم عليه أهل الدولة ذلك، فكان فيه حتفه، و انقراض دولته و دولة قومه، و كان أسرع الناس كراهة لذلك الأمويون و القرشيون، فغصّوا بأمره، و أسفوا من تحويل الأمر جملة من المضرية إلى اليمنية، فاجتمعوا لشأنهم، و تمشّت من بعض إلى بعض رجالاتهم، و أجمعوا أمرهم فى غيبة من المذكور ببلاد الجلالقة فى غزاة من صوائفه، و وثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقرطبة سنة تسع و تسعين و ثلاثمائة، و خلعوا هشاما المؤيد.

و بايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين اللّه من أعقاب الخلفاء، و لقّبوه المهدى باللّه، و طار الخبر إلى عبد الرحمن الحاجب بن المنصور بمكانه من الثغر، فانفضّ جمعه، و قفل إلى الحضرة مدلّا بمكانه، زعيما بنفسه، حتى إذا قرب من الحضرة تسلّل عنه الناس من الجند و وجوه البربر، و لحقوا بقرطبة، و بايعوا المهدى القائم بالأمر، و أغروه بعبد الرحمن الحاجب، لكونه ماجنا مستهترا غير صالح للأمر، فاعترضه منهم من قبض عليه، و احتزّ رأسه، و حمله إلى المهدى والى الجماعة.

و ذهبت دولة العامريين كأن لم تكن، و للّه عاقبة الأمور.

و فى المهدى يقول بعضهم: [مخلع البسيط]

قد قام مهديّنا و لكن بملّة الفسق و المجون

و شارك الناس فى حريم لولاه ما زال بالمصون

من كان من قبل ذا أجما فاليوم قد صار ذا قرون

و كان رؤساء البربر و زناتة لحقوا بالمهدىّ لمّا رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن و انتقاض أمره. و كانت الأموية تعتدّ عليهم ما كان من مظاهرتهم العامريين، و تنسب تغلّب المنصور

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۳۱

و بنيه على الدولة إليهم، فسخطتهم القلوب، و خزرتهم العيون، و لو لا ما لهم من العصبية لاستأصلهم الناس، و لغطت ألسنة الدهماء من أهل المدينة بكراهتهم. و أمر المهدى أن لا يركبوا و لا يتسلّحوا، و ردّ بعض رؤسائهم فى بعض الأيام من باب القصر، فانتهبت العامّة دورهم، و شكا بعضهم إلى المهدى ما أصابهم، فاعتذر إليهم و قتل من اتّهم من العامّة فى أمرهم، و هو مع ذلك مظهر لبغضهم، مجاهر بسوء الثناء عليهم. و بلغهم أنّه يريد الفتك بهم، فتمشّت رجالاتهم، و أسرّوا نجواهم، و اشتوروا فى تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر، و فشا فى الخاصّة حديثهم، فعوجلوا عن مرامهم ذلك، و أغرى بهم السواد الأعظم، فثاروا بهم، و

أزعجوهم عن المدينة. و تقبض على هشام و أخيه أبى بكر، و أحضرا بين يدى المهدى، فضرب أعناقهما. و لحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجنود البربر، و قد اجتمعوا بظاهر قرطبة و توامروا، فبايعوه و لقّبوه المستعين بالله، و نهضوا به إلى ثغر طليطلة، فاستجاش بابن أذفونش، ثم نهض فى جموع البرابرة و النصرانية إلى قرطبة، و برز إليه المهدى فى كافّة أهل البلد و خاصّة الدولة، فكانت الدائرة عليهم، و استلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفا، و هلك من خيار الناس و أئمّة المساجد و سدنتها و مؤذّنيها عالم. و دخل المستعين قرطبة ختام المائة الرابعة. و لحق المهدىّ بطليطلة. و استجاش بابن أذفونش ثانية، فنهض معه إلى قرطبة، و هزم المستعين و البرابرة بعقبة البقر من ظاهر قرطبة، و دخل قرطبة- أعنى المهدى- و ملكها.

و خرج المستعين مع البربر، و تفرّقوا فى البسائط ينهبون و لا يبقون على أحد. ثم ارتحلوا إلى الجزيرة الخضراء، فخرج المهدىّ و معه ابن أذفونش لاتّباعهم، فكرّوا عليهم، فانهزم المهدى و ابن أذفونش و من معه من المسلمين و النصارى، و اتّبعهم المستعين إلى قرطبة، فأخرج المهدى هشاما المؤيّد للناس، و بايع له، و قام بأمر حجابته، ظنّا منه أنّ ذلك ينفعه، و هيهات! و حاصرهم المستعين و البربر، فخشى أهل قرطبة من اقتحامهم عليهم، فأغروا أهل القصر و حاشية المؤيد بالمهدىّ و أنّ الفتنة إنّما جاءت من قبله، و تولّى كبر ذلك واضح العامرى، فقتلوا المهدى، و اجتمع الكافّة على المؤيّد، و قام واضح بحجابته. و استمرّ الحصار، و لم يغن عن أهل قرطبة ما فعلوه شيئا، إلى أن هلكت القرى و البسائط بقرطبة، و عدمت المرافق، و جهدهم الحصار. و بعث المستعين إلى أهل ابن أذفونش يستقدمهم لمظاهرته، فبعث إليهم هشام و حاجبه واضح يكفّونهم عن ذلك، بأن ينزلوا لهم عن ثغور قشتالة التى كان المنصور

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۳۲

افتتحها، فسكن عن مظاهرتهم عزم أذفونش، و لم يزل الأمر حتى دخل المستعين قرطبة و من معه من البربر عنوة سنة ثلاث و أربعمائة، و قتل هشام سرّا. و لحق بيوتات قرطبة معرّة فى نسائهم و أبنائهم. و ظن المستعين أن قد استحكم أمره، و توثّبت البرابرة و العبيد على الأعمال، فولّوا المدن العظيمة، و تقلّدوا البلاد الواسعة، مثل باديس بن حبّوس فى غرناطة، و البرزالى فى قرمونة، و اليفرنى فى رندة، و خزرون فى شريش، و افترق شمل الجماعة بالأندلس، و صار الملك طوائف فى آخرين من أهل الدولة، مثل ابن عبّاد بإشبيلية، و ابن الأفطس ببطليوس، و ابن ذى النون بطليطلة، و ابن أبى عامر ببلنسية، و ابن هود بسرقسطة، و مجاهد العامرى بدانية و الجزائر.

[شعر للمستعين]

قال ابن خلدون و كان مائلا لبنى حمّود يهجو سليمان المستعين: [السريع]

لا رحم اللّه سليمانكم فإنه ضدّ سليمان

ذاك به غلّت شياطينها و حلّ هذا كلّ شيطان

فباسمه ساحت على أرضنا لهلك سكان و أوطان

و كان من أعظم الأسباب فى فساد دولة المستعين أنه قال هذه الأبيات مستريحا بها إلى خواصّه، و هى قوله: [الطويل]

حلفت بمن صلّى و صام و كبرا لأغمدها فيمن طغى و تجبّرا

و أبصر دين اللّه تحيا رسومه فبدّل ما قد كان منه و غيّرا

فواعجبا من عبشمىّ مملّك برغم العوالى و المعالى تبربرا

فلو أنّ أمرى بالخيار نبذتهم و حاكمتهم للسّيف حكما محرّرا

فإمّا حياة تستلذّ بفقدهم و إمّا حمام لا نرى فيه ما زرى

و قد سلك هذا المسلك المرتضى المروانى فقال: [السريع]

قد بلغ البربر فينا بنا ما أفسد الأحوال و النّظما

كالسّهم للطائر لو لا الذى فيه من الرّيش لما أصمى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۳۳۳

قوموا بنا فى شأنهم قومة تزيل عنّا العار و الرّغما

إمّا بها نملك، أو لا نرى ما يرجع الطّرف به أعمى

[بنو حمود]

و كان على بن حمّود الحسنى و أخوه قاسم من عقب إدريس ملك فاس و بانيها قد أجازوا مع البربر من العدوة إلى الأندلس، فدعوا لأنفسهم، و اعصوصب عليهم البربر، فملكوا قرطبة سنة سبع و أربعمائة، و قتلوا المستعين، و محوا ملك بنى أمية، و اتّصل ذلك فى خلف منهم سبع سنين، ثم رجع الملك إلى بنى أميّة.

و كان المستعين المذكور أديبا بليغا، و من شعره يعارض هارون الرشيد فى قوله: [الكامل]

ملك الثلاث الآنسات عنانى

الأبيات- قوله: [الكامل]

عجبا يهاب الليث حدّ سنانى و أهاب لحظ فواتر الأجفان

و أقارع الأهوال لا متهيّبا منها سوى الإعراض و الهجران

و تملّكت نفسى ثلاث كالدّمى زهر الرجوه نواعم الأبدان

ككواكب الظّلماء لحن لناظرى من فوق أغصان على كثبان

حاكمت فيهنّ السلوّ إلى الهوى فقضى بسلطان على سلطانى

هذى الهلال، و تلك بنت المشترى حسنا، و هذى أخت غصن البان

فأبحن من قلبى الحمى و تركننى فى عزّ ملكى كالأسير العانى

لا تعذلوا ملكا تذلّل فى الهوى ذلّ الهوى عزّ و ملك ثانى

ما ضرّ أنّى عبدهنّ صبابة و بنو الزمان و هنّ من عبدانى

إن لم أطع فيهنّ سلطان الهوى كلفا بهنّ فلست من مروان

و ولى الأمر بعده على بن حمّود الحسنى؛ تلقّب بالناصر، و خرج عليه العبيد و بعض

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۳۳۴

المغاربة، و بايعوا المرتضى أخا المهدى، ثم اغتيل المرتضى، و استقام الملك لعلى بن حمّود نحو عامين، إلى أن قتلته صقالبته بالحمّام سنة ثمان و أربعمائة، فولى مكانه أخوه القاسم، و تلقّب بالمأمون، و نازعه الأمر بعد أربع سنين من خلافته يحيى ابن أخيه، و كان على سبتة، فأجاز إلى الأندلس سنة عشر، و احتلّ بمالقة و كان أخوه إدريس بها منذ عهد أبيهما، فبعثه إلى سبتة، ثم زحف يحيى إلى قرطبة فملكها سنة ثنتى عشرة و أربعمائة، و تلقب المعتلى، و فرّ عمّه المأمون إلى إشبيلية و بايع له القاضى ابن عباد، و استجاش بعض البرابرة، ثم رجع إلى قرطبة سنة ثلاث عشرة و ملكها، ثم لحق المعتلى بمكانه من مالقة، و تغلّب على الجزيرة الخضراء، و تغلّب أخوه إدريس على طنجة من وراء البحر، و كان المأمون يعتدّها حصنا لنفسه، و فيها ذخائره، فلمّا بلغه الخبر اضطرب، و ثار عليه أهل قرطبة، و نقضوا طاعته، و خرج فحاصرهم فدافعوه، و لحق بإشبيلية فمنعوه، و كان بها ابنه فأخرجوه إليه، و ضبطوا بلدهم، و استبدّ ابن عباد بملكها، و لحق المأمون بشريش، و رجع عنه البربر إلى يحيى المعتلى ابن أخيه، فبايعوه سنة خمس عشرة، و زحف إلى عمّه المأمون فتغلّب عليه و لم يزل عنده أسيرا و عند أخيه إدريس بمالقة إلى أن هلك بمحبسه سنة سبع و عشرين، و قيل: إنه خنق كما

سيأتى، و استقلّ المعتلى بالأمر، و اعتقل بنى عمّه القاسم. و كان المستكفى من الأمويين استولى على قرطبة فى هذه المدّة عندما أخرج أهلها العلوية، ثم خلع أهل قرطبة المستكفى الأموى سنة ست عشرة، و صاروا إلى طاعة المعتلى، و استعمل عليهم ابن عطّاف من قبله، ثم نقضوا سنة سبع عشرة، و صرفوا عاملهم، و بايعوا للمعتدّ بالله الأموى أخى المرتضى، و بقى المعتلى يردّد لحصارهم العساكر إلى أن اتفقت الكلمة على إسلام الحصون و المدائن له، فعلا سلطانه، و اشتدّ أمره إلى أن هلك سنة تسع و عشرين؛ اغتاله أصحابه بدسيسة ابن عبّاد الثائر بإشبيلية، فاستدعى أصحابه أخاه إدريس بن على [بن حمّود] من سبتة، و ملّكوه، و لقّبوه المتأيّد، و بايعته رندة و أعمالها و ألمريّة و الجزيرة الخضراء، و بعث عساكره لحرب أبى القاسم إسماعيل بن عبّاد والد المعتضد بن عباد، فجاؤوه برأسه بعد حروب، و هلك ليومين بعد ذلك سنة إحدى و ثلاثين، و بويع ابنه يحيى، و لم يتمّ له أمر، و بويع حسن المستنصر بن المعتلى، و فرّ يحيى إلى قمارش فهلك بها سنة أربع و ثلاثين، و يقال: إنه قتله نجا، و هلك حسن مسموما بيد ابنة عمه إدريس، ثأرت منه بأخيها، و كان إدريس بن يحيى المعتلى معتقلا بمالقة فأخرج بعد خطوب و بويع بها، فأطاعته غرناطة و قرمونة، و لقّب العالى، و هو الممدوح بالقصيدة المشهورة بالمغرب التى قالها فيه أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا القبذاقى الأشبونى من شعراء الذخيرة، و هى: [الرمل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۳۵

أ لبرق لائح من أندرين ذرفت عيناك بالماء المعين

لعبت أسيافه عارية كمخاريق بأيدى اللّاعبين

و لصوت الرّعد زجر و حنين و لقلبى زفرات و أنين

و أناجى فى الدّجى عاذلتى ويك لا أسمع قول العاذلين

عيّرتنى بسقام و ضنى إنّ هذين لدين العاشقين

قد بدا لى وضح الصّبح المبين فاسقنيها قبل تكبير الأذين

اسقنيها مزّة مشمولة لبثت فى دنّها بضع سنين

نثر المزج على مفرقها دررا عامت فعادت كالبرين

مع فتيان كرام نجب يتهادون رياحين المجون

شربوا الراح على خدّ رشا نوّر الورد به و الياسمين

و جلت آياته عامدة سبج الشّعر على عاج الجبين

لوت الصّدغ على جاجبه ضمّة اللّام على عطفة نون

فترى غصنا على دعص نقا و ترى ليلا على صبح مبين

و سيسقون إذا ما شربوا بأباريق و كأس من معين

و مصابيح الدّجى قد طفئت فى بقايا من سواد الليل جون

و كأنّ الظّلّ مسك فى الثّرى و كأنّ الطّلّ درّ فى الغصون

و النّدى يقطر من نرجسه كدموع أسبلتهنّ الجفون

و الثريّا قد هوت من أفقها كقضيب زاهر من ياسمين

و انبرى جنح الدّجى عن صبحه كغراب طار عن بيض كنين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۳۶

و كأنّ الشّمس لمّا أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين

وجه إدريس بن يحيى بن علىّ ابن حمّود أمير المؤمنين

ملك ذو هيبة لكنّه خاشع للّه ربّ العالمين

خطّ بالمسك على أبوابه: ادخلوها بسلام آمنين

فإذا ما رفعت راياته خفقت بين جناحى جبرئين

و إذا أشكل خطب معضل صدع الشّكّ بمصباح اليقين

فبيسراه يسار المعسرين و بيمناه لواء السابقين

يا بنى أحمد، يا خير الورى لأبيكم كان وفد المسلمين

نزل الوحى عليه فاحتبى فى الدّجى فوقهم الرّوح الأمين

خلقوا من ماء عدل و تقى و جميع الناس من ماء وطين

انظرونا نقتبس من نوركم إنّه من نور ربّ العالمين

و قيل: إنه أنشده إياها من وراء حجاب اقتفاء لطريقة خلفاء بنى العباس، فلما بلغ إلى قوله:

انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور ربّ العالمين

أمر حاجبه أن يرفع الحجاب، و قابل وجهه وجه الشاعر دون حجاب، و أمر له بإحسان جزيل، فكان هذا من أنبل ما يحكى عنه.

و خلع العالى سنة ثمان و ثلاثين، و ولى ابن عمّه محمد بن إدريس بن على، و تلقّب بالمهدى، و توفى سنة أربع و أربعين.

و بويع إدريس بن يحيى بن إدريس، و لقّب الموفّق، و لم يخطب له بالخلافة و زحف إليه العالى إدريس المخلوع الممدوح بالقصيدة السابقة، و كان بقمارش، فدخل عليه مالقة، و أطلق أيدى عبيده عليها لحقده عليهم، ففرّ كثير منهم، و توفى العالى سنة ستّ أو سبع و أربعين.

و بويع محمد بن إدريس، و لقّب المستعلى، ثم سار إليه باديس بن حبّوس سنة تسع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۳۷

و أربعين و أربعمائة، فتغلّب على مالقة، و سار محمد إلى ألمريّة مخلوعا، ثم استدعاه أهل المغرب إلى مليلة فأجاز إليهم و بايعوه سنة ست و خمسين، و توفى سنة ستّين.

و كان محمد بن القاسم بن حمّود لمّا اعتقل أبوه القاسم بمالقة سنة أربع عشرة فرّ من الاعتقال و لحق بالجزيرة الخضراء و ملكها، و تلقّب بالمعتصم، إلى أن هلك سنة أربعين. ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق، إلى أن هلك سنة خمسين، و صارت الجزيرة للمعتضد بن عبّاد، و مالقة لابن حبوس مزاحما لابن عباد.

و انقرضت دولة الأشراف الحمّوديين من الأندلس، بعد أن كانوا يدّعون الخلافة.

[خلافة المستظهر عبد الرحمن بن هشام الأموى]

و أما قرطبة فإن أهلها لمّا قطعوا دعوة الحمّوديين بعد سبع سنين من ملكهم و زحف إليهم القاسم بن حمّود فى البربر، فهزمهم أهل قرطبة، ثم اجتمعوا و اتّفقوا على ردّ الأمر لبنى أميّة، و اختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبّار أخا المهدى، و بايعوه فى رمضان سنة أربع عشرة و أربعمائة، و لقّبوه المستظهر و قاموا بأمره، و من شعره قوله: [مجزوء الرمل]

طال عمر الليل عندى مذ تولّعت بصدّى

يا غزالا نقض العه د و لم يوف بوعد

أنسيت العهد إذ بت نا على مفرش ورد

و اجتمعنا فى وشاح و انتظمنا نظم عقد

و نجوم الليل تحكى ذهبا فى لازورد

قال الحجارى: لو قال «لؤلؤا فى لازورد» لكان أحسن تشبيها، و أنشد متمثلا: [مجزوء الكامل]

إنّا عصابتك الألى كنّا نكابد ما تكابد

هذا أوان بلوغنا الن عمى و إنجاز المواعد

و كان حسان بن أبى عبدة من وزراء المستظهر، و لمّا أكثر المستظهر دونه الاستبداد كتب إليه بقوله: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۳۸

إذا غبت لم أحضر، و إن جئت لم أسل فسيّان منّى مشهد و مغيب

فأصبحت تيميّا، و ما كنت قبلها لتيم، و لكنّ الشّبيه نسيب

يشير إلى قول الأول: [الوافر]

و يقضى الأمر حين تغيب تيم و لا يستأذنون و هم شهود

و عاتبه أيضا بقوله: [الطويل]

إذا كان مثلى لا يجازى بصبره فمن ذا الذى بعدى يجازى على الصّبر

و كم مشهد حاربت فيه عدوّكم و أمّلت فى حربى له راحة الدّهر

أخوض إلى أعدائكم لجج الوغى و أسرى إليهم حيث لا أحد يسرى

و قد نام عنهم كلّ مستبطن الحشا أكول إلى الممسى نؤوم إلى الظّهر

فما بال هذا الأمر أصبح ضائعا و أنت أمين اللّه تحكم فى الأمر

و سيأتى إن شاء اللّه تعالى من كلام الوزير المذكور ما يدلّ على عظيم قدره، و هناك نذكر تحلية الفتح له.

ثم ثار عليه لشهرين من خلافته محمد بن عبد الرحمن بن عبيد اللّه ابن أمير المؤمنين الناصر لدين اللّه، فاتّبعه الغوغاء، و فتك بالمستظهر، و تلقّب بالمستكفى، و استقلّ بأمر قرطبة، و هو والد الأديبة الشهيرة ولّادة، و لعلّنا نلمّ ببعض أخبارها إن شاء اللّه تعالى فيما بعد، و كان أبوه عبد الرحمن قتله المنصور بن أبى عامر لسعيه فى الخلافة.

[انقطاع الدولة الأموية و ظهور ملوك الطوائف]

ثم بعد ستة عشر شهرا من بيعة المستكفى رجع الأمر إلى المعتلى يحيى بن على بن حمّود سنة ست عشرة، و خلع أهل قرطبة المستكفى، و ولّى عليهم المعتلى من قبله، و فرّ المستكفى إلى ناحية الثغر، و مات فى مفرّه، ثم بدا لأهل قرطبة فخلعوا المعتلى بن حمّود سنة سبع عشرة، و بايع الوزير أبو محمد جهور بن محمد بن جهور عميد الجماعة و كبير قرطبة لهشام بن محمد أخى المرتضى، و كان بالثغر فى لاردة عند ابن هود، و ذلك سنة ثمانى عشرة، و تلقّب المعتدّ باللّه، و أقام متردّدا فى الثغر ثلاثة أعوام، و اشتدّت الفتن بين رؤساء الطوائف، و اتّفقوا على أن ينزل دار الخلافة بقرطبة، فاستقدمه ابن جهور و الجماعة، و نزلها آخر سنة عشرين، و أقام بها يسيرا، ثم خلعه الجند سنة ثنتين و عشرين، و فرّ إلى لاردة فهلك بها سنة ثمان و عشرين.

و انقطعت الدولة الأموية من الأرض، و انتثر سلك الخلافة بالمغرب، و قام الطوائف بعد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۳۹

انقراض الخلائف، و انتزى الأمراء و الرؤساء من البربر و العرب و الموالى بالجهات، و اقتسموا خطّتها، و تغلّب بعض على بعض، و استقلّ أخيرا بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم و عظم شأنهم، و لاذوا بالجزى للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزّهم ملكهم، و أقاموا

على ذلك برهة من الزمان، حتى قطع إليهم البحر ملك العدوة و صاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللّمتونى، فخلعهم، و أخلى منهم الأرض.

[بنو عباد، و بنو جهور و بنو ذى النون]

فمن أشهرهم بنو عبّاد ملوك إشبيلية و غرب الأندلس الذين منهم المعتمد بن عباد الشهير الذكر بالمغرب و المشرق، و فى الذخيرة و القلائد من أخباره ما هو كاف شاف.

و منهم بنو جهور، كانوا بقرطبة فى صورة الوزارة، حتى استولى عليهم المعتمد بن عبّاد، و أخذ قرطبة، و جعل عليها ولده، ثم كانت له و عليه حروب و خطوب، و فرّق أبناءه على قواعد الملك، و أنزلهم بها، و استفحل أمره بغرب الأندلس، و علت يده على من كان هنالك من ملوك الطوائف، مثل ابن حبّوس بغرناطة، و ابن الأفطس ببطليوس، و ابن صمادح بالمريّة، و غيرهم، فكانوا يخطبون سلمه، و يغلون فى مرضاته، و كلّهم يدارون الطاغية و يتّقونه بالجزى، إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين، و استفحل ملكه، فتعلّقت آمال الأندلس بإعانته، و ضايقهم الطاغية فى طلب الجزية، فقتل المعتمد اليهودىّ الذى جاء فى طلب الجزية للطاغية، بسبب كلمة قالها آسفه بها. ثم أجاز البحر صريخا إلى يوسف بن تاشفين، فأجاز معه البحر، و التقوا مع الطاغية فى الزلّاقة، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى، و نصر اللّه تعالى الإسلام نصرا لا كفاء له، حتى قال بعض المؤرّخين: إنه كان عدد النصارى ثلاثمائة ألف، و لم ينج منهم إلّا القليل، و صبر فيها المعتمد صبر الكرام، و كان قد أعطى يوسف بن تاشفين الجزيرة الخضراء ليتمكّن من الجواز متى شاء، ثم طلب الفقهاء بالأندلس من يوسف بن تاشفين رفع المكوس و الظلامات عنهم، فتقدّم بذلك إلى ملوك الطوائف، فأجابوه بالامتثال، حتى إذا رجع من بلادهم رجعوا إلى حالهم، و هو خلال ذلك يردّد عساكره للجهاد، ثم أجاز إليهم و خلع جميعهم، و نازلت عساكره جميع بلادهم، و استولى على قرطبة و إشبيلية و بطليوس و غرناطة و غيرها، و صار المعتمد بن عباد كبير ملوك الأندلس فى قبضته أسيرا بعد حروب، و نقله إلى أغمات قرب مراكش سنة أربع و ثمانين و أربعمائة، و اعتقله هنالك إلى أن مات سنة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۴۰

ثمان و ثمانين. و سنلمّ بما قاله الوزير لسان الدين بن الخطيب فيه لمّا زار قبره.

و للمعتمد هذا أخبار مأثورة خصوصا مع زوجته أمّ أولاده الرميكية الملقّبة باعتماد، و قد روى أنها رأت ذات يوم بإشبيلية نساء البادية يبعن اللبن فى القرب و هنّ رافعات عن سوقهنّ فى الطين، فقالت له: [يا سيدى] أشتهى أن أفعل أنا و جوارىّ مثل هؤلاء النساء، فأمر المعتمد بالعنبر و المسك و الكافور و ماء الورد، و صيّر الجميع طينا فى القصر، و جعل لها قربا و حبالا من إبريسم، و خرجت هى و جواريها تخوض فى ذلك الطين، فيقال: إنه لمّا خلع و كانت تتكلّم معه مرّة فجرى بينهما ما يجرى بين الزوجين، فقالت له: و اللّه ما رأيت منك خيرا، فقال لها: و لا يوم الطين؟ تذكيرا لها بهذا اليوم الذى أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه إلّا اللّه تعالى، فاستحيت و سكتت.

و ولى بعده غير من تقدّم بنو رزين أصحاب السّهلة، و بنو الفهرى أصحاب البونت، و تغلّب عليهما أخيرا يوسف بن تاشفين.

و من أعظم ملوك الطوائف بنو ذى النون ملوك طليطلة من الثغر الجوفى، و كانت لهم دولة كبيرة، و بلغوا فى البذخ و التّرف إلى الغاية، و لهم الإعذار المشهور الذى يقال له «الإعذار الذّنّونى» و به يضرب المثل عند أهل المغرب، و هو عندهم بمثابة عرس بوران عند أهل المشرق، و المأمون من بنى ذى النون هو صاحب ذلك، و هو الذى عظم بين ملوك الطوائف سلطانه، و كان بينه و بين الطاغية مواقف مشهورة، و غلب على قرطبة، و ملكها من يد ابن عبّاد المعتمد، و قتل ابنه أبا عمرو، و غلب أيضا على بلنسية و أخذها من يد بنى ابن أبى عامر.

و فى أيام حافد المأمون- و هو القادر بن ذى النون- كان الطاغية ابن أذفونش قد استفحل أمره، لمّا خلا الجوّ من مكان الدولة

الخلافيـة، و خفّ ما كان على كاهله من إصـر العرب، فاكتسـح البسائط، و ضايق ابن ذى النون، حتى أخـذ من يـده طليطلـة، فخرج له عنها سنة ثمان و سبعين و أربعمائة كما سبق، و شرط عليه أن يظاهره على أهل بلنسية، فقبل شرطه، و تسلّمها ابن ألفونش، و لا حول و لا قوّة إلّا بالله العلىّ العظيم.

و من أعظم ملوك الأندلس الموالى العامريون مثل خيران و زهير و أشباههما. و أخبار الجميع تطول.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۴۱

[من ملوك الطوائف بالأندلس بنو هود]

و من ملـوك الطوائـف بالأنـدلس بنو هود ملوك سرقسـطة و مـا إليهـا، و من أشـهرهم المقتـدر بـالله، و ابنه يوسف المؤتمن، و كـان المؤتمن قائما على العلوم الرياضـية، و له فيها تآليف، و منها كتاب الاسـتكمال و المناظر، و ولى بعـده ابنه المسـتعين أحمـد سـنة أخذ طليطلة، و على يده كانت وقعة وشـقة- زحف سـنة تسع و ثمانين فى آلاف لا تحصـى من المسـلمين ليدافع الطاغية عن وشقة، و كان محاصـرا لها، فلقيه الطاغية و هزمه، و هلك من المسـلمين نحو عشرة آلاف، و هلك هو شهيدا سنة ثلاث و خمسمائة، بظاهر سرقسطة فى زحف الطاغية إليها. و ولى ابنه عبد الملك عماد الدولة، و أخرجه الطاغية من سرقسـطة سـنة ثنتى عشرة، و تولّى ابنه سيف الدولة، و بالغ فى النكاية بالطاغية، ثم اتّفق معه، و انتقل بحشمه إلى طليطلة، فكان فيها حمامه.

و من شعر المقتدر بن هود قوله رحمه اللّه فى مبانيه: [الكامل]

قصر السرور و مجلس الذّهب بكما بلغت نهاية الأرب

لو لم يحز ملكى خلافكما كانت لدىّ كفاية الطّلب

[من مشاهير ملوك الطوائف بنو الأفطس]

و من مشاهير ملوك الطوائف بنو الأفطس أصـحاب بطليوس و ما إليها، و المظفر منهم هو صاحب التأليف المسمّى بالمظفرى فى نحو الخمسين مجلدا، و المتوكّل منهم قتل على يد جيش يوسف بن تاشفين، و فيه قال ابن عبدون قصيدته المشهورة: [البسيط]

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح و الصّور

و هى من غرر القصائد الأندلسية.

و لما اسـتولى ملوك لمتونة على بلاد الأندلس و أزالوا ملوك الطوائف منها، و بقيت عمّالهم تتردّد إليها و بنوهم حتى فشلت ريحهم، و هبّت ريـح الموحـدين، أعنى عبـد المؤمن بن على و بنيه، فحـاربوا لمتونـة، و اسـتولوا على ملكهم بـالمغرب بعـد حروب كـثيرة، ثم أجازوا البحر إلى الأندلس، و ملكوا أكثر بلاد الأندلس، و ملك بنو مردنيش شـرق الأندلس، و ملخص ذلك أن الأندلس كان ملكها مجموعا للمتونة بعد خلعهم ملوك الطوائف، فلما اشـتغل لمتونة فى العدوة بحرب الموحّدين اضـطربت عليهم الأندلس، و عادت إلى الفرقة بعض الشىء، ثم خلص أكثرها لعبد المؤمن و بنيه بعد حروب منها ما حصل بين عبد المؤمن و بين ابن مردنيش

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۴۲

و قائـده ابن همشك بفحص غرناطـة، و قد اسـتعان ابن مردنيش بالنصارى على الموحّدين، فهزمهم عبد المؤمن، و قتلهم أبرح قتل، و اسـتخلص غرناطة سنة سبع و خمسين و خمسمائة من يد ابن مردنيش. و ولى الأمر بعد عبد المؤمن ابنه يوسف، و أجاز إلى الأندلس، و كانت له مواقف فى جهاد العدوّ،

[يعقوب المنصور بن يوسف ملك الموحدين و غزو الأرك]

و ولى بعده ابنه يعقوب المنصور الطائر الصيت، و كانت له فى النصارى بالأندلس نكاية كبيرة، و من أعظمها غزوة الأرك التى تضاهى وقعة الزلّاقة أو تزيد، و الأرك: موضع بنواحى بطليوس، و كانت سنة إحدى و تسعين و خمسمائة، و غنم فيها المسلمون ما عظم قدره، و كان عدّة من قتل من الفرنج- فيما قيل- مائة ألف و ستّة و أربعين ألفا، و عدّة الأسارى ثلاثين ألفا، و عدّة الخيام مائة ألف و خمسين ألف خيمة، و الخيل ثمانين ألفا، و البغال مائة ألف، و الحمير أربعمائة ألف، جاء بها الكفّار لحمل أثقالهم لأنهم لا إبل لهم، و أما الجواهر و الأموال فلا تحصى، و بيع الأسير بدرهم، و السيف بنصف درهم، و الفرس بخمسة دراهم، و الحمار بدرهم، و قسّم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع، و نجا ألفنش ملك النصارى إلى طليطلة فى أسوإ حال، فحلق رأسه و لحيته، و نكس صليبه، و آلى أن لا ينام على فراش، و لا يقرب النساء، و لا يركب فرسا و لا دابّة، حتى يأخذ بالثأر، و صار يجمع من الجزائر و البلاد البعيدة و يستعدّ، ثم لقيه يعقوب و هزمه و ساق خلفه إلى طليطلة و حاصره و رمى عليها بالمجانيق و ضيّق عليها، و لم يبق إلّا فتحها، فخرجت إليه والدة الأذفونش و بناته و نساؤه و بكين بين يديه، و سألنه إبقاء البلد عليهنّ، فرقّ لهنّ، و منّ عليهنّ بها، و وهب لهنّ من الأموال و الجواهر ما جلّ، و ردّهنّ مكرمات، و عنا بعد القدرة، و عاد إلى قرطبة، فأقام شهرا يقسم الغنائم، و جاءته رسل ألفنش بطلب الصلح، فصالحه، و أمّن الناس مدّته، و فيه يقول بعض شعراء عصره: [الكامل]

أهل بأن يسعى إليه و يرتجى و يزار من أقصى البلاد على الرّجا

من قد غدا بالمكرمات مقلّدا و موشّحا و مختّما و متوّجا

عمرت مقامات الملوك بذكره و تعطّرت منه الرّياح تأرّجا

و لمّا أرسل له السلطان صلاح الدين بن أيوب شمس الدين بن منقذ يستنجد به على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدّسة، و لم يخاطبه بأمير المؤمنين، لم يجبه إلى ما طلبه، و كل ذلك فى سنة ۵۸۷، و مدحه ابن منقذ بقوله من قصيدة: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۴۳

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته إلى بحر جود ما لأخراه ساحل

إلى معدن التّقوى إلى كعبة النّدى إلى من سمت بالذكر منه الأوائل

إليك أمير المؤمنين و لم تزل إلى بابك المأمول تزجى الرّواحل

قطعت إليك البرّ و البحر موقنا بأنّ نداك الغمر بالنّجح كافل

و حزت بقصديك العلا فبلغتها و أدنى عطاياك العلا و الفواضل

فلا زلت للعلياء و الجود بانيا تبلّغك الآمال ما أنت آمل

و عدّتها أربعون بيتا، فأعطاه بكل بيت ألفا، و قال له: إنّما أعطيناك لفضلك و لبيتك.

[بين صلاح الدين الأيوبى و يعقوب الموحدى و ابنه الناصر]

و كان عنوان الكتاب الذى أرسله صلاح الدين «إلى أمير المسلمين» و فى أوّله «الفقير إلى اللّه تعالى يوسف بن أيوب» و بعده من إنشاء الفاضل «الحمد للّه الذى استعمل على الملّة الحنيفية من استعمر الأرض، و أغنى من أهلها من سأله القرض، و أجزى من أجرى على يده النافلة و الفرض، و زيّن سماء الملّة بدرارى الذرارى التى بعضها من بعض» و هو كتاب طويل سأله فيه أن يقطع عنه مادة البحر، و استنجده على الإفرنج إذ كانت له اليد عليهم، و عاد ابن منقذ من هذه الرسالة سنة ۵۸۸ بغير فائدة، و بعث معه هديّة حقيرة، و أمّا ابن منقذ فإنه أحسن إليه و أغناه، لا لأجل صلاح الدين، بل لبيته و فضله كما مرّ، و ما وقع من يعقوب فى صلاح الدين إنّما هو لأجل أنّه لم يوفّه حقّه فى الخطاب.

رجع- و لمّا استفحل أمر الموحّدين بالأندلس استعملوا القرابة على الأندلس و كانوا يسمّونهم السادة، و اقتسموا ولايتها بينهم. و لهم

مواقف فى جهاد العدوّ مذكورة، و كان صاحب الأمر بمراكش يأتى الأندلس للجهاد، و هزم يعقوب المنصور كما سبق قريبا بالأركك ابن أدفونش ملك الجلالقة الهزيمة الشنعاء.

و أجاز ابنه الناصر الوالى بعده البحر إلى الأندلس من المغرب سنة تسع و ستمائة و معه من الجنود ما لا يحصى، حتى حكى بعض الثقات من مؤرّخى المغرب أنه اجتمع معه من أهل الأندلس و المغرب ستمائة ألف مقاتل، فمحص اللّه المسلمين بالموضع المعروف بالعقاب، و استشهد منهم عدّة. و كانت سبب ضعف المغرب و الأندلس، أما المغرب فبخلاء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۳۴۴

كثير من قراه و أقطاره، و أما الأندلس فبطلب العدوّ عليها؛ لأنه لمّا التاث أمر الموحدين بعد الناصر ابن المنصور انتزى السادة بنواحى الأندلس كلّ فى عمله، و ضعف ملكهم بمراكش، فصاروا إلى الاستجاشة بالطاغية بعضهم على بعض، و إسلام حصون المسلمين إليه فى ذلك، فمشت رجالات الأندلس و أعقاب العرب منذ الدولة الأموية، و أجمعوا على إخراجهم، فثاروا به لحين واحد، و أخرجوهم. و تولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامى الثائر بالأندلس و ابن مردنيش و ثوّار آخرون.

و قال ابن خلدون: ثم خرج على ابن هود فى دولته من أعقاب دولة العرب أيضا و أهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، و تلقّب محمد هذا بالشيخ، فجاذبه الحبل، و كانت لكل واحد منهما دولة أورثها بنيه، انتهى.

و كان ابن هود يخطب للعباسى صاحب بغداد، ثم حصلت لابن هود و أعقابه حروب و خطوب إلى أن كان آخرهم الواثق بن المتوكل، فضايقه ألفنش و البرشلونى فبعث بالطاعة لابن الأحمر، فبعث إليه ابن أشقيلولة، و تسلّم مرسية منه، و خطب لابن الأحمر بها، ثم خرج منها راجعا إلى ابن الأحمر، فأوقع به النصارى فى طريقه، ثم رجع الواثق إلى مرسية ثالثة، فلم يزل إلى أن ملكها العدو من يده سنة ثمان و ستّين و ستمائة، و عوّضه عنها حصنا يسمّى يسر، و هو من عملها، فبقى فيه إلى أن هلك. و انقرضت دولة ابن هود، و اللّه وارث الأرض و من عليها.

[دولة بنى الأحمر]

رجع إلى ذكر دولة أولاد الأحمر؛ لأن لسان الدين وزير أحدهم، و لأنهم آخر ملوك الأندلس، و من يدهم استولى النصارى على جميعها كما سنذكره. قال ابن خلدون: أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة، و لهم فيها سلف من أبناء الجند، و يعرفون ببنى نصر، و ينتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج. و كان كبيرهم لآخر دولة الموحّدين محمد بن يوسف بن نصر، و يعرف بالشيخ، و أخوه إسماعيل. و كانت له وجاهة فى ناحيتهم.

و لمّا فشلت ريح الموحّدين، و انتزى الثوّار بالأندلس، و أعطى السادة حصونها للطاغية، استقل بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود الثائر بمرسية بدعوة العباسية، و تغلّب على شرق الأندلس أجمع، فتصدّى الشيخ هذا للثورة عليه و بويع له سنة تسع و عشرين و ستمائة، و دعا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۳۴۵

لأبى زكرياء صاحب إفريقية، و أطاعته جيّان و شريش سنة ثلاثين بعدها، و استظهر على أمره بقرابته من بنى نصر و أصهاره بنى أشقيلولة. ثم بايع لبنى هود سنة إحدى و ثلاثين، عند ما بلغه خطاب الخليفة من بغداد. ثم ثار بإشبيلية أبو مروان الباجى عند خروج ابن هود عنها و رجوعه إلى مرسية، فداخله محمد بن الأحمر فى الصلح على أن يزوّجه ابنته، فأطاعه، و دخل إشبيلية سنة اثنتين و ثلاثين. ثم فتك بابن الباجى فقتله، و تناول البطش به على بن أشقيلولة. ثم راجع أهل إشبيلية بعدها بشهر دعوة ابن هود، و أخرج ابن الأحمر. ثم تغلّب على غرناطة سنة خمس و ثلاثين بمداخلة أهلها حين ثار ابن أبى خالد بدعوته فيها، و وصلته بيعتها و هو بجيّان، فقدم إليها على بن أشقيلولة. ثم جاء على أثره، و نزلها، و ابتنى بها حصن الحمراء لنزوله. ثم تغلّب على مالقة، ثم تناول ألمريّة من يد

ابن الرميمى وزير ابن هود الثائر بها سنة ثلاث و أربعين، ثم بايعه أهل لورقة سنة ثلاث و ستّين، و كان ابن الأحمر أول أمره وصل يده بالطاغية استظهارا على أمره، فعضده و أعطاه ابن هود ثلاثين حصنا فى كفّ غربه بسبب ابن الأحمر، و ليعينه على ملك قرطبة، فتسلّمها، ثم تغلّب على قرطبة سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة، أعادها اللّه! ثم نازل إشبيلية سنة ست و أربعين و ابن الأحمر معه، ثم دخلها صلحا، و ملك أعمالها. ثم ملك مرسية سنة خمس و ستّين. و لم يزل الطاغية يقتطع ممالك المسلمين كورة كورة و ثغرا ثغرا إلى أن ألجأ المسلمين إلى سيف البحر ما بين رندة من الغرب و إلبيرة من شرق الأندلس نحو عشر مراحل من الغرب إلى الشرق، و فى قدر مرحلة أو دونها فى العرض ما بين البحر و الجوف. ثم سخط ابن الأحمر و طمع فى الاستيلاء على سائر الجزيرة فامتنعت عليه، و تلاحق بالأندلس الغزاة من بنى مرين و غيرهم، و عقد ملك المغرب يعقوب بن عبد الحق لنحو الثلاثة آلاف منهم، فأجازوا فى حدود الستّين و ستمائة، و تقبّل ابن الأحمر إجازتهم، و دفع بهم فى نحر عدوّه، و رجعوا. ثم تناسلوا إليه بعد ذلك، و لم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى و سبعين و ستمائة، و ولى بعده ابنه محمد الفقيه، و أوصاه باستصراخ بنى مرين، ملوك المغرب بعد الموحدين، إن طرقه أمر أن يعتضد بهم، فأجازه الفقيه إلى يعقوب بن عبد الحقّ سلطان فاس و المغرب سنة ثنتين و سبعين، فأجاب صريخه، و أرسل ابنه و عساكره معه. ثم أجاز على أثره و تسلّم الجزيرة الخضراء من ثائر كان بها و جعلها ركابا لجهاده، و نزل إليه ابن الأحمر عن طريف و ما إليها من الحصون، و هزم هو و ابن الأحمر زعيم النصرانية دنّنه و فرّق جمعه، و أوقع بجموع الطاغية من كل جهة، و بثّ سراياه و بعوثه فى أرض النصرانية، ثم خاف ابن الأحمر على ملكه، و صالح الطاغية ثم عاد، انتهى كلام ابن خلدون ملخصا.

و ثبتت قدم عقب ابن الأحمر بالأندلس، و استولوا على جميع ما بأيدى المسلمين من ملكها مثل الجزيرة و طريف و رندة التى كانت بيد بنى مرين.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۴۶

و بعد مدّة ألّب ملوك النصارى سنة تسع عشرة و سبعمائة على غرناطة، و جاءها الطاغية دون بطره فى جيش لا يحصى و معه خمسة و عشرون ملكا، و كان من خبر هذه الوقعة أن الإفرنج حشدوا و جمعوا و ذهب سلطانهم دون بطره إلى طليطلة، و دخل على مرجعهم الذى يقال له البابا، و سجد له، و تضرّع، و طلب منه استئصال ما بقى من المسلمين بالأندلس، و أكّد عزمه، فقلق المسلمون بغرناطة و غيرها، و عزموا على الاستنجاد بالمرينى أبى سعيد صاحب فاس، و أنفذوا إليه رسلا، فلم ينجع ذلك الدواء، فرجعوا إلى أعظم الأدوية و هو اللّجأ إلى اللّه تعالى، و أخلصوا النيّات، و أقبل الإفرنج فى جموع لا تحصى، فقضى ناصر من لا ناصر له سواه بهزم أمم النصرانية، و قتل طاغيتهم دون بطره، و من معه، و كان نصرا عزيزا و يوما مشهورا مشهودا.

و كان السلطان إذ ذاك بالأندلس الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبى سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر رغب أن يحصّن البلاد و الثغور، فلما بلغ النصارى ذلك عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء، فانتدب السلطان ابن الأحمر لردّهم، و جهّز الأساطيل و الرجال، فلمّا رأوا ذلك طلبوا إلى طليطلة، و عزموا على استئصال المسلمين و بلادهم و تأهّبوا لذلك غاية الأهبة، و وصلت الأثقال و المجانيق و آلات الحصار و الأقوات فى المراكب، و وصل العدوّ إلى غرناطة، و امتلأت الأرض بهم، فتقدّم السلطان إلى شيخ الغزاة الشيخ العالم أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء المرينى بالخروج إلى لقائهم بأنجاد المسلمين و شجعانهم، فخرج إليهم يوم الخميس الموفى عشرين لربيع الأول.

و لمّا كانت ليلة الأحد أغارت سريّة من العدوّ على ضيعة من المسلمين، فخرجت إليهم جماعة من فرسان الأندلس الرّماة، فقطعوهم عن الجيش، و فرّت تلك السّريّة أمامهم إلى جهة سلطانهم، فتبعهم المسلمون إلى الصبح، فاستأصلوهم و كان هذا أول النصر.

و لمّا كان يوم الأحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدوّ فى خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين، فلمّا شاهدهم الفرنج عجبوا من إقدامهم مع قلّتهم فى تلك الجيوش العظيمة، فركبوا و حملوا بجملتهم عليهم، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة، و أخذتهم السيوف، و

تبعهم المسلمون يقتلون و يأسرون ثلاثة أيام، و خرج أهل غرناطة لجمع الأموال، و أخذ الأسرى، فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب- فيما قيل- ثلاثة و أربعون قنطارا، و من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۳۴۷

الفضّة مائة و أربعون قنطارا، و من السّبى سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين إلى الديار المصرية، و كان من جملة الأسارى امرأة الطاغية و أولاده، فبذلت فى نفسها مدينة طريف و جبل الفتح و ثمانية عشر حصنا فيما حكى بعض المؤرّخين، فلم يقبل المسلمون ذلك، و زادت عدّة القتلى فى هذه الغزوة على خمسين ألفا، و يقال: إنه هلك منهم بالوادى مثل هذا العدد، لعدم معرفتهم بالطريق، و أمّا الذين هلكوا بالجبال و الشّعاب فلا يحصون، و قتل الملوك الخمسة و العشرون جميعهم، و استمرّ البيع فى الأسرى و الأسلاب و الدوابّ ستّة أشهر، و وردت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد.

و من العجب أنه لم يقتل من المسلمين و الأجناد سوى ثلاثة عشر فارسا، و قيل: عشرة أنفس، و قيل: كان عسكر الإسلام نحو ألف و خمسمائة فارس، و الرّجّالة نحوا من أربعة آلاف راجل، و قيل دون ذلك.

و كانت الغنيمة تفوق الوصف، و سلخ الطاغية دون بطره وحشى جلده قطنا، و علّق على باب غرناطة، و بقى معلّقا سنوات، و طلبت النصارى الهدنة، فعقدت لهم بعد أن ملكوا جبل الفتح الذى كان من أعمال سلطان فاس و المغرب، و هو جبل طارق، و لم يزل بأيديهم إلى أن ارتجعه أمير المسلمين أبو الحسن المرينى صاحب فاس و المغرب، بعد أن أنفق عليه الأموال، و صرف إليه الجنود و الحشود، و نازلته جيوشه مع ولده و خواصّه، و ضيّقوا به، إلى أن استرجعوه ليد المسلمين، و اهتمّ ببنائه و تحصينه، و أنفق عليه أحمال مال فى بنائه و حصنه و سوره و أبراجه و جامعه و دوره، و مخازنه، و لمّا كاد يتمّ ذلك نازله العدوّ برّا و بحرا، فصبر المسلمون، و خيّب اللّه سعى الكافرين، فأراد السلطان المذكور أن يحصّن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدوّ فى منازلته، و لا يجد سبيلا للتضييق عند محاصرته، و رأى الناس ذلك من المحال، فأنفق الأموال، و أنصف العمّال، فأحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال، و كان بقاء هذا الجبل بيد العدوّ نيّفا و عشرين سنة، و حاصره السلطان أبو الحسن ستّة أشهر، و زاد فى تحصينه ابنه السلطان أبو عنان، و لمّا أجاز السلطان أبو الحسن المذكور إلى الأندلس، و اجتمع عليه ابن الأحمر، و قاتلهم الطاغية. هزمهم فى وقعة طريف، و استولى على الجزيرة الخضراء، حتى قيّض اللّه من بنى الأحمر الغنى بالله محمدا الذى كان لسان الدين بن الخطيب وزيره، فاسترجعها و جملة بلاد كجيّان و غيرها.

و كانت له فى الجهاد مواقف مشهورة، و امتدّ ملكه و اشتدّ حتى محا دولة سلاطين فاس ممّا وراء البحر، و ملك جبل الفتح، و نصر اللّه الإسلام على يده، كما ستقف عليه فى بعض مكاتبات لسان الدين- رحمه اللّه!- فى مواضع من هذا الكتاب، و سعد هذا الغنى بالله من العجائب.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ۱، ص: ۳۴۸

و بقى ملك الأندلس فى عقبه إلى أن أخذ ما بقى من الأندلس العدوّ الكافر و استولى على حضرة الملك غرناطة أعادها اللّه للإسلام، كما نبيّن ذلك إن شاء اللّه، و خلت جزيرة الأندلس من أهل الإسلام، فأبدلت من النور بالظلام، حسبما اقتضته الأقدار النافذة و الأحكام، و اللّه وارث الأرض و من عليها و هو خير الوارثين.

[شيخ الغزاة أيام بنى الأحمر]

قال ابن خلدون: و اتفق بنو الأحمر سلاطين غرناطة أن يجعلوا مشيخة الغزاة لواحد يكون من أقارب بنى مرين سلاطين المغرب؛ لأنهم أوّل من ولى الأندلس عند استيلاء بنى عمّهم على ملك المغرب لما بينهم من المنافسة، و كان لهؤلاء فى الجهاد مواقف مشهورة، منها ما كتب على قبر شيخ الغزاة عثمان بن أبى العلاء لتستدلّ عند ذلك على ما ذكرناه «بحمد اللّه تعالى، هذا قبر شيخ الحماة و صدر

الأبطال و الكماة، واحد الجلالة، ليث الإقدام و البسالة، علم الأعلام، حامى ذمار الإسلام، صاحب الكتائب المنصورة، و الأفعال المشهورة، و المغازى المسطورة، و إمام الصفوف، القائم بباب «الجنّة تحت ظلال السيوف»، سيف الجهاد، و قاصم الأعاد، و أسد الآساد، العالى الهمم، الثابت القدم، الهمام المجاهد الأرضى، البطل الباسل الأمضى، المقدّس، المرحوم أبى سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير، الأصيل الشهير، المقدّس المرحوم أبى العلاء إدريس بن عبد اللّه بن عبد الحق، كان عمره ثمانيا و ثمانين سنة أنفقه ما بين روحة فى سبيل اللّه و غدوة، حتى استوفى فى المشهور سبعمائة و اثنتين و ثلاثين غزوة، و قطع عمره جاهدا مجتهدا فى طاعة الربّ، محتسبا فى إدارة الحرب، ماضى العزائم فى جهاد الكفّار، مصادما بين جموعهم تدفّق التّيار، و صنع اللّه تعالى له فيهم من الصنائع الكبار، ما سار ذكره فى الأقطار، أشهر من المثل السّيّار، حتى توفى رحمه اللّه و غبار الجهاد طىّ أثوابه، و هو مراقب لطاغية الكفّار و أحزابه، فمات على ما عاش عليه، و فى ملحمة الجهاد قبضه اللّه تعالى إليه، و استأثر به سعيدا مرتضى، و سيفه على رأس ملك الروم منتضى، مقدّمة قبول و إسعاد، و نتيجة جهاد و جلاد، و دليلا على نيّته الصالحة، و تجارته الرابحة، فارتجّت الأندلس لبعده، أتحفه اللّه تعالى رحمة من عنده! توفى يوم الأحد الثانى لذى الحجة من عام ثلاثين و سبعمائة» انتهى.

و منها ما كتب به لسان الدين بن الخطيب- رحمه اللّه!- فى تولية على بن بدر الدين مشيخة الغزاة ما نصّه: «هذا شيخ الغزاة الذى فتح على الإسلام أبواب السّرّاء، وراق طرازا مذهّبا على عاتق الدولة الغرّاء، و أعمل عوامل الجهاد، فى طاعة ربّ العباد شارعة لأهل الكفر و العناد، من باب الإعمال و الإغراء، أمر به فلان صدر صدور أودّائه، و حسامه المشهور على أعدائه، و وليّه الذى خبر صدق وفائه، و جلّى فى مضمار الخلوص له مغبّرا فى وجوه أكفائه،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۴۹

شيخ شيوخ المجاهدين و قائد كتائبه المنصورة إلى غزو الكافرين و المعتدين، و عترته التى يدافع بها عن الدين، و سابق ودّه المبرّز فى الميادين، الشيخ الأجلّ» إلى آخر ما وصفه به ممّا ضاق الوقت عن مثله، و اللّه وليّ التوفيق.

[تمّ بحمد اللّه الجزء الأول من نفح الطيب و يليه الجزء الثانى مفتتحا بالباب الرابع فى ذكر قرطبة نسأل اللّه أن يعيننا على إكماله].

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۵۰

فهرس الرسائل و الخطيب و الظهائر للجزء الأول من كتاب نفح الطيب

* ابن برد الأكبر: عهد أنشأه لعبد الرحمن شنجول على لسان المؤيد ۳۲۹* ابن شهيد الوزير: رسالته إلى الناصر فى ذكر هديته ۲۸۱* ابن عقال: رسالة إلى الحفصى سلطان إفريقية ۲۴۸ قطعة من رسالة له ۲۵۱ قطعة أخرى ۲۵۲ من رسالة إلى صاحبين له ۲۴۷ رسالة فى ضياع بعض المدن الأندلسية ۲۵۱ رسالة عن أهل شاطبة فى تهنئة ابن هود ۲۵۲* أبو إبراهيم الفقيه: رده على رسالة وصلته من الحكم المستنصر ۲۹۳* أحمد بن شاهين: مقتطفات من رسالته إلى المؤلف ۹۶* الحكم المستنصر: رسالته إلى الفقيه أبى إبراهيم لتخلفه عن إعذار ۲۹۳* صفوان بن إدريس، أبو البحر: رسالته فى تنافس مدن الأندلس على أمير موحدى ۱۴۵* طارق بن زياد: خطبته عند دخول الأندلس ۱۹۵* لسان الدين بن الخطيب: رسالة على لسان السلطان فى تفضيل الجهاد على الحج ۱۵۷ رسالته عن الغنى بالله إلى المنصور بن قلاوون ۲۵۴ ظهير فى تولية على بن بدر مشيخة الغزاة ۳۴۸* منذر بن سعيد: خطبته فى استقبال وفد الروم ۲۹۰

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۵۱

فهرس موضوعات الجزء الأول من كتاب نفح الطيب

مقدمة الناشر ۵

خطبة الكتاب للمؤلف ۱۷

حديث المؤلف عن وطنه و حنينه إليه ۲۷

وصف أهوال البحر ۴۴

وصف مصر و التمدح بها ۴۵

وصف مصر و نيلها ۴۶

حج المؤلف و زيارته المدينة و وصفه المشاهد المباركة ۴۹

عودة المؤلف إلى مصر و زيارته بين المقدس ۶۱

زيارة المؤلف بيت المقدس ۶۳

عودة المؤلف إلى مصر و خدمته العلم بالأزهر ۶۳

زيارة ثانية إلى القدس، ثم زيارة إلى دمشق ۶۴

وصف دمشق ۶۵

ذكر أهل دمشق و مدحهم ۶۸

وصف دمشق و ذكر محاسنها ۷۱

تتيم المؤلف بالشام و بوطنه ۷۲

فضل دمشق ۷۳

ذكر المؤلف الأندلس و وصف محاسنها ۷۴

اقتراح ابن شاهين على المؤلف تأليف كتاب عن لسان الدين بن الخطيب، و اعتذاره ۷۴

إصرار ابن شاهين و عدم قبوله عذر المؤلف ۷۸

اعتذار المؤلف عن الكتابة عن لسان الدين بن الخطيب و أسبابه ۷۸

اعتزام المؤلف إجابة طلب ابن شاهين و توديعه الشام و وصفه داريا ۸۱

وصف داريا ۸۲

المؤلف يصف موقف الوداع ۸۳

عودة المؤلف إلى مصر و شوقه إلى دمشق ۹۴

شوق المؤلف إلى دمشق ۹۵

شروع المؤلف فى التصنيف، و رسالة من الشاهين يحثه على ذلك ۹۶

المؤلف يصف رسالة ابن شاهين ۹۷

مقتطفات من رسالة الشاهينى ۹۹

قصيدة للشاهينى ۱۰۰

تصميم المؤلف على استئناف التصنيف ۱۰۲

بدء التأليف ۱۰۳

تقدير المؤلف للسان الدين بن الخطيب ۱۰۴

تقدير المؤلف للسان الدين بن الخطيب، و مدحه النبى و الصحابة ۱۰۶

تقسيم الكتاب و تبويبه ۱۰۷

خاتمة المقدمة و ذم الدنيا ۱۱۱

القسم الأول ۱۱۵

الباب الأول ۱۱۷

أقوال فى مزايا الأندلس ۱۱۷

مساحة الأندلس و أبعادها ۱۱۸

مساحة الأندلس و أبعادها و مناخها ۱۲۱

أول من استوطن الأندلس ۱۲۲

غرائب ما أصيب بالأندلس عند الفتح الإسلامى ۱۲۳

موقع الأندلس من الأقاليم ۱۲۴

إشبان و الخصر عليه السلام ۱۲۵

دخول عجم رومة و القوط الأندلس، و دخول النصرانية إليها ۱۲۶

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۵۲

حكم القوط فى الأندلس ۱۲۷

مناخ الأندلس و خيراتها و معادنها ۱۲۷

خواص طليطلة و بعض حاصلات الأندلس و معادنها، و وصف أهلها ۱۲۹

الأندلسيون و الأمم المجاورة و نبذة عن خراج الأندلس ۱۲۹

خبر ابن خلدون عن الأمم التى استوطنت الأندلس، و وصف غرناطة ۱۳۰

غرناطة و أعمالها ۱۳۲

شهرة غرناطة و سرقسطة و برجة ۱۳۳

شهرة برجة و مالقة ۱۳۴

وصف مالقة و أشبونة و قرطبة ۱۳۴

نبذة من قرطبة و شهرتها ۱۳۵

إشبيلية و إقليمها ۱۳۷

باجة و جبل طارق ۱۳۹

كورة طليطلة و ما اشتهرت به ۱۴۰

مدينة المرية، و ما اشتهرت به ۱۴۱

شنتره و خصائصها ۱۴۲

أقاليم الأندلس، و كور كل إقليم ۱۴۲

الجزر البحرية بالأندلس ۱۴۲

خطاب يتضمن المناظرة بين بلاد الأندلس ۱۴۵

عود إلى ذكر غرناطة ۱۴۹

ابن جزىّ يصف غرناطة ۱۵۰

وصف قرية نارجة ۱۵۰

وصف بلنسية ۱۵۲

بعض أعمال بلنسية و بعض متفرجات إشبيلية ۱۵۳
موسى بن سعيد يعتذر عن مفارقة الأندلس ۱۵۴
وصف شريش و شلب و كورة اشكونية ۱۵۵
فى بطليوس و شاطبة ۱۵۶
كتاب لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه فى تفضيل الجهاد ۱۵۷
ابن تاشفين يصف الأندلس و يشبهها بالعقاب ۱۵۹
أبو بكر المخزومى الهجاء و الوزير أبو بكر بن سعيد ۱۶۰
أبو بكر المخزومى و الشاعرة نزهون الغرناطية ۱۶۱
عبد الوهاب بن الحسين الحاجب المغنى الشاعر ۱۶۲
بعض عجائب سرقسطة ۱۶۴
السمور بالأندلس ۱۶۵
بعض وحش الأندلس و حيوانها و طيورها ۱۶۶
ثمار الأندلس و معادنها ۱۶۷
بعض مصنوعات الأندلس ۱۶۸
الآلات الحربية و الآثار الأولية بالأندلس ۱۶۸
ابن سعيد يذكر بعض عجائب الأندلس ۱۶۹
وصف ابن سعيد للأندلس ۱۶۹
بيلتا طليطلة ۱۷۱
عود إلى ذكر إشبيلية ۱۷۲
ابن سعيد يقارن بين الأندلس و غيرها ۱۷۳
وصف ابن حوقل لرخاء الأندلس ۱۷۴
ردّ ابن سعيد على ابن حوقل ۱۷۵
لمحة من تاريخ الحكم فى الأندلس منذ الفتح ۱۷۶
الوزارة فى الأندلس ۱۷۸
الكتابة، و الخراج فى الأندلس، القضاء، و الشرطة ۱۷۹
الحسبة فى الأندلس، الطواف بالليل، و التدين فى الأندلس ۱۸۰
التسول، و العلوم و الآداب فى الأندلس ۱۸۱
زىّ أهل الأندلس ۱۸۲
نظافة الأندلسيين، و احتياطهم، و تدبيرهم، و مروءاتهم ۱۸۳
منهج كتاب المغرب لابن سعيد ۱۸۴
وصف بعض المؤرخين للأندلس ۱۸۴
مقطعات فى وصف الأندلس ۱۸۵
من خصائص الأندلس ۱۸۶

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۵۳

الباب الثانى ۱۸۷

فتح الأندلس و أسبابه ۱۸۷

رواية ابن خلدون فى فتح الأندلس ۱۸۹

بعض أمراء الأندلس ۱۹۰

ولاة الأمراء و أمراؤها ۱۹۱

رواية الحميدى للفتح ۱۹۴

رجع إلى حديث طارق بن زياد ۱۹۵

خبر بيت الحكمة الذى كان بالأندلس ۱۹۷

الكراهية و البغضاء بين المغربيين و الأندلسيين ۱۹۷

حكاية ابنة ملك قادس و عمل الرحىّ و اتخاذ الطلسم ۱۹۸

فتح لذريق بيت الحكمة، و ما وجد فيه ۱۹۹

ابن حيان يتحدث عن فتح الأندلس و يذكر أمراءها ۲۰۰

ملخص خبر الفتح من الكتاب الخزائنى ۲۰۱

رواية الرازى فى شأن الفتح ۲۰۹

رواية ابن حيان فى فتح طليطلة ۲۱۲

شأن أولاد غيطشة، و خبر سارة بنت ألمند القوطية ۲۱۳

بعض أخبار القوطية سارة بنت ألمند ۲۱۴

حسد موسى بن نصير طارقا و اشتراكه فى الفتح ۲۱۵

موسى بن نصير و فتح الأندلس ۲۱۶

فتح موسى للأندلس، ثم نكبته، و مائدة سليمان ۲۱۷

مائدة سليمان، ثم رجع إلى رواية ابن حيان فى الفتح ۲۱۷

رجع إلى رواية ابن حيان فى الفتح ۲۱۸

انتصارات موسى و ابنه عبد الأعلى ۲۱۹

انتصارات موسى، ثم عودته إلى المشرق ۲۲۰

اسماء من دخل الأندلس من الصحابة و التابعين ۲۲۱

عود إلى عودة موسى إلى الشام ۲۲۳ سليمان بن عبد الملك ينكل بموسى ابن نصير ۲۲۳

مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير و أسبابه ۲۲۴

لمحة عن عبد الرحمن الداخل، و عود إلى قصة التنكيل بموسى بن نصير ۲۲۵

قصة التنكيل بموسى بن نصير و نهايته ۲۲۶

نهاية موسى بن نصير، و شىء من صفاته ۲۲۷

ذكر بعض من دخل الأندلس من التابعين ۲۲۹

غنائم الأندلس، و الحديث عن مائدة سليمان ۲۳۰

القبائل العربية التى نزحت إلى الأندلس و استوطنتها ۲۳۱
أسماء من حكم الأندلس من العرب ۲۳۷
الوزير أبو الحزم بن جهور ۲۳۹
كتاب أبى مطرف بن عميرة لأبى جعفر بن أمية ۲۴۰
كتاب أبى المطرف إلى سلطان أفريقية ۲۴۳
من خطاب لأبى المطرف إلى بعض ذوى الألباب ۲۴۵
رسالة من أبى المطرف إلى أبى الحسن الرعينى ۲۴۶
من رسائل أبى المطرف أيضا ۲۴۷
ترجمة أبى المطرف بن عميرة ۲۴۸
رسالة لأبى المطرف ۲۵۱
رسالة أبى المطرف إلى ابن هود ۲۵۳
رسالة صاحب الأندلس إلى أحمد بن قلاوون بقلم لسان الدين بن الخطيب ۲۵۴
الباب الثالث دولة بنى أمية بالأندلس ۲۵۸
عبد الرحمن الداخل ۲۵۸
وصف أبى جعفر المنصور لعبد الرحمن الداخل ۲۶۱
المنصور يبعث العلاء بن مغيث اليحصبى
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۱، ص: ۳۵۴
ليدعو للمنصور فينتصر عليه عبد الرحمن و يقتله ۲۶۱
هرب عبد الرحمن من الشام و وصوله إلى الأندلس ۲۶۲
هشام بن عبد الرحمن الداخل ۲۶۳
الحكم بن هشام ۲۶۶
حروب الحكم و فتوحه ۲۶۷
صفات الحكم ۲۶۸
آثار الحكم فى الدولة ۲۶۸
من أخبار الحكم ۲۶۸
عبد الرحمن بن الحكم ۲۷۰
محمد عبد الرحمن ۲۷۴
ولاية المنذر بن محمد، ثم عبد اللّه بن محمد ۲۷۶
عبد الرحمن الناصر ۲۷۷
هدية ابن شهيد للناصر ۲۷۹
غزوات الناصر ۲۸۴
وفود دول النصرانية على الناصر ۲۸۵
ترجمة منذر بن سعيد البلوطى (عن المغرب) ۲۹۰

ترجمة منذر بن سعيد (فى المطمح) ۲۹۲

رجع لأخبار الناصر لدين اللّه ۲۹۳

الحكم المستنصر بالله ۲۹۷

صفات المستنصر، و غايته بالكتب ۳۰۷

وفاة المستنصر، و ولاية هشام بن الحكم و تسلط ابن أبى عام ۳۰۸

ترجمة المنصور بن أبى عامر من كلام ابن سعيد ۳۱۰

ترجمة الحاجب المصحفى (عن المطمح) ۳۱۳

ترجمة ابن أبى عامر المنصور (عن المطمح) ۳۱۴

أخبار فى سيرة المنصور ۳۱۷

أمثلة من عدل المنصور بن أبى عامر ۳۱۸

دهاء المنصور بن أبى عامر ۳۲۰

غزو المنصور لمدينة شنت ياقب ۳۲۲

أخبار المنصور (من كتاب الأزهار المنثورة) ۳۲۴

عود إلى أخبار المنصور (من المطمح) ۳۲۶

ولاية عبد الملك المظفر بن المنصور، ثم ولاية عبد الرحمن الناصر لدين اللّه ۳۲۸

ولاية عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر ۳۲۹

خلع هشام المؤيد و بيعة محمد بن هشام المهدى بالله ۳۳۰

ثورة سليمان المستعين على المهدى ۳۳۱

شعر للمستعين ۳۳۲

بنو حمود ۳۳۳

خلافة المستظهر عبد الرحمن بن هشام الأموى ۳۳۷

انقطاع الدولة الأموية و ظهور ملوك الطوائف ۳۳۸

بنو عباد، و بنو جهور ۳۳۹

بنو ذى النون ۳۴۰

بنو هود ۳۴۱

بنو الأفطس ۳۴۱

يعقوب المنصور بن يوسف ملك الموحدين و غزو الأرك ۳۴۲

بين صلاح الدين الأيوبى و يعقوب الموحدى ۳۴۳

الناصر بن يعقوب الموحدى ۳۴۳

دولة بنى الأحمر ۳۴۴

شيخ الغزاة أيام بنى الأحمر ۳۴۸

تم فهرس الجزء الأول من كتاب نفح الطيب

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹